باقر ياسين

تاريخ

العنف الدموي في العراق

الوقائع ـ الدوافع ـ الحلول

تاريخ العنف الدموي في العراق : الوقائع - الدوافع - الحلول

باقر ياسين

الطبعة الاولى ١٩٩٩

مصمم الغلاف: الفنان علي مظلوم

توزيع دار الكنوز الادبية

بيروت - لبنان

ص .ب - ٧٢٢٦ - ١١

هاتف / فاكس ٧٣٩٦٩٦

تتوهجُ في أرض العراق منذ الأزل نارٌ دائمةٌ لا تنطفئ تسمّى النار الأزلية[1]
والى جانب هذه النار تشتعل فيه منذ خمسة الاف سنة نارٌ ثانية هي نار العنف والتطرف وسفك الدماء..
نتمنى بأعمق المشاعر الإنسانية أن يجد العراق طريقاً لاطفاء تلك النار الثانية

المؤلف

---

١ ـ النار الأزلية: في شمال العراق هناك بقعة من الأرض تشتعل فيها نار دائمة لا تنطفئ على مر السنين تسمى النار الأزلية ويقال في تفسير هذه الظاهرة أن الغاز الطبيعي في هذه المنطقة يوجد على مستوى سطح الأرض لذلك فالنار تشتعل فيها منذ الأزل فسميت بالنار الأزلية.

الفهرس

الاهداء

الى الابرياء الذين سيسحقهم

العنف الدموي في الأيام والسنين

القادمة

تمهيد لخمسة آلاف سنة من العنف الدموي

قد يكون من النادر ان يذكر العراق وأهل العراق في حديث من الاحاديث بين الناس، دون ان تُذكر ظاهرة العنف والدموية اللصيقة بتاريخ هذا الشعب وهذه البلاد.

والامر الغريب والمثير ان العراقيين لم يعودوا يجدون في وصفهم ووصف بلادهم بالعنف والقسوة والدموية أية غضاضة او منقصة أو احراج مخجل بل ربما وجد البعض منهم تلك الأوصاف مدعاةً للقوة والعنجهية والمباهاة، ولعل السبب في ذلك ان العراقيين وحتى بعض السياسيين والمثقفين منهم لم يستشعروا فظاعة المأزق المظلم الذي مازالوا يسيرون فيه منذ اكثر من خمسة آلاف سنة، وربما لم تتجسم أمام أعينهم حتى الآن حجم الخسارات البشرية والمادية والحضارية التي قدمتها بلادهم بسبب معايشتها القهرية شبة الدائمة للعنف الدموي خلال مراحل التاريخ المختلفة منذ الالف الرابع قبل الميلاد.

ومن المرجح ان هذا الانطباع السائد في اذهان وخواطر الناس عموماً عن العراق والعراقيين والتصاق العنف الدموي بحياتهم لم يأت اعتباطاً أو مصادفة بل لأسباب حقيقية وواقعية، فلعل بالامكان القول أن حجم الدماء البشرية التي

سالت وأريقت قسراً في تاريخ بلاد الرافدين قلما وجد لها نظير في أي بلد من بلدان العالم.

ويبدو ان موجات اخرى مرعبة من العنف الدموي مازال يمكن توقعها في هذه البلاد المبحرة نحو العنف والمواجهات الدموية بعيداً عن السلام الاجتماعي الداخلي والوفاق السياسي الوطني والوئام القائم على المحبة والتسامح والتعايش المستقر بينها وبين العالم الخارجي.

لقد كانت تلك الخواطر والافكار والمخاوف بين الاسباب والدواعي الاولى الملحة لانجاز هذا الكتاب المنطلق من الحرص على ماضي وحاضر ومستقبل هذه البلاد العريقة التي ساهمت على نحو ملحوظ في تقديم أهم وأعظم الانتصارات الحضارية التي حققتها البشرية منذ فجر التاريخ.

وباخلاص صادق نقول ان المفكرين والمثقفين والسياسيين في العالم أجمع وفي مقدمتهم العراقيين مدعوون لاسباب انسانية وحضارية وثقافية للمساهمة والمساعدة في اخراج العراق من دوامة العنف الدموي واخطاره المدمرة وطنياً واقليمياً وعالمياً.

ولعل الباحث العراقي لايمكنه أن يكسب فخراً أو مجداً حين يكتب عن تاريخ العنف الدموي والتطرف والقسوة في بلاد وادي الرافدين فهو في أحسن الأحوال سوف يبدو كأنه يسعى للإساءة الى العراق وحضارته وماضيه العريق لكثرة الفعاليات الدموية.وشراستها وتزاحمها وأبعادها الوحشية اللاإنسانية في تاريخ هذه البلاد.

إننا لا نريد ولا نرضى الإساءة لبلادنا العريقة ـ وادي الرافدين الخالد ـ لكننا نسعى بالتأكيد للتفتيش عن مجموع الدوافع الغريبة التي تقف وراء تلك الأنماط من السلوك المتصف بالعنف الفائق والقسوة البالغة والتطرف والشدة والقهر والميل شبه الدائم نحو سفك الدماء والأعمال اللاإنسانية والنزوع العدواني في فرض الموت القسري على الإنسان في هذه البلاد منذ أكثر من

خمسة آلاف سنة والذي ما زالت فصوله المخزية تدور دون توقف حتى يومنا هذا...

إن بحثنا في هذا الموضوع المأساوي المؤلم لا يعني الإساءة للعراق أو التنكر لحضارته العظيمة في التاريخ وليس على حساب إسهاماته الخالدة في الحضارة الإنسانية، فتلك عناوين أخرى لها مباحثها وصفحاتها المضيئة في التاريخ، وهي في ذات الوقت إحدى الإشكاليات المعقدة في منهجية هذا البحث.

غير أنه في ظل هذه المعاناة الدائمة التي ينسحق فيها الإنسان العراقي في العصر الحاضر تحت وطأة ذلك السلوك المتصف بالعنف الدموي، والتي يفقد فيها في أغلب الأحيان حريته وأمواله وكرامته وإنسانيته كما يفقد في أحيانٍ كثيرة حياته ووجوده...، لايمكن في ظل هذه المعاناة التغني أو الإنشغال كثيراً بالموروث التاريخي والحضاري المدني الهائل الذي تختزنه وتحتضنه أرض العراق منذ آلاف السنين، إذ لا يهم العراقي في قليل أو كثير تلك الحواضر الأثرية والصروح الضخمة والقلاع والمنحوتات الكبيرة الشاخصة في الصحراء إذا كان هو ذاته يرزح كل يوم تحت ضغط العنف الهمجي والخوف والاضطهاد والأذى الروحي والتشويه الفكري والإنساني. ويتهدده الرعب والموت القسري على الدوام...

من هذا المنطلق جاء اختيارنا لهذا الموضوع الحيوي والفريد من التاريخ العراقي تحت عنوان العنف الدموي في العراق.

إننا نعتقد أن هذا الموضوع الهام حريٌ أن يبذل من أجله وفي سبيله الجهد العلمي والمنهجي المركز وأن توجه نحوه الدراسات المستفيضة والمعمقة لاستجلاء كافة الحقائق العلمية والتاريخية المتعلقة به ومعرفة خلفيات هذه الظاهرة الغريبة واستطلاع أسبابها ودوافعها وآليتها وتحليل أبعادها بجرأة ووضوح وصراحة. على أن يكون الهدف من ذلك هو البناء لا الهدم من أجل التوصل إلى النتائج العلمية والواقعيّة المحددة لعلنا نستطيع استخلاص الأحكام القياسية المقارنة التي بواسطتها نتمكن من إيجاد الحلول والمعالجات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الصحيحة القادرة في المستقبل على إخراج أهل العراق من هذا التيه المظلم والمأزق الدموي المتواصل المسلط على رقابهم منذ أكثر مَن خمسة آلاف سنة وحتى اليوم.

وهذا البحث ذاته دعـوة صادقـة لكـل المخلصيـن مـن العلمـاء والبـاحثين والمتخصصين العراقيين والعرب والأجانب للالتفات إلى هذا الموضوع الحيـوي والغوص فيه بجرأة وشجاعة وصراحة وعمـق وشـمولية بعيـداً عـن روح الهدم والإساءة.

ولعل باستطاعتنا القول أن تـاريخ أيـة أمـة من الأمـم قد لا يخلـو عـبر مسيرتها التاريخية الطويلة من أحداث تتصـف بـالعنف والقتل والظلـم والدمويـة والسلوك العدواني لأن مثل هذا السلوك وما يرافقه مـن عنـف وتطـرف ودمويـة لدى الإنسان يكاد يكـون صفـة ثابتـة معروفـة وموجـودة فـي تـاريخ المجتمعـات البشرية كلها.

لذلك فإن تاريخ الأمـم والشـعوب حتـى فـي أرقـى مسـتوياتها مـن التقدم المدني والحضاري والعلمـي يبـدو زاخـراً بـالأحداث المترافقـة بـالعنف والقسـوة والهمجية والسلوك الدموي ...

ويبدو أيضـاً أن مثل هذا النمط مـن السـلوك ونعنـي بـه السـلوك الدمـوي العدواني يصبح أكـثر وضوحـاً وبـروزاً عندمـا تعـترض الإنسـان العقبـات التـي تحول دون إشباع حاجاته الأساسية في الحياة.

وفي العالم قليلة هي المجتمعات التي ينعدم فيها وجـود العنـف والسـلوك العدواني في حياة الناس، وتحاول بعض البحوث والدراسات في علم النفس تتبـع وجـود مثـل تلـك المجتمعـات البشـرية النـادرة والصغـيرة الخاليـة مـن العنـف والعدوانية لاستخدامها كدلائل لإثبات ودعم آراء بعض النظريات العلمية في هذا المجال حيث ((دلت بحوث علم الإنسـان أن العـدوان يكـاد يكـون لا أثـر لـه فـي بعض القبائل مثل قبيلة الأرابيش في غينيا الجديـدة التـي يتسـم أفرادهـا بـالهدوء والدعة والمسالمة وفي قبائل أخرى لا يضرب الفرد خصمه حين يتشاجران بـل يأخذ كل منهما عصاً يضرب بها حجراً أو شجرة فمن كسرت عصاه قبل الآخـر كان هو المنتصر))[1].

وعلى العموم فإن العنف والسلوك العدواني بصوره المتعددة يكاد يكـون الصفة المرافقة لنشاطات الإنسان منذ بدء الخليقة.

---

١ ـ د. حامد عبد السلام زهران،علم النفس الاجتماعي، عـالم الكتـب في بحـث تحليـل دافـع المقاتلـة والميل إلى العدوان، ص١١٧.

غير أن ما نجده في تاريخ العراق منذ أقدم العصور وحتى الآن هو أمر مختلف، فهذا التاريخ لا يزدحم بأحداث العنف الدموي والظلم والقسوة الشرسة فحسب بل أن تلك الأحداث والوقائع التاريخية المشحونة بالعنف الدموي تميل على نحو ظاهر للاتصاف بالمبالغة والتطرف والتصعيد اللامعقول في أداء هذه المعاني جميعاً والإيغال في تطبيقها وممارستها إلى الحد الأقصى، أي المبالغة بالعنف الدموي والمبالغة بالقسوة والظلم والمبالغة في الشراسة والدموية خلال التعامل مع القضايا والنشاطات الإنسانية بمختلف أشكالها ومستوياتها...

ونعني بكلمة المبالغة هنا مدلولين اثنين:

المدلول الأول: أن الحدث التاريخي المصنف ضمن أحداث العنف الدموي في العراق يحمل في أسلوبه ومنهجه وتنفيذه وتفاصيله صوراً مشددة من القسوة البشعة والهمجية الشنيعة والإيغال في ممارسة الأذى والتنكيل والانتقام وسفك الدماء على أوسع مدى وربما اختلف في درجة القسوة والشدة عما يماثله ويشبهه في البلدان الأخرى. والمدلول اثناني: أن الأحداث والوقائع المصنفة من هذا النوع هي من الكثرة والانتشار والتزاحم إلى الحد الذي طبعت بطابعها الفائق القسوة عموم مسيرة التاريخ في هذه البلاد الصغيرة جغرافياً.

ولتوضيح الفكرة بصورة جلية أمام القارئ نقول: أننا لا نريد أن نبرهن هنا على وجود العنف الدموي والقسوة في حياة العراق ومسيرته التاريخية فحسب بل نريد البرهنة إضافة إلى ذلك على وجود التطرف والمبالغة في تنفيذ العنف والقسوة والدموية، وسنحاول أن نثبت ذلك بالشواهد والوقائع والأحداث المستمدة من التاريخ العراقي لتسليط الضوء على هذا الموضوع الفريد وتشخيص بعض الجوانب المتميزة في طبيعة السلوك الاجتماعي لسكان هذه البلاد /الحكام والرعية/ ورصد مظاهر العنف والدموية كنزعة سايكولوجية ثابتة في حياة المجتمع العراقي.

ورب قائل يمكن أن يقول أن فصولاً كثيرة من العنف وسفك الدماء والمجازر قد جرت على أرض العراق نفذها حكّام أو قادة أو غزاة جاؤوا من خارج العراق، بروح حاقدة لا مسؤولة وبأعلى أشكال القسوة والتطرف والهمجية، رغم إرادة أهل البلاد المغلوبين على أمرهم وربما دون مشاركة منهم وهذا ما يوجب إسقاطه وعدم إدراجه في مسيرة العنف المرتكب من قبل العراقيين أهل البلاد ذاتهم أو المقيمين فيه لأنه عنف مسلط من الخارج...

وللرد على مثل هذا التساؤل يمكن أن نقول:

صحيح أن موجات عديدة من العنف الدموي بدوراته المتعاقبة قد جرت ونفذت في العراق كان أبطالها ومنفذوها أشخاصاً غرباء أو دخلاء أو غزاة جاؤوا من خارج بلاد وادي الرافدين إلا أن ذلك لا يمنع من إدراجه ضمن أحداث العنف العراقي والسبب في ذلك هو أن هذا العنف قد نفذ على أرض العراق ومورس بحق الناس والبشر والسكان والمدن العراقية فكان أهل العراق ومدنه حطباً له ووقوداً، كما أنه في كل مرة تُغرق البلاد بحمامات من الدم والضحايا والقتلى والدمار والتخلف وهو بذلك يدمر الاستقرار وينسف الأمن والأمان ويخرب طبيعة الناس والحياة الاجتماعية ويحرفها، كما يوقف مسيرة البلاد الحضارية ويقطعها عن التواصل مع ماضيها الحضاري العريق فتتعمق مظاهر التخلف وتتدهور دلائل الحضارة على كل صعيد في الحياة والمجتمع، غير أن الأهم في ذلك كله هو ما تخلفه مثل تلك الموجات المدمرة من العنف الشرس من جروح وآثار نفسية بالغة الأثر والعمق في طبائع أهل البلاد، وما تتركه من أحقاد سوداء لا تنطفئ وثارات دفينة وأحزان ومآسٍ اجتماعية وذكريات مؤلمة تبقى تترسب ببطء في أعماق الذات العراقية عبر عصور زمانية عديدة لتؤثر بالتدريج في تركيب البنية النفسية السويّة للإنسان العراقي وحرفها عن مسارها الطبيعي فينعكس ذلك بمرور السنين على السلوك والتصرفات اليومية في عموم النشاط الاجتماعي والإنساني للفرد العراقي دون وعي منه ودون إدراك مسبق لديه برداءة وسوء ذلك السلوك وطبيعته المتخلفة والهمجية. ومهما يكن من أمر فإن هذا الجهد المتواضع هو محاولة للإسهام في تشخيص طبيعة هذه الظاهرة وتحديد الحلول الضرورية والمناسبة لمعالجتها والسيطرة على نتائجها المأساوية الخطيرة التي عانى أو يعاني منها الحكام والشعب في بلاد الرافدين حتى اليوم. وقد لا يكون من السهل الإحاطة ـ في بحث واحد مختصر ـ بجميع جوانب هذا الموضوع الواسع والمعقد والشائك، المرتبط بعلم التاريخ والجغرافيا والانثروبولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع في آن واحد، إلا أن تسليط الضوء على أي جانب منه يبقى هاماً وحيوياً ومفيداً وسط هذه المعاناة الكارثية التي ما زال يعيش فيها الملايين من أبناء العراق منذ أقدم العصور وحتى اليوم، إضافة إلى ما يمكن أن تشكله هذه الصفحات من تحريض جدي أو إثارة علمية لدى البعض من الأكاديميين المتخصصين من

العراقيين وغير العراقيين لتناول هذا الموضوع بما يستحقه من اهتمام وانتباه وبحث تخصصي متواصل.

وخلال استعراضنا للوقائع والأحداث التاريخية لما جرى على أرض العراق والتي تدعم وجهة نظرنا في موضوع العنف الدموي فإننا قد نلجأ للتوسع في سرد بعض الأحداث في التاريخ العراقي للتعريف بتلك الأحداث من جهة وللكشف عن بصمات العنف والقسوة الدموية البالغة فيها من جهة أخرى.

وفي سبيل التوثيق العلمي الدقيق في هذا الموضوع الإشكالي فإننا سنقوم بإسناد الأحداث والوقائع إلى المراجع والمصادر إسناداً صحيحاً وواضحاً ودقيقاً منعاً للالتباس والشك أو التجني لإقناع القارئ بالتصديق خصوصاً في الأحداث والوقائع العراقية الشرسة والغريبة والمثيرة التي قد تبدو للمطلع ـ في الوهلة الأولى ـ أنها تدخل في اللامعقول... إضافة لذلك فإن حرصاً خاصاً سوف نوليه للحفاظ على التراتب الزمني للأحداث والوقائع جهد الإمكان.

كذلك فإن انتهاج أسلوب الانتقاء النوعي من بين الأحداث والدلائل المؤدية لمعاني العنف والدموية ما يساعد على الاختصار وعدم الإطالة ويبعد الحاجة لتجميع أو استعراض ذلك العدد الهائل من أحداث العنف، التي يزدحم بها تاريخ وادي الرافدين في جميع مراحله...

كما نود الإشارة بأن عرضنا لأحداث التاريخ العراقي بهذا الشكل الذي يبدو فيه وكأنه مادة تعليمية مزدحمة بالحوادث والأسماء ليس الهدف منه تعليمياً... فحقائق التاريخ ووقائعه معروفة ومعلومة لدى الجميع بل هدفه لفت الانتباه إلى الحجم المروّع من العنف الدموي المنفذ والمختزن في التاريخ العراقي.

وفي الوقت الذي نترك للقارئ حريته في اختيار الرأي والقناعة والانطباع ووجهة النظر الخاصة به إزاء هذا الموضوع الإشكالي فإننا ندعوه للمساهمة بالشكل الذي يراه مناسباً في الكشف عن بعض الجوانب التي لم يستطع هذا البحث تناولها أو استيفاءها في هذه المأساة العراقية الكبرى وهو يتابع هذا المسلسل الدموي المأساوي الطويل الذي يعرضه هذا الكتاب والمستوحى أساساً من صميم أحداث التاريخ في العراق.

وإذا كان لزاماً علينا ونحن نبحث في موضوع تاريخ العنف الدموي في العراق أن نبدأ في سوق الأمثلة والشواهد من الحقب الأولى في تاريخ البشرية

فإن أولى التباشير المبكرة التي يواجهنا بها التاريخ العراقي منذ فجر المدنيّة الأولى للإنسان، ذلك الأسلوب الهجومي العدواني الذي ميّز طبيعة العلاقة بين حضارات المدن الأولى (المدينة الدولة) التي قامت وتشكلت في وادي الرافدين والتي ربما كانت هي الحضارات الأولى في تاريخ البشرية بأكملها ـ حضارة سومر وبابل وآشور ـ حيث تشير كتب التاريخ أن ابتلاع الواحدة للأخرى بعد الهجوم عليها ودحرها وتدميرها وإبادتها هو الأسلوب الذي اتسمت به العلاقة بين تلك المدن ـ الحضارات ـ وهذا ما سيتبيّن أمامنا من خلال استعراضنا لوقائع التاريخ القديم.

فلم تكن الميزة الأولى البارزة في علاقات المدن ببعضها هي العلاقة التوافقية التجارية أو الثقافية أو العمرانية أو الفنية "بل كان صداماً فيما بين هذه المدن الدول"[1]، هدفه السيطرة والإبادة والابتلاع. وهذه هي البدايات الدموية الأولى في هذا المسلسل المأساوي الفريد...

وعلى الرغم من التبرير الصحيح والمعقول الذي تعطيه بعض الدراسات بشأن التصارع الدموي الذي حصل بين المدن ـ الدول في المراحل المبكرة من التاريخ والذي تنسبه إلى اتساع أملاك تلك المدن بحيث أنها أصبحت مجاورة لبعضها البعض ولصيقة بها بعد أن كانت متباعدةً ومكتفية ذاتياً، فإن ذلك يؤكد حقيقة نشوء العنف في مراحل تاريخية مبكرة جداً في هذه البلاد.

وفي صفحة يمكن أن تعطينا فكرة عن الحجم الهائل من العنف الدموي المنفذ في بلاد الرافدين منذ فجر التاريخ وحتى اليوم سوف ندرج ـ ضمن جدول خاص ـ أسماء جميع الأباطرة والملوك والحكام والرؤساء العراقيين الذين ماتوا قتلاً ابتداءاً من الملك السومري لوكال زاكيزي في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد وحتى عبد السلام عارف، حاكم العراق في منتصف القرن العشرين من الألف الثاني بعد الميلاد. وسنتطرق خلال العرض إلى أسماء جميع القادة والوِلاة والشعراء والأدباء والفقهاء والقضاة والمفكرين والفلاسفة الذين قتلوا عمداً في العراق بعد أن سحقتهم عجلات العنف الدموي بدوراتها الهمجية المتعاقبة خلال خمسة آلاف سنة من تاريخ هذه البلاد العريقة...

---

١ ـ ارنولد توينبي، تاريخ البشرية، ج/١، الأهلية للنشر والتوزيع، الاردن، ص ٧٥.

غير أن ما يثير الدهشة والحيرة والتساؤل بل والحزن في ذات الوقت هو كيف يمكن لبلاد عريقة كبلاد الرافدين تمتلك كل ذلك الموروث الحضاري الهائل في تاريخ البشرية أن تكون مسرحاً مزدحماً إلى حد التخمة بأحداث العنف الدموي والسلوك العدواني المدمر على مدى هذا التاريخ الطويل؟

لقد اخترع الإنسان في بلاد الرافدين الكتابة في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد وتحديدا في حوالي عام ٣٢٠٠ ق.م وبذلك انتقلت البشرية بفضل هذا الاختراع الخطير إلى مرحلة جديدة من مسيرتها ألا وهي مرحلة العصور التاريخية التي كانت تسمى في الفترة التي سبقت ذلك بعصور ما قبل التاريخ وقد حصل هذا الاختراع الهائل في مدينة أوروك القديمة (الوركاء الحالية) الواقعة في جنوب العراق و((في عصر أوروك أيضاً اخترع الدولاب والفسيفساء))[1].

كذلك فإن أولى المجتمعات الزراعية في العالم قامت في بلاد الرافدين على أطراف سلسلة جبال زاجروس[2]، كما أن أول صناعة للفخار في التاريخ حصلت في حضارة حسونة جنوب الموصل. كذلك عرف الإنسان الزراعة بالمحراث في فترة حضارة العبيد المنسوبة إلى تل العبيد غرب مدينة أور في (جنوب العراق) في بداية الألف الخامس قبل الميلاد وأطلق سكان بلاد الرافدين على الأبراج السماوية تسميات لا يزال بعضها مستخدماً حتى اليوم، كذلك تم في عصر الوركاء (جنوب العراق) اختراع الختم الأسطواني وهو إنجاز حضاري هام، كما شيدت في ذلك العصر أيضاً أولى المعابد في التاريخ، ((ومما لا شك فيه أن أهم وأقدم معدن اختتم به عصر الهمجية وكان فاتحة لعصر المدنية هو معدن النحاس... وأول استعمال للنحاس كان في العراق القديم بين ٤٠٠٠ ـ ٣٥٠٠ قبل الميلاد))[3].

كذلك فإن توصل الإنسان في وادي الرافدين لاختراع البرونز بخلط النحاس مع القصدير وابتكار أولى الوسائل والأساليب لاستخدامه في صناعة

---

١ ـ د. أحمد داود، تاريخ سوريا القديم، تصحيح وتحرير/ ط١، دار النشر غير مذكورة على الكتاب، ص١٧٠.

٢ ـ هذا ما استنتجه عالم الآثار الأمريكي روبرت برايدوود من جامعة شيكاغو الذي قام بالحفريات الأثرية في موقع جرمة الواقع إلى الشرق من كركوك بين عامي ١٩٤٨ ـ ١٩٥٥.

٣ ـ فيليب حتي، خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى، ج١، الدار المتحدة للنشر،بيروت، ص٤٢.

الأسلحة والأدوات الزراعية وغيرها قد شكّل في تاريخ البشرية حداً فاصلاً للتفريق بين ما سمي فيما بعد بالعصور الحجرية وعصر البرونز.

كما قدم الإنسان في هذه البلاد على نحو إبداعي متطور، الكثير من الإنجازات في مجال العلوم والفنون والثقافة والعمران التي ما زالت تزخر بها صالات المتاحف الكبرى في العالم.

وفي مراحل متأخرة من تلك العصور شُرّعت في بلاد الرافدين أولى القوانين المدنية في تاريخ البشرية، فقد سُنت وكتبت وطبقت في العراق أقدم الشرائع والقوانين في العالم، وهذه بالتأكيد ميزة عظيمة تقيم الدليل العلمي على مستوى التقدم المدني والحضاري الذي كان قد وصلت إليه المجتمعات العراقية في ذلك الوقت والتي سبقت غيرها من المجتمعات المدنية بحقب وقرون عديدة. وعلى الرغم من أن قانون حمورابي الذي شُرّع بين أعوام ١٧٩٢ ـ ١٧٥٠ ق.م هو القانون الأكثر شهرة وانتشاراً في العالم، إلا أن قوانين عراقية أخرى هامة قد شُرّعت وطُبقت قبل ذلك القانون، مثل قانون أورنمو الذي شُرع بين أعوام ٢١١١ ـ ٢٠٩٤ ق.م وقانون أشنونة عام ١٩٥٠ ق.م وقانون لبت عشتار بين أعوام ١٩٣٤ ـ ١٩٢٣ق.م.[1] والقانون الآشوري.

وإذا كان وجود القوانين والتشريعات أحد الدلائل الأكيدة على التقدم المدني والحضاري والاجتماعي في أي مجتمع من المجتمعات، فإن أسلوب التشريع ومنهجه وطبيعة العقوبات بحق الجرائم المرتكبة والمخالفات هو انعكاس مباشر ودقيق للطبيعة المسلكية والأخلاقية السائدة في ذلك المجتمع. فالمجتمع الذي تستحكم فيه أساليب العنف ومناهج السلوك الدموي والقسوة والحروب العدوانية لابد وأن تنعكس تلك المظاهر على صياغة وطبيعة القوانين والتشريعات والعقوبات المفروضة على الجرائم والمخالفات السائدة فيه، تماماً كما تنعكس على النشاطات والعفاليات الأخرى... كالثقافة والفنون والعمارة الهندسية وغيرها. ومن هنا فإننا نستطيع أن نجد مجموعة من العقوبات الجسدية الصارمة والقاسية التي يتضمنها التشريع الآشوري، مثلاً

---

١ ـ عبدالحكيم ذنون، تاريخ القانون في العراق، ص ٥١، ٦٣، ٧٩، دار علاء الدين، دمشق.

كقطع الأذن أو ثقبها أو جدع الأنف أو قطع الشفة السفلى أو قطع الأصابع والخصي وتشويه الوجه بصب الأسفلت الحار عليه وغير ذلك[١] من العقوبات.

إن مثل هذه العقوبات الصارمة القاسية في القانون الآشوري هي انعكاس دقيق وواقعي لطبيعة المجتمع الآشوري ذي الصفة العسكرية الحربية الهجومية والذي اتسم منهجه السلوكي بالعنف الدموي والقسوة المتناهية حيث ((كانوا يأتون على أسراهم قتلاً ويقطعون رؤوس الرجال منهم ويعلقونها على أسوار المدينة وينزلون بهم ألواناً من التعذيب ويبيعونهم عبيداً))[٢] بينما تستعيض القوانين الأخرى في وادي الرافدين عن تلك العقوبات الجسدية البشعة بالعقوبات والتعويضات المادية[٣].

ومهما يكن فإن تلك البدايات الأولى للتكون الحضاري والمدني في تاريخ البشرية قد تمت وأنجزت جميعاً في عهود الحضارات التي قامت في أرض الرافدين، حضارات سومر وبابل وآشور والتي أصبحت معروفة في جميع أنحاء العالم.

وهنا يمكن أن يبرز أمامنا تساؤل حيوي هام: كيف يتسنى لنا على ضوء ما تقدم - وعلى الأقل من الناحية الفلسفية والأخلاقية - أن نقيم التوازن بين كفتي هذه المعادلة المتناقضة، ونعني بذلك حالة التناقض بين السير بأسبقية تاريخية جادة في مضمار البناء والتقدم الحضاري والإنساني وبين السير بأشواط بعيدة وثابتة ومدمرة في طريق العنف الدموي والقسوة والهمجية والسلوك العدواني؟ إن هذه الإشكالية ربما هي واحدة من المباحث التي سنتناولها في صفحات هذا الكتاب.

واضافة الى العرض التاريخي لوقائع واحداث العنف الدموي منذ الالف الثالث قبل الميلاد وحتى القرن العشرين بعد الميلاد والذي سيبدو للقاريء قاسياً ومؤلماً وربما وحشياً ومنفراً بسبب الوقائع الغريبة التي عرضها الكتاب بكل ما تحمل من قسوة وخشونة وغرابة واثارة، واضافة الى العدد الكبير من الشواهد

---

١ - المصدر السابق،، (وقد تضمنت ترجمة لنصوص القوانين الآشورية والعقوبات المنصوص عليها في كل مادة)، ص١٧٨ - ١٨٩.

٢ - د.ثروت عكاشة، الفن العراقي القديم/سومر - بابل - آشور، المؤسسة العامة للدراسات والنشر، بيروت، ص٣٠

٣ - د. عبيد مرعي، تاريخ بلاد الرافدين، دار الأبجدية للنشر، دمشق، ص٨٨.

النادرة والمعلومات والادلة والامثلة المرافقة للاحداث التي ضمها الكتاب فإن فصلاً كاملاً قد خصص لبحث الانعكاسات السلبية التي تركها شيوع العنف الدموي على طبيعة المجتمع العراقي وسلوك الفرد في العراق، لقد عرض هذا الفصل عدة مباحث حيوية منها: التاريخ الدموي لدكتاتوريات العقيدة الواحدة في العراق وتأثيرها البالغ على نفسية الشعب العراقي وسلوكيته، والبحث المستقل حول ظاهرة التقلب في مزاج الفرد العراقي مع تحليل لمجموع الدوافع التاريخية والجغرافية والنفسية التي أدت الى ذلك، وشيوع ظاهرة السحل والتمثيل بالموتى والبحث في ظاهرة الموت الانتحاري المفاجيء الذي شمل العديد من المدن العراقية التي سادت طويلاً ثم بادت سريعاً في التاريخ بسبب موجات العنف الدموي المدمرة، وكذلك البحث في ظاهرة الاضطهاد والتنكيل الانتقامي الذي تعرض له العديد من المفكرين والكتاب والشعراء واصحاب المذاهب الكبرى في العراق ثم التكريم الفائق لاضرحتهم وقبورهم وذكراهم فيما بعد. وأخيراً البحث في ظاهرة التدمير والهدر المفجع للآثار العراقية والثروات الفنية والكنوز الاثرية والحضارية والثقافية النادرة بسبب انتشار موجات العنف في البلاد.

ولكي لايبقى الهدف الفكري والسياسي والاجتماعي والحضاري الذي يسعى الكتاب لعرضه وتأكيده غائباً أو مفقوداً فان الفصل العاشر والأخير يطرح بشكل واضح ومحدد مجموعة من الحلول التي نعتقد أنها كفيلة بانهاء دوامة العنف الدموي في العراق اذا احسن تطبيقها وتنفيذها بآلية صحيحة وأداء صادق ونوايا مخلصة.

الفصل الأول

أحداث العنف الدموي في وادي الرافدين

من فجر السلالات ٣٠٠٠ ق.م حتى الاحتلال الفارسي ٥٣٩ ق.م

- ـ الممارسات المبكرة من العنف الدموي في وادي الرافدين
- ـ صراع الإبادة بين دول فجر السلالات.
- ـ مملكة كيش تسيطر على بلاد سومر.
- ـ مملكة اوروك تسيطر على بلاد سومر.
- ـ الشواهد المبكرة للعنف الدموي في مملكة أور.
- ـ مملكة لكش تسحق اور واوروك وكيش.
- ـ مملكة أومّا تستولي على مملكة لكش.
- ـ مملكة أكاد تقضي على الدولة السومرية ٢٣٥٠ ق.م.
- ـ الغوثيون يدمرون مملكة أكاد وينشرون الخراب والخوف.
- ـ التدمير والابتلاع يتواصل بين ممالك وادي الرافدين.
- ـ بابل تدمر دولة اشنونا.
- ـ بابل تحتل مملكة ماري وتدمر اسوارها.
- ـ الحثيون والكاشيون يحتلون بابل بالتعاقب.
- ـ الآشوريون ينشرون العنف الدموي في بلدان المنطقة.
- ـ تدمير آشور ونينوى.
- ـ احتلال اورشليم وسبي اليهود ٥٩٨ ق.م.
- ـ ارض الرافدين ساحة للعنف الدموي.

بلاد الرافدين: تاريخ عريق يبدأ بالعنف التصادمي:

ليس غريباً أن يبدو التاريخ العراقي أمامنا غارقاً بأحداث العنف الدموي عندما نكتشف أن بدايات هذا التاريخ تتحدث للبشرية منذ بدء الخليقة عن قصص الصراع المتواصل القائم على العنف التصادمي بين الإرادات المتناقضة للآلهة المتعددة الأسماء التي عبدتها وخضعت لها الأقوام والحضارات التي قامت في وادي الرافدين منذ الألف الرابع قبل الميلاد، تلك القصص التي أبدعتها وصاغتها التجربة الأولى للعقل البشري والمتمثلة بالأساطير الملحمية لشعوب سومر وبابل وآشور.

وعلى الرغم من سعة الإشراق الابداعي والحضاري في حياة المجتمعات الأولى التي قامت في وادي الرافدين، والتي تميزت بأسبقية حضارية ومدنية فريدة وموغلة في القِدَم، إلا أننا نجد أنفسنا مضطرين - تلبيةً لما تفرضه متطلبات بحثنا في العنف الدموي - أن نصرف اهتمامنا نحو الأحداث المأساوية المتعلقة بالحروب والاقتتال والممارسات الدموية وكافة الفعاليات التي تتصف بالعنف والعدوانية في حياة تلك المجتمعات ومدنياتها العريقة، مبتعدين عن الحديث عن الانتصارات الحضارية والإبداعية التي أنجزها الإنسان منذ فجر المدنية في وادي الرافدين.

صراع الإبادة بين دول فجر السلالات

لقد سميت العصور الأولى من تاريخ بلاد الرافدين في بداية الألف الثالث ق.م. بعصور فجر السلالات حيث كانت كل مدينة تدار وتحكم من قبل إحدى السلالات المعروفة... كما سميت هذه العصور أيضاً بعصور (دول المدن) لأن سلطة الدولة ونفوذها كانت تقتصر على المدينة الواحدة - ذات الكيان المستقل عن غيرها، وكانت تلك - الدول - المدن تتصارع فيما بينها على السيادة

والنفوذ في المنطقة مما يمكن اعتباره من أولى النشاطات المبكـرة في تـاريخ البشـرية للعنف المنظم.

كما أنها تعرضت إلى هجمات وغزوات من الأقوام والشعوب البدائيـة غـير المتحضرة القادمة من جهات مختلفة تحيط بوادي الرافدين وخصوصاً من الشـمال والشرق.

وتميز عصر السلالات الباكرة بسيادة السومريين سياسياً وحضارياً، وكانت أشهر مدنهم الحضارية: مدينة كيش وأوروك وأور ولكش وأومّا.(شكل رقم١)

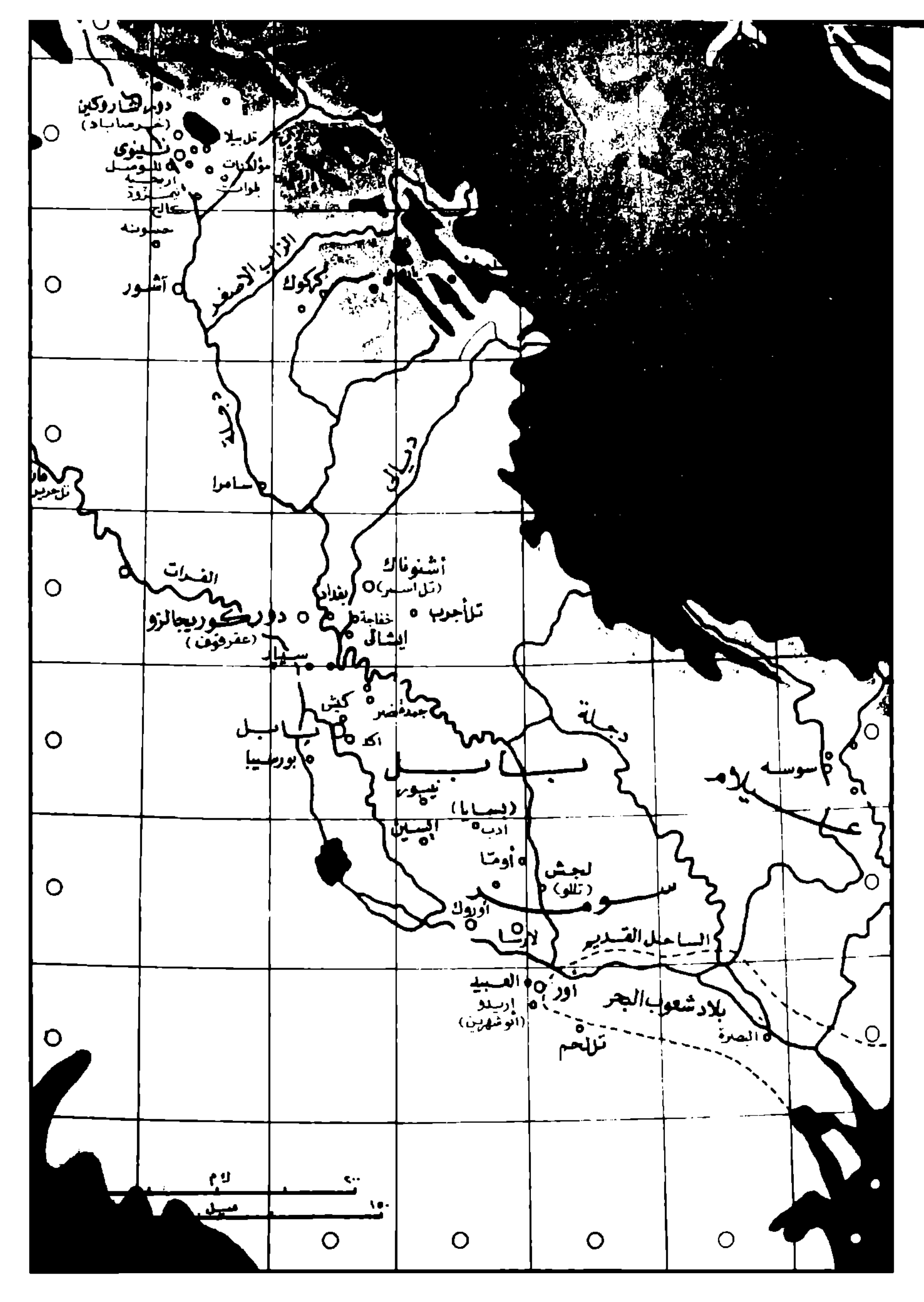
مملكة كيش تسيطر على بلاد سومر

تبعد هذه المدينة ٨٨ كم جنوب شرق بغـداد وهـي أولى المـدن الـتي مـدّت نفوذها وسيادتها على كل بلاد سـومر، وقـد تحقـق ذلـك في عهـد ملكهـا إيتانـا الذي حكم في بداية الألف الثالث قبل الميلاد. وكان آخر ملوكها يدعى أورزبابا الذي أزاحه سرجون الأكدي عن الحكم عام ٢٣٥٠ ق.م بعملية انقـلاب تتسـم بالغدر والعقوق.

مملكة أوروك تسيطر على بلاد سومر

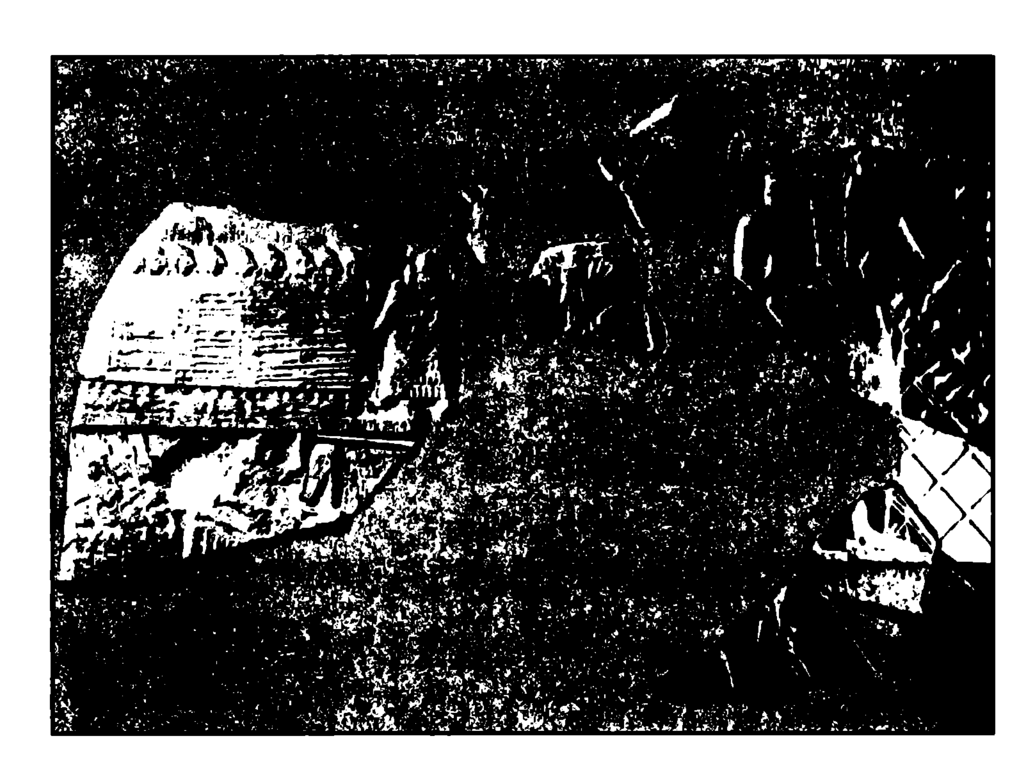
مدينة أوروك هي الوركاء حاليـاً وتقـع في جنـوب العـراق إلى الشـمال مـن مدينة أور، وقد سادت على بلاد سومر بعد كيش. ومن ملوكها المعروفين الملـك دو موزي الذي ألّهه الشعب بعد وفاته، والملك جلجامش الذي حكم كما يبـدو في حـوالي عـام ٢٧٠٠ ق.م. وقـد دوِّنـت أسـطورته الشـهيرة باللغـة السـومرية والأكدية والحثية وغيرها من لغات الشـرق القديـم. والفكـرة الأساسـية في هـذه الأسطورة هي بحث الإنسان عن الخلـود. وتشـكل أسـطورة جلجـامش الأسـاس الفكري لأسطورة البطل الإغريقي هرقل فيما بعد...

وقد بنى جلجامش سوراً حول هـذه المدينـة محيطـه ٩ كـم، يعتقـد أنـه أول سور مدينة في التاريخ. وفي هذه المدينة اخترعت الكتابة التصويرية ثـم المسـمارية لأول مرة في تاريخ البشرية.



(شكل رقم: ١) خارطة العراق

وقد حددت عليها الأماكن الأثرية التي تحمل أشهر الأسماء المعروفة في تاريخ وادي الرافدين منذ نشوء الحضارات الأولى /سومر ـ وبابل ـ وآشور/ كما تظهر في الخارطة منطقة عيلام وعاصمتها سوسة (مدينة الشوش حالياً)



(شكل رقم: ٢) نصب الصقور

ويمثل الوجه الأول منه الإلٰه نينجرسو وهو منتصر يمسك بيده اليسرى الأعداء كالأسماك في شبكة ويعرض الوجه الثاني الملك أيانا توم ـ ملك لكش (٢٤٧٠ ق. م) ـ وهو يقود المحاربين المسلحين بالحراب يسيرون فوق جثث القتلى من الأعداء تنهشها الصقور

الشواهد المبكرة للعنف الدموي في مملكة أور

تقع مدينة أور (تل المقيّر) إلى الجنوب من بابل مسافة ٢٢٥ كم «وتسميها التوراة أور الكلدانيين، وتقول إن إبراهيم الخليل نزح منها إلى حرّان وكانت مركز عبادة القمر نانا»[١] وقد احتلت أور مركز الصدارة في بلاد سومر بعد أن ضعف دور أوروك فأصبحت عاصمة لسومر نحو ٢٥٠٠ ق.م أي في منتصف الألف الثالث ق.م، وقد تعرضت إلى الاحتلال على يد العيلاميين الذين دمروها تدميراً شديداً وساقوا ملكها أسيراً فرثاها الشعراء. لذا فإن أعمال العنف والتدمير وسفك الدماء الذي تعرضت له هذه المدينة يمكن تدوينها بين الشواهد المبكرة في ممارسات العنف الدموي في أرض الرافدين.

وخلال التنقيبات التي أجريت في آثار مدينة أور عثر على أعداد كبيرة من الجثث المدفونة بجانب قبور كل ملك من ملوكها مع أدوات للزينة تدل على الثراء، «فقد وجد في أحد القبور ثمانون من الأتباع مدفونين مع سيدهم ويمسك كل واحد منهم كأساً... ووجدت على مدخل قبر الملكة بوآبي خمس عشرة جثة وفي غرفة ملحقة بالقبر تسع وخمسون جثة»[٢].

وقد استدل المؤرخون من ذلك على أن تلك القبور لا بد وأن تكون عائدة إلى الرجال والنساء المحيطين بالملك من حاشية وموظفين وإداريين ومساعدين وقد تم قتلهم أو إجبارهم على الانتحار عمداً ليقوموا بخدمة الملك في الحياة الآخرة، حيث يذكر المؤرخ أرنولد توينبي بأن ذلك قد «أظهر لنا أن الملك كان يملك من الصنّاع عدداً يمكنهم من أن يصنعوا الحلى الدقيقة للملكة، كما أنه كان يسير معه لا الثيران التي تجر العربة الملكية فحسب بل جماعة من الأتباع من الجنسين لخدمته في حياة أخرى افتراضية وهؤلاء إما أنهم كانوا يقتلون أو أنهم ينتحرون تطوعاً في نهاية الطقوس الجنائزية للملك»[٣] ومن خلال هذه الظاهرة فإننا نكون قد وضعنا أيدينا على أولى بسمات العنف الدموي في حياة بلاد ما بين النهرين في الألف الثالث قبل الميلاد، إذ أن وجود مثل هذا التقليد في مجتمع

---

١ ـ د. أحمد داود، تاريخ سوريا القديم، مصدر سابق، ص٢٠١.

٢ ـ د. عيد مرعي، بلاد ما بين النهرين، مصدر سابق، ص٣٥.

٣ ـ أرنولد توينبي، تاريخ البشرية، جـ١، مصدر سابق، ص٧٥.

فجر السلالات السومري المتمثل بتلك الأعداد الكثيرة من القبور والنواويس لجثث دفن أصحابها حول جنازة الملك يثبت أن هؤلاء لا بد وأن يكونوا قد تعرضوا إلى شكل من أشكال العنف القسري أدى إلى موتهم بتلك الطريقة الجماعية حيث أن أولئك البشر ـ وهم في الغالب من المحيطين بالملك والقائمين على خدمته وإدارة شؤونه ـ أما أن يكونوا قد قتلوا عمداً أو أجبروا على الانتحار أو أنهم تطوعوا للموت عند وفاة الملك، وفي كل الأحوال فإن إنهاء حياتهم كان يتطلب إخضاعهم لعملية عنف قهرية كالتخدير أو الخنق أو غيرها... وبغض النظر عن تبريرات تلك الطقوس فإن مثل هذا العمل بحد ذاته هو شكل من أشكال ممارسة العنف الدموي الذي خضع له أولئك البشر من سكان وادي الرافدين في تلك العهود السحيقة من التاريخ.

• مملكة لكش تسحق اور واومّا وأوروك وكيش

تقع مدينة لكش إلى الشرق من أور جنوب العراق «وبلغت أوج ازدهارها بين ٢٧٠٠ ـ ٢٤٠٠ ق.م»[1] وتصاعدت قوتها في عهد ملكها أورنانشي، وقد عثر في عام ١٩٧٦ م. بمدينة لكش على حجر (محفوظ حالياً بالمتحف العراقي) عليه كتابات تلخص أعمال الملك أورنانشي يتحدث فيها عن معارك خاضها ضد ملوك أور وأومّا في مسلسل التصارع بين تلك المدن ـ الحضارات. وقد بلغت لكش أوج قوتها في عهد حفيده الملك إيانا توم الذي سيطر على أور وأوروك وكيش وأوما فأخضع بذلك جميع بلاد سومر لسيادته. وانتصر على عيلام في غرب إيران. غير أن أهم ما خلفه هذا الملك هو (نصب الصقور) الموجود في متحف اللوفر (انظر الشكل رقم: ٢)، ويعرض الوجه الخلفي من هذا النصب مشاهد المحاربين المسلحين بالحراب يقودهم إياناتوم يسيرون فوق جثث القتلى من الأعداء تنهشها الصقور[2] إنه تصوير لإحدى الوقائع الشرسة من العنف الدموي في حياة هذه المدينة. وقد تعرضت لكش إلى غزو مدمر شنه ضدها الملك السومري (لوكال زاكيزي) ملك أومّا المجاورة بين أعوام (٢٣٦٥ ـ

---

١ ـ د. أحمد داود، تاريخ سوريا القديم، مصدر سابق، ص ٢٠٠.

٢ ـ د.عيد مرعي، تاريخ بلاد الرافدين، مصدر سابق، دمشق، ص٣٦

٢٣٤٠ قبل الميلاد) «فلم يترك بها معبداً إلاّ هدمه ولا أثراً من آثار الحضارة إلا أزاله، وكما فعل بالمعابد والآثار فعل بالأهلين فقد تركهم بين قتيل وجريح غصت بجثثهم الطرقات»[١]

وهناك لوح طيني يحتوي على قصيدة لشاعر سومري يرثي فيها مدينة لكش على ما أصابها على يد لوكال زاكيزي من خراب ودمار[٢]، يقول:

واحسرتاه على ما أصاب لكش وكنوزها

ما أشد ما يعاني الأطفال من بؤس

أي مدينتي متى تستبدلين بوحشتك أنساً

وفي هذه القصيدة يتحسّر الشاعر السومري على أطفال لكش العراقيين المساكين الذين يعانون البؤس الشديد في عام ٢٣٦٥ قبل الميلاد ويبدو لنا أن معاناة أطفال العراق من العذاب والبؤس ما زالت مستمرة منذ ذلك التاريخ وحتى أوخر القرن العشرين بعد الميلاد، لأن البلاد ما زالت تغرق بالخراب والعنف، ولا يبدو بين هذين التاريخين أي فترات من الانفراج الزاهي بالسعادة والفرح والاستقرار، كما سنرى.

أما مدن العراق فكثيرة هي التي بكاها وندبها الشعراء، بسبب العنف، فبعد مأساة مدينة لكش بحوالي ٣٢٠٠ سنة رثى الشاعر ابن الرومي مدينة البصرة وبكاها بكاءاً مراً بعد أن احترقت ودمرت واستبيحت في ثورة الزنج في العصر العباسي كما بكى الشعراء مدينة بغداد والموصل والكوفة وكربلاء وغيرها في فترات مختلفة.

إن هذا الحاكم العراقي ((لوكال زاكيزي)) الذي دمّر لكش وخربها هو واحد من الحكام القساة الذين مروا على حكم العراق ومارسوا الظلم والقسوة والعنف الدموي على نحو استثنائي بالغ من الشدة.

ويعزو بعض المؤرخين أن السبب في هجوم الأكديين على السومريين هو ظلم هذا الملك وجوره «فلم يسلم من أذاه عدو أو صديق، وحسبنا في ذلك ما

---

١ ـ د. ثروت عكاشة، الفن العراقي القديم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص١٦.

٢ ـ المصدر السابق، ص١٦.

سجله أحد أبناء لكش على لوحة من الصلصال بعد أن فرَّ من الأسر، فلقد ذكر لنا كم من ويلات كانت لهذا الملك على العباد، و لم يملك في آخر ما كتب إلاّ أنْ يجأر بالدعاء إلى الآلهة لتنتقم له منه»[1]

يبدو أن العراق موعود منذ قديم الزمان بأمثال هذا الحاكم الذي باشر الظلم والقسوة والأذى والعنف في هذه البلاد منذ فجر التاريخ. أما نهايته فقد كانت تعيسة للغاية حيث شن الملك الأكادي (شاروكين) الذي تسميه التوراة (سرجون الأكدي) هجوماً على مدينة لكش واحتلها وقاد الملك لوكال زاكيزي أسيراً مقيداً بالأغلال بعد أن وضعه في قفص أمام معبد انليل في مدينة نيبور تحت أعين الناس.

وإذا كان هذا الملك قد قتل في آخر الأمر فإنه بذلك يكون أقدم حاكم عراقي تعرفنا على مصيره في سلسلة الحكام الذين انتهوا بالقتل في العراق منذ عام ٢٣٤٠ قبل الميلاد وحتى عبد السلام عارف عام ١٩٦٦ بعد الميلاد...

مملكة أومّا تستولي على مملكة لكش

أومّا مدينة سومرية، وتقع إلى الغرب من مدينة لكش. وكان أبرز ملوكها لوكال زاكيزي الذي حكم عام ٢٣٧٥ قبل الميلاد. وقد استولى هذا الملك على عدة مدن منها مدينة لكش كما مرّ سابقاً ومدينتي أوروك وكيش، وسمّى نفسه (ملك أوروك وملك بلاد سومر) وبقيت مملكته قائمة حتى قضى عليها شاروكين الأكدي مؤسس أول امبراطورية في الشرق القديم. وبالقضاء على هذه المملكة تراجع دور السومريين كقوة سياسية ليبدأ دور الآكاديين.

مملكة آكاد (٢٣٥٠ ق.م.) تقضي على الدولة السومرية

بعد القضاء على الدولة السومرية قامت الإمبراطورية الآكدية التي أسسها شاروكين (سرجون) أي الملك (العادل النزيه) ويحكى في قصة حياة هذا الرجل أنه من أبٍ غير معروف حملت به أمه سراً (أي سفاحا) ووضعته في صندوق من القصب أغلقت بابه بالإسفلت ورمته في نهر الفرات الذي حمله إلى إكيّ الساقي،

---

١ ـ المصدر السابق، ص ٢٤٩.

أي الفلاّح الذي اعتنى به وحمله إلى الملك أور زبابا فتبنّاه وجعله ولده وربّاه. وعلى مر الأيام ازداد تعلق الملك به فقربه إليه...، وتذكر أخبار الملوك السومريين أنه قد أصبح ساقياً للملك أورزبابا، وهو الملك الثاني من سلالة كيش الثالثة إلا أنه انقلب على سيده وثار ضده عندما خسر هذا الملك إحدى المعارك الحربية «فخلعه من عرش آكد وتربع هو عليه»[1]

وهنا لا بأس من الانتباه إلى سلوك الغدر والعقوق الذي انتهجه سرجون في علاقته بسيده.

وقد سيطر سرجون على كيش فخلق قاعدة لفتوحاته التالية التي سيطر فيها على شمال بلاد بابل، وبنى هناك مدينة أكاد وجعلها عاصمة لدولته وسمى نفسه ملك آكاد.

وبعد سيطرته على بلاد بابل اتجه إلى شمال سوريا فأخضع إيبلا ووصل إلى جبال طوروس ثم توجه نحو عيلام، وهكذا استطاع إقامة امبراطورية شملت بلاد الرافدين وسوريا وهي أول امبراطورية في الشرق القديم وسمى نفسه بعد ذلك (ملك الجهات الأربع)، (انظر الشكل رقم: ٣)

بعد شيروكين (سرجون) جاء إلى الحكم ابنه ريموش الذي قُتل اغتيالاً حيث سقط ضحية مؤامرة أودت بحياته

وربما أمكننا أن ندرج اسم هذا الحاكم بين الأسماء الأولى للحكام العراقيين الذين ماتوا قتلاً في تاريخ العراق.

وبين ملوك آكاد، ظهر (نارام سين) الذي أوصل الإمبراطورية إلى ذروة قوتها، أما بعد ذلك فقد تراجعت أوضاع الإمبراطورية الآكادية وانحصر نفوذها في منطقة صغيرة تحيط بالعاصمة...

الغوتيون يدمرون مملكة آكاد (٢١٥٩ ـ ٢١١٦ ق.م.) وينشرون الخراب والخوف

بعد أن ضعفت الإمبراطورية الآكادية بدأت مظاهر الانقسام تظهر بوضوح على كيانها فاستعادت المدن الرافدية حريتها واستقلالها وهذا الوضع شجع

---

١ ـ المصدر السابق، ص١٧

الغوتيين، وهم قوم كانوا يسكنون مناطق جبال زاجروس على الهجوم على بابل وتدمير مدينة آكاد و«لم يكن الغوتيون قوة منظمة بل جماعات متوحشة جلبت بغزواتها المدمرة للبلاد الخراب والخوف والفوضى»[1] وهناك نصوص تصفهم بأنهم برابرة يسرقون الحيوانات وبأن لهم سمعة سيئة وتشبههم بالأفاعي وعقارب الجبال الذين لا يعرفون للمعابد قدسية ويحطمون تماثيل الآلهة وينهبون الكنوز ولا يرحمون إمرأة أو طفلاً[2]

كما وهناك ابتهال سومري يصف حالة البلاد بعد الهجوم الغوتي عليها فيقول: «البلاد في أيدي أعداء قساة. الآلهة سيقت إلى الأسر وأثقل كاهل السكان بالضرائب وجفت الأقنية وشبكات الري وأصبح نهر دجلة غير صالح لعبور السفن ولم يعد بالإمكان ري الحقول ولم تعط الحقول محاصيلها»[3].

ويبدو أن هذه المعاناة المؤلمة التي يصفها الابتهال السومري هي الوصفة الأبدية الثابتة لمسيرة العنف والجوع والفقر والعوز التي تتكرر كثيراً على مرّ الأيام والعصور رغم الخيرات العميمة في هذه البلاد الخصبة وهي الحالة التي ستواجهنا كثيراً في التاريخ العراقي.

ولعل ميلاً للمساوقة بين معاني هذه المواضيع وعناوينها ومضامينها في بعدين زمنيين متفاوتين من تاريخ العراق هو الذي دفعنا هنا للاستشهاد بقصيدة أنشودة المطر[4] للشاعر العراقي بدر شاكر السياب واستذكار بعض أبياتها التي تكاد تصف ذات الحالة التي وصفها الابتهال السومري آنف الذكر رغم أن الفارق الزمني بين النصين يبلغ أكثر من أربعة آلاف سنة حيث يعرض النصّان وصفاً للشعب الذي يئن تحت ثقل الفقر والعوز والجوع وانقطاع العطاء رغم وجود الخيرات الكثيرة.

---

١ ـ د. عيد مرعي، تاريخ بلاد الرافدين، دار الأبجدية للنشر، دمشق، ص٥٥.

٢ ـ المصدر السابق، ص٥٥.

٣ ـ المصدر السابق، ص٥٥.

٤ ـ أنشودة المطر: هي قصيدة شهيرة للشاعر العراقي البصري بدر شاكر السياب، ونشرت عام ١٩٦٠م، تضمنها ديوانه المطبوع عام ١٩٧١، دار العودة، بيروت. وقد وردت هذه القصيدة في الصفحة ٤٧٤ من الديوان.

يقول السياب في أنشودة المطر:

أكاد أسمع النخيل يشرب المطر
وأسمع القرى تئن والمهاجرين
يصارعون بالمجاذيف وبالقلوع،
عواصف الخليج والرعود، منشدين
مطر ...
مطر
مطر
وفي العراق جوع
وينثر الغلال فيه موسم الحصاد
لتشبع الغربان والجراد
وتطحن الشوّان والحجر
رحىً تدور في الحقول... حولها بشر
مطر
مطر
مطر
وكم ذرفنا ليلة الرحيل من دموع
ثم اعتللنا ـ خوف أن نلام ـ بالمطر...
مطر...
مطر
ومنذ أن كنّا صغاراً كانت السماء
تغيم في الشتاء
ويهطل المطر،
وكل عام ـ حين يُعشب الثرى ـ نجوع

ما مرّ عامٌ والعراق ليس فيه جوع

مطر

مطر

مطر...

رحم الله الشاعر بدر شاكر السياب الذي أعاد ـ على نحو عصري ـ عرض تلك المعاناة العراقية المريرة التي وصفها ذلك الابتهال السومري... وما أشبه الليلة بالبارحة.

التدمير والابتلاع يتواصل بين ممالك وادي الرافدين

لم يخضع القسم الجنوبي من بلاد سومر لسيطرة الغوتيين فقامت في بعض مدنها سلالات سومرية حاكمة عديدة منها:

١ ـ سلالة لكش الثانية: وأشهر حكامها الملك جوديا ٢١٤٣ ـ ٢١٢٤ ق.م

٢ ـ عصر سلالة أوروك: ٢١١٦ ق.م

وهي السلالة التي تزعمت المقاومة ضد الحكم الغوتي في بلاد بابل وتمكن حاكمها (اتوخينجال) من هزيمة الغوتيين وأسر ملكهم تيريجان وزوجته وأولاده وقادة جيشه وحرر البلاد من سيطرتهم. وقام الملك اتوخينجال بتعيين شخص اسمه (أورنامو) حاكما عسكرياً على مدينة أور.

٣ ـ مملكة أور الثالثة: استغل القائد اورنامو (٢١١١ ـ ٢٠٩٤ ق.م) منصبه كحاكم عسكري على مدينة أور فقام بالتمرد على سيده (اتوخنجال) وانتزع الحكم منه ونقل السيادة من أوروك إلى أور.

ولسنا هنا بحاجة أيضاً للتذكير بما يتضمنه هذا العمل من روح الغدر والانقلاب والعنف، وهناك قائمة بأسماء الملوك السومريين تذكر عن انتقال الحكم من أوروك إلى أور وفيها نص يقول «ضُربت أوروك بالسلاح وانتقلت الملكية



(شكل رقم: ٣) فن أكدي

منحوتة من حجر الديوريت تمثل الأسرى وهم كالأسماك داخل الشباك والملك سرجون الأكادي يمسك بالشبكة من الأعلى، موجودة حالياً في متحف اللوفر بباريس



(شكل رقم: ٤) مسلّة حمورابي

وهي من حجر البازلت الأسود ـ وقد كتب عليها بالخط المسماري القانون المعروف بقانون حمورابى وهو أقدم القوانين في تاريخ العالم

منها إلى أور. وفي أور أصبح أورنامو ملكاً وحكم ١٨ عاماً»[١] واستطاع إعادة الوحدة من جديد في بلاد بابل.

ولننظر إلى هذا النص الوارد بكتاب تاريخ بلاد الرافدين «إن خروج موظف ملكي أو أمير على سيده وانتزاعه السلطة منه ليس أمراً غير مألوف في التاريخ البابلي وتوجد أمثلة عديدة منه فقد رأينا سابقاً كيف كان شاروكين الأكادي (سرجون) ساقياً عند ملك كيش ثم انتزع السلطة منه»[٢]

ولعل بإمكاننا أن نقول من خلال المعاينة التاريخية والمعاناة المعاصرة التي تحاصرنا من كل جانب بأن مثل هذا المنهج السلوكي في الغدر والتنكر للجميل والانقلاب في العواطف والمواقف، وتمزيق عهود الأخاء ونقض التحالف قد تعزز كثيراً في التاريخ العراقي ومازالت بعض النماذج من هذا السلوك النفسي تعكس ذاتها في كثير من التصرفات والأحداث العراقية حتى المعاصرة منها والتي سنشير إليها ونشخصها تباعاً في حينه. ولا بد من الإشارة إلى أن أهم الأعمال الباهرة التي تركها أورنامو هو القانون المسمى الآن بقانون أورنامو...ولعله من أقدم القوانين التي عرفتها البشرية وهو يسبق قانون حمورابي بأكثر من ثلاثمائة سنة.(انظر شكل رقم: ٤)

وبعد وفاته خلفه ابنه شولجي، الذي حكم بين ٢٠٩٣ - ٢٠٤٦ قبل الميلاد وقاد حملات عسكرية عديدة إلى شمال دجلة لإيقاف توغل الحوريين نحو الجنوب وقد قاد شولجي أعداداً كبيرة منهم كأسرى حرب إلى بلاد سومر واستخدمهم في الأعمال الزراعية المختلفة. ويشير هذا الحديث إلى وجود موجة من العنف في المجتمع الرافدي ونعني بذلك نقل السكان كأسرى حرب إلى بلاد أخرى واستخدامهم في أعمال السخرة.

بعد هذا الحاكم جاء حكام آخرون مثل أمارسين وشوسين وإبي سين وكان حظ هذا الحاكم الأخير (إبي سين) عاثراً إذ وجه العيلاميون حملة مدمرة إلى أور فدمروا المدينة وأخذوا الملك إبي سين أسيراً إلى سوزه (الشوش حالياً) عاصمة عيلام بعد أن أبقوا في المدينة حامية من جنودهم. لقد سقطت المدينة وأسر

١ - د. عيد مرعي، تاريخ بلاد الرافدين، مصدر سابق، ص٦٠
٢ - المصدر السابق، ص٦٠

حاكمها أبي سين الذي سقط ضحية العنف القادم من عيلام، وبذلك سقطت مملكة أور الثالثة وبسقوطها يختفي السومريون من مسرح الأحداث إلى الأبد.

بعد هذه الحقبة حكمت دولتان هما:

دولة إسين ـ ٢٠١٧ ـ ١٧٩٣ ق.م في منطقة تقع حوالي ٣٠ كم جنوب نيبور.

دولة لارسا ـ ٢٠٢٥ ـ ١٧٦٣ ق.م في منطقة تبعد حوالي ٢٠ كم شرق الوركاء.

وفي تاريخ دولة لارسا تصادفنا ظاهرة نادرة الحدوث في التاريخ العراقي، ذلك أن أحد ملوك هذه الدولة والمدعو (كودورمبوك) الذي كان يقيم في منطقة تقع شرق بابل قام بعد استيلائه على السلطة في لارسا بتنصيب ابنه (واراد سين) حاكماً على البلاد «وبقي هو في خيام قبيلته واكتفى بلقب شيخ أو أب لكنه احتفظ من بعيد بالقيادة في يده من خلال تحديد سياسة واراد سين»[1] إذ ليس من المألوف في تاريخ العراق أن يزهد حاكم بالسلطة ويبتعد عنها طواعية ولو على هذه النطاق المحدود.

كان أبرز ملوك لارسا الملك ريم سين وهو الابن الثاني لـ (كودورمبوك) الشيخ الذي عاد إلى خيام قبيلته.

وقام هذا الملك بعدة مشاريع، حصّن أسوار المدن وأقام الحصون والقلاع على الحدود كما قام باحتلال دولة إسين وسيطر على كل بلاد سومر وآكاد.

وقد عرض على حمورابي ملك بابل إقامة حلف دفاعي بينهما إلا أن حمورابي رفض ذلك، ويبدو أن حمورابي كان ينوي الهجوم على مملكة لارسا واحتلالها، وهذا ما حصل بالفعل فقد هاجم حمورابي هذه المملكة عام ١٧٦٣ قبل الميلاد واحتلها فهرب ملكها ريم سين واختبأ لدى قبيلته في منطقة (يموت بعل) شرق بابل فتبعه حمورابي إلى هناك وأسره، ولا يعرف شيء عن نهايته. إن ظاهر هذه الأحداث يشير إلى وجود نزوع عدواني لاستخدام وسائل العنف في

---

١ ـ المصدر السابق، ص٦٠

ظل العروض السلمية لإقامة التحالف الدفاعي إن ريم سين هو حاكم عراقي آخر يقع ضحية العنف دون أن يُعرف عن مصيره شيء.

بابل تدمر دولة إشنونا

إشنونا حالياً هي تل أسمر وتقع على بعد ٨٠ كيلومتراً شمال شرق بغداد[1]، كانت تابعة لمملكة أور الثالثة ثم انفصلت عنها. أبرز ملوكها أبيق اداد الثاني وابنه نارام سين، ودادوشا وهذا الأخير كتبت في أيامه الشريعة المسماه شريعة أشنونا (١٨٠٠ ق.م). دخلت هذه الدولة في تحالف مع عيلام ضد بابل فقام حمورابي ملك بابل باحتلالها وتدميرها.

بابل تحتل مملكة ماري وتدمر أسوارها:

وتقع جنوب الموصل وأهم ملوكها يخدون ليم ١٨٢٥ ـ ١٨١٠ قبل الميلاد وهو من أسرة أمورية، وقد قتل هذا الملك على يد الخدم في قصره بمؤامرة اشترك فيها الملك شمشي أدد[2] الذي استطاع أن يستولي على الحكم في آشور، وعلى أثر مقتل ملك ماري المدعو يخدون ليم قام الملك شمشي أدد باحتلال ماري وتنصيب ابنه يسماخ أدد حاكماً عليها، وقد استطاع ابن الملك القتيل وولي عهده المدعو زمري ليم من الهرب بعد مقتل والده وبقي هارباً حتى وفاة شمشي أدد وانهيار دولته فعاد زمري ليم إلى ماري وأقام مملكته فيها وأصبح من أشهر ملوكها.

قام الملك زمري ليم ابن الملك القتيل يخدون ليم بالتحالف مع حمورابي البابلي ضد عيلام وأشنونا وتوثقت الصداقة بينهما كما قام ببناء القصر الملكي الشهير في ماري الذي اعتبر من عجائب الدنيا في ذلك الوقت.

وبعد أن قضى حمورابي على خصومه في بلاد بابل وسيطر على المنطقة كلها قام بمهاجمة مملكة ماري واحتلالها في السنة الثالثة والثلاثين من حكمه (١٧٥٩ قبل الميلاد) رغم صداقته وتحالفه مع ملكها زمري ليم لكنها صداقة مهددة بالتوقف والانقلاب المفاجئ، وبعد أن احتلها أمر بهدم أسوارها، أما زمري ليم ملك ماري

---

١ ـ المصدر السابق.

٢ ـ المصدر السابق، ص٧٧.

ومعاصر حمورابي «فلا شيء معروف عن مصيره»[1] هذا الحاكم العراقي زمري ليم ليس ضحية للعنف فحسب بل ضحية للغدر والصداقة الطعينة.

الحيثيون والكاشيون يحتلون بابل بالتعاقب

حكم حمورابي حوالي ٤٣ سنة وقد استطاع توحيد كل بلاد الرافدين في دولة واحدة إلا أن بابل قد سقطت بيد الحثيين عام ١٥٩٥ قبل الميلاد بقيادة مورشيلي الأول:

«إن الإسباب التي دفعت مورشيلي الأول للسير إلى بابل البعيدة عن بلاده غير معروفة ولكن يبدو أن غنى هذه المنطقة وشهرتها كان الدافع الأساسي للسير إليها ونهب كنوزها. بعد انسحاب الحثيين من بابل، سيطر الكاشيون على الحكم وبدأت بالتالي مرحلة جديدة من تاريخ بلاد بابل»[2]

إن علينا أن لا نهمل هذا السبب الحيوي وننتبه إلى وجوده دائماً: الغنى، والثروة، والكنوز والشهرة، فسوف يصادفنا كثيراً في تاريخ هذه البلاد كخلفية شبه مؤكدة لأكثر الزحوف العسكرية والحملات والغزوات وأعمال العنف الدموي الذي تعرضت له بلاد الرافدين على نطاق واسع خلال تاريخها.

والكاشيون مجموعات هندو أوربية ظهرت في بلاد الرافدين قبل سقوط بابل بيد الحثيين بوقت طويل، ويعتقد أنهم هاجروا من مناطق جبال زاجروس الجبلية في الألف الثاني قبل الميلاد، أما الدافع لهجرتهم فهو غنى بلاد الرافدين.

الآشوريون ينشرون العنف الدموي في بلدان المنطقة

«كانت المملكة الآشورية القديمة قوية مزدهرة وشملت كل القسم الشمالي من بلاد الرافدين»[3].

«إن الآشوريين كانوا أسبق شعوب المنطقة في الحصول على معدن الحديد فعاشوا عصر الحديد بكل ما تحويه هذه الكلمة من معنى، وكان هذا مما قسّى

---

١ ـ المصدر السابق، ص٨٠.

٢ ـ المصدر السابق، ص٨٧.

٣ ـ المصدر السابق، ص٨٣.

قلوبهم وجعلهم جفاةً غلاظ الأكباد فاتجهت كل إرادتهم إلى تحقيق الانتصارات بكل وسيلة»[1] وإذا أردنا أن لا نهرب من الحقيقة فإن الوصف الآنف الذكر الذي اشتمل عليه النص السابق عن الآشوريين إنما هو في أحد جوانبه وأشكاله وصف لميزات الشعب العراقي لأن الآشوريين كانوا هم شعب العراق في الألف الثاني قبل الميلاد وما بعده...

«ولقد تعاقب على عرش الإمبراطورية الآشورية مائة وستة عشر ملكاً استقروا على عروشهم أمداً طويلاً»[2]، وساهمت آشور بنصيب وافر في حضارة ما بين النهرين ونشرتها خارج المنطقة. ومر تاريخ الإمبراطورية الآشورية بثلاث مراحل، وكان بين ملوكها الأقوياء الملك شمشي أدد الأول، وبعد وفاته تحولت آشور إلى دولة صغيرة إلا أنها استعادت قوتها بعد فترة. ومن بين ملوكها البارزين في هذه الفترة شلمنصر الأول الذي يذكر في كتاباته ما يلي: «في ثلاثة أيام أخضعت أورارتو، أحرقت إحدى وخمسين مدينة وسلبت ممتلكاتها»[3]

إن هذا الحاكم العراقي يبشرنا بأنه أحرق إحدى وخمسين مدينة وسلب ممتلكاتها، إن علينا أن لا نستغرب ولا نبتئس فسوف تصادفنا نماذج أخرى من أمثال هذا الحاكم (الساطور) في تاريخ العراق.

ثم استمرت آشور في القوة والاستعداد العسكري، ففي عهد ملكها توكولتي نينورتا الأول استطاع خلال سنتين أن يضم إلى حكمه أجزاءاً كبيرةً من الشرق القديم كما أخضع بابل إلى نفوذه.

إلا أن هذا الحاكم (توكولتي نينورتا الأول) قد سقط قتيلاً في مؤامرة اغتيال اشترك فيها ابنه وولي عهده مما يضفي على ذلك العمل الجنائي صفة الغدر والعقوق، ولا بد لنا من إضافته إلى لائحة الحكام العراقيين الذين ماتوا قتلاً.

وفي عهد الملك الآشوري (تجلات بلاصر الأول) سيّرت آشور جيوشها في كل صوب فقام هذا الملك بالهجوم على بابل واحتلالها مرتين وانتصر على أربعين دولة وأمير وكان ولوعاً بإخضاع الشعوب المغلوبة وقهرها وفرض جزية سنوية

---

١ ـ د. ثروت عكاشة، سومر وبابل وآشور، مصدر سابق، ص٢٨.

٢ ـ المصدر السابق، ص٢٤.

٣ ـ د. عيد مرعي، تاريخ بلاد الرافدين، مصدر سابق، ص١٠٨.

عليها فتجمعت لدى دولة آشور خيرات البلدان التي أخضعتها لنفوذها، لقد كان الذعر يسبق جحافل الجيوش الآشورية في كل مكان فتبادر المدن لإرسال الهدايا وإظهار الخضوع اتقاءً لشرهم وقسوتهم لأنهم كانوا يحرقون المدن ويقتلون الأسرى ويهجّرون السكان. (انظر شكل رقم :٥)

«ومما أوغر صدور الشعوب المقهورة وأدى إلى ثوراتهم المتعددة قسوة القادة الآشوريين في معاملة أسراهم ورعايا مستعمراتهم فلقد عُزِيَ إليهم أنهم كانوا يأتون على أسراهم قتلاً ويقطعون رؤوس الرجال منهم ويعلقونها على أسوار المدينة أو ينزلون بهم ألواناً من التعذيب ويبيعونهم عبيداً»[1] كذلك هجر الآشوريون قرى بأجمعها ووطنوها في أماكن أخرى لها لغات وعبادات غريبة عنهم.

إن تلك الأعمال سيئة الصيت هي جز من تاريخ بلاد وادي الرافدين، وهي فعل عراقي يجب أن لا نهرب منه ولا نتغاضى عنه ولا نوجد له المبررات بل يجب التفتيش بكل وعي وإصرار وعمق عن دواعيه وأسبابه ودوافعه لنتعرف على ما تركه من آثار وسلبيات في نفوس الأجيال العراقية المعاصرة وأنماط السلوك لديهم.

وبغض النظر عن الدوافع والمسببات فإن بعضاً من ذلك السلوك العدواني العنيف ونعني به تهجير الناس وإسكانهم في مناطق أخرى وتخريب التركيب الاجتماعي والسكاني لبعض المدن والقرى قد حدث في المنطقة الكردية في القرن العشرين في العراق.

وفي بداية الألف الأول قبل الميلاد اعتلى العرش الآشوري·(آشورناصربال ٨٨٤ ق.م) فقام بحملات عسكرية ناجحة وسحقٍ تمردات الآراميين، وجاء بعده شلمنصر الثالث ٨٥٨ ـ ٨٢٤ ق.م وكان مولعاً بالحروب «فقد كان يقود الجيش إلى خارج آشور بنفسه كل عام طيلة ٢٧ سنة وعندما تقدمت به السن كان قد عبر الفرات ٢٥ مرة»[2]، إن ابتلاء البلاد بحاكم مولع بالحروب كما هو الحال مع شلمنصر الثالث يعني أن تلك البلاد تغرق في دوامة العنف الدموي

---

١ ـ د. ثروت عكاشة ، الفن العراقي القديم ـ سومر ـ بابل ـ أشور ، مصدر سابق، ص٣٠

٢ ـ د. عيد مرعي، تاريخ بلاد الرافدين، مصدر سابق، ص ١١٣

لعشرين أو ثلاثين أو ربما أربعين سنة، لقد عبر شلمنصر نهر الفرات خمساً وعشرين مرة كما يشير النص آنف الذكر وهي تعني أنه خاض خمسة وعشرين حرباً كان في كل واحدة من تلك الحروب يتطلب منه عبور الفرات، لقد احتل سوريا ووصل حتى جبل حوران ويقول في احدى كتاباته:

«وفي السنة الثامنة من حكمي عبرت الفرات للمرة السادسة عشر، حازا إل (يبدو أنه أحد الملوك في سوريا) من دمشق اعتمد على ضخامة قواته وحشد فرقه بكثرة... اشتبكت معه وألحقت به هزيمة. أرديت بالسلاح ستة عشر ألفاً من محاربيه وسلبته ١١٢١ من عرباته الحربية و٤٧٠ من خيوله ومعسكره وهرب لإنقاذ حياته. سرت خلفه وحاصرته في دمشق مقره. قطعت بساتينه، زحفت حتى جبل حوران، خربت مدناً لا تعد ودمرت وأحرقت بالنار وغنمت غنائم لا تحصى...»[1]. إن هذا الحاكم العراقي شلمنصر الثالث يتحدث وكأنه يبشرنا بخبر سعيد عندما يتكلم عن القتل والحرق وتخريب المدن العديدة والبساتين وهو يروي تلك الأحداث بلسانه متفاخراً.

وفي أواخر عمر شلمنصر الثالث تمرد عليه ابنه واستمر في تمرده أربع سنوات حتى قضى عليه أخوه شمشي أدد الخامس...

أما الملك تجلات بلاصر الثالث فقد أعاد بقبضته الحديدية الهدوء إلى أرجاء الإمبراطورية ووجه حروبه في جميع الاتجاهات واحتل مدناً وبلداناً في الغرب والشرق، وزحف على أورارتو وهي مملكة نشأت في القرن الثالث عشر قبل الميلاد في منطقة بحيرة فان وعاصمتها كانت تدعى توشبا، ويذكر تجلات بلاصر الثالث ذلك في سجل أعماله فيقول «حاصرت ساردوري الاورارتي في توشبا عاصمته وعملت مذبحة أمام أبواب المدينة»[2].

هذا حاكم عراقي آخر يتباهى بإقامة مذبحة، إنه العنف الدموي الذي ميّز سلوك الحكام وطبع بطابعه أكثر الفعاليات العامة للدول والإمبراطوريات التي حكمت في أرض الرافدين.

---

١ ـ المصدر السابق، ص١١٥.

٢ ـ المصدر السابق، ص١١٨

هاجم تجلات بلاصر سوريا وأخضع دمشق وهجّر ثمانيــة آلاف إنسـان مـن سكانها ثم قام باحتلال المدن الفلسطينية بما في ذلك غزة ثم أخضع بابل للسيطرة الاشورية وبعده حكم ابنه شلمنصّر الخامس ثم اعتلى أخــوه، شـاروكين الثـاني، عرش آشور. وكان أبرز الأحداث التي حصلت في عهـده الاضطرابـات في بـابل للخلاص من الحكم الآشوري، فقاد حملة كبـيرة ضـد بـابل واحتلهـا وزوّج ابنـه سنحاريب من أميرة بابلية لإظهار حسن النية تجاه السكان المحليـين، وعـاد محمـلاً بالغنائم من بلاد الجنوب ثم انصرف لبناء مدينة جديدة اسمها (دورشاروكين) أي حصن شاروكين يحيطها سور ضخم عليه ١٨٣ برجاً دفاعياً وفيـه سـبع بوابـات أما سكان هذه العاصمة فكـانوا مـن أسـرى الحـروب والمهجريـن ذوي الأصـول المختلفة حتى لا ينشأ بينهم ترابط وتماسك سياسي أو اجتماعي.

قُتل شاروكين الثاني عام ٧٠٥ ق.م حيث اغتاله أحد جنوده وبذلك يضـاف حاكم عراقي آخر الى قائمة الحكام الذين ماتوا قتلاً. (انظر شكل رقم: ٦).

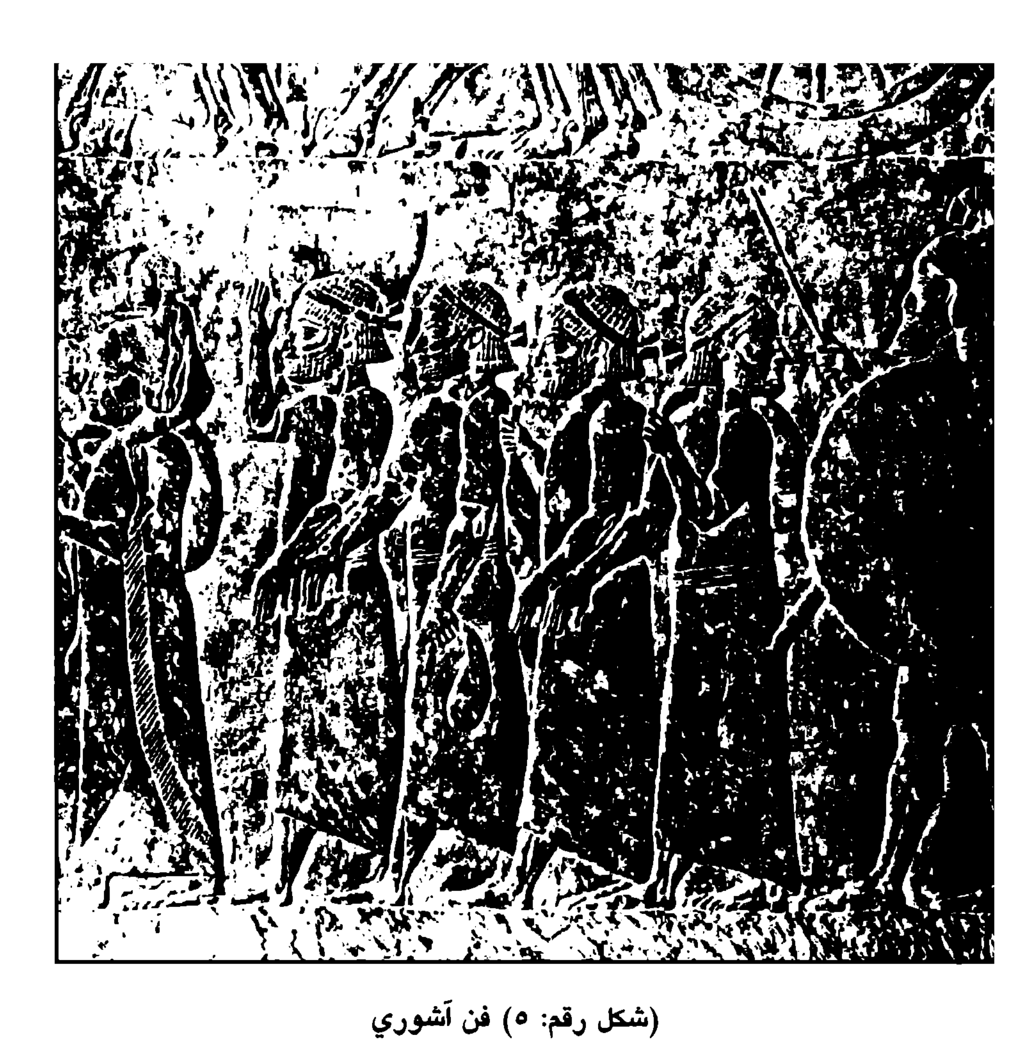
بعد اغتيال شاروكين الثاني استلم العـرش ابنـه سـنحاريب الـذي انتقـل إلى العاصمة القديمـة نينـوى وقـاد حملـة ضـد بـابل الـتي أظهـرت تمـرداً علـى سـلطة الآشوريين مرة أخرى فهزمها وأعاد سيطرة الآشوريين عليها. وقاد حملـة أخـرى احتل فيها المدن الفينيقية في سوريا وحاصر أورشليم لكنه فك الحصار بعد انتشار مرض الطاعون في جيشه.

تجددت الاضطرابات في بابل ضد الآشورين فقاد سـنحاريب حملـة جديـدة واحتل مدينة بابل ثم قام بنهبها وحرقها وتدميرها هذه المرة وذلك عام ٦٨٩ قبل الميلاد، إن دائرة العنف في بلاد الرافدين ما زالت تلـف المـدن وتدفعهـا في طريـق الخراب دون توقف. وفي عـام ٦٨١ ق.م تم اغتيـال سنحاريب الحـاكم العراقـي الشهير حيث اغتاله أحد أولاده وقيل «قتله أبنـاؤه وهـو مستغرق في صلاتـه ثـم اختلفوا فيما بينهم»[1]، لقد قتل هذا الحاكم ليس بفعل العنف الدمـوي فحسـب بل بسبب سلوك الغدر والعقوق أيضاً.

بعد مقتله انتزع العرش ابنه أسـرحدون الـذي باشـر حكمـه بالقضـاء علـى أخوته الذين تمردوا ضده.

---

١ ـ د. ثروت عكاشة، الفن العراقي القديم، مصدر سابق، ص٢٨.



(شكل رقم: ٥) فن آشوري

لوحة تمثل التهجير الجماعي للشعوب المغلوبة بعد حملات آشور بانيبال في القرن السابع قبل الميلاد



(شكل رقم: ٦)

الملك العراقي الأشوري ـ سرجون الثاني (شاروكين الثاني) ـ
قتله أحد جنوده اغتيالاً عام / ٧٠٥/ قبل الميلاد

كان سنحاريب قد وقع تحت تأثير زوجته المسماة ((زاقوتي)) ذات الشخصية القوية... فقد جعلته يوصي بالعرش لابنه الأصغر أسرحدون مما دفع أخوته الآخرين للتمرد عليه بعد مقتل والدهم سنحاريب الذي ربما كان اغتياله بيد أحد أولاده ليس بعيداً عما كان يجري داخل العائلة من مكائد وعلاقات متوترة بسبب تدخلات تلك المرأة، وبنصيحة من زاقوتي ذاتها أوصى إبنها الملك أسرحدون بولاية العهد لابنه الأصغر أيضاً وهو آشوربانيبال بدلاً من الابن الأكبر شمش شموكين مما دفع هذا الأخير للتمرد على أخيه أيضاً، ونشوب الصراع الدموي الرهيب بينهما ومقتل شمش شموكين على يد أخيه آشور بانيبال بعد وفاة والدهم أسرحدون...

وليس بالإمكان التكهن بالدوافع التي جعلت هذه المرأة للقيام بمثل هذه التصرفات والضغوط والتدخلات بهذا المستوى العنيف والأهوج بشؤون الحكم في أكبر إمبراطورية قائمة في ذلك الزمان، مما تسبب في حدوث سلسلة من وقائع العنف الدموي قتل فيها الإخوة بعضهم بعضاً، وقتل الأحفاد آباءهم في جيلين متعاقبين من العائلة...

إن صفة الشخصية القوية التي تطلقها بعض المصادر على هذه المرأة قد لا تكون كافية لإعطائها الوصف المناسب. فالقسوة والأنانية والشراسة والميل لحسم الأمور بالإرغام والعنف هي الصفات الأقرب لشخصية تلك المرأة العراقية الفولاذية...

لقد تمرد الأخ الأكبر شمش شموكين في بابل على أخيه آشور بانيبال (٦٥٢ - ٦٤٨ ق.م) فزحف آشور بانيبال بجيشه وطوّق بابل وحاصرها ورفض أخوه الاستسلام، وعندما تيقن شمش شموكين من الهزيمة أمام جيش أخيه الذي يطوق بابل قام بإحراق قصره بعد أن ذبح نساءه ومحظياته الجميلات وحاشيته وقتل خيله المطهمة ثم انتحر محترقاً، بينما كان أخوه ينتظر خارج المدينة المحترقة...

وهناك لوحة زيتية رائعة من الحجم الكبير جداً تحتل جداراً كاملاً في إحدى قاعات متحف اللوفر في باريس للرسام الفرنسي دولاكروا تحمل اسم ((موت سردنابال)) صوّر فيها الرسام دولاكروا أدق التفاصيل لحادثة حرق بابل وانتحار شمش شموكين حيث يبدو فيها الملك متكئاً على سريره الفخم ذي الوسائد

المطرزة تناوله إحدى المحظيات كأساً وإبريقاً للخمر، بينما ينهمك العبيد والجلادون الغلاظ بقتل نساء الملك وجواريه الجميلات المترفات بخناجرهم القاسية ويذبحون الخيول المطهمة بإصرار وثبات ويعيثون تخريباً بأثاث القصر الفخم تنفيذاً لأوامر الملك... وبعد أن احتل أشوبانيبال مدينة بابل وقضى على أخيه فيها توجه جنوباً فأخضع القبائل الآرامية التي ساندت بابل «وهاجم العيلاميين والفرس في عقر دارهم وفتح مدينة الشوش (سوسة) ودكها ونبش قبور ملوكها»[1].(انظر شكل رقم: ٧).

وهكذا لم تسلم حتى عظام الجثث المقبورة منذ عشرات السنين من هذا العنف العراقي المدمر فنبشها آشوربانيبال وبعثرها...

وفي الثمانيات من القرن العشرين بعد الميلاد وبالتحديد خلال الحرب العراقية الإيرانية عادت الشوش لتتلقى جرعة جديدة من العنف الدموي العراقي عندما تحولت هي والمناطق المحيطة بها إلى ساحة للمعارك الدموية الطاحنة التي دامت ثماني سنوات متواصلة بين إيران والعراق، إن العنف المتأجج ما زال يتصاعد بأحداثه الدموية المتلاحقة في مسيرة متواصلة على أرض الرافدين، ولعل من المفيد الإشارة إلى حادثة حزينة شبيهة بحريق بابل، وقعت في العراق أيضاً، فبعد ما يقرب من ١٥٠٠ (ألف وخمسمائة) سنة من حريق بابل ومقتل شموكين على يد أخيه آشوربانيبال، وعلى مسافة ١٠٠ كم (مائة كيلومتر تقريبا) من بابل طوق الخليفة العباسي المأمون ابن الرشيد (٨١٣ ـ ٨٣٣ بعد الميلاد) بجيشه مدينة بغداد وضربها بالمنجنيق وأقام الحرائق فيها للقضاء على أخيه الأمين الذي كان يقاوم بداخلها رافضاً الاستسلام لأخيه في صراع مرير على الحكم أيضاً. وكما في كل مرة فإن شريعة العنف الدموي والفوضى العدوانية هي التي تنتصر دون أن تجد من يكبحها أو يوقفها خصوصاً حين يسود الخلاف والتوتر والاضطراب في العراق.

لقد سالت الدماء وقتل المأمون أخاه الأمين دون أن يتمكن أحد من منع الكارثة وهو ما سنأتي عليه في الأحداث اللاحقة...

---

١ ـ عبد الكريم ذنون، تاريخ القانون في العراق، مصدر سابق، ص٢٥١

لقد هاجم أسرحدون مصر مرتين واحتل ممفيس العاصمة وهرب الفرعون المصري (طهارقا) إلى الصعيد، ويصف أسرحدون احتلاله لمصر في إحدى كتاباته فيقول:

«من مدينة أيشوبري **Ishopri** حتى مسيرة خمسة عشرة يوماً حاربت كل يوم في معارك دموية ضد طهارقا ملك مصر وكوش الملعون من كافة الآلهة العظام، ضربته خمس مرات بسنان سهمي، وسببت له جرحاً بليغاً، حاصرت منف مقره وفتحتها في نصف يوم، دمرتها وهدمت أسوارها... اقتلعت جذور كيش من مصر. نفيت كل الكوشيين من مصر و لم أترك واحداً منهم ليقدم لي الخضوع»[1]

أما آشور بانيبال فبعد أن احتل بابل وقتل أخاه شمش شموكين وسّع نفوذ الإمبراطورية حتى صارت ممتدة من جبال زاجروس في الشرق حتى جنوب مصر، ومن أواسط آسيا الصغرى في الشمال حتى الخليج العربي في الجنوب. غير أن العمل الهام والخالد لآشور بانيبال هو قيامه بإنشاء مكتبة كبرى في مدينة نينوى العاصمة تضم نحواً من خمسة وعشرين ألف رقيم طيني تشكل الآن بعد اكتشافها مصدراً حيوياً من مصادر تاريخ هذه البلاد.

وبعد موت آشور بانيبال مرت الإمبراطورية الآشورية بمرحلة من الضعف والفوضى وتوالى على العرش الآشوري ملوك ضعفاء.

وخلال ذلك نشأ حلف عسكري كبير ضد آشور حيث تحالف كل من نبوبلاصر الملك الكداني في بابل وكياكسيرس الملك الميدي وزحفت جيوشهما نحو عاصمة الآشوريين وبعد مقاومة عنيفة سقطت آشور بيدهم عام ٦١٤ قبل الميلاد، أما نينوى فسقطت عام ٦١٢ وهرب آخر ملوك الآشوريين المدعو أوباليط الثاني و« بسقوط نينوى زالت أقوى دولة عرفها العالم القديم وتوارت عن الأبصار»[2].

لقد اعتمد الآشوريون أسلوب العنف الدموي والقسوة والقتل والشراسة في الحياة اليومية وقد انعكس ذلك حتى في قوانينهم التي شرعوها والتي كانت تميل

---

١ ـ عيد مرعي، تاريخ بلاد الرافدين، مصدر سابق، ص١٢١.

٢ ـ د. فيليب حتى، خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى، مصدر سابق، ص٧٠.

لإنزال العقوبات الجسدية القاسية والشرسة بحق المذنبين وبإمكاننا أن نذكر على سبيل المثال نص المادتين الرابعة والخامسة من القانون الآشوري لنستدل بها على وجود هذا المنهج الدموي في صياغة وتشريع مواد القوانين في الدولة الآشورية:

المادة ٤:

إذا تسلم عبد أو أمة من يد إمرأة رجل شيئاً ما فعلى المرء أن يجدع أنف العبد أو الأمة وأن يقطع أذنيهما كما يجب تعويض المسروق وعلى الرجل أن يقطع أذني زوجته وإذا عفا عن زوجته و لم يقطع أذنيها لا يجدع أنف العبد أو الأمة ولا تقطع أذنيهما كما لا يعوض المسروق[١].

المادة ٥:

إذا سرقت إمرأة رجل من بيت رجل آخر (حاجة) ما تزيد قيمتها عن ٥ مينة من الرصاص فعلى صاحب الملك أن يقسم يميناً هذا نصه "أقسم بحياتي إني أحرضها بقولي أسرقي من بيتي" وإذا أراد زوجها فبإمكانه تسديد المسروق ودفع ديتها ولكن عليه أن يقطع أذنيها (عقاباً) لها وإذا لم يكن زوجها مستعداً لفدائها فعلى صاحب الشيء المسروق أن يأخذها ويجدع أنفها[٢].

تدمير آشور ونينوي

لعل بإمكاننا أن نتبين ـ من خلال هذه النصوص الشرسة التي اقتطعناها باقتضاب من ذلك القانون ـ حجم القسوة والعنف والدموية التي كانت سائدة في المجتمع الآشوري ومن جانب آخر فقد انعكس منهج الآشوريين في العنف الدموي والقسوة على أسلوبهم وتعاملهم مع الشعوب والبلدان التي احتلوها، فكان من نتيجة ذلك أنْ تراكم الحقد والكره والبغض ضدهم واحتفظت الشعوب المحيطة بهم والتي عانت من قسوتهم واضطهادهم بذكرياتها المؤلمة وأحزانها المريرة وبقي شبح المدن المدمرة والمحروقة والمنهوبة والمذابح الهمجية الشرسة التي نفذوها والتهجير الظالم للسكان شاخصاً في الأذهان، لذلك فقد كانت أحداث الانتقام التي حصلت فيما بعد ضد الآشوريين تحمل من العنف

---

١ ـ عبدالحكيم ذنون، تاريخ القانون في العراق، مصدر سابق، ص١٨٠ ـ ١٨١.

٢ ـ المصدر السابق،

والقسوة ما لا يمكن وصفه، فقد قامت جيوش التحالف البابلي الميدي بمحاصرة نينوى العاصمة عام ٦١٢ق.م وبعد مقاومة ضارية سقطت المدينة بأيديهم فتم حرقها وتخريبها وسحقها وأبادتها وإزالة معالمها «حتى أن قائداً إغريقياً اسمه زينوفون مرَّ بها بعد قرنين من الزمان فلم يتمكن من معرفة مكانها»[1]. أما كنوزها فقد نهبها الميديون ونقلوها إلى بلادهم[2] فأيُّ حجمٍ هائل من العنف والدمار والقسوة والتخريب قد تعرضت له هذه المدينة الآشورية حتى تعذر على القائد الإغريقي من التعرف حتى على مكانها أو تشخيص موقعها؟؟...

ويقول الدكتور فيليب حتي في كتابه (خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى) تعليقاً على سقوط نينوى «وقد صدقت فيها نبوءة ناحوم حيث يقول: ويل لمدينة الدماء كلها ملآنة كذباً وخطفاً... فرقعة السوط وصرخة البنت البكر وخيل تخب ومركبات تقفز»[3].

أما مدينة آشور فكانت قد سقطت قبل ذلك تحت حصار الجيش الميدي عام ٦١٤ق.م «وتعرضت للنهب والتدمير، أما سكانها فقتل قسم كبير منهم وهجِّر من بقي على قيد الحياة وعندما وصل نبوبلاصر إلى آشور لم يجد أمامه إلا خرائباً ودخاناً»[4].

احتلال أورشليم وسبي اليهود (٥٩٨ ق.م)

كان نبو بلاصر ملك بابل الذي ساهم في سحق الإمبراطورية الآشورية يشرك إبنه نبوخذ نصر الثاني بالمعارك، وبعد مدة من الزمن صار نبوخذ نصر يقود الحملات العسكرية بنفسه بينما كان أبوه يقود الحكم في بابل...

واستطاع عام ٦٠٥ قبل الميلاد أن يحتل كركميش في سوريا ويقضي على الحامية المصرية هناك.

---

١ ـ د. فيليب حتي، خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى، ج١ ، مصدر سابق، ص٧٠.
٢ ـ د. عيد مرغي، تاريخ بلاد الرافدين، مصدر سابق، ص١٢٥.
٣ ـ د. فيليب حتي، خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى ج١ ، مصدر سابق، ص٧٠.
٤ ـ د. عيد مرعي، تاريخ بلاد الرافدين، مصدر سابق، ص١٢٥.

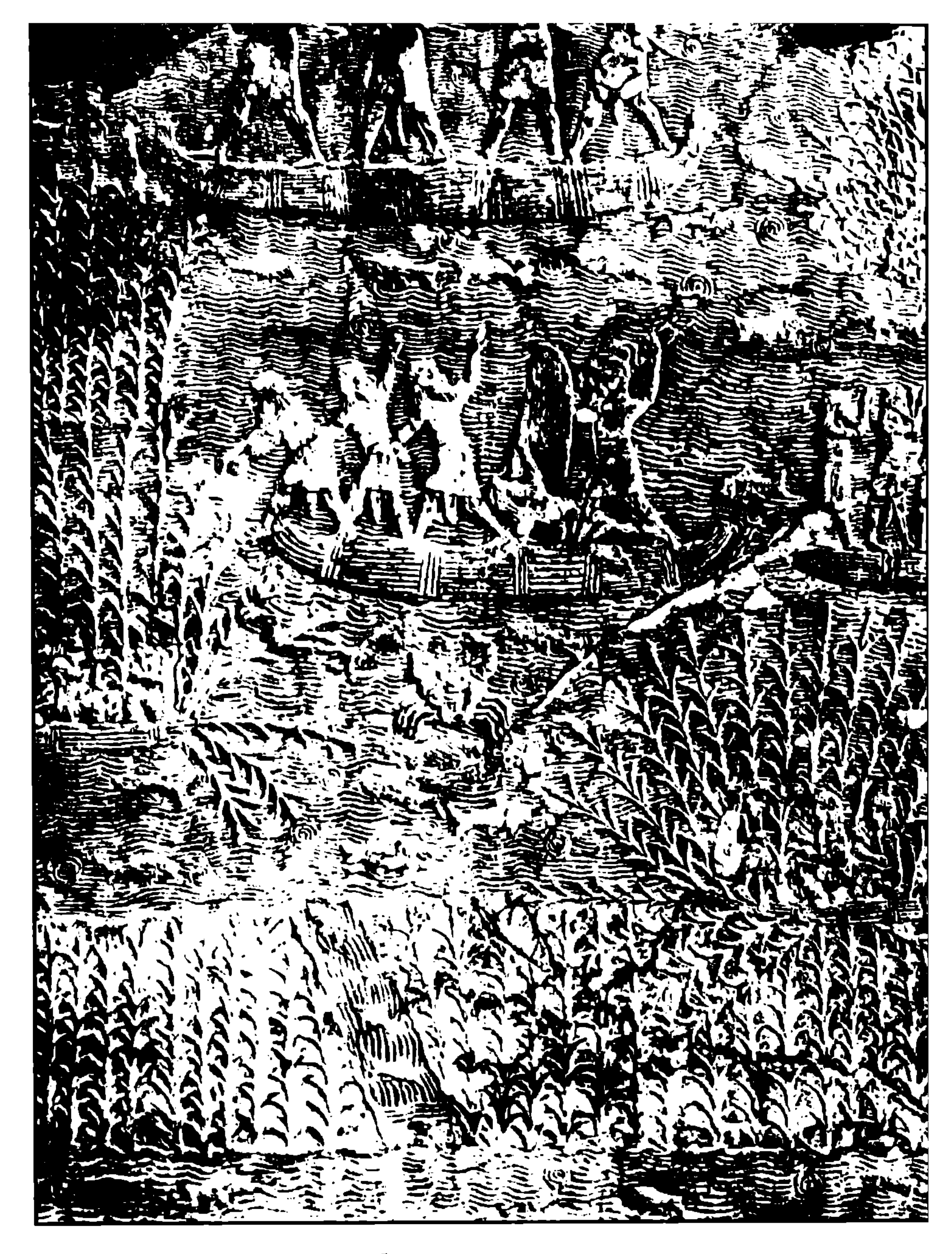
وبعد وفاة الملك نبوبلاصر استلم العرش ابنه نبوخذ نصر الثاني فقام بعدة أعمال أبرزها حصار مدينة أورشليم واحتلالها عام ٥٩٨ قبل الميلاد وتنصيب ملكٍ موالٍ له، وبعد عام واحد عاد لاحتلالها مرة أخرى وسبيِ بضعة آلاف من سكانها إلى بابل بسبب تعاونهم مع المصريين، كذلك بنى الزقورة التي عرفت في التوراة ببرج بابل. (انظر شكل رقم: ٨)

بعد نبوخذ نصّر الثاني جاء ابنه أويل مردوك (٥٦٢ ـ ٥٦٠ قبل الميلاد) ثم جاء بعده ابنه لاباشي مردوك الذي حكم ثلاثة أشهر لا أكثر حيث اغتيل في نهايتها وقد دبر عملية الاغتيال فريق من المتآمرين برئاسة شخص اسمه نابونيد (نابونيدس) الذي أعلن نفسه ملكاً على بابل بين أعوام ٥٥٥ ـ ٥٣٩ قبل الميلاد وهو آخر ملك يحكم في بابل قبل سقوطها وسقوط العراق بأكمله تحت السيطرة والحكم الفارسي.

أرض الرافدين ساحة للعنف الدموي

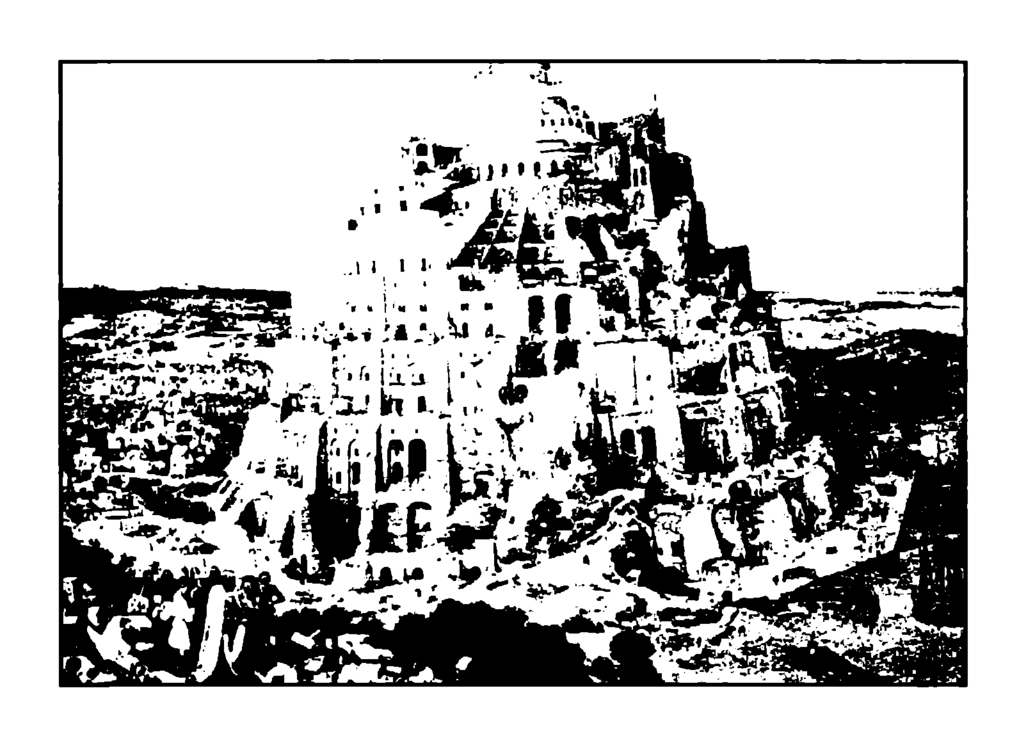
لا بد لنا أن نذكر هنا ما أشارت إليه بعض المصادر من أن نابونيد (نابونيدس) الذي اغتال الملك لاباشئ مردوك لم يكن من أصل ملكي بل كان ابن شيخ إحدى القبائل الآرامية أما أمه فكانت كاهنة التجأت مع ابنها الصغير نابونيد إلى بلاط بابل طالبة الحماية والرحمة بعد سقوط المدن الآشورية، أما انقلاب نابونيد (نابونيدس) بعد ذلك على الملك لا باشئ مردوك وقتله إياه فهي صورة مكررة من صور الانقلاب والغدر الممزوج بالعنف في تاريخ بلاد الرافدين.

والآن، وبعد هذا الاستعراض السريع لتاريخ تلك المرحلة الهامة والخطيرة من حياة بلاد الرافدين، قد يكون بإمكاننا القول أن أعمال العنف التي مرت بنا في هذا المهرجان الدموي الطويل بجميع أشكالها كالخيانات والحروب والغدر واقتتال الأخوة والمذابح الكبرى والتهجير الجماعي وتدمير المدن وإحراقها وإبادة السكان وغيرها من الأعمال التي نفذت بقسوة وهمجية بحق البشر والشعوب لم تكن لتشتمل على أي أمر فريد أو استثنائي أو غريب، فقد كانت تلك الأعمال تنفذ وتمارس في جميع بلدان العالم المعروف آنذاك لأنها كانت الأسلوب الأكثر شيوعاً في تلك المراحل من تاريخ البشرية. إلا أن الأمر الغريب والاستثنائي في هذا



(شكل رقم: ٧) منحوتة آشورية

بعنوان معركة المستنقعات ـ القرن السابع قبل الميلاد ـ متحف اللوفر ـ إن المقصود بالمستنقعات هي الأهوار في جنوب العراق والتي ما زالت منذ التاريخ وحتى اليوم مسرحاً لأعمال العنف الدموي والمعارك والعصيانات المتتالية



(شكل رقم: ٨) برج بابل (١٥٦٩ ـ ١٥٥ قبل الميلاد)

رسم تخيلي للفنان برويجيل ـ متحف تاريخ الفنون فيينا ـ

الموضوع هو حجم وكثافة تلك الأعمال الدموية وتواصلها عبر مراحل زمنية طويلة فوق أرض الرافدين حتى غدت حصة المدن العراقية من تلك الفعاليات الدموية المدمرة كبيرة جداً في حجمها وعددها ونوعيتها قياساً إلى مساحة البلاد الجغرافية الصغيرة...

أما لماذا كان نصيب العراق كبيراً من تلك الأعمال الدموية المتسمة بالعنف فأسبابه كثيرة قد يكون في مقدمتها الغنى والثروات الكبيرة والخيرات العميمة الوافرة وتوفر المواد الأولية الاستراتيجية التي كانت حيوية لصناعات ومدنيات تلك العصور، إضافة إلى تواجد المراكز الدينية المقدسة للآلهة المختلفة التي عبدتها وخضعت لها الشعوب والأقوام التي سكنت هذه البلاد. إن وجود الخيرات والثروات ومواد صناعة الأسلحة والمياه ومراكز الاستقرار الحضاري والمدني يستتبع بالضرورة تنامي الأطماع الخارجية (خارج المدينة وخارج البلاد) التي تكون بالعادة سبباً حقيقياً وراء أكثر أحداث العنف في التاريخ كالحروب والغزوات وزحف الجيوش ونهب المدن والانقلابات السياسية الدموية وتشكيل الإمبراطوريات بقوة السلاح وغيرها من الوقائع التي تكررت كثيراً في مدن وحضارات العراق القديم.

كانت بصمات الأطماع بارزة بوضوح في الكثير من أحداث العنف التي أكدتها حيثيات النصوص المكتوبة على الرقم والمذكورة في السير والوقائع المدونة عن تلك المراحل التاريخية والتي نبهنا إلى وجودها خلال العرض التاريخي الموجز الذي قدمناه حتى الآن عن تلك الحقب والقرون.

ومن جانب آخر فإننا إذا انطلقنا من الرأي القائل أن العنف الدموي الذي ساد في تلك المراحل القديمة من التاريخ كان يتولد ويتطور وينمو في بلاد الرافدين ثم ينتشر بعد ذلك إلى عموم بلدان المنطقة بواسطة الجيوش والأذرع الهمجية العدوانية التي استخدمتها الإمبراطوريات التي تشكلت في بلاد وادي الرافدين فإنه يكون من الإنصاف القول أن مدناً عديدة غير عراقية بالمفهوم المعاصر تقع اليوم في أراضي كل من إيران وسوريا وتركيا وفلسطين وروسيا ومصر قد عانت من العنف العراقي الذي كان يتأجج ويشتعل بتواصل شبه دائم فوق أرض الرافدين.

لقد انعكس منهج العنف الدموي بأحداثه المأسوية على جميع مظاهر الحياة في بلدان المنطقة حتى ظهر ذلك واضحاً في النصوص والكتابات القديمة التي خلفتها تلك الحضارات رغم الفترات الزاهية من الاستقرار والتقدم المدني، «لقد حققت المنطقة انتصاراتها (الحضارية) في جو من القلق العميق، والروح التي تتخلل أهم كتاباتها هي الشك في قدرة الإنسان علي تحقيق السعادة الدائمة»[1]. كذلك فإنه لأمر يثير الحيرة والحزن أن يترافق العنف الدموي خطوة بخطوة مع انبلاج فجر المدنية الأولى لحضارة وادي الرافدين بكل ما حققته من انتصارات حضارية باهرة في تاريخ البشرية، ولعل هذا هو ما يمكن أن يشكل الجذور الأولى المغرقة في القِدَم لظاهرة ازدواج الشخصية العراقية وتناقضها السلوكي والنفسي - تلك الظاهرة التي يمكن تشخيص أعراضها وانعكاساتها على السلوك الشخصي للفرد العراقي المعاصر.

وهكذا وعلى ضوء جميع ما تقدم فقد أصبح بإمكاننا القول أن وادي الرافدين بدا لنا حتى الآن - رغم اختصارنا في سوق الأمثلة والشواهد - ساحة من ساحات العنف الدموي المتواصل...

---

١ - د. أحمد داوود، تاريخ سوريا القديم، ط.١، ص١٩٨.

الفصل الثاني

أحداث العنف الدموي في العراق
من الاحتلال الفارسي ـــ حتى الفتح الإسلامي
٥٣٩ قبل الميلاد ـــ ٦٣٤ بعد الميلاد

- **ـ سقوط بابل ٥٣٩ ق.م وموقف اليهود**
- **ـ داريوس يفرض ضرائب غريبة على بابل**
- **ـ اندحار الفرس امام الاسكندر في شمال العراق معركة كوكميله ٣٣٠ ق.م**
- **ـ العنف الدموي في دولة المناذرة**
  - ـ النعمان الاول يقتل المهندس الرومي سنمار
  - ـ المنذر بن ماء السماء يذبح ٤٠٠ راهبة نصرانية ضحية للعزى...
  - ـ المنذر يقتل ندماءه في الشراب ثم يبكي عليهم
  - ـ عمرو بن المنذر يحرق مائة رجل من بني تميم ويواصل المكائد الدموية
  - ـ النعمان بن المنذر يقتل رسول كسرى داخل السجن
  - ـ كسرى ينتقم دموياً من النعمان بن المنذر
- **ـ مذبحة في البلاط الساساني في العراق ٦٣٠ بعد الميلاد**

سقوط بابل وموقف اليهود:

دخلت قوات قورش الثاني (مؤسس الإمبراطورية الاخمينية الفارسية) مدينة بابل دون قتال وأعلن قورش سلاماً لكل الناس في بابل.

ويبدو أن اليهود الذين كانوا يعيشون في بابل كأسرى مهجرين إلى بلاد غريبة عنهم هم الذين أعانوا أو ساعدوا الإمبراطور قورش على فتح مدينة بابل واحتلالها، إضافة إلى العوامل والأسباب الأخرى التي كان أهمها ضعف الملك البابلي نابونيدس وعزلته «إن كورش قصد إخضاع بابل، و لم يبلغ تمام مراده إلى السنة السابعة عشر لنابونيدس فاحتال له وأفسد عليه قوماً من أهل بابل لم يرضوا بملكها ظُن أنهم اليهود»[1].

ولعل من الطبيعي أن يقف اليهود وهم أسرى ومبعدون في بابل، ذلك الموقف المتعاون مع الفرس المحتلين، فهم لم يسامحوا البابليين عما تعرضوا له من أسر واعتقال وتهجير على أيديهم، بل ربما كانوا يفتشون طيلة أسرهم على محرر يخلصهم من النفي والاعتقال والإقامة الجبرية المفروضة عليهم في بلاد بابل.

يقول المؤرخ الإنكليزي أرنولد توينبي: «كانت الجماعة اليهودية البابلية حلفاء طبيعيين للفرس، ذلك بأن هؤلاء اليهود المنفيين لم يسامحوا البابليين لأنهم أحلوهم عن بلادهم، ومن ثم فقد كانوا أقلية محلية محبّة للفرس وبهذا كانت لهم قيمة بالنسبة للفرس في بابل حيث لم تكن الغالبية الوطنية من السكان تتقبل الفرس»[2]

---

١ ـ هارفي بورتر، موسوعة مختصر التاريخ القديم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ص١٥٤.

٢ ـ ارنولد توينبي ، تاريخ البشرية ، الجزء ١، ترجمة نيقولا زيادة ـ الأهلية للنشر والتوزيع، ص٨٨.

وربما كان هذا هو ما يفسر لنا قرار الإمبراطور الفارسي بإطلاق أسر اليهود وتحريرهم عام ٥٣٦ قبل الميلاد بعد احتلال بابل حيث: «سمح قورش الثاني لأي عدد من اليهود المحليين الراغبين في العودة إلى أرض المملكة الجنوبية أن يفعلوا ذلك وأن يعيدوا بناء الهيكل في القدس»[١] كما خصص كل من دارا الأول واحشورش وهم من أباطرة الفرس جزءا من الضريبة الإمبراطورية لليهود وساعدوهم في توفير مواد البناء لتنفيذ وإكمال المشاريع العامة في القدس.

وكنتيجة للاحتلال الفارسي فقد اختفت مملكة بابل الحديثة من الوجود وبدأت مرحلة الاحتلال الفارسي.

لقد احتلت الإمبراطورية الفارسية أمماً وشعوباً وبلداناً عديدة في منطقة شرق البحر المتوسط غير أنها كانت تختلف عن الآشوريين في حدتها وقسوتها وظلمها للشعوب المحتلة المغلوبة فقد «منحت الإمبراطورية الفارسية المشرق راحة كان بحاجة ماسة لها. وقد كانت حروبها الاحتلالية أقل وحشية من حروب الآشوريين وكان التنظيم الإداري للبلاد الواسعة المحتلة أقل ظلماً وعلى عكس الآشوريين كان الفرس يقنعون بأن يكون الشعور بوجودهم في أدنى الحدود اللازمة لجعل سيادتهم فعّالة فقد سمحوا للإدارة المحلية القائمة بأن تكون فاعلة وقد كان دور حكام الولاية الإشراف على الإدارة المحلية لا أن يستولوا عليها وفوق ذلك كله كان الفرس يعنون عناية خاصة باحترام أديان شعوبهم ورعايتهم»[٢].

«وقد كان ثمة ثلاثة شعوب لم تتقبل الحكم الفارسي وهي البابليون والمصريون والأغارقة الآسيويون، فالبابليون ثاروا لا مرة واحدة بل مرتين في سنة ٥٢٢ قبل الميلاد الحرجة وقد ثاروا مرة أخرى سنة ٤٨٤ قبل الميلاد، لكن في هذه المرة أخضع الفرس الثورة بشكل حاسم بحيث أن البابليين منذ ذلك الحين لزموا حدهم إلى أن حررهم الاسكندر»[٣].

---

١ ـ المصدر السابق، ص١٨٨.

٢ ـ المصدر السابق، ص١٨٧.

٣ ـ المصدر السابق، ص١٨٩.

داريوس يفرض ضرائب غريبة على بابل

ومن أحداث العنف الغريبة التي تصادفنا في تاريخ بلادِ الرافدين خلال الحكم الفارسي، أن الإمبراطور داريوس الأول الذي حكم خمساً وثلاثين سنة بين ٥٢١ ـ ٤٨٦ قبل الميلاد، عندما أراد تنظيم أمور الجباية في الإمبراطورية والولايات التابعة لها عيَّن على كل ولاية نوع الإتاوة أو الجباية التي يتوجب عليها تقديمها بحسب ما يتوفر في الولاية من ثروات كالنقود والإثمار أو الخيل أو المواشي. عدا ولاية بابل في وادي الرافدين فقد أوجب عليها أن تقدم له ٥٠٠ خمسمائة خصي في كل عام.

لننظر في هذا النص الذي يورده هارفي بورترِ: «ثم عين داريوس الإتاوة أو الجباية على كل ولاية بحسب ثروتها نقوداً وأثماراً وخيلاً ومواشي وما أشبه. ومن غرائب أموره أنه من جملة ما أوجبه على ولاية بابل أن تقدم له ٥٠٠ خصي. وكان الفرس مولعين باستخدام الخصيان وهي عادة مكروهة نجم عنها ضرر عظيم كما سيأتي...»[1].

لقد تحتم على هذه المدينة في وادي الرافدين ونعني بها بابل إخضاع خمسمائة شاب من شبابها كل عام إلى عملية عنف جسدية مؤلمة بما تحمله من مخاطر على حياتهم، ومنِ آثار نفسية سيئة لاحقة كي يتم إخصاؤهم من أجل أن يرسلوا إلى عاصمة الإمبراطورية الفارسية المحتلة كجزء من الجباية المتوجبة على المدينة، وإذا علمنا أن داريوس الأول هذا قد حكم مدة خمسة وثلاثين عاما أدركنا على وجه التقريب عدد الشبّان (العراقيين) الذين سحقوا تحت وطأة العنف والعذاب الجسدي والنفسي المؤلم الذي تستوجبه عملية الإخصاء كل عام في بابل.

وحتى لو افترضنا أن المصادفة العفوية الخالية من القصد الكيدي المتعمد هي التي دفعت داريوس الأول لاختيار ذلك القرار الضرائبي الغريب بشأن بابل دون غيرها من بلدان وولايات الإمبراطورية الفارسية المترامية الأطراف (أي تقديم ٥٠٠ خصي كل عام)، فإن العنف في هذه الحالة سيكون هو الحظ والقدر الملازم لهذه البلاد ينحاز نحوها وينجذب إليها ويصاحبها بمغناطيسية خفيّة حتى

---

١ ـ موسوعة مختصر التاريخ القديم، هارفي بورتر. مصدر سابق، ص١٦١.

عندما تكون المصادفة هي الدافع والسبب في الأعمال والفعاليات المتسمة بالسيطرة والقهر.

وهكذا انطفأ بريق الدول والأمم التي كانت تحكم في بلاد وادي الرافدين وأصبح دورها الآن باهتاً وثانوياً خلال فترة الاحتلال الفارسي.

وتحول مركز الصراع - وبالأخص الصراع السياسي والعسكري - إلى كل من الإمبراطورية الفارسية ودولة مقدونيا بقيادة الاسكندر والإمبراطورية البيزنطية فيما بعد...

بعد داريوس الأول جاء عدد من الملوك الفرس منهم أحشورش وزركسيس الثاني وداريوس الثاني ثم داريوس الثالث الذي حكم بين ٣٣٦ - ٣٣١ ق.م.

اندحار الفرس امام الاسكندر في شمال العراق /معركة كوكميلة ٣٣٠ ق.م

لعل أبرز أحداث العنف على أرض الرافدين خلال الحقبة الفارسية هي معركة كوكميله عام ٣٣٠ ق.م (وهو موقع يبعد ٦٠ كم غرب أربيل الحالية) بين الجيش الفارسي وجيش الاسكندر المقدوني، ويمكن اعتبار هذه المعركة أحد أشكال العنف القادم من الخارج والمنفذ على أرض الرافدين.

وكان داريوس بعد هزيمته في معركة إيسوس (شمال غرب سوريا) قد جهز جيشاً جديداً وأعده ونشره في منطقة كوكميلة على أحد روافد نهر الزاب الكبير وهي منطقة تبعد ٣٠ كم إلى الشمال الشرقي من الموصل وحوالي ٦٠ كم إلى الغرب من أربيل، وخلال المعركة فرّ داريوس من القتال أمام الاسكندر وتشتت جيشه وخسر الحرب ويذكر المؤرخون اليونانيون أرقاماً خيالية عن الخسائر التي حصلت في الجيش الفارسي في معركة كوكميلة فيذكرون أن خسائر الفرس كانت ٣٠٠,٠٠٠ ثلاثمائة ألف قتيل و٣٠٠,٠٠٠ وثلاثمائة ألف أسير، بينما لم يخسر الاسكندر أكثر من ١٠٠ مائة قتيل من جنوده ويبدو أنها

أرقام مبالغ فيها كثيراً حيث تشير بعض الدراسات أن «خسائر الفرس لم تكن تزيد عن ألف قتيل على أكثر تقدير»[1]

ونود هنا أن نوجه اهتمام القاريء إلى ظاهرة عابرة لفتت انتباهنا خلال إعداد البحوث الخاصة بفصول هذا الكتاب، وهي أن منطقة الزاب الأعلى (أو الكبير، وهو أحد روفد نهر دجلة) في شمال العراق قد شهدت معارك فاصلة كانت في غاية الخطورة والأهمية بالنسبة لمصير بعض الإمبراطوريات والدول والقادة في تاريخ العراق.

فبالإضافة إلى معركة كوكميله التي وقعت على أحد روافد الزاب الأعلى وقررت مصير الإمبراطورية الفارسية بأكملها وحَسمت النصر النهائي للإسكندر ووقوع العراق تحت سيطرته، فإن منطقة الزاب هي ذاتها كانت مسرح المعركة التي اندحر فيها الجيش الذي كان يقوده والي العراق الأموي عبيد الله بن زياد أمام جيش المختار الثقفي بقيادة إبراهيم الأشتر الذي انتهت بمقتل والي العراق عبيد الله بن زياد وقائده العسكري عمرو بن سعد وقطع رؤوسهم مع عدد من القادة المعروفين الذين شاركوا في موقعة كربلاء. كذلك كانت منطقة الزاب الأعلى هي أيضاً مسرح المعركة الفاصلة بين جيش العباسيين بقيادة عبد الله بن علي (عم السفاح) والجيش الأموي بقيادة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين والتي انتهت باندحار الجيش الأموي وسقوط الدولة الأموية وغيابها من التاريخ إلى الأبد، وقيام الدولة العباسية. إضافة إلى أحداث أخرى وقعت في هذه المنطقة سيتمكن القاريء من الانتباه إليها خلال سير الأحداث التاريخية.

بعد اندحار جيش الإمبراطورية الفارسية في معركة كوكميلة كان طبيعياً أن يتقدم الاسكندر ليحتل المدن الهامة في المنطقة ويحصل على طاعة حكامها، فتقدم نحو بابل التي سلمها حاكمها مازيوس دون قتال فأبقاه الاسكندر في مقامه غير أنه عين اثنين من أتباعه مع الحاكم توطيداً للثقة «ومكث في بابل نحو شهر واستراح بها جيشه بعد شديد المشاق»[2].

---

١ ـ العقيد محمد أسد الله، الاسكندر المقدوني الكبير، سلسلة أعلام العرب، دار النفائس، بيروت، ص١٥٥.

٢ ـ هارفي بورتر، موسوعة مختصر التاريخ القديم، مصدر سابق، ص٢٩٥.

وكما هو معلوم فقد تم توزيع إمبراطورية الاسكندر بعد وفاته واقتسامها بين قادته العسكريين.

بعد بضع مئات من السنين أنشأ أردشير الأول دولة مركزية قوية في فارس ما بين ٢٢٦ - ٢٤٠ بعد الميلاد وبلغت هذه الدولة الفارسية أوج قوتها في عهد سابور الثاني ٣٠٩ - ٣٧٩ بعد الميلاد.

وخلال ذلك كله كان العراق تحت السيطرة الفارسية.

العنف الدموي في دولة المناذرة:

لعلنا نستطيع أن ندرج الكثير من أحداث الفترة الممتدة من بداية القرن الرابع للميلاد وما بعده في إطار بحثنا عن العنف الدموي في العراق وذلك بسبب التصاعد المتواصل في منهج العنف وسفك الدماء خلال هذه الحقبة من تاريخ بلاد الرافدين.

ففي الحيرة - قرب مدينة الكوفة الحالية على نهر الفرات في وسط العراق - قامت في القرن الرابع للميلاد إمارة عربية عرفت بإمارة اللخميين أو المناذرة وأصلهم من اليمن وقد سمّوا بالمناذرة «لأن خمسة من ملوكهم كان اسم كل منهم المنذر»[1].

كما أقام الغساسنة «وهم قبائل يمنية أيضاً وأبناء عم للمناذرة»[2] في وقت واحد إمارة عربية في منطقة حوران في سوريا.

وكانت إمارة المناذرة في العراق تحظى بإسناد ودعم وتشجيع الفرس وحمايتهم، بينما كانت إمارة الغساسنة تحت حماية الإمبراطورية الرومانية البيزنطية.

ويبدو أن كلتي الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية قد صنعتا تلكما الإمارتين لتكونا حاجزاً على حدودهما الصحراوية في مواجهة غارات القبائل البدوية القادمة من الجزيرة العربية حتى أصبح بالإمكان القول «إن تاريخ بلاد

---

١ - د. عمر فرّوخ، تاريخ الأدب العربي، ج١، دار العلم للملايين، بيروت، ص٦٦.

٢ - المصدر السابق، ص٦٧.

العرب كلها في القرون الأولى التي سبقت ظهور محمد ﷺ هو قصة الصراع بين الشرق والغرب، بين فارس وبيزنطة، النزاع الذي دام خمسمائة عام بين جبارين، قامت بلاد العرب القزمة حداً فاصلاً بينهما، حيث أنشأت كلتا الدولتان دولة حاجزة في الأراضي العربية))[١].

ولما "كان الروم "البيزنطيون" والفرس أعداء لم تفتر الحرب بينهم منذ القرن السادس قبل الميلاد وحتى القرن السادس بعد الميلاد"[٢] فإن الميزة العامة للعلاقة بين الإمارتين العربيتين اتسمت هي الأخرى بالتوتر والحرب التي لم تنقطع أيضاً فكانت العلاقة بينهما سيئة في معظم الأحيان. وعلى الرغم من أن المناذرة في العراق والغساسنة في سوريا يرجعون إلى أصول قَبَلِيّة واحدة كما ذكرنا آنفاً وأنهما تشكلتا في توقيت زمني متقارب وأديتا مهمة عسكرية وسياسية متشابهة تقريباً أي أن كل إمارة منهما كانت تدافع عن الإمبراطورية التي تساعدها وتدعمها وتحميها فإننا سنجد أن تاريخ المناذرة في العراق يكاد يكون غارقاً بالأحداث الدموية والمكائد التي تتسم بالبطش والقسوة والغدر والعنف بينما لا يشكل هذا الأمر الصفة الغالبة في وصف تاريخ الغساسنة بشكل عام.

وإذا أردنا أن ندرج أبرز الأحداث الدموية الاستثنائية في تاريخ المناذرة (ملوك الحيرة) فبإمكاننا أن نذكر الأحداث التالية:

قام النعمان الأول ابن امرئ القيس الملقب بالأعور أحد ملوك الحيرة الذي حكم في أوائل القرن الخامس الميلادي (٤٠٠ - ٤١٨ بعد الميلاد) ببناء قصري الخورنق والسدير الشهيرين ((ويقال أن الخورنق بناه المهندس سنمار لكي يكون سكناً لبهرام جور بن يزدجر الأول الذي رأى والده أن يربيه تربية عربية قوية في كنف النعمان))[٣].

أما القصة التي تحكيها الراويات عن الطريقة الشنيعة التي قتل فيها الملك النعمان الأول مهندسه الرومي سنمار الذي بنى له قصر الخورنق، بإلقائه من

---

١ - روم لاندو، الإسلام والعرب، دار العلم للملايين، بيروت،١٩٦٢، ص ٢٢ - ٢٣.

٢ - د. عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج١، دار العلم للملايين، بيروت،ص٥٥.

٣ - الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، ص٢١٨.

أعلى القصر بعد إنجازه العمل فهي حتى إنْ كانت حكاية إسطورية من نسج الخيال أو ابتكار الرواة فإنها تدل في كل الأحوال على الرغبة في التدليل على ما كان عليه هذا الملك من ظلم وجبروت وعصبية وتسرع وميل للقتل وسفك الدماء وهي صفات تميزت بها أعماله الأخرى التي اتسمت بالعنف والدموية والغدر والروح العدوانية.

في المعركة التي حدثت بين ملك الحيرة المنذر بن ماء السماء (حكم بين ٥١٤ - ٥٥٤م) وبين الملك الغساني الحارث بن أبي الشمر وقع ابن الحارث الغساني أسيراً لدى المنذر بن ماء السماء فأمر بذبحه ضحية للعزّى فذبح... «ويقال أنه قدّم ٤٠٠ أربعمائة راهبة نصرانية ذبيحة لتلك الألهة نفسها»[1]. ولابد أن يكون ذلك قد وقع قبل اعتناقه النصرانية.

إن هذا الحادث ينضح بالشراسة والهمجية والقسوة والدموية.

في حادث آخر قتل المنذر بن ماء السماء نديمين له «وهما خالد بن نضلة الفقعسي وعمرو بن مسعود»[2] وهو سكران فلما صحا من سكره وعرف ما أقدمت عليه يداه ندم وبكاهما وأمر ببناء صومعتين على قبرهما وسُمّيا الغريّان وأمر أن تقدم النذور والقرابين لهذين القبرين «وجعل لنفسه يومين في السنة يجلس فيهما عند الغريين يسمى أحدهما يوم نعيمه والآخر يوم بؤسه، فأول من يطلع عليه يوم نعيمه يعطيه مئة من الإبل وأول من يطلع عليه يوم بؤسه يأمر به فيذبح ويُرش بدمه الغريان»[3] وقد قتل عدداً من الناس بهذه الطريقة ومن بين الذين قتلهم في يوم نحسه صديقه الشاعر عبيد بن الأبرص[4] لأنه كان أول من صادفه في ذلك اليوم النحس «ولطّخ بدمه الغريين»[5].

ولم يكن المنذر بن ماء السماء هو الحاكم العراقي الوحيد الذي قتل أصحابه وأصدقاءه ثم ندم وبكى عليهم بعد قتلهم وهذا الطبع كان موجودا لدى

١ - الدكتور فيليب حتي، تاريخ العرب، دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع، ص١٢٣.
٢ - د. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، دار المعارف مصر، ص٤٥.
٣ - الدكتور فيليب حتي، تاريخ العرب، مصدر سابق، ص١٢٣.
٤ - د. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، مصدر سابق، ص ٤٥.
٥ - الشعر والشعراء لابن قتيبة ص١٨٨ دار الثقافة، بيروت، وقد جعل ابن قتيبة بطل هذه الحادثة النعمان بن المنذر وهذا خطأ.

الحكام في العراق قبل المنذر وبقي لديهم بعده كما سنرى وربما هو قائم حتى هذه الأيام. فقد بكى المهدي صديقه الشاعر بشار بن برد وبكى الرشيد على البرامكة بعد قتلهم... وهكذا..

ويبدو أن مثل هذا السلوك هو سلوك قهري استحواذي متسلط لا حيلة لصاحبه فيه يستحكم في تصرفات الفرد ويدفعه للنزوع نحو العنف والعدوانية، إنه أحد صفات الشخصية السايكوباتية في علم النفس والتي تتميز باستحواذية السلوك العدواني واللامسؤولية الخلقية والفجاجة العاطفية[1].

وأقبل المنذر على محاربة الروم في سورية فقهرهم وأوقع بهم واستتبع الغارة على مدائنهم الى حدود انطاكية فعم الأرض الدمار الى ان نشط[2] الغساسنة في محاربته حيث مات هذا الملك (العراقي) المنذر بن ماء السماء قتلاً بعد فشل هجومه على بلاد الشام عام ٥٥٤ بعد الميلاد إذ قتله الملك الغساني الحارث بن جبلة وأسر ابنه في المعركة المعروفة بيوم حليمة....

وبعد مقتل المنذر بن ماء السماء جاء ابنه عمرو بن المنذر الملقب بعمرو بن هند نسبة لأمه هند «وكان طاغية مستبداً»[3] وقد لقبه العرب بالمحرّق لأنه أحرق بالنار مائة رجل من بني تميم بعد قتلهم. لقد توغل هذا الحاكم بعيداً في درب العنف الدموي والاستبداد فكان عهده ملطخاً بالدم والهمجية، وبسبب استبداده فقد هجاه كثير من الشعراء ومن بينهم الشاعر طرفة بن العبد والمتلمس بن علس فاحتال عليهما وأرسل بيد كل منهم رسالة غادرة إلى حاكمه في البحرين يأمره فيها بقتل حامل الرسالة حين وصوله بينما أبلغ طرفه وصاحبه المتلمس أنه كتب لوالي البحرين أن يعطيهما جائزة لكل منهما وقد فتح المتلمس الرسالة وعرف مضمونها فهرب واختفى، أما طرفة بن العبد فقد سافر إلى البحرين لاستلام الجائزة وسلم الرسالة فقتله والي البحرين بأن قطع وريداً في جسمه فأحدث نزيفاً بطيئاً بالوريد فمات...

---

١ ـ ميخائيل إسماعيل أسعد، علم الاضطرابات السلوكية، مؤسسة النوري للطباعة والنشر، دمشق، ص٢٧٧

٢ ـ فيليب حتى، تاريخ العرب، مصدر سابق، ص ١٢٢.

٣ ـ د.شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، مصدر سابق، ص٤٥.

أما آخر أعمال هذه الملك فهي إقامته لوليمة كبيرة دعى إليها صديقه الشاعر عمرو بن كلثوم سيد بني تغلب وأمه ليلى بنت المهلهل بن ربيعة وكان غرضه من ذلك هو تدبير الإهانة المتعمدة خلال تلك الوليمة لضيفه عمرو بن كلثوم وأمه ليلى من أجل إذلالهما بين قبائل العرب، وقد تم ذلك بالفعل فقد أهينت أم عمرو بن كلثوم داخل السرادق الملكي عندما طلبوا منها أن تقوم بخدمة أم الملك عمرو بن هند فصرخت مستنجدةً بابنها فكان الرد الفوري لدى ابنها عمرو بن كلثوم عنيفاً جداً دفعه إلى قتل الملك عمرو بن هند خلال تلك المأدبة بسيف كان معلقاً على الحائط والإيعاز إلى أتباعه من بني تغلب بنهب السرادق الملكي والسير نحو الجزيرة في عمق الصحراء... وهي الحادثة التي ذكرها في قصيدته الشهيرة حيث وصف فيها قتله للملك عمرو بن هند، والتي يقول في مطلعها:

ألا هبي بصحنك فاصبحينا	ولا تبقي خمور الاندرينا
أبا هند فلا تعجل علينا	وانظرنا نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضاً	ونصدرهن حمراً قد روينا
وسيد معشر قد توّجوه	بتاج الملك يحمي المحجرينا
تركنا الخيل عاكفة عليه	مقلدة أعنتها صفونا

وهكذا فقد انتهت تلك المكيدة بمقتل ملك الحيرة (العراقي) عمرو بن هند الذي كان هو قد دبرها وأعدها وأضمر فيها الشر والأذى والإساءة لصديقه وضيفه عمرو بن كلثوم، ولعل من المفيد الإشارة أن تلك الحادثة قد وقعت في عام ٥٧٠ للميلاد وهو العام الذي ولد فيه الرسول محمد بن عبد الله ﷺ.

بعد مقتل الملك عمرو بن هند حكم أخوه النعمان بن المنذر المعروف بأبي قابوس وكان حكمه بين عام ٥٨٣ ـ ٦٠٥ بعد الميلاد وقد «لقب بالصعب لسرعة غضبه وأخذه بالوشايات»[1] ويبدو أن هذا اللقب كان مناسباً له بالفعل ومطابقاً لوصف سلوكه وطباعه ومنهجه الشرس في الحكم فكانت الدسائس

١ ـ د.سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ العرب قبل الإسلام، مصدر سابق، ص٢٢٥.

والمكائد وأعمال الغدر والتصفيات الدموية التي مارسها خلال حكمه هي أبرز ما ميزت عهده. وربما وجدنا من المفيد التوقف قليلاً عند إحدى الحوادث المثيرة التي جرت في عهده والنظر في بعض تفاصيلها لما تحمله من معاني الغدر والتآمر ونكران الجميل.

فقد كان النعمان بن المنذر قد زوج ابنته هند من شاب شاعر وكاتب اسمه عدي بن زيد، وكان هذا الشاب ذا حظوة لدى ملك الفرس كسرى لثقافته الواسعة وأدبه وبلاغته وحسن لسانه، وقد كلفه كسرى بمهمات سياسية لدى قيصر الروم حوالي ٥٨١ للميلاد[1]. وقد نجح في إنجازها وإتمامها على خير وجه. وهو الذي يعود له الفضل في إقناع كسرى في بادئ الأمر بتنصيب النعمان بن المنذر ملكاً على الحيرة دون إخوته الآخرين... لكن النعمان بن المنذر قد تنكر لكل ذلك وبادر بالغدر... إذ سرعان ما غضب على صهره عدي بن زيد وسجنه مدة غير قصيرة، وقد نظم عدي خلال سجنه قصائد كثيرة في الشكوى والعتاب والاستعطاف والرجاء رفعها للنعمان فلم يطلق سراحه.

ولما علم كسرى بوجود عدي في سجن النعمان أرسل من يستقصي أخباره، فما كان من النعمان بن المنذر حين سماعه بوصول رسول كسرى لتقصّي الحقائق حول عدي بن زيد إلاّ أن سارع بقتله في السجن، وذلك بخنقه داخل زنزانته والادعاء بعدم علمه بوجوده أو بأخباره ولكن رسول كسرى كان قد دخل السجن سراً دون علم النعمان وقابل عدي قبل مقتله، وأعلم كسرى بالأمر فغضب لذلك واستدعى النعمان بعد فترة من الزمن إلى المدائن (العاصمة ٤٠ كيلو متراً جنوب شرق بغداد الحالية، وهناك «رمى به تحت أرجل الفيلة فمزقته إرباً»[2].

ومهما تكن تفاصيل تلك الحادثة التي ترويها أكثر المصادر الأدبية والتاريخية، فإننا في كل الأحوال نقف أمام ملك آخر من ملوك الحيرة العراقيين، فنراه يشرب من ذات الكأس الدموية التي جرّعها للآخرين... فيموت ميتة شنعاء قتلاً تحت أرجل الفيلة، وكان ذلك حوالي عام ٦٠٢ بعد الميلاد. أما عدي بن زيد السجين

١ ـ د. سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ العرب قبل الإسلام، مصدر سابق، ص٢٢٥.

٢ ـ المصدر السابق، ص٢٢٨.

القتيل، فلعله ليس السجين السياسي الوحيد في العراق الذي تصاعدت عقوبته لتصل إلى الإعدام بينما هو قابع في زنزانته يقضي عقوبة السجن... فينزل به حكم الموت وينفذ فيه الإعدام بسبب أحداث ومؤامرات تجري في خارج السجن لا علم له بها ولا دور له فيها... والأمثلة في ذلك كثيرة في التاريخ العراقي... فقد قضى الحلاج في بغداد مدة ثماني سنوات داخل السجن ليقاد في آخرها إلى الإعدام...

ومن جانب آخر فإن أكثر المصادر التاريخية تكاد تجمع أن بلاط ملوك الحيرة كان في بعض تاريخه يعجّ بالشعراء والأدباء والمثقفين والندماء، إذ كان المناذرة يكرمونهم تكريماً بالغاً ويقربونهم ويخصّونهم بالهدايا والجوائز السنية الثمينة ويحيطونهم بالاهتمام والتقدير المبالغ فيه، وهي العادة العراقية في كل الأزمان... غير أن تلك العلاقة رغم ما كان يحيطها من مظاهر الصداقة والتكريم الفائق والوفادة والثراء والمودة الحميمة في ظاهر الحال إلا أنها كانت على الدوام محفوفة بخطر الانتكاس والغدر المفاجئ والتقلب في المزاج والغضب السريع الحاد المدمر حيث سرعان ما تتبدل مواقف الحاكم وقناعاته وأحكامه بوشاية مغرضة أو مكيدة مدبرة أو أخبار مدسوسة غير مؤكدة وتتحول مشاعره إلى كره وبغض وعداء ونفور وحقد سافر لا حدود له، تكون نتيجته القتل أو السجن أو التنكيل أو الإهانة البالغة أو الانتقام الدموي الذي ينزل بالشاعر أو الأديب أو النديم...، إنها إحدى الصفات التي يتميز بها سلوك الفرد العراقي ونزوعه نحو التسرع في ممارسة العنف قبل التبصر بحيثيات الوقائع أو تدقيقها...

وقد تعطينا الأحداث التي تعرض لها بعض الشعراء والأدباء والمفكرين والمعاناة المريرة التي قاسوها فكرة واضحة عن التقلب المفاجئ والحاد في أمزجة ملوك الحيرة (العراقيين) تجاه حاشيتهم وأصدقائهم وندمانهم والمقربين منهم من الأدباء والشعراء، فالشاعر عبيد بن الأبرص وطرفة بن العبد وعدي بن زيد والمنخل اليشكري[1] وخالد بن نضلة الفقعسي وعمر بن مسعود وغيرهم كانوا أصدقاء مقربين من ملوك الحيرة قبل أن ينقلب الملوك عليهم ويقتلونهم في ساعة

---

١ - يروي ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء: أن عمر بن هند هو الذي قتل الشاعر المنخل اليشكري.

من ساعات الغضب المفاجئ والتوتر الطائش. أما أمثال النابغة الذبياني وعمرو بن كلثوم والمتلمس بن علس وغيرهم من أصدقاء أولئك الملوك ممن نجوا من الموت فقد استطاع كل واحد منهم أن يحتال لنفسه بإسلوبه الخاص ليُنقذ حياته وينجو إما بالهرب أو الاعتذار أو الاختفاء أو غيره.

إن هذا الواقع الذي تميزت به تلك العلاقة القلقة والشرسة بين ملوك الحيرة وبين ضيوفهم من الأدباء والشعراء هو واحد من أشكال منهج العنف والقسوة والتقلب المزاجي الحاد الذي اكتنف علاقة أكثر الملوك والحكام العراقيين بأصدقائهم وندمانهم والمقربين منهم من الذين نالوا الحظوة والوفادة والتكريم في بادئ الأمر. ولعل من اليسير على الباحث أو المؤرخ أن يعثر على العديد من أمثلة هذا النمط السلوكي العدواني الحاد في وقائع مُشابهة ومتكررة في تاريخ العراق.

وفي هذا العصر الحديث كان الشاعر العراقي، الجواهري صديقاً مقرباً من الزعيم عبد الكريم قاسم حاكم العراق القوي في الستينات من القرن العشرين، وقد نَظَم في مدحه والإشادة به قصائد رائعات ستبقى كاللآلئ المضيئة على مر التاريخ والقرون، غير أن ساعة من ساعات الغضب والجفوة والوحشة التي عكرت الصداقة جعلت عبد الكريم قاسم يقدم دون تردد على سجن صديقه الشاعر الجواهري في بغداد ثم يأمر بعد فترة بإطلاق سراحه بكفالة نقدية زهيدة مقدارها درهم واحد إمعاناً في إهانته واحتقاره، وذلك في عام ١٩٥٩

و لم تكن تلك الحادثة هي الوحيدة في حياة ذلك الجواهري الشهير مع الحكام في العراق، فقد قضى معظم حياته بين الهروب والنفي والتشرد والمضايقة في أكثر العهود السياسية المتعاقبة، قبل أن يلجأ ويموت في سوريا أرض الغساسنة التي كان قد التجأ إليها قبل حوالي ١٥٠٠ سنة تقريبا الشاعر النابغة الذبياني هرباً وخوفاً من أصدقائه ملوك الحيرة (العراقيين)[1].

---

١ ـ أقام النابغة الذبياني علاقة ببلاط الحيرة حوالي عام ٥٣٠ بعد الميلاد ومدح المنذر بن ماء السماء ولما جاء بعده عمرو بن هند إلى عرش الحيرة ٥٥٤ وقعت بينه وبين النابغة جفوة ووحشة فغادر الحيرة إلى الشام، وبعد وفاة عمر بن هند حوالي عام ٥٦٩ بعد الميلاد عاد النابغة إلى الحيرة، واتصل بالنعمان أبو قابوس وحصل على جوائزه وعطاياه، ثم ما لبث أن غضب عليه النعمان أيضاً، فهرب مرة أخرى إلى الغساسنة وأخذ النعمان يعاتبه ويتهدده فخاف وصار يمدحه ويعتذر إليه بقصائد عدة سميت في الأدب: بالاعتذاريات، غير أن النعمان كما قيل لم يرض عنه وتوفي ٦٠٤ للميلاد.

بعد مقتل النعمان بن المنذر كلف كسرى إياس بن قبيصة الطائي بإمارة الحيرة بعد أن قرر التخلص من المناذرة اللخميين وإنهاء ملكهم.

وفي تلك الحقبة حدثت الموقعة المعروفة بذي قار على أرض العراق والتي انتصرت فيها القبائل العربية وانهزم فيها الفرس مع بعض أتباعهم من القبائل الموالية لهم، وكان ذلك في عام ٦١١ بعد الميلاد، ويبدو أن الفرس قرروا بعد هذه الموقعة حكم الحيرة حكماً مباشراً.

وخلال تلك الفترة (أوائل القرن السابع الميلادي)، وبعدها بقليل وفي مكان غير بعيد عن وادي الرافدين كان يتلجلج في الأفق انبثاق دين جديد على البشرية، حيث كان الرسول محمد بن عبد الله ﷺ في عمق الجزيرة العربية يجاهد دون هوادة لتثبيت أسس الدين الإسلامي، ويواصل الدعوة لنشره والتبشير به ليس في الجزيرة العربية فحسب بل في العالم أجمع.

ويرتسم أمامنا في عام ٦٢٢ للميلاد بداية تقويم جديد في العالم هو التقويم الهجري الذي جعل تاريخ هجرة الرسول محمد وأتباعه من مكة إلى المدينة المنورة هي البداية الأولى لهذا التقويم، ومنذ ذلك التاريخ وبعده بقليل بدأت تشرق بإشعاع متواصل شمس الإسلام وتعاليمه الفلسفية والأخلاقية الجديدة التي استطاعت خلال فترة وجيزة تنظيم المجتمع العربي في شبه الجزيرة العربية، والانطلاق به في موجات من الفتوحات الإسلامية التبشيرية تحمل تعاليم الدين الجديد إلى كل أنحاء العالم. وكان العراق بين أولى الجبهات التي انطلقت نحوها الحملات العسكرية للجيوش الإسلامية، وبذلك بدأ عهد جديد من الأحداث على أرض الرافدين.

مذبحة في البلاط الساساني في العراق ٦٣٠ بعدالميلاد:

وعندما كانت جيوش الفتح الإسلامي بقيادة خالد بن الوليد تدق أبواب الحيرة[1] في العراق كان التفسّخ والصراعات الدموية التصفوية تفتك بالعرش الفارسي المخيم على العراق وفي إطار ذلك الصراع حصل ما يشبه المذبحة

---

١ ـ الحيرة ، مدينة تقع على نهر الفرات قرب الكوفة في وسط العراق.

داخل البلاط الساساني في القصر الأبيض بالمدائن (طيسفون) وهي عاصمة الملك كسرى التي يبعد موقعها اليوم حوالي ٤٠ كم إلى الجنوب الشرقي من بغداد.

ومن المفيد أن نشير إلى تلك المذبحة باعتبارها إحدى صور العنف الدموي المنفذ على أرض الرافدين فقد «ثار الفرس على كسرى بعد أن حكمهم ثمانية وثلاثين عاماً، وقتله ابنه شيرويه بن مريم الرومية الذي ملك بعده، وقَتَلَ شيرويه إخوته الذكور السبعة عشر وكانوا ذوي أدب وشجاعة ومروءة وذلك حتى لاينافسه أحد منهم على عرش فارس.. وأباد شيرويه من قدر عليه من أهل بيته، وجمع نساء آل كسرى فحبسهن في القصر الأبيض بالمدائن»[1]، ثم مات شيرويه بن كسرى «وملك أردشير بن شيرويه وكان طفلاً ابن سبع سنين فثار عليه شهر براز أحد قواد الفرس وقتل الملك الطفل ونصّب نفسه ملكاً أربعين يوماً قتله بعض الفرس بعدها وسحلوه وملّكوا بوران بنت كسرى عمة يزدجرد»[2]

إن النصوص التي نقلناها حرفياً أعلاه تشير إلى وجود مطحنة دموية شرسة كانت تجري في أرض العراق داخل العاصمة الساسانية بل داخل البلاط المَلكي الساساني في المدائن في حوالي عام ٦٣٠ للميلاد، ونود أن نشير على القارئ هنا بضرورة الانتباه إلى كلمة (وسحلوه) الواردة في النص السابق والمشتقة من كلمة (السحل) وهي المفردة الدموية التي ستصادفنا في قاموس الشارع العراقي بعد أكثر من ١٣٠٠سنة من هذه الواقعة أي في عام ١٩٥٨ بعد الميلاد خلال المجزرة الدموية الأخرى التي حصلت في البلاط الملكي في العراق أيضاً، والسحل الذي نفذ بجثث أفراد العائلة الملكية وحاشيتهم وبعض المسؤولين إثر سقوط النظام الملكي في العراق في تلك السنة.

إن مكان المجزرة الدموية التي جرت في البلاط الملكي ببغداد عام ١٩٥٨ للميلاد لا يبعد أكثر من ٤٠ أربعين كيلومتراً عن موقع المجزرة الدموية التي جرت في البلاط الملكي في المدائن عام ٦٣٠ للميلاد...

---

١ ـ سقوط المدائن ونهاية الدولة الساسانية، أحمد عادل كمال ص٣١٠، دار النفائس بيروت.

٢ ـ نفس المصدر ص٣١١.

وهكذا فإن دولاب الدم ما زال يدور بانتظام في أرض العـراق منـذ العهـود السومرية...

الفصل الثالث

أحداث العنف الدموي في العراق

من بداية الفتح الإسلامي وحتى نهاية الحكم الأموي

٦٣٤م - ٧٥٠م

- ـ حجم العنف الدموي في معارك فتح العراق
  - ـ معركة الـيّس
  - ـ معركة جلولاء
  - ـ معركة تكريت
  - ـ معركة القادسية
- ـ مقارنة قياسية في العنف الدموي بين العراق والشام
- ـ معركة الجمل انتصار لإرادة العنف الدموي
- ـ مواقف أهل العراق من الامام علي وابنيه الحسن والحسين
- ـ الانتقام الدموي في حركة المختار بن عبيد الثقفي:
  تصدير الرؤوس الآدمية
- ـ الحجاج بن يوسف الثقفي/ الساطور الدموي
- ـ اهل العراق/ التطرف والبصيرة العمياء
- ـ مسؤولية أهل الكوفة في مقتل زيد بن علي بن الحسين.
- ـ سقوط الدولة الاموية.

في بداية هذا البحث نود التذكير مرة أخرى أننا لا نقـوم بكتابـة التـاريخ أو تسجيل وقائعه وأحداثه، فكتابة التـاريخ موضـوع مُنجـز ومُنفـذ بإتقـان، وتقـوم بتقديمه لنا على نحو أكاديمي علمي موثق المئـات مـن الكتـب والمصـادر والمراجـع والمؤلفات والبحوث المنهجية الدقيقة.. إننا هنـا نقـوم بالتقـاط ورصـد الأحـداث التاريخية ذات الطبيعة المتصلـة بـالعنف الدمـوي في أرض العـراق ومدنـه، خدمـة لأهداف بحثنا في تحليل الدوافـع والأسـباب الـتي كوّنـت هـذا التـاريخ المشـحون بأعمال العنف والسلوك العدواني في العراق.. وقد يكون مـن المفيـد أن نسـترعي انتباه القارئ خلال هذا الاستعراض أن غياب الحديث عن مدينـة مـا مـن مـدن العراق أو التوقف عن ذكر اسمها في فعاليات العنف الدموي خلال سـير البحـث التاريخي إنما يعود في أغلب الأحيان إلى سببين **أساسيين**:

إما أن تكون تلـك المدينـة لم تنشـأ بعـدُ أي لم تُبْـنَ و لم تظهـر للوجـود و لم تسكنها حتى ذلك الوقت تجمعات بشرية كافية لإدارة عمليـات العنـف وسـفك الدماء، كما هو الحال في مدن البصرة والكوفة والحيرة وبغداد والموصـل وواسـط والمختارة وغيرها من المدن التي لم يـرد ذكرهـا في عهـود سـومر وبـابل وآشـور مثلاً، لكنها سرعان ماتحولت إلى مسارح للعنف الدموي فور بنائها وإنشـائها في العصور اللاحقة.

وإما أن تكون تلك المدينة قد أدت دورها كاملاً وواسعاً وخطيراً في مسـيرة العنف والمجازر البشرية ونالت حصتها من أعمـال القسـوة وسـفك الدمـاء سـواء كانت قاتلة أو مقتولة، معتديـة أو معتـدى عليهـا، ثـم اندثـرت وانطفـأ دورهـا وتوقف إشعاعها الدموي كما هو الحال في اسم نينـوى وآشـور وسـومر وآكـاد التي لم يعد لها ذكر في أحداث العنف الدموي في العصور الإسلامية والمتأخرة.

وعلى العموم فإن مانريد الإشارة إليه وتوضيحه هنا ـ دون أن نخفي مشاعر الحزن والألم والأسف، هو ذلك التلازم الزمني والمكاني بين وجود المدينة العراقية ووجود العنف الدموي حتى لتكاد تشكل مايشبه الظاهرة أو الحقيقة التاريخية الثابتة، وهي أن مجرد وجود المدينة على قيد الحياة في بلاد وادي الرافدين فإن ذلك يعني تحولها إلى مسرح من مسارح العنف الدموي والقتل وسفك الدماء، ولا فرق في النتيجة إنْ كانت تلك المدينة هي المعتدية على غيرها أو كانت معتدى عليها من قبل غيرها. فقد تعددت الأسباب في كل مرة إلا أن العنف الدموي وسفك الدماء هو الظاهرة الثابتة المستمرة وهو الحقيقة المؤسفة التي تؤكدها وقائع التاريخ وكأنها القدر الإلزامي المترافق مع حياة وتاريخ كل مدينة من المدن العراقية.

ومن الطبيعي أن نذكر القارئ بأننا هنا لا نتحدث بل ولا نهمل الدور التاريخي والحضاري الذي قامت به المدن العراقية في تاريخ البشرية، ذلك الدور الموغل في القدم والهائل في الحجم والأهمية..

إن الفترة الزمنية التي يتناولها هذا الباب تتجاوز المائة عام بقليل فهي تنحصر بين أعوام ٦٣٤ - ٧٥٠ للميلاد، غير أنها رغم قصرها مشحونة بدرجة غير معقولة بأحداث التطرف والعنف والصراعات التصفوية وهدر الدماء حتى يبدو فيها العراق مسرحاً يموج بأحداث العنف والاضطرابات الدموية. وقد توزعت تلك الأحداث جغرافياً في الجنوب والوسط والشمال وتناثرت على كل أرض الرافدين و لم تقتصر على قسم دون آخر حتى بدت وكأنها تطريز متناظر في سجادة شرقية.

ورغم كثرة الشواهد والوقائع والأمثلة ورغم توفر المادة التاريخية التي تخدم بحثنا هذا في هذه الفترة فإن استعراضنا للأحداث سوف لن يكون استقصائياً بل سنلجأ، منعاً للإطالة، إلى انتقاء عدد من الوقائع ذات العلاقة بالعنف الدموي على نحو استثنائي كما أسلفنا.

حجم العنف الدموي في معارك فتح العراق

إن أهم المواضيع التي يتوجب الحديث عنها في هذه الحقبة التاريخية هي معارك الفتح الإسلامي للعراق ووقائع العنف الدموي التي حصلت بعد ذلك في

صفوف المسلمين خلال الصراعات والتمردات التي شهدتها البلاد الإسلامية بعد وفاة الخليفة عثمان بن عفان (رض) وتحول العراق الى ساحة رئيسية في الصراعات والمعارك الدموية بين المسلمين بعد انتقال مركز الخلافة إلى مدينة الكوفة في العراق وما نتج عن ذلك من تطورات لاحقة بين شيعة الإمام علي وأولاده وبين الأمويين، ثم الصراع الدموي المرير بين الأمويين والعباسيين وما تخلل ذلك من ثورات عديدة ومتلاحقة واجهت الأمويين في العراق وسبقت انفجار الصراع الذي أطاح في النهاية بالحكم الأموي بل وأزال الدولة الأموية من الوجود.

ففيما يتعلق بمعارك الفتح الإسلامي سوف نتحدث بصورة مختصرة عن أربعة معارك عسكرية كنماذج لتلك الحروب التي أدت في نهايتها إلى فتح العراق وإسقاط الإمبراطورية الفارسية هي معارك/ ألّيس/ وجلولاء/ وتكريت/ والقادسية/، رغم أن الوقائع العسكرية التي حصلت خلال فتح العراق كانت كثيرة حيث كان معظمها يسمى بأسماء الأماكن أو الأحداث التي حصلت فيها مثل معركة السلاسل، ومعركة المذار، ومعركة الولجة، ومعركة ألّيس، وأمغيشيا، وعين التمر، ودومة الجندل، والحيرة.. وهذه المعارك حدثت في المرحلة الأولى من عملية فتح العراق وكان يشترك فيها سعد بن أبي وقاص والمثنى والقائد العسكري البارز خالد بن الوليد قبل انتقاله للمشاركة في فتح الشام. وفي المرحلة الثانية تبرز أسماء معارك أخرى مثل، / النمارق/ والسقاطية/ ووقعة الجسر/ والبويب/ والمدائن/ والقادسية/ وجلولاء/ وتكريت/ وغيرها. أما اقتصار حديثنا في هذا البحث على معارك ألّيس وجلولاء وتكريت والقادسية فهو من أجل استخدامها كشواهد ودلائل على ماحصل من عنف فائق مبالغ فيه وصدامات دموية شديدة القسوة نفذت على أرض العراق:

معركة ألّيس:

ففي معركة ألّيس وهي إحدى المعارك التي قادها خالد بن الوليد (حوالي عام ٦٣٤م / ١٢ هـ)، في القسم الأوسط من العراق شمال الحيرة على نهر الفرات، كانت قوات الفرس تقاتل بشدة وضراوة ومعها عدد من القبائل العربية الموالية، وكانت حاقدة وموتورة لأن خالداً كان قد سبق له أن قتل بعض أبنائها

في صدامات سابقة، وقد أرسل الفرس لهم جيشاً مسانداً قبل بدء القتال بينما كانوا ينتظرون وصول جيش فارسي آخر يقوده (بهمن) أحد قادة الفرس المشهورين لإسناد القوة الفارسية المشتركة في تلك المعركة، فكان الوضع المعنوي والتعبوي للفرس عالياً.

وبدأ القتال بين الطرفين وكان قتالاً ضارياً وصبر المسلمون صبراً بليغاً.. ويبدو أن خالد بن الوليد وجيشه قد تعرض في تلك المعركة الى مأزق شديد جعله يقسم على نفسه يميناً إلى الله أن يُجري نهر الفرات بدماء أفراد الجيش المعادي إن كتب الله له النصر في تلك المعركة العنيفة حيث قال: «اللهم لك عليَّ إن منحتنا أكتافهم أن لا استبقي منهم أحداً أقدر عليه حتى أجري نهرهم بدمائهم»[1] وكان قد تم تحويل مجرى ماء النهر في ذلك الموقع..

ثم جاء الفرج ومالت الكفة لصالح المسلمين وبان النصر لهم «فنادى منادي خالد، الأسر: الأسر، لا تقتلوا إلا من امتنع عن الأسر. فأقبلت الخيول بهم أفواجاً يساقون سوقاً وقد أوكل بهم رجال يضربون أعناقهم في النهر، ففعل ذلك بهم يوماً وليلة ويطلبهم في الغد وبعد الغد، وكلما حضر أحد ضربت عنقه في النهر وقد صرف ماء النهر إلى موضع آخر فقال له بعض الأمراء: إن النهر لا يجري بدمائهم حتى ترسل الماء على الدم فيجري معه فتبرَّ بيمينك فأرسله فسال النهر دماً عبيطاً»[2].

هذا ماورد نصاً في كتاب (البداية والنهاية) لابن كثير وورد مايشبه ذلك ويؤكده في مصادر أخرى. وهكذا فقد استمر الذبح في هؤلاء الأسرى مدة ثلاثة أيام دون أن يجري الدم كما يجري ماء النهر وفق ماتوقع خالد فجاء بعضهم إليه وبينهم القعقاع وقالوا له: «لو أنك قتلت أهل الأرض لم تجر دماؤهم، إن الدماء لا تزيد على أن ترقرق»[3]. وهذا الأمر صحيح بالفعل، فالدم لا يجري كالماء بل يترقرق بسبب لزوجته فإذا أراد أن يفي بقسمه ويمينه فعليه أن يجري الماء مع الدم فيسيل؛ فأجرى ماء النهر مع الدم... فسال أحمراً قانياً..

---

١ ـ البداية والنهاية لابن كثير ج٦ ص٣٨١ ، دار إحياء التراث العربي وتاريخ الطبري ج٣ ص٣٥٦ دار التراث ببيروت.

٢ ـ البداية والنهاية لابن كثير الجزء السادس ص٣٨١ دار إحياء التراث العربي.

٣ ـ تاريخ الطبري ج٣ ص٣٥٧ ـ دار التراث ـ بيروت.

كانت تلك المطحنة البشرية هي ما أسفرت عنها معركة واحدة من بين المعارك، الضارية التي جرت من أجل فتح العراق.

ولننظر الآن إلى ما فعله خالد بن الوليد ذاته في مدينة دمشق خلال فتح الشام بعد أن حاصرها مدة ستة أشهر قاومت فيه الجيش الإسلامي مقاومة عنيفة تخللها معارك ومناوشات وهجمات كان يقوم بها المدافعون عن المدينة ضد مواقع وتجمعات كتائب الجيش الإسلامي، سقط فيها عدد غير قليل من المسلمين، غير أنها استسلمت بعد ذلك إثر خيانة حصلت من بعض المشرفين على إحدى بواباتها وبعض أرباب السلطة المدنية والروحية[1]. (انظر شكل رقم: ٩).

لقد كتب خالد لأهل دمشق عهداً من الأمان وقعه باسمه شخصياً، هذا نصه وفق ما ذكره البلاذري:

« بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها: أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم، وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم، لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله، (صلعم) والخلفاء والمؤمنين، لا يعرض لهم إلا بالخير إذا أعطوا الجزية»[2] (انظر شكل رقم: ١٠)

وإضافة إلى ذلك العهد فقد سمح خالد لأهل دمشق ممن أراد الالتحاق بالروم دون أن يعطي الجزية أن ينتقل ويخرج بأمان وحرية وأن يأخذ ما شاء من ثرواته وأمواله وحاجياته ومقتنياته، وهكذا خرج من دمشق موكب ضخم يضم قوافل سيارة تحمل أثمن الكنوز وخزائن المال والذهب والحرير الدمشقي والتحف والسيوف النادرة وصناديق مغلقة تحوي أغلى المقتنيات، وسار معها أصحابها من الرجال والنساء والفتيات والمحاربين وكل من أراد السفر وترك المدينة للالتحاق بالروم، وقد مرّ ذلك الموكب الغني بكنوزه وموجوداته الثمينة ونسائه الجميلات أمام مرأى الجيش الإسلامي المحارب القادم من الصحراء الذي اصطف أفراده يراقبون بانضباط تام ما يجري أمامهم ملتزمين بأوامر وتعليمات خالد الصارمة.

---

١ ـ تاريخ العرب د.فيليب حتي، مصدر سابق، ص٢٠٦.

٢ ـ روم لاندو، الإسلام والعرب، مصدر سابق، ص٦٠ راجع أيضاً: المصدر السابق، ص٢٠٧.

«وفي عصر كان (السلب والنهب) فيه القاعدة التي يتبعها كل جيش منتصر لدى دخوله مدينة ما، يبدو العهد الذي أعطاه خالد لأهل دمشق إنسانيا إلى أبعد الحدود ومعتدلاً إلى أبعد الحدود»[1].

إن القائد العسكري واحد، لكن الفارق كبير جداً بين هاتين الواقعتين، بين ماجرى في العراق وماجرى في الشام، حتى لكأن خالد بن الوليد في الشام هو شخص آخر غير خالد بن الوليد في العراق.

ولننظر الآن إلى ماجرى في موقعة أخرى من معارك فتح العراق:

معركة جلولاء:

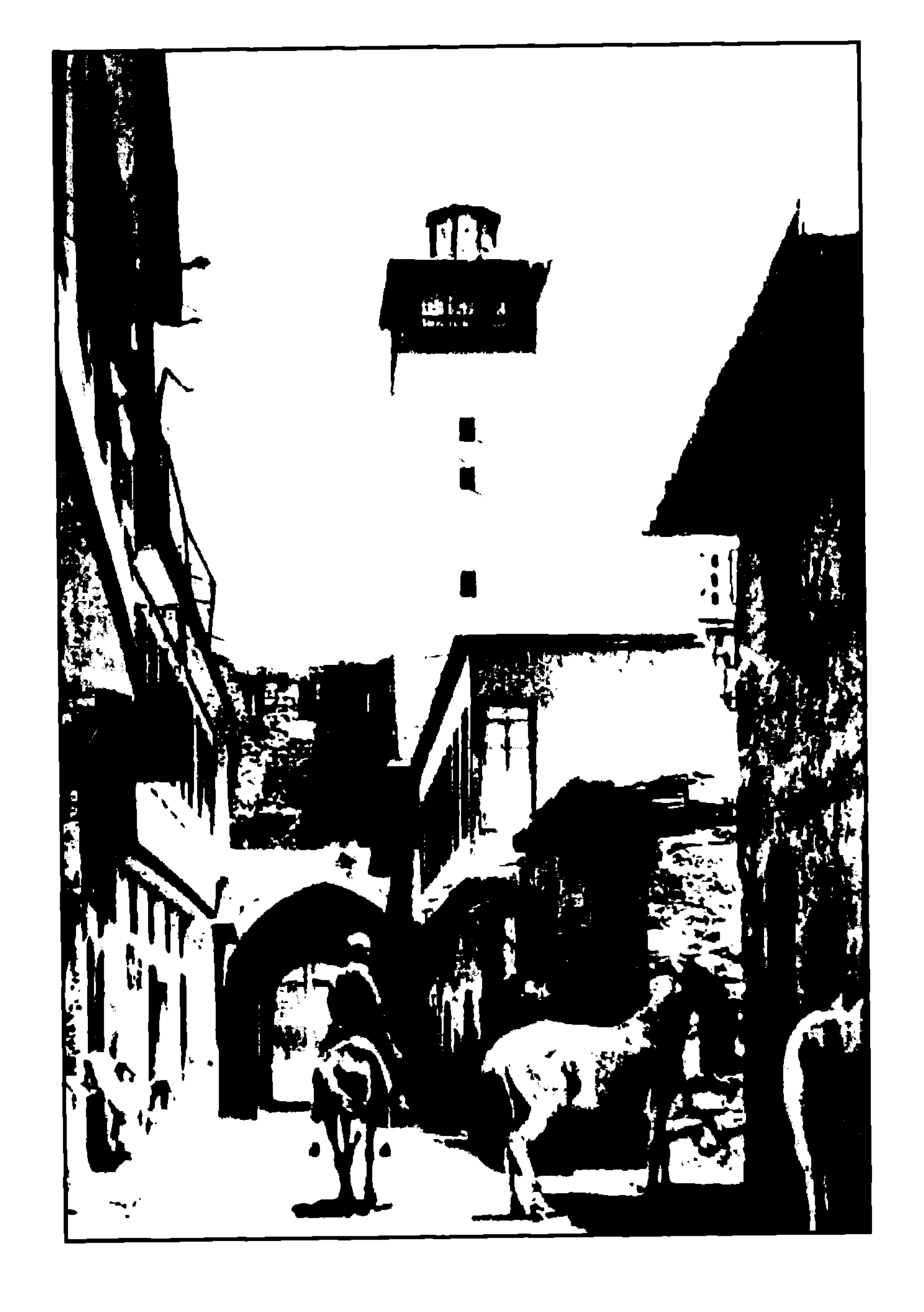
جرت المعركة في القسم الأعلى من العراق في أواخر عام٦٣٧ م.[2]، وبإمكاننا أن نكتشف بصمات العنف الدموي المبالغ فيه مطبوعة بوضوح شديد في أحداثها.

فبعد أن سقطت المدائن بيد الجيش الإسلامي تركها إمبراطور الفرس يزدجر الثالث وتوجه إلى حلوان ناقلاً جيوشه وكنوزه إلى هناك وفي الطريق جمع معه الرجال والأعوان والجنود على نطاق واسع وعيَّن على جيشه قائدا اسمه هرمز، وعسكر هذا الجيش في موقع جلولاء، وتحصن فيه وحفر الخنادق العميقة. وبعث سعد بن أبي وقاص جيشاً بقيادة ابن أخيه هاشم بن عتبة، وكانت الإمدادات تصل إلى كل من الجيشين المتقابلين لتعزيز قوة كل طرف على القتال والصمود.. وبدأت المعارك: «وقد تعاقدت الفرس وتعاهدت وحلفوا بالنار أن لا يفروا أبداً حتى يفنوا العرب، فلما كان الموقف الأخير وهو يوم الفصل والفرقان تواقفوا من أول النهار فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يعهد مثله حتى في النشاب من الطرفين وتقصفت الرماح من هؤلاء وهؤلاء وصاروا إلى السيوف والطبرزينات فأما القعقعاع فإنه صمم الحملة في جماعة من الفرسان والأبطال الشجعان. حتى انتهى إلى باب الخندق وهربت الفرس كل مهرب وأخذهم المسلمون من كل وجه وقعدوا لهم كل مرصد فقتل منهم

---

١ ـ روم لاندو، الإسلام والعرب، مصدر سابق. ص٦٠.

٢ ـ د. فيليب حتي، تاريخ العرب، مصدر سابق، ص٢١٤.



(شكل رقم: ٩) الباب الشرقي

وهو أحد بوابات دمشق القديمة ومن هذا الباب دخل القائد العسكري الإسلامي خالد بن الوليد إلى مدينة دمشق والصورة مأخوذة للباب من داخل المدينة القديمة



(شكل رقم: ١٠) سور دمشق القديمة

وتمثل هذه الصورة الجزء الممتد بين الباب الشرقي وباب توما في دمشق تعود لفترة الثلاثينات من القرن العشرين

في ذلك الموقف مائة ألف حتى جللوا وجه الأرض بالقتلى فلذلك سميت جلولاء»[1].

وبالرغم من أن الأرقام التي تسوقها لنا المصادر القديمة لا يعتد بها كثيراً، غير أن الوصف التفصيلي الوارد في النص السابق عن سير المعارك، والذي اخترنا منه أجزاء قصيرة، يعطي بعض الدلالات على حدة تلك المعارك وقسوتها وعنفها الدموي في كل الأحوال. وإذا كنا قد سمعنا بأن أحد التفاسير لمعنى كلمة (كربلاء - المدينة العراقية المعروفة) يذهب للقول بأنها مشتقة من كلمتي الكرب والبلاء، فإننا نعثر هنا على تفسير مثير لاسم مدينة عراقية أخرى هي جلولاء حيث يتبيّن من النص السابق الذي يورده المؤرخ ابن كثير أن اسمها قد اشتق من كثرة الجثث الآدمية التي جللت وجه الأرض هناك في تلك المعارك الدموية الطاحنة فسميت جلولاء

وإذا أردنا تتبّع أصل الألفاظ والتسميات فربما وجدنا أن العنف الدموي والمعارك والحروب ترتسم في أسماء كثير من المدن والمواقع العراقية...

معركة تكريت:

أما في معركة تكريت التي حدثت في حوالي عام ٦٣٨م.(١٦ هـ.)[2]، فإننا نجد عدداً من العبارات المرعبة في المصادر القديمة عن سير المعارك والقتال الذي جرى في هذه المدينة (تكريت) وحولها، حيث تشير إلى أن سكان المدينة قد تعرضوا للإبادة التامة، إذ قتلوا عن بكرة أبيهم، كما ورد في إحدى الروايات.

فقد كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب في أمر أهل الموصل الذين كانوا قد تجمعوا في مدينة تكريت مجمعين على تأييد رجل من الكفرة يقال له الأنطاق، فكتب عمر كتاباً إلى سعد يأمره بأن يفرز جيشاً لحربهم ويضع على قيادته عبد الله بن المعتم، فسار هذا الجيش وحاصر تكريت أربعين يوماً وكان في المدينة وحولها بعض الأعراب من إياد والنمر وتغلب استطاع عبد الله أن يستميلهم إلى جانبه قبل المعركة. «ثم شد عبد الله وأصحابه وكبروا تكبيرة

---

١ - ابن كثير، البداية والنهاية، ج٧، دار إحياء التراث العربي، ص٨٠.

١ الطبري، ج٤ ، دار التراث، بيروت، ص٣٥.

رجل واحد وحملوا على البلد فكبّرت الأعراب من الناحية الأخرى فحار أهل البلد فأخذوا بالخروج من الأبواب التي تلي دجلة فتلقتهم إياد والنمر وتغلب فقتلوهم قتلا ذريعا. وجاء عبد الله بن المعتم بأصحابه من الأبواب الأخرى، فقتل جميع أهل البلد عن بكرة أبيهم))[1]

إن مجرد التفكير في هذا السيناريو المرعب يثير القشعريرة في النفوس والأبدان.

تلك كانت مقاطع قصيرة ونماذج صغيرة مما كتب عن معارك فتح العراق ورغم قصرها يتبين من خلالها حجم العنف المنفذ فيها قبل استتباب الوضع نهائياً في العراق تحت راية الإسلام.

معركة القادسية:

أما في معركة القادسية ـ قرب الحيرة (وسط العراق الحالي) فإن الباحث والمتتبع لتفاصيل أحداث تلك المعركة يستطيع أن يدرك حجم العنف والقسوة والضراوة التي سارت فيها أحداث المعركة من خلال عدد من الوقائع والجمل الوصفية التي ذكرها المؤرخون عنها، كالمعركة التي تشتت فيها جيش الإمبراطورية الفارسية بعد مقتل القائد الفارسي الشهير رستم.

يذكر الطبري أن عدد القتلى من الفرس قد بلغ في يوم القادسية وحده عشرة آلاف رجل عدا الذين قتلوا في الأيام التي سبقت ذلك اليوم المسمى ((يوم القادسية))[2] كما ((وقتل ليلة الهرير ويوم القادسية ستة آلاف من المسلمين فدفنوا في الخندق بحيال مشرّق))[3].

مقارنة قياسية في العنف الدموي بين العراق والشام:

على الرغم من أن العنف الدموي والقتل وسفك الدماء وحتى المذابح الجماعية تبدو أمراً متوقعاً وربما مألوفاً في أيام الحروب وهي تحدث في كل زمان ومكان في العالم بغض النظر عن دوافع تلك الحروب وأهدافها وغاياتها، إلا أن

---

١ ـ ابن كثير ، مصدر سابق، ج٧، ص٨٣.

٢ ـ تاريخ الطبري، ج٣ ، ص٥٦٤.

٣ ـ المصدر السابق، ص٥٦٤.

ما يجعل معارك فتح العراق التي جرت في الثلث الأول من القرن السابع الميلادي تبدو غريبة واستثنائية في نظرنا هو خصوصيتها وتفردها بالعنف الدموي الفائق قياساً إلى ما يشبهها أو يماثلها من وقائع وحروب جرت في فتح الشام في ذات الفترة التاريخية ولذات الأهداف الدينية الإسلامية التبشيرية وفي ذات المنطقة من العالم، وبمعنى أوضح فإن مقارنة قياسية يمكن أن تلوح في أذهاننا بين ماجرى في العراق وبين ماجرى في سوريا في تلك الفتوح.

إن مجرد الانسياق وراء مثل هذه الخواطر يجبرنا على التفكير والتبصر في العنف البالغ الذي يستوطن العراق والقسوة الدموية الفائقة التي ترافق أحداثه التاريخية على نحو متواصل. ولعل تلك المقارنة يمكنها أن ترتكز على الوقائع والنقاط والملاحظات التالية: -

١ ـ إن الجيش الذي قام بفتح العراق يكاد يكون هو ذاته الذي قام بفتح الشام، فهو جيش إسلامي تشكل من وحدات عسكرية تطوعية ينتمي أفرادها إلى القبائل العربية القاطنة في قلب جزيرة العرب أو على أطرافها حتى إن بعض الوحدات العسكرية انتقلت وساهمت في المعارك والقتال في كل من العراق وسوريا.

٢ ـ إن القائد العسكري خالد بن الوليد الذي كان على رأس الجيش في فتح العراق هو ذاته الذي كان على رأس الجيش في فتح الشام.

٣ ـ إن العقيدة التي يتسلح بها الجيش الذي أنجز فتح العراق هي ذاتها العقيدة الإسلامية التي تسلح بها الجيش والكتائب التي قامت بعمليات فتح الشام.

٤ ـ إن التوقيت الزمني الذي جرى فيه فتح العراق والشام هو توقيت متقارب وفي حقبة تاريخية واحدة لا يفصل بينهما فاصل زمني كبير يمكن أن يغيِّر في العوامل والدوافع والأسباب أو في التكتيكات العسكرية ونوع التسليح ومستواه الخ

٥ ـ كان فتح العراق يتطلب التصادم المباشر مع إمبراطورية عريقة وقوية في المنطقة هي الإمبراطورية الفارسية رغم أنها كانت تعاني من صراعات وأزمات داخلية في بلاطها المركزي عندما كانت الجيوش الإسلامية تزحف نحو حدودها في العراق، وفي ذات الوقت فإن فتح الشام كان يتطلب التصادم المباشر مع

إمبراطورية عريقة وقوية لا تقل عن سابقتها قوة وشأناً وشراسة وجبروتاً، إن لم تكن أقوى منها وأكثر حيوية وتماسكاً وهي الإمبراطورية البيزنطية.

٦ ـ ليس هناك فارق كبير في المساحة الجغرافية وعدد المدن والحواضر بين بلاد العراق وبلاد الشام إلى الحد الذي يشكل عاملاً نوعياً في تحديد نوع المعارك وحجمها وأسلوبها وشراستها...

فلماذا إذن كلّف فتح العراق كل تلك الدماء الغزيرة والمذابح المرعبة والضحايا الكثيرة بالأرواح والأنفس ولم يكلف فتح الشام ما يماثل نصف تلك التضحيات تقريباً؟..

ولماذا كان خالد بن الوليد ـ كما رأينا ـ شديد العقاب في العراق بينما هو في الشام غفور رحيم ؟ ولا يفصل في الزمن بين موقفه في العراق وموقفه في الشام أكثر من عام واحد...؟

إن التحليل المنطقي لهذه الظاهرة والأكثر انطباقاً على الواقع هو ما ينسجم مع منهج بحثنا ووجهة نظرنا عن شيوع العنف الدموي في العراق والتصاقه بتاريخ هذه البلاد على نحو استثنائي غير طبيعي، وإن مناخ العنف السائد في العراق باعتباره الميزة المستديمة لطبائع الأقوام والقبائل والناس إضافة إلى شيوع السلوك المتسم بالقسوة والشراسة والنفور والطباع الحادة، وسيادة الأعراف البدوية والتقاليد القبلية الصارمة ذات النزوع الدائم للتمرد والثأر والعنف والتحدي الدموي والذاتية وقوة الشكيمة والعناد لدى سكان البلاد ربما كانت هي العوامل والأسباب التي دفعت خالد لتلك التصرفات الدموية الشرسة والتشدد البالغ في العنف والإجراءات المتصفة بالقسوة والصرامة مع أهل العراق كي يستطيع فرض سيطرته على الموقف.

بينما كان غياب تلك العوامل والأسباب وانتفاء وجودها في الشام ربما هو السبب الذي أضفى على شخصية خالد الصارمة تلك الأبعاد الإنسانية من الليونة والمرونة والتسامح والصبغة السلمية التفاوضية التي اتسم بها سلوكه ومواقفه وتصرفاته خلال تنفيذ مهماته العسكرية في بلاد الشام.

أما إذا لم تكن تلك الأسباب هي الباعث لهذه الظاهرة فإن التفسير الوحيد لذلك التباين في حجم المعارك واتساعها ودمويتها بين العراق والشام هو أن

يكون العنف الدموي القدر الإلزامي الذي يتوجب أن يلازم بلاد الرافدين وسكانها في كل الحقب والعصور.

معركة الجمل في البصرة: انتصار لإرادة العنف الدموي

على الرغم من كثرة الأحداث المتصلة بالعنف الدموي في هذه الفترة من تاريخ العراق إلا أن أبرز تلك الأحداث بعد انتهاء عمليات الفتح الإسلامي للعراق هي معركة الجمل التي حدثت في البصرة حوالي عام ٦٥٦ للميلاد، فقد رفض طلحة والزبير وهما من الصحابة المعروفين الاعتراف بولاية علي بن أبي طالب وخلافته، تحت مبررات المطالبة بكشف قتلة الخليفة عثمان بن عفان، بعد أن بايعوا علياً في بادئ الأمر واقروا خلافته، وقد انضمت زوجة الرسول عائشة أم المؤمنين إلى المعترضين على خلافة الإمام علي، فكان لابد من قمع الفتنة التي بدأت تتأجج وتكبر بعد أن توجه كل من طلحة والزبير ومعهما مجموعة من أتباعهما إلى البصرة، وهناك حصلت المعركة التي سميت بمعركة الجمل بين قوات الخليفة الشرعي الإمام علي بن أبي طالب (رض) والقوات المعارضة الملتفة حول كل من طلحة والزبير (رض) وتدعمهم على نحو مكشوف عائشة (رض) التي كانت تركب جملاً في تلك المعركة وتواصل التحريض وإثارة الحماس. وعلى الرغم من الجهود الحقيقية والمخلصة التي بذلها الإمام علي بن أبي طالب لحقن الدماء وتجنب الانسياق وراء الفتنة ومنع انفجار الصراع بين المسلمين إلا أن جهوده باءت بالفشل وانتصرت اللعنة العراقية في العنف الدموي ودخل المسلمون في صراع دموي مؤلم لم تكن لكل الأطراف إرادة أو رغبة أو فائدة فيه...

إن الإطلاع على تفاصيل الأحداث والاتصالات والمفاوضات والمساعي السلمية التي سبقت اندلاع هذه الحرب يمكن أن توقع الباحث المحايد في حيرة حقيقية[1] ، فالجهود التوفيقية الخيِّرة والاتصالات المخلصة التي جرت وبذلت من أجل التهدئة والصلح وتدارك وقوع هذه الحرب والتي اشترك فيها عدد كبير من وجهاء المسلمين وقادتهم المعروفين والشخصيات الإسلامية البارزة مثل الحسن

---

١ ـ بإمكان القارئ العودة إلى تفاصيل المفاوضات والأحاديث والمشاورات والعتاب الأخوي الصريح الذي جرى بين الإمام علي بن أبي طالب من جهة وكل من طلحة والزبير من جهة أخرى في الأيام التي سبقت وقوع معركة الجمل في كل من تاريخ الطبري والبداية والنهاية لابن كثير والكامل في التاريخ لابن الأثير للتعرف على الجهود التي بذلت لمنع وقوع الحرب.

بن علي بن أبي طالب، وعمار بن ياسر، وعثمان بن حنيف، والقعقاع، وابن عباس، وكعب بن سواء، وحارثة بن قدامة السعدي وآخرين ... إضافة إلى الجهود الشخصية التي بذلها أقطاب الصراع الأساسيين المتخاصمين من كلا الطرفين الإمام علي بن أبي طالب وطلحة والزبير، إن تلك الجهود الحثيثة والمكثفة كانت كافية تماما لتدارك ومنع انفجار أكبر الحروب في تلك الظروف.. غير انه ورغم كل ذلك فقد وقعت حرب الجمل وانفجر الصراع في البصرة (أقصى جنوب العراق) وسالت الدماء، فيقتل فيها الزبير (الصحابي المعروف) غدراً في منطقة منعزلة بعيدة عن ارض المعركة بعد أن انفرد بنفسه عن القتال، ويقتل طلحة (الصحابي المعروف) بسهم طائش سبب له نزيفاً حاداً أدى إلى موته في اليوم التالي ويقتل في هذه المعركة عدد كبير من المسلمين والمجاهدين القدامى، ويبذل الإمام علي بن أبي طالب جهوداً كبيرة للحفاظ على حياة عائشة أم المؤمنين وسط هذه الفوضى الدموية حيث استطاع نقلها إلى خارج مواقع القتال بعد أن طالت السهام هودجها «وعاملها بمنتهى الاحترام الذي يليق بمكانتها باعتبار أنها أم المؤمنين وأذن لها في الرجوع إلى المدينة»[1]. «وسار علي معها مودعاً ومشيّعاً أميالاً»[2] ، أما طلحة والزبير فقد حزن الخليفة عليٌ بن أبي طالب لمقتلهما «وأظهر الجزع والأسف عليهما ودفنهما في احتفال مهيب»[3].

إن مناخ العنف والفتنة ونزوع القبائل العراقية نحو التصعيد واستخدام أسلوب الحسم بالقوة وسفك الدماء لا بد وأن يكون قد ساهم في إفشال جميع الجهود السلمية وضياعها وتبدد تأثيرها.

لقد سبق أن أشرنا في مكان آخر من هذا الكتاب بأن شريعة العنف الدموي والفوضى العدوانية ونزعة اللجوء للقوة والسلاح وليس شريعة السلام والتآخي والعقل والحكمة والتروي هي التي تنتصر أو تجد طريقها للتطبيق والتحقق والشيوع والغلبة في أكثر أحداث العراق دون أن يتمكن أحد من منعها أو كبحها أو السيطرة عليها عبر جميع العصور خصوصاً في غياب سلطة القوة المركزية القاهرة..، فتغدو أحداث العنف الدموي والانتقام وسفك الدماء وكأنها

---

١ - فيليب حتي، تاريخ العرب، مصدر سابق، ص٢٣٩.

٢ - ابن كثير ، البداية والنهاية، ج٧، مصدر سابق، ص٢٧٤.

٣ - فيليب حتي، تاريخ العرب، مصدر سابق، ص٢٣٩.

القدر النازل الذي لا محيد عنه ولا خلاص منه في كل الأحوال وتكون إراقة الدماء هي الطريق المرجّح وربما الإلزامي الذي يسير فيه الجميع داخل العراق نحو الخراب والمآسي، حتى إذا أراد المتتبع أو الباحث التفتيش عن عوامل وأسباب ودوافع ما حصل لم يفز بشيء واقعي ملموس أو منطقي عقلاني كافٍ يستطيع أن يضعه مبرراً وسبباً لنهر الدم الذي جرى

لقد كان المنتصر الوحيد في معركة الجمل فوق أرض البصرة بالعراق هو إرادة العنف الدموي والفتنة والفوضى العدوانية والشقاق والغدر والميل الفطري للتمرد وسفك الدماء

مواقف أهل العراق من الامام علي وابنيه الحسن والحسين

بعد معركة الجمل، إتخذ الإمام علي بن أبي طالب مدينة الكوفة عاصمة له، وربما كان ذلك من أجل أن يبقى قريباً من أتباعه ومناصريه من أهل العراق الذين أتعبوه بعد ذلك وخذلوه بعنادهم وفرقتهم وتشتتهم حتى تمنى لو لم يرهم ولم يعرفهم كما ورد في إحدى خطبه الشهيرة

ومنذ الأيام الأولى لخلافة الإمام علي بن أبي طالب، أعلن معاوية بن أبي سفيان الذي كان والياً على الشام تمرده ورفضه المبايعة لعلي بالخلافة، وكشف على نحو سافر نواياه ورغبته في الاستقلال بالسلطة والحكم متذرعاً بالمطالبة بدم الخليفة عثمان بن عفان (رض)، فكان من نتائج هذا الموقف أن جهّزَ الإمام علي جيشاً كبيراً قاده بنفسه وزحف به باتجاه بلاد الشام لإخضاع الوالي المتمرد وكان معظم أفراد هذا الجيش من أهل العراق وقد واجه معاوية هذا الجيش العراقي بجيش آخر.. وجرت معركة بين الطرفين في موقع يسمى صفين إلى الشمال من مدينة الرقة السورية على ضفة الفرات سميت معركة صفين وذلك في عام ٦٥٧ للميلاد، وكادت الحرب تنتهي بانتصار جيش الإمام علي إلا أن معاوية استطاع أن يدبّر خديعة عسكرية كبيرة وذلك برفع المصاحف (نسخ من القرآن) فوق رؤوس الرماح مطالباً بوقف القتال واللجوء إلى التحكيم.

وكان لهذه الحيلة التي نفذت بإتقان آثار تدميرية بعيدة المدى في صفوف جيش الإمام علي وأتباعه العراقيين، الذين هم أقرب الى الانشقاق والتفكك في

أكثر الأحيان، حيث حصل انشقاق واسع في جيشه وخرج عنه كثير من أتباعه الأشداء وسموا فيما بعد بالخوارج مما اضطر الإمام علي للدخول معهم في معارك دموية شديدة في أكثر من موقع في العراق. وقد وقعت خسائر بشرية كبيرة في تلك المعارك غير أن نتائج التحكيم المدمرة لم تقتصر على ذلك فحسب بل كان من بين ذيولها وانعكاساتها مقتل الإمام علي بن أبي طالب ذاته غيلةً على يد أحد الخوارج بسيف مسموم أصابه في رأسه.

إن الفتن والاضطرابات الدموية المتواصلة في العراق لم تترك للإمام علي أية فرصة لتنظيم أمور الدولة أو تحقيق إنجازات ملموسة، وكان آخرها تعرضه هو ذاته للاغتيال في هذه البلاد التي تموج بالفتن والدسائس والانشقاقات والنفاق والقسوة وعواصف العنف الدموي.

وأكثر من ذلك فقد رويَ أن قبر الإمام علي قد تمت تعميته وإزالة معالمه بادئ الأمر لئلا ينبشه الخوارج في العراق، وقيل أنه قد حوّل من قبر الى قبر. «قال أبو بكر بن عبّاس: عُمِّيَ قبر علي لئلا ينبشه الخوارج ... وقال المبرد عن محمد بن حبيب: أول من حُوِّل من قبر إلى قبر عليّ رضي الله عنه»[1].

وبمقتل الإمام علي (٤٠ هـ./ ٦٦١م.)، انتقل مركز الخلافة إلى الشام بعد أن خلا الجو لمعاوية لتعزيز وضعه السياسي وإعلان نفسه خليفة والطلب من الآخرين مبايعته بما فيهم الحسن بن علي ابن أبي طالب الذي مات مسموماً في وقت لاحق بعد أن حاول في بادئ الأمر المطالبة بالخلافة بعد والده وجهز جيشاً لإخضاع المعارضين إلا أنه تراجع بعد ذلك، إثر تشتت أتباعه من أهل العراق الذين تقول بعض الروايات بأنهم خذلوه وتفرقوا عنه وضربوه ونهبوا متاعه، فبغضهم وكره البقاء معهم مما دفعه لمصالحة معاوية، والتنازل له عن الخلافة ومغادرة الكوفة الى المدينة المنورة (حيث دفن الرسول (ص)). وقد قيل للحسن: «ماحملك على ما فعلت؟ فقال كرهت الدنيا ورأيت أهل الكوفة قوما لايثق بهم أحد أبداً إلا غُلب، ليس أحد منهم يوافق آخر في رأي أو هوى، مختلفين ، لا نية لهم في خير أو شر، لقد لقي أبي منهم أموراً عظاماً، فليت

---

١ - تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص١٧٦، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

شعري لمن يصلحون بعدي، وهي أسرع البلاد خرابا»[1]. ولعل رأيه ينطبق على أهل العراق جميعاً ممثلين بأهل الكوفة وما أشبه الليلة بالبارحة.

وبتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية، فقد العراق مركز الصدارة في قيادة العالم الإسلامي وأصبح الحاكم في العراق أحد الموظفين الذين يعيّنهم معاوية أو الخلفاء الأمويون من بعده، فكان عبيد الله بن زياد هو حاكم العراق (والي العراق) عند وفاة معاوية واستلام ابنه يزيد لذلك كان هو الذي تولى محاصرة الحسين بن علي وبث الجواسيس لتتبع تحركاته عند قدومه إلى الكوفة مع جمع قليل من أصحابه وأنصاره وأهل بيته إثر مبايعة أهل الكوفة له (الحسين) ومراسلتهم إياه بضرورة القدوم مما أقنعَهُ بالموافقة والتوجه إلى الكوفة بعد أن رفض إعلان البيعة ليزيد، وكان الحسين قد أرسل ابن عمه مسلم بن عقيل رسولاً عنه إلى أهل الكوفة حيث بايعه هناك كما يقال حين وصوله ما يقرب من اثني عشر ألفاً من أهل العراق في بادئ الأمر، وبينما كان الحسين في الطريق إلى الكوفة، تلقى أنباءً سيئة مفادها «أن ابن عمه اضطر إلى قتال عبيد الله بن زياد وأن أهل الكوفة تخلو عنه وأسلموه إلى عبيد الله فقتله»[2]، «وكان أول قتيل لبني هاشم صلبت جثته»[3].

وهكذا كان عبيد الله بن زياد ومجموعة من قواده في العراق هم المتورطون في قتل الحسين بن علي وجميع أتباعه في مذبحة كربلاء حيث قطعوا رأسه وأرسلوها إلى يزيد بن معاوية الحاكم الأموي في دمشق. تلك المذبحة الدموية البشعة التي كان لها نتائج بالغة الخطورة في التاريخ الإسلامي إلى يومنا هذا.، ولم يبق ممن كانوا في موكب الحسين بن علي من الرجال سوى شاب صغير واحد لم يقتل هو علي بن الحسين الملقب بزين العابدين الذي تتحدث الروايات بأنه كان صغيراً وعليلاً فسلم من القتل.. وتدور الأيام ويكبر زين العابدين ويكون له ابن اسمه زيد وعندما كبر زيد عاد أهل الكوفة فالتفوا حوله وشجعوه على الثورة فطالب بالخلافة وأعلن الثورة في العراق في زمن هشام بن عبد الملك لكن أهل

---

١ ـ الكامل لابن الأثير، ج٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص ٤٤٧.

٢ ـ شوقي ضيف، العصر الإسلامي، مصدر سابق، ص١٥٥.

٣ ـ المصدر السابق.

الكوفة سرعان ما تخلوا عنه أيضاً في الساعات الحرجة عندما احتدم القتال بينه وبين جيش الدولة الأموية بقيادة يوسف بن عمر والي العراق من قبل هشام بن عبد الملك لينتهي زيد بنِ علي نهاية دموية مرعبة تتسم بالقسوة والبشاعة وهو ما سنأتي على ذكره لاحقاً، ليكتب واحداً من أكثر فصول هذا المسلسل المرعب إثارة ودموية.

وكان من النتائج اللاحقة لمجزرة كربلاء مقتل حاكم العراق عبيد الله بن زياد وقطع رأسه في عمل ثأري دموي قام به إبراهيم الأشتر أحد القادة العسكريين التابعين للمختار الثقفي الذي نظّم حركة عسكرية واسعة للأخذ بثأر الحسين، تلك الحركة التي تابعت على نحو متواصل قتل وتصفية جميع المشتركين في مجزرة كربلاء بعد تحميلهم مسؤولية قتل الحسين بن علي وأهل بيته. وقد أرسل إبراهيم الأشتر رأس عبيد الله بن زياد الذي كان الحاكم الأموي على العراق مع عدد من رؤوس أصحابه وقواده إلى المختار الذي فرح بها واعتبرها نصراً مبيناً لحركته العسكرية التي قامت أساساً للثأر والانتقام من الأمويين.

وبقدر ما يتعلق هذا الموضوع ببحثنا المرتبط بالعنف الدموي وعلاقته بطبائع الشعب العراقي وصفاته السلوكية فإن مجزرة كربلاء بكل مقدماتها ونتائجها والقسوة البالغة في تنفيذها ماهي إلا واحدة من الأحداث الدموية التي تستحق وقفة من التفكير والتبصر.

لقد تشتت أتباع الحسين من أهل العراق ونكثوا عهدهم إليه. وتخلوا عنه وتقاعسوا عن مناصرته أو حمايته على الأقل بعد أن كاتبوه وراسلوه وعاهدوه وطلبوا منه القدوم إليهم ، عدا بعض الأفراد الذين ثبتوا على العهد. ويستطيع الباحث خلال تدقيقه في الوقائع التي رافقت مجزرة كربلاء أن يلمح بوضوح ذلك التأثير الفعّال للأموال الهائلة التي صرفها الأمويون سراً وعلناً من أجل استمالة القبائل العراقية إلى جانبهم إضافة إلى الإغراءات والوعود بالمناصب لعدد غير قليل من وجهاء القبائل وقادتها من أجل القضاء على حركة الحسين.

ولسنا هنا في صدد بحث هذه الواقعة كحدث تاريخي، إلا أننا نحاول بروح موضوعية تحديد مدى مسؤولية البعد الأخلاقي والسايكولوجي لأهل العراق في هذه المجزرة وغيرها من الأحداث المشابهة التي يتجلى فيها نقض العهود وعدم

الإيفاء بالوعود والخذلان في الساعات الحرجة والانقلاب في المزاج، على ضوء بعض الآراء والأحكام القاسية المسجلة والمثبتة في بطون الكتب التاريخية والإسلامية والتي دوّنها وتداولها عدد من المؤرخين والكتاب المسلمين ونطق بها بعض القادة المعروفين في التاريخ الإسلامي والتي تشكك بالأرضية الأخلاقية والسلوكية لأهل العراق، تلك الآراء التي وصفت العراقيين بأنهم ـ أهل الشقاق والنفاق ـ وأهل الغدر والتقلب ـ وعدم الثبات على العهود. ذلك الوصف الذي بدا منطبقاً في أحداث أخرى قبل مجزرة كربلاء وبعدها في تاريخ العراق، وربما شكلت بعض العبارات في أقوال وخطب للإمام علي وابنيه الحسن والحسين وعبد الله بن الزبير والحجاج بن يوسف الثقفي وعبيد الله بن زياد وعبد الله بن عمر بن الخطاب وغيرهم دلائل على وجود مثل تلك الآراء والأحكام التي وصفناها آنفاً. لننظر على سبيل المثال إلى ما ورد في خطبة عبد الله بن الزبير بعد أن بَلَغَهُ خبر مقتل أخيه مصعب بن الزبير في العراق حيث قال فيها: «وما مصعب إلا عبد من عبيد الله وعون من أعواني إلا أن أهل العراق أهل الغدر والنفاق أسلموه وباعوه بأقل ثمن»[1]. ثم لنقرأ هذه الحادثة التي حصلت مع عبد الله بن عمر[2] بن الخطاب، وهي ذات دلالة في الموضوع ذاته الذي نتحدث فيه بخصوص شعب العراق حيث تشير الرواية المنقولة عن الترمذي: «أن رجلاً من أهل العراق سأل ابن عمر عن دم البعوض يصيب الثوب فقال ابن عمر: انظروا إلى أهل العراق يسألون عن دم البعوض وقد قتلوا ابن بنت محمد صلى الله عليه وسلم»[3] وفي خطبة للإمام علي بن أبي طالب تمنى لو لم ير أهل العراق ولم يتعرف عليهم حيث يقول: «لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم، معرفة والله جرت ندماً وأعقبت سقماً. قاتلكم الله لقد شحنتم صدري غيظاً وأفسدتم عليَّ رأيي بالعصيان والخذلان»[4] وإذا أردنا أن نكون أكثر جرأة وصراحة وواقعية فعلينا أن نعترف أن مثل تلك الآراء والأحكام القاسية السلبية عن أهل العراق مازال يحملها ويتداولها ويرددها عدد غير قليل من

---

١ ـ البداية والنهاية لابن كثير ج٨ ، ص٣٤٨.

٢ ـ وفي بعض الروايات ينسب الحديث لابن عباس.

٣ ـ البداية والنهاية لابن كثير ج٨ ص٢٢٣.

٤ ـ د. عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي ، الجزء الأول، ص٣١٠.

الناس وإن كانوا لا يجاهرون بها علانية، أما إذا أردنا أن نرفض وندين تلك الآراء والأحكام القاسية بحق شعب العراق فعلينا أن نجد تفسيرا مقنعا على الأقل لذلك العدد الكبير من الأحداث والوقائع التاريخية التي ينطبق على مجرياتها وصف الغدر والتقلب والنفاق وخيانة العهود والعصيان والخذلان وبقية الأحكام الاتهامية البغيضة الأخرى، ولعلنا سنجد عدداً غير قليل من المواقف والأحداث التاريخية مما يحتاج بإلحاح إلى تفسير منطقي تاريخي ونفسيّ مقنع خصوصاً تلك الأحداث التي تبرز فيها ظاهرة الغدر والنفاق والخيانة ونقض المواثيق والتحول في العهود والتقلب في المواقف والتبدل في المزاج المقرونة بالعنف والقسوة وسفك الدماء حتى في الحقب التي سبقت العهود الإسلامية. وإذا أردنا سوق الأمثلة في ذلك فإن الأحداث الكثيرة التي يزدحم بها التاريخ العراقي من القتل والموت القسري التي نفذت بأساليب الغدر والانتقام والاغتيالات الخيانية والتي سقط فيها العديد من الملوك والأباطرة والحكام في العراق في العهود السومرية والبابلية والأكادية والآشورية ثم ما قام به عدد من ملوك الحيرة في الغدر بالمحيطين بهم والمقربين منهم وكذلك ماجرى لعلي بن أبي طالب وابنه الحسن ثم الحسين ثم مصعب بن الزبير ثم خالد القسري ثم زيد بن علي بن الحسين وآخرين والمصير الدموي الذي لقيه عدد كبير من الشعراء والكتاب والمفكرين والفلاسفة كذلك التعذيب والسجن حتى الموت والمطاردة والتنكيل اللاإنساني الذي تعرض له في العراق قادة المذاهب الإسلامية الشرعية الكبرى في الإسلام: أبو حنيفة والمالكي والشافعي وأحمد بن حنبل وعدد من رواة الحديث والفقهاء المسلمين، وسلسلة الغدر والاغتيالات المتعاقبة للخلفاء العباسيين الذين قتّلوا بعضهم البعض في مكائد خيانية خسيسة، والتصفيات الدموية لقادة الفرق الفكرية الإسلامية بالدسائس والوشايات وما يعج به العصر البويهي والسلجوقي والعثماني والعصر الحديث من أمثلة في الغدر والنفاق والقسوة وتقلب المزاج. فإن كل تلك الأحداث وما رافقها من نشاطات دموية اتصفت بالقسوة والشراسة، تحتاج بإلحاح إلى تفسير منطقي وإلى تحليل نفسي لدوافع وأسباب مثل هذا السلوك الدموي، وهذا ما سنحاول أن نتعرض له في صفحات هذا الكتاب، وهو أمر ليس سهلاً وليس يسيراً على الإطلاق، غير أننا ربما استطعنا أن نقول هنا في هذا الصدد أن هذا الشعب ونعني به شعب العراق رغم صلابته وعناده وقوة تحمله وتماسكه الظاهر

على المستوى الفردي أو الجماعي فإنه في كثير من الأحيان يمارس في سلوكه التطبيقي فعل الشخصية المزدوجة اجتماعيا، فهو رغم الوصف السابق نجده قليل الصبر سريع الخنوع والانصياع لسلطان القوة القاهرة وسطوة العنف ويستكين لجبروت الشدة في الحكم الجائر ويساير ضغوط الحاكم القوي طالما كان سيف القوة والحزم مشرعاً ونافذاً، وهذا المسلك يؤدي به في أغلب الأحيان للنكوص عن الالتزامات المبدئية والأخلاقية والاجتماعية والعجز عن الإيفاء بالذمم والعهود والمواثيق المبرمة عندما تقف سلطة الدولة حاجزاً بينه وبين التزاماته المبدئية والأخلاقية.

وتلك صفات سلوكية غير قويمة في كل الأحوال ربما صدّعت ولامست على نحو مؤذ آلية القيم السلوكية السائدة في المجتمع، كما تُعتبر في أحد وجوهها إحدى مظاهر اضطراب الشخصية التي يشخصها علم النفس بأنها شخصية غير مستقرة انفعالياً وصاحبها «يكون سهل الاستثارة وعاجزاً عن السيطرة على انفعالاته، وبسبب ذلك يسوء حكمه (على الأشياء) ويفقد صبره ولا يطيق أقل الضغوط»[١].

الانتقام الدموي في حركة المختار بن عبيد الله الثقفي:

من الأحداث الهامة في تاريخ العنف الدموي في العراق تلك الحركة العسكرية التي قام بها المختار بن عبيد الثقفي، وهو رجل كان أبوه قد أسلم في حياة النبي وأرسله الخليفة عمر بن الخطاب في جيش ضد الفرس فقتل في معركة الجسر خلال الفتح الإسلامي للعراق. أما المختار فكان يناصب علي بن أبي طالب العداء والبغض في بادئ الأمر، وكان يُعدُّ من الأمراء في الكوفة غير أن تغيّراً كبيراً قد حصل في موقفه وقناعته بعد حادثة الغدر التي واجهها مسلم بن عقيل رسول الحسين بن علي إلى أهل العراق وتحول الناس والقبائل في العراق عنه فقال المختار: «أما لأنصرنّه»[٢]، فبلغ ذلك عبيد الله بن زياد حاكم العراق التابع ليزيد بن معاوية فضرب المختار مائة جلدة وحَبَسَهُ، فأرسل عبد الله بن

---

١ ـ دكتور عبد المنعم حفني، موسوعة الطب النفسي، المجلد الأول، مكتبة مدبولي، القاهرة، ص٧١٣.

٢ ـ البداية والنهاية لابن كثير الجزء ٨، ص٣١٩.

عمر بن الخطاب رسالة إلى يزيد بن معاوية يتشفع فيهـا للمختـار فـأطلق سـراحه وأرسله إلى الحجاز فالتحق بابن الزبير وقاتل معه قتـالاً شـديداً وقـد تكـون هـذه الحادثة في الإهانة الشخصية هي السبب المباشر الذي دفع المختـار للانتقـام المريـر من عبيد الله بن زياد وأتباعه الأمويين تحت عنوان المطالبة بثأر الحسين، ثم تـرك ابن الزبير وعاد إلى العـراق حـاملا رسـالة مـن ابـن الزبـير بتزكيتـه لـدى حـاكم الكوفة، وهناك تقرّب من الشيعة بمناداته بثأر الحسين فالتف حوله كثير مـن أهـل الكوفة فطرد واليها التابع لابن الزبير واستقر ملكه فيها ثم كتب إلى عبد الله بـن الزبير يعلن طاعته وولاءه له في ذات الوقت، ثم رفع المختار شعار ثارات الحسين وبدأ في تتبع قتلته وكان مصرا على إبادتهم وقتل كل من شهد واقعة كربلاء مـع الجيش الأموي، وهكذا استطاع تحت شعار ثارات الحسين أن يقتـل عـدداً كبـيرا ممن شاركوا في مقتل الحسين بن علي واستطاع قطع رؤوس عدد غير قليـل مـن المعروفين منهم فقطع رأس عمر بن سعد بن أبي وقاص أمير الجيـش الـذي طـوق وحارب الحسين كما قطع رأس ابنـه وأرسـل الرأسين إلى محمد ابـن الحنفيـة في الحجاز كما قطع رأس الشمر بن ذي الجوش الـذي أجهـز علـى الحسـين ونهـب ثيابه. ويقول المؤرخ ابن الأثير في الكامل أن جثة الشـمر قـد ألقيـت للكـلاب بعد أن قتله أصحاب المختار[1]، كذلك قطعت رأس سنان بن أبي انـس وخـولي بن يزيد الأصبحي وآخريـن، وجهـز جيشـاً كثيفـاً وضعـه تحت قيادة مسـاعده إبراهيم بن الأشتر أرسله لمواجهة جيـش عبيـد الله بـن زيـاد والي الأمويـين علـى العراق فاستطاع إبراهيم الأشتر سنة ٦٦ للهجرة في معركة (خازر) بـين الموصـل وأربيل على نهر الزاب أن يتغلب على جيش عبيد الله بن زياد ويقتله[2] ثم قطـع رأسه ورؤوس أصحابه وأرسلها إلى المختار ففرح المختار بها فرحـاً شـديداً وقـام بإرسال رأس عبيد الله بن زياد ورأس الحصين بن نمـر وبعـض الـرؤوس الأخـرى إلى عبد الله بن الزبير في مكة[3] ، ثم بعد ذلك اكتشـف عبـد الله بـن الزبـير أن المختار لا يصدقه القول ولا الموقف فأرسل أخاه مصعب بـن الزبـير وعيَّنَهُ أمـيراً على العراق وطلب منه الزحف على المختار وإخضاعه فسار مصعب من البصـرة

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير ج٢ ، دار إحياء التراث العربي، ص٦٧٩.
٢ ـ د. شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص١٥٦.
٣ ـ البداية والنهاية لابن كثير ج٨ ص٣٢٠.

إلى الكوفة على رأس جيش كبير وانتصر على المختار وقتله وقطع رأسه ثم قطع كفّه وعلق الكف على باب المسجد في الكوفة أما الرأس فأرسلها إلى أخيه في مكة بيد شرطي يحمل البريد.. أما الأسرى من جيش المختار وأتباعه فقد تم قتلهم جميعاً. وهكذا صار العراق هذه المرة بعنفه الدموي المتصاعد يصدّر رؤوس القادة إلى الخارج بعد أن قام أولئك القادة المعروفون بتقطيع رؤوس بعضهم البعض داخل العراق، فبعد أن أرسل عبيد الله بن زياد رأس الحسين وعدد من أتباعه إلى يزيد في دمشق قام إبراهيم الأشتر بإرسال رؤوس عمر بن سعد وشمر بن ذي الجوشن وآخرين إلى المختار الذي أرسلها بدوره إلى الحجاز ثم قام المختار بعد ذلك بإرسال رأس عبيد الله بن زياد ورأس الحصين بن نمر إلى الحجاز أيضاً وبعد ذلك بفترة وجيزة أرسل مصعب بن الزبير رأس المختار إلى مكة وعندما قتل مصعب بعد ذلك أرسل رأسه إلى الخليفة الأموي، عبد الملك بن مروان، وهكذا فقد كانت جميع تلك المجازر تجري بتواصل مخيف فوق أرض العراق.. وبعد مقتل مصعب في المعركة التي جرت بينه وبين جيش عبد الملك بن مروان قرب الكوفة في مكان يسمى (مسكن) على نهر الدجيل في عام ٦٩٣ للميلاد المصادف ٧١ للهجرة وصل خبر مقتله إلى مكة فقام أخوه عبد الله بن الزبير خطيباً في الناس وألقى خطبة نعى فيها مصعباً وشتم أهل العراق وسماهم كما ذكرنا سابقاً (أهل الغدر والنفاق) بسبب خذلانهم لمصعب، وكان مصعب بن الزبير قد رفض قبل مقتله الانسحاب من القتال وأصر على المواجهة رغم تفرق جماعته وجيشه وذكر بعبارات مأثورة صمود الحسين بن علي وخذلان أهل العراق له[1].

وفي صفحة من صفحات العنف الدموي الفائق نجد جدلاً في بعض المصادر وعتاباً ولوماً شديداً يقرب من التوبيخ يسوقه عبد الله بن عمر بن الخطاب إلى مصعب بن الزبير بعد انتصاره على المختار بخصوص خمسة آلاف أسير من جماعة المختار كان قد قتلهم مصعب وأبادهم عن آخرهم وكانوا قد توسلوا به أن يبقي على حياتهم واستعطفوه فرقّ قلبه لهم وقرر العفو عنهم في بادئ الأمر إلا أن عدداً من أتباعه من أهل العراق تمشياً مع روح القسوة والتصعيد والرغبة في

١ ـ البداية والنهاية لابن كثير ج٨ ، ص٣٤٨.

سفك الدماء، قالوا له نرفض ذلك رفضاً تاماً وعليك أن تختار أحد الطرفين: إما نحن أو الأسرى. فأمر بقتل الأسرى جميعاً فقتلوا كلهم في يوم واحد، وتذكر الروايات أن عبد الله بن عمر قال لمصعب حين التقاه في مكة:

«لو أن رجلاً أتى ماشية الزبير فذبح خمسة آلاف ماشية في غداةٍ واحدة (أي في يوم واحد) ألستَ تعدّه مسرفاً؟ قال نعم قال: أفتراه إِسرافاً في البهائم ولا تراه إِسرافاً في مَنْ ترجو توبَتَهُ؟ »[1].

أما يد المختار الثقفي التي قطعت وعلقت على باب المسجد في الكوفة فقد بقيت هناك حتى قدوم الحجاج بن يوسف الثقفي الذي أمر برفعها وانتزاعها من الحائط.. إنه المسرح الدموي اللامعقول.. إننا نغرق ونحن نبحث في أحداث هذه الفترة في بحر متلاطم من الدماء في ارض العراق. فالقتل قائم على قدم وساق وقطع الرقاب يجري في كل الاتجاهات حتى ليبدو لنا أن الإسراف في القتل وزهق الأرواح وسفك الدماء الاعتباطي إنما كان يجري بشكل متصاعد يستعصي على الفهم والتفسير..!!

كما يستغلق على المرء معرفة الأسباب والدوافع الحقيقية الكافية لتبرير مثل هذا الهدر الهائل بالأرواح والرجال...!

الحجاج بن يوسف الثقفي: الساطور الدموي

تدخل أعمال الحجاج بن يوسف وسياسته مع أهل العراق وأسلوبه في إدارة شؤون البلاد المدنية والعسكرية ضمن إطار مسيرة العنف الدموي في العراق، حيث كان الحجاج ميالاً في جميع إجراءاته وتصرفاته وقراراته إلى المبالغة في الشدة والحزم وسفك الدماء والتنكيل والقسوة الشرسة، وقد أعلن سياسته إلى العراقيين سنة ٦٩٤م، منذ الساعة الأولى في لغة دموية واضحة لا تحتمل التأويل عبر كلماته الموجهة لأهل العراق في خطابه الأول إليهم بمسجد الكوفة حين قال لهم: «إني أرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها، وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى»[2] لقد بادر بالإبلاغ عن منهجه الدموي حتى قبل

---

١ ـ البداية والنهاية لابن كثير ج٨ ص٣٥٠

٢ ـ ورد هذا النص في أكثر المصادر: الأغاني، وفيات الأعيان، البداية والنهاية، الطبري، والكامل في التاريخ.

أن يمارس العراقيون أي أمر يتعلق بتجاوز سلطاته أو الاستهانة بقراراته.. لقد كان مصمماً منذ البداية على تنفيذ المنهج الدموي الذي اعتبره - وفق رأيه - الأكثر ملائمة لطبيعة أهل العراق.. ولقد قيل وكتب الكثير عن الحجاج ووصف بشتى النعوت والأوصاف حتى قيل: «إن عدد الذين قتلهم الحجاج بلغ ١٢٠ ألفاً»[1] ، وهكذا لعلع العنف الدموي بأعلى صوته بأرض العراق طيلة عهد الحجاج الثقفي. وبغض النظر عن كل ما قيل عنه وعن مآخذه وظلمه وجبروته ودمويته فقد استطاع هذا الطاغية أن يصل بهذا الشعب / أهل العراق/ إلى تخوم الصين بفتوحات وحروب متواصلة وتحول العراق في عهده إلى ترسانة ضخمة لإمداد الجيوش الإسلامية المقاتلة على الجبهات بالإمدادات البشرية والتسليحية.. فكيف استطاع الحجاج تحقيق ذلك؟ وهل أن ماحصل من نتائج هي الاستجابة النفسية الملائمة من شعب العراق لقوة الأرقام القهرية ولأسلوب العنف والقسوة والمنهج العسكري وخضوعه التلقائي المستكين لقوانين الانضباط الحديدي المفروض من قبل السلطة السياسية المتمثلة بالحجاج وسياسته الصارمة؟ إن أمثلة تاريخية أخرى ربما صادفتنا لاحقا تؤكد ذات المنحى والنزوع لدى أهل العراق في استجابتهم الفطرية وخضوعهم المتفاعل مع جبروت العنف الدموي. فهل إن هذا هو ديدن الشعب العراقي في التعامل مع وسائل وأساليب القوة في كل الأزمان والعهود؟ وإذا لم يكن كذلك فلماذا استطاع الحجاج تحقيق هذا الأمر بينما لم يستطع ذلك الإمام علي - وهو القائد الأكفأ والأشجع والأقدر فكرياً وأخلاقياً وإيمانيا ، وفوق كل ذلك هو ابن عم الرسول محمد (ص)، بل غرق في موجات من الفتن والاضطرابات والفوضى والفلتان والمشاكل التعبوية والانضباطية والإدارية التي أتعبته وبددت جهوده وشتتت اهتماماته واستنزفت سلطته وحكمه وانتهت أخيراً بمقتله في العراق المضطرب؟.

وهل كان بحاجة إلى سياسة شبيهة بسياسة الحجاج لكي تستقيم الأمور ويستجيب أهل العراق؟ حتى ينجح في قيادة هذا الشعب ذي التاريخ المشبع بأحداث العصيان والعناد والقسوة والعنف الدموي؟ قد لا يكون من الجائز طرح مثل هذه الأسئلة الافتراضية البسيطة في علم التاريخ إلا أننا أشرنا إلى هذه

---

١ - د. فيليب حتي، تاريخ العرب، ص٢٦٩.

التساؤلات نظراً لالتصاقها بموضوع حيوي مازال شعب العراق يعاني منه حتى الوقت الحاضر، ذلك هو موضوع العنف الدموي وانعكاساته التطبيقية في سلوك العراقيين شعباً أو حكاماً أو أفرادا عاديين..

أهل العراق: التطرف والبصيرة العمياء

تعتبر ثورة عبدالرحمن ابن الأشعث من أهم الأحداث البارزة ذات الطابع الدموي التصفوي خلال حكم الحجاج للعراق، تلك الثورة التي قادها عبد الرحمن بن الأشعث والنهاية المأساوية التي انتهت إليها في معركة دير الجماجم. وقد أظهرت هذه الواقعة بالإضافة إلى تفاصيلها المشحونة بالعنف الدموي فكرة واضحة عن ميل العراقيين بل تفضيلهم الالتزام بالحلول المتسمة بالحسم والقوة والعنف واستبعادهم الحلول ذات الطابع السلمي التفاوضي والتفاهم الرضائي، فبعد أن ثقلت سطوة الحجاج وقسوته الصارمة على أهل العراق حصلت ثورة واسعة أخذت شكل تمرد عسكري كبير بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث (المتحدِّر من أسرة ملوك كندة)[1] وهو بالأساس أحد قواد الحجاج في جبهة سجستان.

وقد حظيت ثورة ابن الأشعث على تأييد واسع من أهل الكوفة كذلك انضم إليه من جاء من أهل البصرة وتجمعت معه جيوش جرارة فسار ابن الأشعث بمن معه من الجيوش البصرية والكوفية وعسكر في منطقة دير الجماجم، «ومعه جنود كثيرة وفيهم القراء وخلق من الصالحين.. وكان جملة من اجتمع مع ابن الأشعث مائة ألف مقاتل ممن يأخذ العطاء ومعهم مثلهم من مواليهم»[2]. واستمر الوضع على هذه الحال مدة من الزمن، وجرت مناوشات عديدة كان الغلبة في أكثرها للأشعث فاجتمع الأمراء وأهل المشورة عند عبد الملك بن مروان في الشام وقالوا له «إن كان أهل العراق يرضيهم منك أن تعزل عنهم الحجاج فهو أيسر من قتالهم وسفك دمائهم»[3] فوافق عبد الملك على هذه المشورة وأرسل أخاه محمد بن مروان ومعه ابنه عبد الله بن عبد الملك بن مروان ومعهما كتاب منه إلى أهل العراق يقول لهم فيه: «إن كان يرضيكم مني عزل الحجاج

---

١ ـ د. فيليب حتي، تاريخ العرب ، ص٢٦٩.

٢ ـ البداية والنهاية لابن كثير الجزء ٧ ص٨٣.

٣ ـ البداية والنهاية لابن كثير الجزء التاسع ص٥٠

عنكم عزلته عنكم وبعثت إليكم أعطياتكم مثل أهل الشام، وليختر ابن الأشعث أي بلد شاء يكون عليه أميراً ما عاش وعِشْتُ، وتكون أمرة العراق لمحمد بن مروان. وقال في عهده هذا فإن لم تجب أهل العراق إلى ذلك فالحجاج على ماهو عليه واليه أمرة الحرب»[1].

ومضمون النص أعلاه واضح كل الوضوح، فهو يعرض على أهل العراق اقتراح تنحية الحجاج عن حكم العراق وتعيين أخاه محمد بن مروان مكانه والاستمرار في إرسال المخصصات لأهل العراق مثل أهل الشام كما يعرض في تلك الرسالة على ابن الأشعث أن يختار أي بلد يشاء ليكون أميراً عليه مادام الأشعث وعبد الملك على قيد الحياة.. أما إذا لم يوافقوا، فالحجاج سيبقى في منصبه وبيده قرار الحرب. «ولما بلغ الحجاج ماكتب به عبد الملك إلى أهل العراق من عزله إنْ رضوا به شقَّ عليه ذلك مشقة عظيمة جداً وعظم شأن هذا الرأي عنده وكتب إلى عبد الملك: يا أمير المؤمنين وا لله لئن اعطيت أهل العراق نزعي عنهم لا يلبثون إلا قليلاً حتى يخالفوك ويسيروا إليك ولا يزيدهم ذلك إلاجراةً عليك»[2].

ورغم ذلك فقد أصر عبد الملك على عرض الرسالة على أهل العراق فتقدم ابنه عبد ا لله بن عبد الملك ومعه عمه محمد بن مروان أخو الخليفة ونادى: «يا أهل العراق أنا عبد ا لله بن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان وإنه يعرض عليكم كيت كيت فذكر ما كتب به أبوه معه إليهم...

فقالوا ننظر في أمرنا غداً ونرد عليكم الخبر عشية ثم انصرفوا فاجتمع جميع الأمراء عند ابن الأشعث فقام فيهم خطيباً وندبهم إلى قبول ما عرض عليهم من عزل الحجاج عنهم وبيعة عبد الملك وإبقاء الأعطيات وأمرة محمد بن مروان على العراق بدل الحجاج، فنفر الناس من كل جانب وقالوا لا وا لله لا نقبل ذلك، نحن أكثر عدةً وعدداً وهم في ضيق من الحال وقد حكمنا عليهم وذلوا لنا وا لله لا نجيب إلى ذلك أبداً، ثم جددوا خلع عبد الملك ونائبه ثانية واتفقوا على

---

١ ـ المصدر السابق.

٢ ـ المصدر السابق، ص٥١.

ذلك كلهم»[1] «فلما بلغ عبد الله بن عبد الملك وعمه محمداً الخبر، قالا للحجاج: شأنك بهم إذاً»[2].

وهكذا كان يمكن أن تشكل هذه الحادثة منعطفاً هاماً في التاريخ العراقي لولا التصلب والعناد والمكابرة لدى العراقيين وتجبرهم عند المقدرة وعدم التبصر في الأمور، وكما في السابق بل كما في كل مرة نجد العراقيين، اقرب ما يكونوا إلى الانشقاق والتفرق والعناد والميل إلى القسوة، والتصلب وسفك الدماء حين يترك لهم حرية الاختيار والرأي في أمر من الأمور وهم بذلك بارعون في إضاعة فرص الانتصار من أيديهم سلماً كان ذلك أو حرباً بمواقفهم في التطرف الأعمى، ولعل هذا المسلك مازال عالقاً بهم حتى يومنا هذا، وما أقرب موقفهم ذاك من قائدهم ابن الأشعث عندما رفضوا رأيه بقبول عرض الخليفة عبد الملك فأضاعوا فرصة الانتصار في السلم والتفاوض من موقفهم من علي ابن أبي طالب في صفين عندما رفضوا رأيه بخدعة التحكيم فأضاعوا فرصة الانتصار الحاسم في الحرب.. فكيف يمكن تحقيق النصر لشعب لا يتعمق في ظواهر الأمور ولا يتبصر بعيداً في النتائج والعواقب ولا يطيع قائده ولا ينصاع لأوامره في المواقف الحاسمة. وكما كان الخسران والتشتت حظهم في صفين كانت النتيجة أبشع وأقسى من ذلك في دير الجماجم حيث يبدو من سير الوقائع ومن منطق النصوص التاريخية أن رسالة الخليفة عبد الملك كانت جديّة وصادقة و لم تكن مكيدة أو مناورة لكسب الوقت أو للخديعة وأن الخليفة عبد الملك كان راغباً في إيجاد حل للوضع المتأزم في العراق آنذاك والدليل على صحة هذا الاعتقاد ما تركته تلك الرسالة عند الحجاج من أثر نفسي سيء وانفعال شديد واضطراب وخوف على منصبه ومركزه مما دفعه لكتابة رسالة إلى الخليفة يحذره فيها من غدر العراقيين وخطرهم إذا هو أقدم على تنحيته من منصبه لإرضائهم.. إضافة إلى ذلك فإن قائد الحركة أو الثورة عبد الرحمن بن الأشعث هو ذاته قد حاول إقناعهم بالموافقة وقبول عرض الخليفة إلا أنه فشل في ذلك حيث أجمعوا كلهم كما يذكر ابن كثير على عدم الموافقة ورفضوا العرض السلمي و لم يتبينوا أي جانب إيجابي مفيد فيه رغم

---

١ ـ المصدر السابق، ص٥١.

٢ ـ المصدر السابق، ص٥١.

أن كل بنوده كانت لصالحهم تقريباً وبالأخص البند المتعلق بعزل الحجاج وإنهاء حكمه وسلطته عليهم وعلى العراق فأضاعوا على الأقل فرصة عزل الحجاج عن العراق وهو أمر كبير وبالغ الأهمية في تلك الأيام.. والأمر الغريب في موقف أهل العراق هذا أنه لم يظهر بينهم غير ابن الأشعث من حاول تفهّم هذا العرض السلمي والتعامل معه بإيجابية حتى يبدو أن الفرد العراقي لا يقر ولا يدرك منطقاً غير منطق العنف والقوة في فهم الأشياء والتعامل معها.. إن الأسلوب العراقي في فهم علم السياسة والتعاطي مع مبادئها وأسسها هو ذاته يكاد لا يتغير في كل الأزمان والعصور، فالسير على حد السكين والشد بأعلى التوتر الممكن والتصعيد حد الانفجار واستخدام المكابرة والمشاكسة والعناد والتطرف، وكذلك التمسك بكل شيء أو لاشيء، والتلويح الدائم باستخدام العنف والقوة والتشبث بقهر الطرف الآخر وإرغامه والانتصار الحاسم عليه كحل وحيد لا بديل عنه هو الشكل العراقي المعتاد في إدارة أمور الدولة والأمة والسياسة وهو مايميّز مواقف العراقيين في الأزمات الفاصلة في التاريخ، وهو في ذات الوقت أكثر الأساليب فشلاً وتخلفاً في علم العلاقات الاجتماعية والسياسية والدبلوماسية وهو أسلوب الذين لا يجيدون السياسة ولا يتقنون فنونها.

لقد أعطى أهل العراق تلك الفرصة الذهبية للحجاج بن يوسف لتدميرهم وهي فرصة كانت بعيدة عن متناول يديه في تلك الظروف ويتكرر هذا الموقف العراقي الخائب كثيراً في التاريخ وربما كان آخر تلك المواقف ماحصل في العراق عام ١٩٩٠ في حرب الكويت عندما أعطى العراقيون الفرصة للآخرين لتدمير بلادهم وسحق البدايات الأولى الناجحة للنهضة التكنولوجية والصناعية في العراق.

أما النتيجة التي أسفر عنها ذلك الموقف المتصلب من رسالة عبد الملك بن مروان في ثورة ابن الأشعث فهي معروفة تاريخياً.. فقد قضى الحجاج على الثورة في معركة دير الجماجم وقتل قائدها عبد الرحمن بن الأشعث وساق أصحابه وجميع المشتركين معه في الثورة إلى الإعدام الواحد بعد الآخر وسحقهم سحقاً. وكان من بين الذين تم إعدامهم الشاعر المعروف أعشى همدان الذي أمر الحجاج بقطع رأسه بعد أن وبّخه وأعاد عليه قراءة بعض أشعاره في هجاء الحجاج ومدح ابن الأشعث، ولم ينجُ أحد من أتباع ابن الأشعث المعروفين حتى

الذين هربوا واختفوا في الأقطار والأقاليم والمدن البعيدة فقد كتب الحجاج بشأنهم وأعادهم أسرى الواحد بعد الآخر وأعدمهم ومن أولئك سعيد بن جبير الذي اختفى في بلدان عديدة كان آخرها في مكة فكتب الحجاج إلى واليها خالد القسري فأرسله له فقام بإعدامه وقطع رأسه. ومن المفارقات الغريبة في التاريخ العراقي أن يموت الحجاج على الفراش ميتة طبيعية و لم يقتل رغم الدور الدموي الإرهابي المرعب الذي مارسه مع أهل العراق طيلة حكمه، بشكل لم يسبق له مثيل من القسوة والعنف وما ترك في نفوسهم من ثارات وأحقاد شخصية. وقد مات الحجاج بمرض الأكلة[1] بعد مقتل سعيد بن جبير بفترة وجيزة.

وتدور الأيام ويأتي خالد القسري الذي كان والياً على مكة ليكون والياً على البصرة والكوفة فيسمى أمير العراقين وقد عينه هشام بن عبد الملك والياً على العراق سنة ١٠٥ للهجرة. وكان خالد القسري معدوداً من خطباء العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة وكان جواداً كثير العطاء.. إلا أن هشام بن عبد الملك غضب عليه بعد ذلك واستبدله وعين مكانه يوسف بن عمر الذي حبس خالد القسري واخذ أمواله وعذّبه تعذيباً بشعاً حتى مات تحت التعذيب «قيل أنه وضع قدميه بين خشبتين وعصرهما حتى انقصفتا ثم رفع الخشبتين إلى ساقيه وعصرهما حتى انقصفتا ثم إلى وركيه ثم إلى صلبه فلما انقصف صلبه مات وهو في ذلك لا يتأوه ولا ينطق»[2]. وهكذا فقد بقي خالد القسري سالماً معافى طيلة حياته حتى قُدِّر له أن يدخل إلى داخل ورشة العنف الدموي ـ العراق ـ فسحقته آلات تلك الورشة الدموية سحقاً حتى العظم. و لم يقتل خالد القسري وحده بل قتل وعذب معه عدد كبير من أتباعه وموظفيه أما أسباب مقتل أمير العراقين خالد القسري فهي الدسائس والوشايات (والإخباريات) والضغائن والمكائد التي كانت تدور في دار الإمارة بالكوفة وكان هذا الجو المشحون بالتوتر هو الذي تسبب ايضاً في مقتل الشاعر المعروف الكميت بن زيد الأسدي بعد ذلك، حيث وقف هذا الشاعر يلقي قصيدة يمدح فيها الأمير الجديد يوسف بن عمر الثقفي الذي تولى إمارة العراق بعد خالد القسري فما كان من حرس الأمير

---

١ ـ من خلال الوصف الذي يرد في المصادر القديمة لهذه العلة والمعاناة التي قاساها الحجاج لتحمل آلام هذا المرض فإن ذلك يدفع للاعتقاد بأن تسمية الآكلة ربما تعني سرطان الأمعاء.

٢ ـ ابن خلكان، وفيات الأعيان، المجلد ٢، دار صادر، بيروت، ص٢٢٩.

الجديد إلا أن هجموا على الكميت وغرزوا سيوفهم في صدره وقتلوه بحجة أنه لم يستأذن الأمير قبل البدء بإنشاد الشعر وتبيّن فيما بعد أن هؤلاء الحراس كانوا من الموالين للأمير السابق خالد القسري والمحبين له وقد غاضهم هجاء الشاعر لخالد القسري والتعريض به في قصيدته أمام الوالي الجديد فسقط الكميت قتيلاً..

أما حاكم العراق الجديد يوسف بن عمر الثقفي وهو ابن عم الحجاج فقد أبحر هو الآخر مع التيار الدموي السائد في العراق ومارس العنف بأقسى أشكاله ووجوهه، وكان يوسف مذموماً في عمله، أخرق السلوك، سيء السيرة، وقد قيل فيه أنه «كان أَتْيَه وأَحمق عربي أَمَرَ ونهى في دولة الإسلام»[1]. وقد انتهى نهاية تعيسة، حيث قُتل ثم سحل.

مسؤولية أهل الكوفة في مقتل زيد بن علي بن الحسين:

بعد تشجيع كبير من أهل الكوفة، ثار زيد بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب على هشام بن عبد الملك مطالباً بالحكم وتبعه كثيرون «ودعى لنفسه بالخلافة مُنشئاً نظرية شيعية جديدة نسبت إليه هي نظرية الزيدية»[2]، التي تحولت إلى مذهب سمي بالمذهب الزيدي وقد آمن بهذا المذهب أناس كثيرون[3]، فجهز الوالي يوسف بن عمر جيشاً لمحاربته ووقعت المعركة فانهزم أصحاب زيد من أهل الكوفة وتفرقوا ولم يبقِ معه إلا جماعة قليلة منهم - كالعادة في كل مرة في العراق - فقاتل قتالاً شديداً حتى جاء المساء وحال الظلام بينهم وعاد زيد مثخناً بالجراح وقد أصابه سهم في جبهته وعندما أخرجوا السهم من جبهته مات في الحال فدفنوه في ساقية ماء ووضعوا على قبره التراب والحشيش وقام أحد القرويين (العراقيين) - ممن حضروا الدفن وكانوا قد طلبوا منه كتمان السر - بإبلاغ الوالي يوسف بن عمر ودله على موضع قبره فاستخرجه يوسف وقطع رأسه وأرسل الرأس إلى هشام بن عبد الملك فكتب هشام إليه أن يصلبه عريانا

---

١ - وفيات الأعيان، ج٧، ص١٠٩.

٢ - د. شوقي ضيف، العصر الأموي، دار المعارف بمصر، ص١٥٦.

٣ - هو مذهب انتشر في إقليم الديلم جنوبي بحر قزوين وأتباع هذا المذهب يرجعون الخلافة إلى زيد بن علي زين العابدين ثم إلى ولده يحيى بن زيد وهم لا ينكرون إمامة أبي بكر وعمر مع قولهم أن علياً أفضل منهما فهم يجيزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل لهذا كان هذا المذهب أقرب الفرق الشيعية إلى السنة.

فصلبه يوسف عرياناً في سوق الكناسة بالكوفة وبقي على هـذه الحـال مـدة غـير قصيرة، ثم كتب هشام يطلب من يوسف بن عمر أن يحرقـه ويـذري رمـاده في الرياح فقام بإحراقه وأذرى رماده في الرياح علـى شـاطئ الفـرات، وكـان ذلـك سنة ١٢٢ هجرية. كل ذلك كان يجري أمام أعين العباسيين الذين كانوا يعملون بالخفاء في تلك الفترة تحضيراً للثورة ضد الأمويين فكانت تلك الأعمـال وغيرهـا من العنف الدموي الشرس الموجه ضد أتباع بني هاشم هي المقدمات الـتي قـادت إلى الإعصار الدموي المرعب الآخر الذي عصف بالأمويين بعد ذلك على يد أبي العباس السفاح كما سنرى..

وربما كان الأسلوب الذي قتل فيه زيـد بـن زيـن العـابدين بصلبـه وإحـراق جثته وتذرية رماده في الرياح هو ما أوحى لعبد الله بـن علـي عـم السـفاح بعـد عشر سنوات حين انتصر العباسيون بنبش قبور خلفـاء بـني أميـة وصلـب جثثهـم وإحراقها وتذرية رمادها بالرياح في دمشق بعد سحقه للجيش الأموي في معركـة الزاب، أما يوسف بن عمر حاكم العراق فقد انتهى نهاية تعيسة بعـد أن غضـب عليه الخليفة الأموي يزيد بـن الوليـد عندمـا تـولى الخلافـة حيـث هـرب يوسـف واختفى عند أهله ولبس ثياب النساء للتخفي ـ تمامـاً كمـا فعـل نـوري السـعيد حـاكم العراق بعد ١٢٠٠ سنة مـن هـذا الحـادث ـ فأرسـل يزيـد مـن اعتقلـه وأحضره فسجن في دمشق ثم قتل وقطعت رأسه وسُحِلَ بعد أن شدوا في رجليـه حبلاً وكان ذلك سنة ١٢٧ هجرية/ ٧٤٥ ميلادية[١]

إن حلقات مسلسل العنـف الدمـوي في العـراق تكـاد تعيـد نفسـها بتكـرار متماثل يصل بعض الأحيان إلى حد التطابق.

سقوط الدولة الأموية:

كانت المعركة التي حصلت على نهر الزاب الكبير عام ١٣٢ هـ/٧٥٠ م في العراق هي المعركة الفاصلة التي قضت بصورة نهائية وقطعية على الدولة الأموية، فقد كانت تلك المعركة الكبيرة شديدة العنف والدموية وقيل أن أكـثر القتلـى في صفوف الجيش الأموي قد ماتوا غرقاً في النهر، فهرب الخليفة مـروان بـن محمـد

---

١ ـ ابن خلكان ، وفيات الاعيان، الجزء السابع، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص١١١.

الملقب بمروان الحمار[1] الذي كان يقود الجيش الأموي في هذه المعركة واتجه غرباً نحو دمشق دون أن يتوقف أو يعيد تنظيم صفوفه بل ترك جيشه، كما يبدو، للأقدار. وقد استباح عبد الله بن علي - وهو عم السفاح - مراكز قيادات الجيش المنهزم ونهب قواته واستولى على ما فيها من أموال ومؤن ومعدات، ولم يتوقف الجيش العباسي ، كما هومعروف، عند الانتصار الذي حققه في معركة الزاب، بل قام قائده عبد الله بن علي بمطاردة الخليفة الأموي مروان بن محمد وأتباعه بإصرار تام، حتى وصل إلى دمشق ثم إلى فلسطين ثم إلى مصر فتبعه إلى هناك واستطاع أن يقتله في صعيد مصر في قرية تسمى بوصير من قرى الصعيد وأن يقطع رأسه ويرسلها إلى أبي العباس السفاح.. وبذلك يسدل الستار إلى الأبد على الدولة الأموية التي حكمت العالم الإسلامي ما يقرب من قرن من الزمان وكان العراق بمشاكله المعقدة واضطراباته المتصاعدة وفتنه الدموية المتواصلة في مقدمة الأسباب التي أدت إلى سقوطها.

---

١ - قيل لُقب بذلك لكثرة تحمله للمتاعب والمشاكل والهموم والفتن في زمانه.

الفصل الرابع

العنف الدموي في العصر العباسي

٧٥٠م ــ ١٢٥٨م

- **ــ العباسيون: الانتقام الدموي**
- **ــ خلفاء بني العباس: صفحات من السلوك الدموي:**

الخليفة ابو العباس : يسمي نفسه سفاحاً

الخليفة أبوجعفر المنصور: تكتيك الاغتيالات الدموية

الامام الاعظم : يموت في سجن المنصور

الخليفة المهدي: القتل على الشبهة

الخليفة موسى الهادي : يغدر بصديقه فيموت معه

الخليفة هارون الرشيد : يقطّع جثة صديقة جعفر البرمكي

الخليفة المأمون : يقتل أخاه الأمين ويسحل جثته

الخليفة المأمون : يغتال مساعديه

- **ــ ثورة الزط: منهج بدائي في حرب العصابات**
- **ــ نظرية خلق القرآن: التطبيق الدموي لدكتاتورية العقيدة الواحدة**

المعتصم : يجلد الامام احمد بن حنبل

العنف يتواصل في عهد الواثق

الخليفة المتوكل : يقتله ابنه المنتصر

الخليفة المنتصر : يغتاله طبيبه المرتشي

المستعين با لله يقتله المعتز با لله

المعتز با لله يقتله المهتدي با لله

المهتدي با لله : يموت تحت الضرب المبرح
المعتمد على ا لله : يموت مسموماً

- **ـ ثورة الزنج: الحجم الهائل من العنف الدموي / أكثر من نصف مليون قتيل**

الخليفة المعتضد : السفاح الثاني
الخصي مؤنس الخادم : يقتل الخليفة المقتدر با لله
عبدا لله ابن المعتز خليفة ليوم واحد
الخليفة القاهر با لله كحله الراضي بمسمار محمي وأعماه
الخليفة الراضي : يُقتل بأيدي الجند
الخليفة المتّقي : أعماه السلطان توزون بمسمار محمي
الخليفة المستكفي با لله: سُملت عيناه وسجن حتى مات
الخليفة المطيع لأمر ا لله : أمروه أن يخلع نفسه فأطاعهم
الخليفة الطائع لله : ألعوبة بيد السلاطين
الخليفة المقتدي : مات مسموماً
الخليفة المستظهر سقطت القدس في عهده
الخليفة المسترشد با لله : قتله جنود السلطان مسعود وقطعوا أنفه وأذنيه
الخليفة الراشد : قتله الخدم بالسكاكين
الخليفة المستنجد: قتلوه في الحمام وهويستغيث
الخليفة المستعصم : قتله المغول رفساً بالاقدام

- **ـ بدايات العنف الطائفي:**
- **ـ المجزرة الدموية الكبرى وسقوط بغداد ١٢٥٨م / سيناريو الإبادة الجماعية**

كانت الممارسات والأحداث التي اتصفت بالعنف الدموي وأخذت طابع المذابح والتنكيل والمجازر في العهد الأموي قد تركزت في أرض العراق لذلك كان من الطبيعي أن يتحول إلى نطقة ارتكاز في مقاومة الحكم الأموي وبالتالي إلى احتضان الثورة العباسية وموالاتها.

وإذا كان رد الفعل في علم الفيزياء يساوي الفعل في قوته ويعاكسه في الاتجاه فإن رد الفعل في علم العنف الدموي العراقي يكون أضعافاً مضاعفة في القوة وموزعاً في جميع الاتجاهات، وهذا ما أثبتته الأيام والأحداث عندما جاء الوقت لتصفية الحسابات الدموية السابقة مع الأمويين حين انتصار العباسين، والرد على العنف السابق بعنف أشرس منه وأقسى. فلم يعد العراق هو ساحة التصفيات الدموية لإتباع الحكم الأموي فسحب، بل تحول أكثر من ذلك إلى بؤرة يَصْدُرُ منها إشعاعاتَ العنف الدموي وتدار لحسابها عمليات التنكيل والمجازر والمذابح والتصفيات الدموية في عموم بلدان المنطقة المحيطة بالعراق. فقد شكل أبو العباس السفاح من أعمامه، وأقربائه، ورجاله المقربين شبكة من القادة المسؤولين المرتبطين به يتوجهون بأوامره، وزعهم على العواصم والبلدان في وقت مناسب، وبطريقة علمية واقعية تجعلهم قادرين على تصفية أتباع الحكم الأموي وموظفيه بإحكام تام، وإدارة المجازر ضدهم، بأسلوب وتوقيت موحد ومتقن. ففي الكوفة والأنبار، قام السفاح ورجاله بعد إعلان الثورة العباسية بتصفية أتباع الأمويين وإنهاء وجودهم. وينفرد كتاب الأغاني[1] برواية مثيرة ينسبها إلى أبي

---

١ ـ الأغاني، ج٤ ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص٣٤٤. وهذه الرواية ينفرد بها الأصفهاني بينما تنسبها مصادر أخرى إلى عبد الله بن علي حيث دعى ثمانين رجلاً من بني أمية إلى مأدبة أقامها قرب يافا في بلاد الشام ثم قام بقتلهم جميعاً في تلك المأدبة.

العباس السفاح عن المجزرة المرعبة التي حصلت لأمراء بني أمية في مجلس السفاح بالأنبار عندما دخل شاعر موالٍ للعباسيين اسمه سديف بن ميمون، وألقى قصيدة مؤثرة ذكّرَ فيها السفّاح بمصير جميع الضحايا من أخوته وأهله وآل بيت النبي الذين قتلوا على أيدي الأمويين، وطلب منه إبعادهم عن مجلسه والقصاص منهم بالسيف ثأراً لأولئك المظلومين من الضحايا. ونذكر هنا بعض الأبيات التحريضية من تلك القصيدة المثيرة:

أقصهم أيها الخليفة وأحسم — عنك بالسيف شأفة الأرجاس

واذكرَنْ مصرع الحسين وزيد — وقتيل بجانب المهراس

والامام الذي بحران أمسى — رهن قبر فى غربة وتناسى

فلقد ساءنى وساء سوائى — قربهم من نمارق وكراسى

فما كان من أبي العباس السفاح إزاء هذا التصعيد الدراماتيكي المفاجئ للعواطف ووتيرة الذكريات المأساوية المؤلمة تجاه الضحايا الذين سقطوا قتلى على أيدي الأمويين ومنهم أخوه إبراهيم الإمام القائد الإساسي للثورة الذي قتل بحّران، إلا أنْ أصدر أوامره الفورية بقتل جميع الموجودين في المجلس من بني أمية فهجم الحراس عليهم وقطّعوهم بالسيوف. أما في الشام فقد تولى عم السفاح عبد الله بن علي إدارة العمليات ضد الأمويين «فقتل عدداً ضخماً من بني أمية ونبش قبور موتاهم ولما رأى جسد هشام بن عبد الملك سليماً ضربه بالسياط ثم صلبه وأحرقه وذرى رماده في الهواء»[1] وتولى سليمان بن علي عم السفاح ـ تصفية الأمويين في البصرة فقتل ما استطاع منهم «وسحلهم على الطريق»[2]، كما قام داوود بن علي ـ عم السفاح ـ الموجود في مكة «بقتل جماعة كبيرة من الأمويين بمكة والمدينة»[3]، وقام صالح بن علي ـ عم السفاح ـ بتصفية الأمويين وأتباعهم في مصر. أما في الأهواز فقد تولى إسماعيل بن علي ـ عم السفاح ـ تصفية الأمويين وإبادتهم هناك. وفي خراسان كان أبو مسلم

---

١ ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٤، ص٣٣٣

٢ ـ د. إبراهيم أيوب، التاريخ العباسي السياسي والحضاري، الشركة العالمية للكتاب، ص٢٩.

٣ ـ المصدر السابق، ص٢٩

الخراساني رجل العباسيين القوي كفوءاً جداً في إبادة وسحق أتباع الأمويين وتصفيتهم..

وهكذا شكلت سلسة المجازر التي نفذت بحق الأمويين موجة عارمة من العنف الدموي في كل بلدان المنطقة تقريباً في توقيت واحد، في الوقت الذي كان فيه العراق هو المقر المركزي لإدارة وتنفيذ الأوامر والتعليمات الخاصة بتلك المجازر. وعلى الرغم من المقولة السائرة بين الناس (السن بالسن والبادئ أظلم) إلا أن العراق في تنفيذه تلك الثارات على النحو الذي جرى قد جاوز السن بالسن إلى السحق حتى العظم والإبادة الكلية.

خلفاء بني العباس: صفحات من السلوك الدموي

سوف نستعرض في الصفحات التالية من هذا الفصل، على نحو مختصر، تاريخ الخلفاء العباسيين ابتداءاً من الخليفة أبي العباس السفاح وحتى نهاية الدولة العباسية وسقوط بغداد على يد المغول عام ٦٥٦هـ المصادف ١٢٥٨ للميلاد، على أن الأمر الأهم في هذه الصفحات هو أنها سوف لن تتناول المآثر والإنجازات العظيمة والانتصارات الباهرة التي دأبت الكتب التقليدية تلقينها لنا عن عهود أولئك الخلفاء، بل سوف تقتصر على تناول الأحداث المتصلة بسلوك العنف الدموي من المجازر والقتل والغدر والاغتيالات وسفك الدماء وسمل العيون التي قام بها الخلفاء العباسيون، والنهاية الدموية التعيسة التي انتهى إليها الكثيرون منهم... وهو ما لا تتناوله أو تبرزه الكتب التاريخية التقليدية أو مناهج التعليم والتدريس في الوطن العربي، ربما حفاظاً وحرصاً على مكانة الأمة ومهابتها وتاريخها الناصع المجيد، حتى وإن كان ذلك على حساب الحقيقة التاريخية. غير أنه من المفيد الإشارة هنا أن منهج البحث في هذا الكتاب وأهدافه البنيوية هي التي تستوجب بل تستلزم وتقتضي تسليط الضوء على تلك الأحداث الدموية الشرسة.

لقد كانت الموجة الدموية الهائلة التي أشرنا لبعض أحداثها في الصفحات السابقة، والتي نفذها العباسيون بحق الأمويين وأتباعهم وتصفية نفوذهم في جميع

البلدان الإسلامية المعروفة آنذاك، هي الافتتاح الرسمي للعصر العباسي الأول الذي كان أبو العباس السفاح هو الخليفة فيه.

الخليفة أبو العباس يسمي نفسه سفاحاً:

أطلق أبو العباس على نفسه اسم السفاح في خطبته الأولى في الكوفة عند تسلمه المسؤولية حين قال: ((يا أهل الكوفة أنتم أهل محبتنا ومنزل مودتنا.. فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المبير))[1]. ويبدو أن منهجاً جديداً في الحكم قد وضع موضع التنفيذ الفعلي والتطبيق العملي بعد سقوط الدولة الأموية حيث تبرز الخصائص العراقية في الحكم والإدارة السياسية لشؤون الدولة والملك والتي تتسم في اغلب الأحيان بالحزم والشدة والصرامة والعنف الدموي والاغتيالات الفردية والدسائس القاتلة، وهي العلامات الفارقة التي أصبحت تميّز الحكم والخلافة في العراق بعد أن أصبح وادي الرافدين هو المسرح الرسمي للأحداث في رواية الإسلام السياسية..، حيث أن لقب السفاح - وهو اللقب الذي لا يمكن أن يوحي بغير العنف الدموي - قد التصق به وصار جزءاً من اسمه ((وكأنه لوّح بذلك إلى ما اعتمده هو وخلفاؤه من استعمال العنف في سبيل الأغراض السياسية، ولأول مرة في تاريخ الإسلام صار النطع[2] يبسط إلى جانب كرسي الخلافة ويُتخذ منه ومن سيف الجلاد أداةً لتوطيد صولة العرش))[3] . وتأكيداً لهذا الرأي فإنه لم يمض وقت طويل على الانتصار الحاسم الذي حققه العباسيون حتى بدأوا بتنفيذ موجة جديدة من الاغتيالات والتصفيات الدموية داخل صفوف الثورة وضد رجالاتها وأعوانها ومناصريها الأساسيين من القادة الأقوياء الذين أسهموا في تنفيذ الثورة وإنجاحها وتمكينها من بسط نفوذها وإقامة كيان الدولة العباسية حيث أصبح هؤلاء يشكلون خطراً ومنافساً في نظر البعض ممن يمسكون بمراكز السلطة العليا في الدولة الجديدة. وكان أول ضحايا هذا المنهج الدموي الجديد أبو سلمة الخلال وزير السفاح وداعية العباسيين بالكوفة... فقد حرّض الخليفة السفاح أبا مسلم الخرساني ـــ أحد أنصار الثورة العباسية الأقوياء في

---

١ ـ تاريخ الطبري، ج٧، ص٤٢٦.

٢ ـ النطع: هي آلة لتنفيذ حكم الإعدام بقطع الرأس.

٣ ـ د. فيليب حتي ، تاريخ العرب، مصدر سابق، ص٣٥٣.

خراسان - بقتل أبي سلمة الخلاّل، فوافق أبو مسلم وأرسل أحد رجاله إلى الكوفة فقتله اغتيالاً وهو خارجٌ من عند أبي العباس السفاح، وأشاعوا أن الخوارج هم الذين قتلوه. وكان أبو جعفر المنصور ينصح أخاه السفاح بقتل أبي مسلم الخرساني أيضاً. غير أن السفاح كان متردداً في ذلك خوفاً من انقلاب أصحاب الخراساني وأتباعه في إيران ضد الثورة، وربما أراد أولا أن يستخدم أبا مسلم الخراساني سلاحاً يقتل به بعض المنافسين الآخرين.

الخليفة أبو جعفر المنصور: تكتيك الإغتيالات الدموية

بعد وفاة أبي العباس السفاح تسلم الخلافة أخوه أبو جعفر المنصور (١٣٦هـ/٧٥٣م) ويعد المؤسس الحقيقي للدولة العباسية، وكان أول عمل قام به توجيه حملة عسكرية كبيرة بقيادة أبي مسلم الخرساني للقضاء على عمّه عبد الله بن علي الذي كان له الفضل الأول في إسقاط الدولة الأموية بانتصاره على آخر الخلفاء الأمويين في معركة الزاب الكبير. إلا أنه بعد وفاة السفاح أراد الخلافة لنفسه. وكان أبو جعفر المنصور، كما ذكرنا سابقاً، يريد التخلص من أبي مسلم الخراساني وقتله فأمره بالسير نحو عمه عبد الله بن علي للقضاء عليه «ولم يكن أسرَّ على قلب الخليفة من أن يرسل عدوه المستتر إلى عدوه المعلن فهو على كل حال سيتخلص من أحدهما وسيضعف الآخر»[1].

فتوجه أبو مسلم بجيش كبير من خراسان لمواجهة جيش عبد الله بن علي فاصطدم الجيشان في منطقة نصيبين اصطداماً دموياً اندحر على إثره جيش عبد الله بن علي وهرب إلى أخيه سليمان بن علي والي البصرة الذي قام بتسليمه إلى أبي جعفر المنصور بعد أن أخذ له الأمان، فسجنه المنصور مدة سبع سنوات ثم نقله بعد ذلك إلى بيت كان أساسه من ملح فأجرى الماء تحت أساساته فسقط عليه ومات[2]. وكانت وفاته عام ١٤٧هـ/٧٦٤م.

ثم جاء دور أبي مسلم الخراساني، فبعد الانتصارات الكبيرة والمتواصلة التي حققها الخراساني والدور الكبير الذي لعبه في ترسيخ حكم العباسيين بالإضافة إلى الخوف السابق لدى المنصور منه منذ أيام السفاح فقد أصبح الخراساني يمثل

---

١ - العميد الركن نزار البوسعيد، رجل وإمبراطوريتان، ص١٣٧.

٢ - تاريخ الطبري، ج٨ ، مصدر سابق، ص٩

خطراً جدياً مخيفاً عند أبي جعفر المنصور فبقيت العلاقة بين المنصور وأبي مسلم أشبه ما تكون بالهدنة القلقة وأصبحت الشكوك تتعاظم عند الرجلين تجاه بعضهما البعض وكان أبو مسلم الخراساني شديد الريبة والحذر مما استوجب من المنصور أن يستخدم كل ما عرف عنه من دهاء ومكر وحيلة لتصفية الخراساني فأرسل له بضعة رسائل يطمئنه فيها ثم دعاه أخيراً للقدوم إليه في المدائن ولما جاءه إلى مقره نفذ الخطة التي أعدها مسبقاً مع رجاله وحرسه داخل القصر فبعد أن احتدم الجدال العنيف الذي أداره المنصور عنوةً وافتعالاً، أمر الجند فهجموا على أبي مسلم الخراساني وهو في حضرة المنصور فقتلوه شر قتلة إذ قطّعوه بسيوفهم بينما كان حرسٍ الخراساني ومرافقوه قد إستدرِجوا بعيداً وأخذوا بالحيلة إلى مكان آخر بعيداً عن مقر المنصور. وهذه الحادثة هي إحدى المحطات الهامة في تاريخ العباسيين فقد تخلصوا ولو بأسلوب الغدر والخيانة من أقوى الأتباع الذين ربما شكلوا خطراً على ملكهم في يوم من الأيام.

وفي عهد المنصور، أعلن أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب الثورة ضد العباسيين في كل من مكة والبصرة في وقت واحد، وهما الأخوان محمد بن عبد الله ذو النفس الزكية الذي أعلن الثورة في مكة، وإبراهيم بن عبد الله الذي أعلن الثورة في البصرة فقضى المنصور عليهما وقتلهما. وقد أعلن الشاعر سديف بن ميمون الذي كان مقرباً من الخليفة العباسي الأول أبي العباس السفاح تأييده لثورة محمد ذو النفس الزكية في مكة فلما سحقت الثورة ((كتب المنصور إلى عبد الصمد بن علي بأن يدفنه حياً ففعل))[1]، وقيل قد ألقاه في بئر وردم البئر فوقه.. وكان من أهم الأعمال التي قام بها الخليفة أبو جعفر المنصور هو بناؤه لمدينة بغداد عام ١٤٥هـ/٧٦٢م ودام بناؤها أربع سنوات أنفق على إنشائها ثمانية عشر مليون دينار وسميت بعدة أسماء منها - مدينة السلام - والمدينة المدورة - أما الترجمة الحرفية لكلمة بغداد من اللغة الفارسية فهي (أعطية الله).

ونحن نذكر هذا الحدث - بناء بغداد - لأنها ستكون العاصمة المركزية للإمبراطورية الإسلامية الممتدة من الصين حتى المغرب وسيرد اسمها كثيراً في الأحداث القادمة لأنها ستصبح ساحة من ساحات الصراع السياسي والعسكري

---

١ - ابن رشيق القيرواني، العمدة، المجلد الأول، مطبعة دار المعرفة، بيروت، ص١٧١.

وسفك الدماء وممارسة العنف وسينفذ فيها العدد الأكبر من الأحداث الدموية في الفترات اللاحقة من التاريخ الإسلامي، إضافة إلى دورها الثقافي والعلمي والحضاري...

وخلال هذه الحقبة، وما بعدها من تاريخ العنف في العراق ربما اصبح بإمكاننا أن نلمس تبدلاً في أسلوب أعمال العنف الدموي في القتل الفردي، فبعد المرحلة التي طغى فيها قطع الرؤوس وتداولها وإرسالها بين المدن والعواصم على نطاق واسع، سنشهد اسلوباً جديداً من العنف الدموي يتميّز بكثرة الاغتيالات الفردية، والقتل بطريق الغدر داخل القصور من خلال المكائد والدسائس والفتن والمؤامرات التصفوية، بالإضافة إلى طغيان أسلوب سمل العيون[1] وهو يعني التسبب بالعمى بأسلوب قصدي متعمد بواسطة الكي بمسمار محمى بالنار، وهذا ما سنراه لاحقاً على نطاق واسع. والهدف من التسبب بالعمى خصوصاً لدى الخلفاء هو من أجل إحداث عيب شرعي في جسد الخليفة الحاكم حيث يتوجب في الشرع الإسلامي أن يكون الحاكم خاليا من العيوب الشرعية ليستطيع ممارسة أعماله في الحكم والسلطة بطريقة طبيعية غير منقوصة والعمى هو أحد العيوب التي تستوجب تنحية الحاكم عن المنصب.

وفي عهد المنصور قتل الشاعر المعروف أبو نخيلة، الذي نظم أبياتاً من الشعر يؤيد فيها المنصور بتعيين ابنه المهدي ولياً للعهد بدلاً من عيسى بن موسى ولي العهد القوي، وكان من نتيجة ذلك أن عيسى بن موسى قرر قتل الشاعر أبي نخيلة فهرب منه إلى إيران، فأرسل وراءه أحد رجاله يتعقبه، واستطاع أن يمسك به في الطريق ويذبحه ويسلخ جلده، وفي رواية أخرى أنه سلخ وجهه وألقى جسمه إلى النسور وأقسم أن لا يترك المكان حتى تمزق السباع والطيور لحمه فما قام حتى لم يبق منه إلا عظامه[2]. وفي عهد المنصور قتل الشاعر المعروف حمّاد عجرد بعد أن أقحمه جعفر ابن الخليفة المنصور في خلافات عائلية كانت ناشبة بين أولاد الخلفاء والأمراء فاضطر للهروب إلى الأهواز ليعيش متخفياً هناك فأرسلوا من تبعه في الأهواز وقتله ١٦٠هـ/٧٧٧م. كذلك لا بد لنا من الإشارة

---

١ ـ سَمْلُ العين فَقؤُها بحديدة مُحماة / مختار الصحاح للرازي، المكتبة الأموية، ص٣١٤.

٢ ـ الأغاني، ج٢٠ ، مصدر سابق، ص٤٢٢

إلى معاناة بعض العلماء والفقهاء في عهد المنصور ممن لم يتعاونوا أو يخضعوا لولايته مثل الإمام أنس بن مالك إمام المذهب المالكي الذي أهين بالجلد والحبس بعد أن أفتى بجواز الخروج على بيعة المنصور[1] وعندما قيل له إن في أعناقنا بيعة للمنصور قال: إنما بايعتم مكرهين وليس على مكرهٍ يمين.

الإمام الأعظم يموت في سجن المنصور

أما الإمام أبو حنيفة، فقد مات في السجن ببغداد بعد أن طلب منه الخليفة المنصور أن يستلم القضاء فرفض[2] ، وكان قد تعرض قبل ذلك إلى الإهانة والضرب بالسياط على يد يزيد بن هبيرة الغزاري حاكم العراق في أيام مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، حيث ضربه ابن هبيرة في العراق مئة سوط في كل يوم عشرة أسواط لأنه رفض أن يستلم القضاء وهكذا نرى أن هذا الإمام والمفكر الكبير تعرض للأذى والعنف والاضطهاد والعذاب على يد حاكمَيْن من حكام العراق أحدهما في العهد الأموي والآخر في العهد العباسي فرغم تغيير العهود والحكام إلا أن منهج العنف والبطش والقسوة في العراق باقٍ لا يتغيّر.

إن علينا أن لا نطمس تلك الأعمال المخجلة والمخزية بل علينا أن نقول لأنفسنا ولأجيالنا: هكذا كانت معاناة الإمام الأعظم أبو حنيفة في بلادنا المسكونة بالعنف والقسوة والشراسة، لعلنا نزرع في نفوس أبنائنا وأجيالنا النفور والاشمئزاز والإدانة لأساليب البطش والعنف والظلم والقسوة وسفك الدماء ونعلمهم الرحمة والمعروف والابتعاد عن ممارسة الاستبداد والتعسف والطغيان. كما ولعلنا نطهّر أنفسنا جميعاً من التباهي الأجوف بالقوة والعنف والعنجهية والاستخدام الظالم لسيف السلطة القهرية. كذلك لا بد وأن نشير بأحرف بارزة إلى مقتل الكاتب الكبير عبد الله بن المقفع الذي قتله المنصور في البصرة حيث أمر والي البصرة سفيان بن المهلب بقتله[3] ويعود السبب في ذلك الى أن المنصور قد طلب من عبد الله بن المقفع أن يكتب رسالة يعطي فيها أماناً كاذباً لعمه عبد الله بن علي الذي طالب بالخلافة بعد موت السفاح على أن لا يلزم

---

١ ـ السيوطي ، تاريخ الخلفاء، ص٢٦١.
٢ ـ ابن خلكان، وفيات الأعيان، المجلد الخامس، مصدر سابق، ص٤١٤.
٣ ـ د. عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، الجزء الثاني، دار العلم للملايين، بيروت، ص٥٢

المنصور نفسه في الرسالة بعهود ومواثيق ثقيلة فكان أن صاغ ابن المقفع الرسالة وفيها كثير من العهود والمواثيق على لسان المنصور فأغضبه ذلك وأمر والي البصرة بقتله، وكان سفيان بن المهلب والي البصرة يكره ابن المقفع كرها شديدا ((فانتهز فرصة قدومه إليه ذات مرة وأمر بتنور فملئ وقودا حتى إذا حميت ناره أخذ يقطّعه جزءاً جزءاً ويرمي بكل جزء في التنور حتى أتى عليه))[1]

لقد قطّعُه الوالي قطعاً ورماه في تنور ملتهب مليء بالحطب... هكذا انتهى الكاتب المعروف ابن المقفع صاحب كتاب (الأدب الكبير والأدب الصغير) وكتاب (كليلة ودمنة)، فكيف يحق لنا أن نفخر بهذا الكاتب العبقري دون أن نشير ولو بجملة قصيرة إلى معاناته الدموية وعذابه وموته المأساوي على يد ذلك الحاكم السياسي، فلعل في ذلك موعظة ودرساً وعبرة للجميع من أجل نبذ العنف والاستبداد وسفك الدماء وقتل النفوس البريئة.

وفي إشارة إلى انتشار الظلم والقهر والعسف والسرقة على يد أمير البصرة وواليها الطاغية سفيان بن معاوية المهلبي الذي قتل ابن المقفع يروى أن أبا عثمان بن عبيد شيخ المعتزلة في البصرة مرَّ بجماعة وقوف يشاهدون الوالي سفيان المهلبي وهو يقطع يد سارق تنفيذاً لعقوبة السرقة ، فقال: ((لا إله إلا الله، سارق العلانية يقطع سارق السر))[2].

الخليفة المهدي: القتل على الشبهة:

بعد وفاة المنصور تولى الخلافة ابنه المهدي، وكان من أبرز أعماله الأكثر إثارة والتصاقاً بمنهج العنف الدموي هو تلك الحملة الدموية الواسعة التي شنها ضد ما سمي بالزندقة والزنادقة، حيث أنشأ الخليفة مؤسسة إرهابية دموية منحها صلاحيات عرفية، تجيز قتل وإعدام كل العناصر والأشخاص الذين يحالون إليها بتهمة الزندقة حقاً أو باطلاً ، وتلك المؤسسة كانت أشبه بمحاكم التفتيش

---

١ ـ د. شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، دار المعارف بمصر، ص٥٠٨ ، وفي وفيات الأعيان، الجزء الثاني، ص١٥٢ وما بعدها ، كما أن تفاصيل موسعة عن مقتل ابن المقفع لا تخرج عن هذه الرواية المذكورة في المتن. وفي الفهرست لابن النديم، دار المعرفة، لبنان، ص١٧٢.

٢ ـ د. محمد أحمد عبد المولى، العيارون والشطار البغاددة في التاريخ العباسي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع ـ الإسكندرية نقلاً عن كتاب المستطرف من كل فن مستظرف للأبشيهي، ص١٣.

الدموية وكان رئيسها يسمى (صاحب الزندقة) وقد أُعدم المئات من البشر على يد تلك المؤسسة وفروعها المنتشرة في البلاد، وبين أولئك الضحايا كثير من الشعراء والفقهاء والمثقفون، وقد أعدم بعضهم بتهم ظنيّة يقوم أكثرها على الوشايات والبلاغات القصدية المغرضة وقد «جدَّ المهدي في تتبع الزنادقة وإبادتهم والبحث عنهم في الآفاق والقتل على التهمة»[1].

وعلى الرغم مما يظهِره المهدي من تزمّت وتشدد في أحد جوانب شخصيته وحياته إلا أن هناك جانباً مخفياً مناقضاً آخر في تلك الشخصية لا يظهره لعامة الناس فقد كان غارقاً في اللهو وقد عرف عنه «حبه لحديث النساء حتى صار للجواري نفوذ كبير في شؤون الدولة، وخير مثال على ذلك الجارية المغربية خيزران التي تزوجها المهدي وأنجب منها موسى الهادي وهارون الرشيد والتي كان قصرها مقصداً لذوي الحاجات في الدولة، وأحب المهدي الاستماع إلى الغناء وحضور جلسات الغناء التي أجزى فيها العطاء للمغنين والسماح لأصحابه بشرب النبيذ في حضرته حتى أنه لم يستطع بعد ذلك أن يوقفهم عند حد معيّن»[2].

وقد منع المهدي الشاعر بشار بن برد ونهاه عن قول الشعر في الغزل بحجة منعه من التشهير بالنساء المحصنات، والتعرض للحرمات ورمي الأعراض، وتذكر بعض المصادر أن سبب ذلك يعود لغيرة كانت في المهدي، في الوقت الذي كان المهدي يرضى أن يدخل عليه بشار والجواري حاضرات في مجلسه « لكونه لا يبصرهن»[3]. غير أن ذلك التناقض الحاد في شخصية المهدي - حاكم العراق - والتطرف والتسرع في طباعه هو السبب في إقدامه بعد ذلك على قتل الشاعر بشار صديقه ونديمه تلك القتلة الشنيعة بحجة الزندقة هذه المرة حيث يقال أن المهدي قد أمر شخصاً اسمه ابن نَهيّكْ بضربه حد التلف أي بضربه حتى الموت فأخذه على ظهر سفينة وجلده سبعين جلدة حتى مات وقيل قتله تغريقاً في الماء[4].

---

١ - السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٧٣.

٢ - د. إبراهيم أيوب، التاريخ العباسي السياسي والحضاري، مصدر سابق، ص٥١.

٣ - ابن المعتز، طبقات الشعراء، دار المعارف بمصر، ص٢٢.

٤ - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، الجزء الثاني، دار الثقافة، بيروت، ص٦٤٦.

ويروى أن المهدي قد ندم وبكى بعد ذلك عليه بعد أن تبين له كذب الوشايات التي اتهمت بشار بن برد بالزندقة[1] ، وهذه ليست الحادثة الوحيدة أيضاً التي يندم فيها الحاكم في العراق على من قتلهم بالخطأ والتسرع، فهذا النوع من الحوادث الدموية كما مرّ بنا سابقاً يتكرر كثيراً في التاريخ العراقي حتى في التاريخ المعاصر.

والغريب في موضوع مقتل بشار أن عدداً من الأسماء اللامعة والمعروفة من علماء الفقه والأدب والنحو المرموقين في البصرة قد ساهموا على نحو مدمّر في النميمة وإيصال الوشايات والتبليغات المغرضة ضد الشاعر، ومن أولئك واصل بن عطاء وسيبويه ويونس النحوي والوزير يعقوب بن داوود، وهذا يدل على أن أجواء النميمة والنفاق والفتن والوشايات قديمة العهد في العراق إلى الحد الذي شارك فيها رجال مرموقون ذوو شهرة وسمعة ومكانة علمية وأدبية كبيرة وهي صفة رديئة تبدو وكأنها سمة شائعة بين الناس في بلاد النهرين لكثرة تكررها وكثافة ورودها في الوقائع والأحداث، مما يدفع للاعتقاد بأنها جزء من المنهج السلوكي السائد لسكان هذه البلاد.

وفي إشارة إلى ذيوع صفة التناقض والازدواج في شخصية المهدي، وانشغاله باللهو والغناء والجواري، أن شخصاً في خراسان اسمه يوسف البرم قد أعلن التمرد هناك بسبب استنكاره لأحوال الخليفة وسيرته وما يتعاطاه، فاجتمع حوله كثير من الناس، فأرسل له المهدي يزيد بن مزيد في جيش استطاع أن يهزم يوسف البرم ويأسره مع عدد من أصحابه، ثم أرسلهم إلى المهدي فأمر المهدي بقطع أعناقهم وصلبهم على جسر دجلة الأكبر[2].

أما وفاة المهدي فكانت في حادث صيد، عندما تبع فرسهُ طريدةً دخلت باب إحدى الخرائب فدق ظهر الخليفة المهدي بجبهة الباب فمات في الحال.

إن موت الخليفة المهدي (حاكم العراق) فوق حصانه المسرع قرب بغداد بهذه الطريقة الطائشة عام ٧٨٥م تشبه إلى حد كبير وفاة حاكم عراقي آخر في العصر الحديث هو الملك غازي الأول ابن الملك فيصل الأول عام ١٩٣٩ في

---

١ ـ كتاب الأغاني للأصفهاني، الجزء الثالث، مصدر سابق،ص٢٤٤ ومابعدها.

٢ ـ ابن كثير، البداية والنهاية، الجزء ١٠، ص١٣٩.

حادث سيارة كان يقودها بسرعة طائشة في ضواحي بغداد أيضاً، وكما تقول بعض المصادر أن المهدي مات مسموماً[1] ، فإن إشارات عديدة تتحدث أن الملك غازي الأول مات مقتولاً ، وأن الحادث كان مدبراً وليس قضاءً وقدراً، إنها الظنون والشكوك التي تلفُّ التاريخ العراقي بأكمله...

الخليفة موسى الهادي (٧٨٥ - ٧٨٦م) يغدر بصديقه فيموت معه

بعد وفاة الخليفة المهدي خلفه ابنه موسى الهادي وهو ابن الخيزران الجارية التي تزوجها أبوه المهدي وقد تابع قتل الزنادقة ومطاردتهم بناءً على توصية من أبيه « فقتل منهم خلقاً كثيراً »[2] ، ولم يدم حكمه طويلاً .وتروى في سبب وفاته حادثة مثيرة ذات دلالات غريبة تتصل بمعاني الغدر والخيانة والغيلة وممارسة الأذى وسفك الدم، فقد قيل عنه « إنه دفع نديماً من حرف على أصول قصب قد قطع فتعلق النديم به فوقع فدخلت قصبة في منخره فماتا جميعاً »[3] ، فإن صحّت تلك الرواية - وليس هناك مايدعو الرواة لسردها إن لم تكن قد حدثت فعلاً أو كان لها ظل من الحقيقة - فإن سلوك المهدي يمكن أن يندرج في إطار الشذوذ النفسي وهو المرض المسمى في الطب النفسي (انفصام الشخصية من النوع النقّال) الذي تشَخص أعراضه بالوصف التالي: « أن المريض به قد يبدو سليماً في الظاهر إلا أنه قد يأتي فجأة بتصرفات تكشف عن مرضه »[4] ، فالحادث - كما يرد في الرواية - يشير إلى أن الهادي كان يمشي مع صديق له فوق جرف مرتفع وكان تحت الجرف حقل من القصب المقطوع، وبقيت أصول القصب نابتة في الأرض وفجأة يدفع الهادي صديقه من فوق الجرف ليقتله أو ليؤذيه وصادف أن استطاع هذا الصديق أن يمسك بالهادي أثناء سقوطه فسقط معه فنبتت أصول القصب الواقف في الحقل بجسديهما فماتا معاً.

---

١ - السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص٢٧٣.

٢ - المصدر السابق، ص٢٧٩.

٣ - المصدر السابق، ص٢٨٠.

٤ - د. عبد المنعم الحفني، موسوعة الطب النفسي، المجلد الثاني، مكتبة مدبولي القاهرة، ص١١٣٥

إن الحادث كما يرد في الرواية مشبع بنوايا الغدر والغيلة والرغبة بسفك الدم بأعصاب باردة، وهو ما ينطبق تماماً على الوصف السابق الذي يحدده الطب النفسي. وقيل أنه مات لقرحة أصابته في جوفه[1]، كما تورد رواية أخرى أن الهادي مات مسموماً عندما عزم على قتل أخيه الرشيد، «وقيل سمّته أمه الخيزران عندما عزم على قتل الرشيد ليعهد إلى ولده »[2] . وتشير الرواية التي يوردها السيوطي في تاريخ الخلفاء أن الهادي هو الذي أراد قتل أمه الخيزران بسبب كثرة الأمراء وطلاب الحاجة على بابها فأرسل لها طعاماً أطعمت منه كلباً فمات على الفور فدبرت موضوع قتله. وهي رواية تبدو مفككة وغير منطقية.

ومهما يكن من أمر، وأياً كانت الرواية الصحيحة عن مقتله بين تلك الروايات، فإن ذلك يشير بدلالة واضحة أن بلاط الخلافة في العراق منذ بداية العصر العباسي الأول، قد شهد مناخاً موبوءاً من المكائد والدسائس والمؤامرات وأعمال الغدر والخيانة وهو المناخ الملائم تماماً لتفجر أعمال العنف وسفك الدماء.

الخليفة هارون الرشيد (٧٨٦ ـ ٨٠٩م) يقطّع جثة صديقه جعفر البرمكي

بعد وفاة الهادي تولى الخلافة أخوه هارون الرشيد وهو ابن الخيزران الجارية التي تزوجها المهدي، ولعل أبرز أحداث العنف الدموي في عهده ماسمي بنكبة البرامكة التي سنتحدث عن بعض مدلولاتها الدموية معرضين عن كل ما قيل وما جاء في عصر الرشيد الذهبي من مآثر وإنجازات.

تولى خالد البرمكي زعيم العائلة البرمكية ديوان الخراج أيام المنصور وقام بأمر من المنصور بإخماد ثورة في طبرستان وكان الخليفة يستشيره في كثير من الأمور الهامة ويسترشد برأيه. أما يحيى بن خالد البرمكي فقد أوكل إليه المهدي تربية ابنه هارون الرشيد فلما ولي هارون الخلافة بعد أخيه الهادي قلد يحيى الوزارة، وكان يناديه يا أبتِ لأنه كان يشرف على تربيته وهو صغير. وقد فوّض هارون إلى يحيى البرمكي السلطة المطلقة. أما ابنه جعفر بن يحيى البرمكي فقد كان كثير الاختلاط بالرشيد، وكان أبوه يحيى ينهاه عن كثرة المنادمة مع الرشيد وقد حاز جعفر شهرة

---

١ ـ السيوطي، تاريخ الخلفاء، مصدر سابق، ص٢٨٠.

٢ ـ المصدر السابق.

واسعة لقوة بيانه وأدبه وحسن كلامه وخطه، ويقال أن أم جعفر البرمكي قد أرضعت هارون الرشيد مع ابنها جعفر. والسطور السابقة تعطينا فكرة عن موقع هذه العائلة (البرامكة) من العباسيين ومن الرشيد ومكانتها لديهم. وبعد أن تغيّر قلب الرشيد على البرامكة فجأة أمر بقتل صديقه جعفر فقتِل ، «ثم أمر بنصب رأسه على الجسر وتقطيع يديه وصلب كل قطعة منه على جسر فلم يزل كذلك حتى مرّ عليه الرشيد حين خروجه إلى خراسان فقال: ينبغي أن يحرق هنا، فأحرق، ووجه الرشيد من ليلته إلى الرقة في قبض أمرائهم وما كان من رقيقهم ومَواليهم وحشمهم»[1]، وقد حاول خادم الرشيد الذي كان يعرف عمق الصداقة والأخوة التي تجمع الرشيد بجعفر البرمكي أن يتلكّأ ويتأخر قليلاً في تنفيذ قرار الموت لعله يجد مخرجاً أو فرصة لاستعطاف الرشيد والتوسل إليه لاستبدال ذلك القرار الانفعالي إلا أن الرشيد هدد خادمه بقطع رأسه إن لم يقتل جعفراً على الفور، فخرج وقتل جعفر البرمكي وجاء برأسه، وهناك رواية وردت في أكثر من مصدر أن الرشيد قتل الخادم الذي نفذ أمره بقتل جعفر البرمكي بعد ذلك مدعياً أنه لا يستطيع أن يرى قاتل جعفر..!

وهكذا فعندما يكون التوتر والانفعال والتطرف العراقي هو سيد الموقف فلا فرصة على الإطلاق للتعقل والحكمة والتريّث والمصالحة، ولا بد أن تقع الكارثة وهذا تقريباً ما يحصل في العراق في كل الأزمان والعصور.

وفي محاولة لحصر أسباب نكبة البرامكة، يذكر الدكتور فيليب حتي في كتابه (تاريخ العرب) أن الرشيد «استنكر استبداد تلك الأسرة الشيعية الفارسية في شؤون الدولة وتطلع فإذا هم يشركونه في سلطانه بحيث أخذ يشعر أنه لم يعد له معهم تصرف في أمور ملكه فغضب عليهم وقتل جعفراً وأمر بجثته ففصلت وعلقت على ثلاثة جذوع، رأسه في جذع على رأس الجسر، وجسده على جذع بالجزيرة وسائره في جذع على آخر الجسر الثاني مايلي باب بغداد»[2] ، ثم مات يحيى والفضل داخل الحبس، وحجزت أموال البرامكة وصودرت ضياعهم

---

١ ـ ابن خلكان، وفيات الأعيان، الجزء الأول، دار إحياء التراث العربي، ص٣٤٥.

٢ ـ د. فيليب حتي ، تاريخ العرب، مصدر سابق، ص٣٦١.

وغلاتهم ودورهم[1]، وخاف الناس من التعاطف معهم أو مخالطتهم أو الدفاع عنهم عدا بعض الأفراد الذين تصدقوا عليهم بالمساعدة، وهذا هو حال كل عائلة عراقية منكوبة لأسباب سياسية في كل العصور. وتذكر المصادر الأخرى أسباباً عدة لنكبة البرامكة منها، كثرة هدرهم للأموال وكثرة تملكهم للضيع والمزارع والبساتين، ومنه أن البرامكة كانوا يريدون إبطال خلافة الرشيد وإظهار الزندقة ومنه أنه نكبهم بسبب العباسة وقصتها مع جعفر... غير أن أطرف وأغرب ما قيل في ذلك هو ما ذكره ابن الجوزي وأورده ابن كثير في قوله: «إن الرشيد سئل عن سبب قتله البرامكة فقال: لو أعلم أن قميصي يعلم ذلك لأحرقته»[2]، ولا يستبعد أن تكون هذه الرواية هي الأصح والأدق في وصف ما حصل للرشيد بالفعل، فهو ربما لا يعرف السبب الذي دفعه لذلك التصرف لأن الغضب والحقد لا بد وأن يكون قد أفقده توازنه وشتت سيطرته على تصرفاته، وربما يمكن أن يُعزى لهذا الانفعال الهستيري الطاغي الكثير من حالات البكاء والندم اللاحق الذي أظهره الحكام العراقيون الذي بكوا قتلاهم وضحاياهم في التاريخ. وفي كل الأحوال فإن التسرع والانفعال والمبالغة والتطرف والشدة، هو ما تميزت به تلك التصرفات من العنف التصفوي، الذي مارسه الرشيد ضد البرامكة وأتباعهم وحتى إذا كان قتل البرامكة ضرورة سياسية حتمية لا محيد عنها ـ وهو افتراض نظري ـ فهل كان الرشيد بحاجة ماسة إلى تقطيع صديقه جعفر بعد قتله وتوزيع جسده في أماكن متفرقة من المدينة؟ إن ذلك العمل هو الظرف المشدد في الفعل الجنائي فهل كان ذلك ضرورياً ومفيداً في وجه من الوجوه سوى التلذذ بالانتقام، والمبالغة بالعنف والتشفّي بعد الموت؟ إن التشدد والقسوة والمغالاة والاندفاع الهستيري والسادي يكاد يكون الصفة المرافقة لأكثر أعمال العنف العراقي في جميع العصور. وخلال عهد الرشيد لا بد من الإشارة إلى الحادث الذي كاد يودي بحياة الإمام الشافعي، وهو الإمام الذي أسس المذهب الشافعي، وكان قد أيد تمرد العلويين في مكة بقيادة يحيى بن علي حيث جيء به معتقلاً مع مجموعة من العلويين فأمر الرشيد بإعدامهم جميعاً، إلا أن الفضل بن الربيع وزير هارون الرشيد الذي صادف وجوده في

---

١ ـ المصدر السابق، ص٣٦٢.

٢ ـ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، مصدر سابق، ص٢٠٤.

المجلس قد تشفّع للإمام الشافعي وطلبه من الرشيد في اللحظة المناسبة فاستثناه من الإعدام[1] ، وكان ذلك في حوالي عام ١٧٠هـ/٧٨٦م بينما قطعت رؤوس الآخرين فوراً. وهكذا قدّر للشافعي أن يعيش بضع سنوات أخرى بعد هذا المغطس الدموي حيث ذهب إلى مصر وتوفي فيها وهناك قبره. لقد سلم الإمام الشافعي صدفة من ساطور العنف العراقي إلا أنه قد تعرض إلى ما فيه الكفاية من الإذلال والإهانة والأذى قبل استحصال العفو عنه فكان طبيعياً أن لا يبقى بعد ذلك في العراق. كانت تلك الحادثة في بغداد عام ٧٨٦ للميلاد، وبعد حوالي ١١٧٧ عاماً من ذلك التاريخ أي في عام ١٩٦٣ وفي مدينة بغداد ذاتها، مع الفارق في الأشخاص والأهداف، حصلت حادثة أخرى مشابهة لها في التاريخ العراقي، فبعد أن جيء بالزعيم عبد الكريم قاسم حاكم العراق ومجموعة من رفاقه وهم أسرى إلى مبنى الإذاعة العراقية، تقرر إعدامهم فوراً بعد محادثة متوترة مع بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة وهو المجلس الذي استلم زمام السلطة السياسية في العراق بقوة السلاح، وقبل لحظات من تنفيذ حكم الإعدام بالأسرى استحصل الضابطان حردان التكريتي وعرفان وجدي وهما من السلطة الجديدة إذناً بإعفاء المقدم الركن قاسم أمين الجنابي من الإعدام لصداقة شخصية تجمعهما به فتقدما منه وسحباه إلى خارج الغرفة التي أعدم فيها بعد لحظات جميع الموجودين بداخلها وبينهم عبد الكريم قاسم ورفاقه، وبذلك سلم قاسم الجنابي من الموت المحقق ليعيش بضع سنوات أخرى بعد هذا المغطس الدموي.. إن أسوأ ما يمكن أن يحصل في بلد من بلدان العالم أن تكون حياة الإنسان مرهونة بلحظات استثنائية من الصدف الطارئة فيتحول العمر المتبقي وكأنه الجزء الهارب من بين أنياب الموت.

ومن صور المنهج العراقي في العنف الدموي ذلك الموقف الذي اتخذه الخليفة الرشيد من نديمه وصديقه الشاعر منصور النمري الذي كان ذا حظوة لديه، إلا أن وشاية مغرضة وصلت إلى الخليفة من أحد خصوم الشاعر النمري ذكروا له أن هذا الشاعر قد نظم قصيدة يذكر فيها أحقية العلويين وآل البيت بالولاية والخلافة مما جعل الرشيد يستشيط غضباً ويأمر أحد رجاله بالسفر إلى

---

١ ـ د. عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي/ العصور العباسية، ج.٢، دار العلم للملايين، بيروت ص١٧١.

الرقة حيث يقيم الشاعر ليأخذ النمري ويسل لسانه من قفاه ويقطع يده ورجله ثم يضرب عنقه ويحمل رأسه إلى بغداد بعد ان يصلب جسده هناك، وعندما وصل هذا الرجل إلى الرقة لتنفيذ هذه الأوامر الدموية الذي أصدرها الخليفة صادفته جنازة مرفوعة فوق أيدي المشيعين في مدخل المدينة، فسأل عن صاحبها فقالوا أنها جنازة الشاعر منصور النمري فقفل راجعاً إلى بغداد ولما حكى ذلك إلى الرشيد أجابه قائلاً: «فألا إذ صادفته ميتاً أحرقته بالنار؟»[1] ، لقد عاتبه الخليفة كيف لم يحرق جنازة الشاعر النمري بالنار!! عندما شاهدها فوق أيدي المشيعين!! إنه التصعيد العراقي اللامعقول والمبالغة الفائقة لاستخدام وسائل العنف والتنكيل والقسوة الدموية.

كذلك قتل الخليفة هارون الرشيد الشاعر المعروف صالح بن عبد القدوس وصلبه على الجسر ببغداد ١٦٧هـ/٧٨٣م بتهمة الزندقة بعد محاكمة شكلية متوترة رغم ورعه وتقواه وأمثاله وحكمه الكثيرة المستوحاة من معاني القرآن الكريم.

كذلك فقد استخدم هارون الرشيد طريقة وحشية وهمجية في اعدام بشير بن الليث الذي كان يقاتل مع أخيه رافع بن الليث في التمرد الذي اعلنوه في منطقة بخارى أيام هارون الرشيد، فبعد أن استطاع القائد العسكري هرثمة بن أعين من دحر جيش رافع بن الليث ودخول مدينة بخارى، قام بأسر أخيه بشير بن الليث ثم أرسله أسيراً الى الخليفة هارون الرشيد الذي كان يقيم في مدينة طوس، وقد حاول بشير أن يستعطف الخليفة ويطلب العفو إلا أنه لم يعفُ عنه، بل «دعا بقصاب فجزأه بين يديه أربعة عشر عضواً ثم رفع الرشيد يديه إلى السماء يدعو الله أن يمكنه من أخيه رافع كما مكنه من أخيه بشير»[2]

---

١ ـ ابن المعتز، طبقات الشعراء، دار المعارف بمصر، ص٢٤٤.

٢ ـ ابن كثير، البداية والنهاية، دار إحياء التراث العربي، ج١، ص٢٣١. كما وردت هذه الرواية في تاريخ الطبري والكامل في التاريخ لابن الأثير.

وتشير تفاصيل هذه الحادثة أن الرشيد امر باستدعاء أحد القصابين وطلب منه أن يقطّع بشير بن الليث أمامه فقطعه أربعة عشر قطعة... إنها المبالغة العراقية في الانتقام الشرس غير المبرر.

المأمون يقتل أخاه محمد الأمين (٨٠٩ - ٨١٣م) ويسحل جثته

بعد وفاة الرشيد تولى الخلافة ابنه الأمين وقبل أن يتصاعد الخلاف بينه وبين أخيه المأمون الذي كان والياً على خراسان، مال الجيش بأكثريته إلى جانب الأمين، «فعند ذاك كتب المأمون إلى أخيه الأمين بالسمع والطاعة والتعظيم وبعث إليه من هدايا خراسان وتحفها من الدواب والمسك وغير ذلك»[1] ، إلا أن الفضل بن الربيع قد حسّن له خلع المأمون والقاسم حتى غيَّر نيته وموقفه من أخويه فتصاعد الخلاف بين الأمين والمأمون وتحول إلى صراع عسكري، فأرسل المأمون الذي كان يتولى خراسان جيشين باتجاه بغداد الأول بقيادة طاهر بن الحسين والثاني بقيادة هرثمة بن أعين فحاصروا بغداد وضربوها بالمنجنيق، وبسرعة فائقة ارتفعت رايات العنف الدموي في العراق ولم يستطع أحد إيقاف التدهور. وبعد فترة من الصمود استسلم الأمين وقرر مقابلة أخيه والعبور إلى الطرف الآخر من نهر دجلة، لكن طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون المندفع جداً لتأجيج الصراع القائم بين الأخوة قد فضّل قتله وقطع رأسه بدلاً من أخذه أسيراً خوفاً من وصوله سالماً إلى أخيه واحتمال وقوع الصلح بينهما.

إن شخصية طاهر بن الحسين هي النموذج التقليدي لشخصية شريرة كثيرة التكرر في التاريخ العراقي والعربي والإسلامي، فحين يحصل الخلاف وترفع الفتنة رأسها ويأخذ التناحر طابعه الدموي يكثر أمثال أولئك المنافقين فيرقصون على حبال الموت ويصبون الزيت على النار وصولاً لمآربهم الشخصية. وفي تفاصيل مقتل الأمين يذكر السيوطي في (تاريخ الخلفاء) أن الخليفة قد «أُخِذَ وحبس في موضعٍ ثم أُدخل عليه قوم من العجم ليلاً فضربوه بالسيف ثم ذبحوه من قفاه وذهبوا برأسه إلى طاهر فنصبها على حائط بستان

---

١ - ابن كثير، البداية والنهاية، المجلد ١٠ ، مصدر سابق، ص٢٤٢.

ونودي هذا رأس المخلوع محمد وجُرَّت جثته بحبل، ثم بعث طاهر بالرأس والبرد والقضيب والمصلى وهو من سعف مبطن إلى المأمون واشتد على المأمون قتل أخيه وكان يحب أن يرسل إليه حياً ليرى فيه رأيه فحقد لذلك على طاهر بن الحسين»[1] وهكذا انتصرت مرة أخرى في العراق إرادة العنف الدموي وانهزمت إرادة الألفة والتسامح والعفو والروح الخيِّرة، وهذه المعادلة تبدو مألوفة دائماً في التاريخ العراقي عند احتدام الأحداث الكبرى...

ومن جانب آخر يتبيّن لنا من خلال النص السابق أن جثة الأمين قد سُحِلَتْ في بغداد بعد مقتله. وهكذا يبدو أن أسلوب السحل ـ كما مرّ بنا في الأحداث السابقة ـ قد نفذ في أكثر من حاكم في العراق حتى ذلك التاريخ. وفي هذه الفترة لا بد لنا من الإشارة إلى حركة العيارين والشطّار التي هي شكل من أشكال العنف المنظم في المجتمع العراقي والبغدادي بصورة خاصة[2].

الخليفة المأمون ٨١٣ ـ ٨٣٣م يغتال مساعديه

بعد مقتل الأمين استتب الوضع للمأمون الذي عين موسى الرضا ولياً للعهد في خطوة ظاهرة لاسترضاء العلويين في بادئ حكمه، إلا أن الرضا توفي بعد فترة وجيزة «وقيل أن المأمون دس له سماً في عنب وكان يحب العنب فأكل منه واستكثر فمات من ساعته»[3]. كما دبر المأمون مقتل الفضل بن سهل، وزيره المقرب والموثوق، حيث أوعز بالسر إلى جماعة بينهم خاله المدعو غالب المسعود فدخلوا عليه وهو في الحمام وقتلوه غيلةً[4].وذو الرئاستين هو اللقب الذي اشتهر به الفضل بن سهل لأنه دبر أمر السيف والقلم[5]، وكان من المقربين إلى المأمون، واستطاع أن يكسب ثقته. وكان المأمون مقتنعاً بالحاجة إليه بصورة دائمة حتى استطاع الهيمنة على قرارات الخليفة، وكان يتصرف مع

---

١ ـ السيوطي، تاريخ الخلفاء، مصدر سابق، ص٣٠٠.

٢ ـ للمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى كتاب العيارون والشطار البغادية، د. محمد أحمد عبد المولى، مصدر سابق.

٣ ـ د. إبراهيم أيوب ، التاريخ العباسي السياسي والحضاري، مصدر سابق، ص٨٢. نقلاً عن الفخري في الآداب السلطانية.

٤ ـ ابن خلكان، وفيات الأعيان ، ج٤ ، مصدر سابق، ص٤٤.

٥ ـ المرزباني، معجم الشعراء ، دار إحياء الكتاب العربي، ص١٨٣

الخليفة بكل لباقة وأدب جم وطاعة. إن علاقة متينة من هذا النوع لابد وأن تحتاج إلى وشاية محكمة ليتم تخريبها وإفسادها، وهو ما أدى إلى مقتل الفضل بن سهل في عملية اغتيال خسيسة. وكان في تلك النهاية التعيسة ــ التي انتهى إليها الوزير ذو الرئاستين الفضل بن سهل - عبرة ودرس وموعظة ومثال حي لما يمكن أن يقوم به الحكام في العراق من الغدر والتنكر والقسوة والانتقام الدموي المفاجئ من أصدقائهم والمقربين منهم والثقاة من مساعديهم والمخلصين من أتباعهم والانقلاب عليهم والتنكيل بهم عند أول خطإٍ أو زلةٍ أو خلاف حيث لا يفصل في خواطرهم ونفوسهم على الدوام إزاء من يحيطون بهم إلا فاصل رقيق وواهن يفصل بين الوفاء والغدر، بين الإخلاص والخيانة، بين الثقة والشك القاتل،بين القرب والجفوة الشرسة. ذلك الحاجز الذي يمكن أن ينهار عند أول نميمة كاذبة أو وشاية منمقة تصل للحاكم لينهار كل شيء، ويصبح إقامة الوفاق والعودة للمودة واستعادة الوئام والثقة وإصلاح ذات البين أمراً مستحيلاً.. وسرعان ما ينقلب ذلك الحاكم الصديق إلى عدو دموي شرس يستحيل الإفلات منه، فينتقم بتسرّع وشراسةٍ قاتلة ويبطش بأقرب أصدقائه وأخلص الموالين إليه، مُنزلاً بهم أشد العقوبات وأقساها دون أن تشفع لأحد منهم شفاعة، مندفعاً في ذلك بهواجس الخوف الوهمي والدفاع عن المنصب والسلطة من خطر قد يكون وهمياً وكاذباً وربما كان خطراً، نسجته الوشايات المغرضة ذاتها، وقد يكون هذا النوع من السلوك الشخصي العدواني الشرس موجوداً وملازماً لحياة وتصرفات كثير من حكام وأباطرة الأمم والشعوب في العالم خلال فترات كثيرة من تاريخ البشرية، إلا أنه من النادر أن يتواصل ظهور ذلك النوع من السلوك لدى الحكام في بلد واحد من البلدان لخمسة آلاف سنة دون توقف أو انقطاع، كما هو الحال في بلاد الرافدين. وكما تذكر المصادر فإن المأمون قد قتل الشاعر علي بن جبلة بسبب مبالغته في مدح أحد الموظفين في دولته والمدعو أبي دلف القاسم بن عيسى العجلي مما أغضب المأمون وأثار غيرته فأهدر دم الشاعر فهرب إلى الجزيرة ولما أحضروه إليه أمر بسل لسانه من قفاه فمات[1].

---

١ ـ ابن خلكان، وفيات الأعيان ، مصدر سابق، ص٣٥٢ ، والأغاني، ج.٢٠، ص٤١

ثورة الزط: منهج بدائي في حرب العصابات

كان من أحداث العنف الدموي في العراق في عهد المأمون قيام ثورة الزّط في جنوب العراق. والزطّ هم خليط من الشعوب أقرب إلى الغجَر. وفي القاموس المحيط: الزُّطّ بالضم، جيل من الهند معرّب جَتًّ بالفتح[1]. وفي لسان العرب: الزطّ جيل أسود من السند إليهم تنسب الثياب الزطية. وقيل: الزط أعراب جّتًّ بالهندية، وهم جيل من أهل الهند. وقيل الزطّ السابجة قوم من السند بالبصرة[2]. وقد استغل الزط الصراع والحرب بين الأمين والمأمون فاستولوا على البصرة وعاثوا فيها فساداً، فأرسل المأمون عدة حملات للقضاء عليهم إلا أن هؤلاء كانوا ينسحبون ويتفرقون في أماكن واسعة مفتوحة وخالية وصحراوية عندما تتقدم نحوهم قوات الدولة ثم يعودون إلى تكتلهم وتمردهم بعد انسحاب الجيش عنهم. واستمرت الحال كذلك حتى عهد المعتصم حيث قطعوا طريق البصرة وأخذوا الغلات من البيادر. فأرسل المعتصم حملة عسكرية كبيرة بقيادة (عجيف بن عنبسة) استطاعت تطويقهم ومقاتلتهم فأُبيد الكثير منهم قتلاً. وكان ابن عنبسة قد قام بسد عدد من الأنهر التي كانوا يدخلون ويخرجون منها في جهات مختلفة فحاصرهم من كل جهة وفي إحدى الوقائع قتل منهم ثلاثمائة وأسر خمسمائة رجل، ثم قام بقتل الأسرى جميعاً وقطع رؤوسهم وأرسل الرؤوس المقطوعة إلى المعتصم. وقد أشار الطبري إلى تلك الحادثة بقوله: «وكان من الأنهار التي سدها عجيف نهر يقال له العروس فلما أخذ عليهم طرقهم حاربهم وأسر منهم خمسمائة رجل وقتل منهم في المعركة ثلاثمائة رجل فضرب أعناق الأسرى وبعث برؤوس جميعهم إلى باب المعتصم»[3].

الزط أجداد الغجر الأوروبيين

انتهت الحملة ضد الزط في عام ٢٢٠ للهجرة بإبادة أعداد كبيرة من مقاتليهم كما أُسر ٢٧٠٠٠ سبعة وعشرون ألفاً[4] منهم من رجال ونساء

---

١ ـ الفيروز أبادي، القاموس المحيط، المجلد ٢، عالم الكتب، بيروت، ص٣٦٢

٢ ـ ابن منظور، لسان العرب، المجلد ٧ ، دار صادر، بيروت، ص٣٠٨.

٣ ـ تاريخ الطبري ج٩ ، مصدر سابق، ص٨ ـ ٩

٤ ـ المصدر السابق، ص١٠.

وأطفال حيث عباهم ابن عنبسة في زوارق كبيرة نقلتهم إلى بغداد فاستعرضهم المعتصم وهو في سفينة ثم نقلوا إلى خانقين ومن هناك نقلوا إلى عين زربة وهي مدينة صغيرة على حدود الدولة البيزنطية، «فأغارت عليهم الروم فاجتاحوهم فلم يفلت منهم أحد»[١]. ويبدو أن الروم كانوا يخشون أن يشكل أولئك الزط ثغرة أمنية للتجسس على حدودهم فأزاحوهم من هناك. وبعد أن أسرتهم الدولة البيزنطية قامت بنقلهم إلى القسطنطينية بعيداً عن حدود الدولة الإسلامية ومن هناك انتقلوا إلى البلدان الأوروبية مثل هنغاريا وبلغاريا وإسبانيا فعرفوا باسم الغجر أو النوَر[٢]، ولعل أولئك الزط هم الأحداد الأوائل للقبائل الغجرية المتنقلة التي تجوب اليوم بعض البلدان الأوربية. ولقد وجدنا في القاموس الفرنسي LA ROUSSE أن اسم الغجر الأوربيين هو: TZIGANE وتلفظ باللغة العربية (تزيكان) بتضخيم الكاف وتكتب أحياناً TSIGANE تسيكان. وقد ورد في تفسير هذه الكلمة أنه اسم يعطى للغجر. وفي قاموس المنهل (فرنسي عربي) وردت ترجمة كلمة (تزيكان) إلى غجري ونوري. ونحن هنا رغم عدم استطاعتنا الجزم أو التأكيد القاطع بعلاقة هذه المفردة (تزيكان) بكلمة الزط غير أنه إذا كانت لفظة (تزيكان) الدالة على اسم القوم الغجريين مشتقة في ظاهر لفظها من (زيك) كما هو الحال في ALGERIEN (الجيريان) أي الجزائريين المشتقة من كلمة الجير ALGER مثلاً فإن هذه الكلمة (زيك) و (زيكان) قريبة جداً بموسيقاها اللفظية من كلمة زط باللغة العربية بعد أن جرى نحتها وتحريفها.

ومهما يكن من أمر، فإننا نري أن العنف والعنف المضاد في العراق أدى هذه المرة إلى تهجير السكان تهجيراً جماعياً أوصلهم إلى تخوم الدولة البيزنطية التي أسرتهم وقامت بتشتيتهم وتوزيعهم على البلدان المختلفة فتفرقوا في بقاع الأرض وتغيرت شخصيتهم وضاعت هويتهم القومية والاجتماعية بعد أن كانوا جزءاً من شعب وادي الرافدين المعروف بخصائصه وسماته المميزة.. تماماً كما يحصل اليوم لآلاف اللاجئين العراقيين الذين تشتتوا وتوزعوا في بلدان العالم وأصقاعه المختلفة. وهكذا كان العنف ومازال يفعل فعله المدمر بأهل العراق الذين لم

---

١ ـ المصدر السابق، ص١٠.

٢ ـ د. إبراهيم أيوب، التاريخ العباسي السياسي والحضاري، مصدر سابق، ص٨٤.

يستبينوا حتى اليوم - لا هم ولا حكامهم - هذه الحقيقة المفجعة التي تحيط بهم وتهيمن على حياتهم. وإذا كان العنف الدموي العراقي في العصر العباسي قد استطاع في النهاية ان يحوّل آلاف العوائل والثوار من رجال ثورة الزطّ الى قبائل غجرية ونوَر متنقلين ينصرفون للغناء واللهو والرقص الليلي في بلدان اوربا، فليس بامكان أحد حتى الآن أن يتكهن بالشكل الذي ستتبلور عنه - بعد بضعة أجيال - حالة الآف بل مئات الآف من المعارضين العراقيين الذين انتشروا في بلدان العالم فراراً من العنف الدموي في بلادهم. ومن جانب آخر فلعل نقل السكان وتهجيرهم من الجنوب إلى الشمال هو الإشارة التاريخية الوحيدة التي تقابل التهجير المعاكس من الشمال إلى الجنوب في العصر الحديث وهو ماحصل للأكراد في العراق في فترات مختلفة في النصف الثاني من القرن العشرين...

وهناك عدد من الأحداث والاضطرابات والثورات ذات العلاقة بالعنف الدموي في هذا العهد قد عزفنا عن التطرق إليها، لأنها قد حدثت خارج أرض العراق مثل ثورة بابك الخرّمي في بلاد فارس وثورة نصر بن شبت في الشام والاضطرابات التي حصلت في مصر نتيجة الصراع بين الأمين والمأمون.

نظرية خلق القرآن: التطبيق الدموي لدكتاتورية العقيدة الواحدة:

على أن عهد المأمون قد شهد حدثاً بالغ الأهمية والخطورة وكان ذا تأثير واسع الانتشار وعلى نطاق كبير، ذلك الحدث هو ما قام به المأمون من تداول رسمي واسع لفكرة فلسفية نظرية تحتوي على إشكالية عقائدية مثيرة للجدل هي مسألة خلق القرآن، وكان المأمون شخصياً هو الذي طلب التبشير بتلك الحملة الواسعة لنشر هذا الإشكال العقائدي، وطرحه للنقاش والتداول مع كافة المسؤولين في الدولة الإسلامية بجميع بلدانها وأمصارها، حيث كتب في ذلك كتباً وجهها إلى ولاته حول هذا الموضوع كان أولها كتابه إلى نائبه على بغداد إسحاق بن إبراهيم الخزاعي[1]، وكان لزاماً على موظفي الدولة بموجب ذلك الكتاب الإجابة برأي محدد، فإما أن يكونوا مع فكرة خلق القرآن، أو يكونوا

---

١ - نص كتاب المأمون موجود في تاريخ الطبري وأشارت أكثر المصادر إلى هذا الإشكال العقائدي أيام المأمون / البداية والنهاية ج١٠ ص٢٩٨ وما بعدها. تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٣٠٨ وما بعدها – وفيات الأعيان.

ضدها وقد أرسل الخليفة لجان امتحان ترتبط بـه أشبه بلجان الفحص تسأل القادة والقضاة وأصحاب الحديث والرواة في هذا الموضوع، وتجمع إجابات الأشخاص فرداً فرداً وترسلها إلى المأمون للنظر فيها، فأما الذين لا يوافقون على فكرة خلق القرآن فيتم اعتقالهم وإرسالهم مخفورين إلى المأمون ومن كان منهم بوظيفةٍ عُزِلَ من وظيفته، «وإن كان له رزق من بيت المال قطع، وإن كان مفتياً منع من الإفتاء، وإن كان شيخ حديث رُدِع عن الأسماع والأداء ووقعت فتنة صمّاء ومحنة شنعاء وداهية دهياء فلا حول ولا قوة إلا بالله»[1]. وهكذا حتى النقاش الفلسفي والعقائدي في العراق يأخذ طابع الإرهاب والإرغام والقهر والعنف التصفوي.

وقد أدى ذلك الأمر إلى اضطرار الكثيرين للإجابة مكرهين بالموافقة على رأي المأمون بخلق القرآن مصانعة ورياء بينما أصرَّ آخرون على قناعاتهم ورأيهم المخالف فسيقوا إلى الاعتقال أو الموت ونالوا عقوبات صارمة.

وقيل أن المأمون كان يعتنق مذهب الاعتزال، وهناك إشارة في بعض المصادر أن المأمون كان يحب العلم لكنه لم تكن له فيه بصيرة نافذة فكان من السهل الدخول على قناعاته الفكرية وخداعه وتوجيهه. وبغض النظر عما قيل في المأمون من علم وثقافة واهتمام بالعلوم والترجمة والثقافة واهتمامه بدور العلم والعلماء وماشابه ذلك وما قيل عن ولعه بالمناظرة والجدل العلمي، إلا أن ما قام به من طرح لمقولة خلق القرآن ودفع المجتمع في الدولة الإسلامية التي يتولى خلافتها للوقوع في انقسام طولي، وانشقاق خطير في كل مؤسسات الدولة، هو أمر يثير الحيرة والتساؤل والاستغراب، فكيف يمكن أن يُعقل أن حاكماً يدفع دولته الموحدة وشبه المستقرة ودون مبرر اضطراري إلى انقسام عقائدي يشغل الناس ويؤدي إلى الفرقة والانشقاق والتنازع والصدامات على كل المستويات وفي كل المدن والبلدان والأمصار؟ ثم ألم يكن بين يديه من الوسائل غير الإرهاب والجلد والحبس وقطع الرؤوس لمواطني دولته كي يقنعهم بفكرته الفلسفية هذه؟ لقد خلق ذلك الإجراء الذي قام به الخليفة المأمون جوا من التوتر والإرهاب والخوف والرعب والفتنة والانقسام بين الرعية نظراً لما رافق ذلك الجو من إجراءات قمعية

---

١ ـ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٩٩

تتسم بالقهر والتنكيل والعنف الدموي؛ ومما يذكر في هذا المجال أن الإمام أحمد بن حنبل كان بين مجموعة من الأشخاص الذين رفضوا القول بخلق القرآن فأرسلوا مقيدين إلى المأمون، المقيم في طرسوس، فكان الإمام ابن حنبل يدعو الله طول الطريق أن لا يجمعهم بالمأمون، وقيل أن خبر وفاة المأمون قد وصلهم وهم في طريقهم إليه فنجوا من عقابه المنتظر فأعيدوا إلى الرقة ثم أذن لهم بالرجوع إلى بغداد[1] وأعيد ابن حنبل إلى السجن.

الخليفة المعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢م) يجلد الإمام أحمد بن حنبل:

بقي الإمام احمد بن حنبل في السجن ليتابع عذابه ومعاناته مع الخليفة الجديد المعتصم الذي واصل سياسة أخيه المأمون في موضوع خلق القرآن، «ويقال أن المعتصم جلد الإمام أحمد بن حنبل لامتناعه عن القول بخلق القرآن ثمانية وثلاثين سوطاً حتى سال منه الدم وتعددت جراحه بعدما كان استحضره من سجنه ـ الذي ظل محبوساً فيه منذ وفاة المأمون - وأدخله في حضرته ليناظر مجموعة علماء، وعلى مدى ثلاثة أيام متواصلة، فشلوا في إقناعه وملّوا مناظرته الأمر الذي جعل المعتصم يأمر بضربه ثم أرسل إلى السجن»[2] وإذا ماعرفنا أن المعتصم «كان محدود الثقافة ضعيف الكتابة كره العلم منذ صغره»[3]، أدركنا أن استمراره في امتحان الناس والقضاة ورواه الحديث والفقهاء والعلماء بموضوع فلسفي فكري عميق مثل موضوع خلق القرآن ليس أكثر من تنفيذ آلي أعمى لوصيّة أخيه ومنهجه السابق، وليس أكثر من لجاجة ونزوع ذاتي للتمسك بمنهج العنف والقهر والإرغام للناس وللرعية لأن تلك المسألة ونعني بها الجدل حول خلق القرآن أو عدمه لم تكن ضرورية وملحة إلى الحد الذي يقتضي المجازفة بانشقاق طولي في جهاز الدولة، وإثارة فتنة عارمة تشغل الأمة وتزعزع وحدتها وتصدع تماسكها وتصرفها عن المخاطر الجدية المحيطة بها.

ولعل بإمكاننا القول أن تلك الأحداث المبهمة التي رافقت ذلك الصراع العقائدي في مسألة خلق القرآن، والعقوبات التنكيلية التي شملت وطالت

---

١ ـ المصدر السابق، ص٣٠٠.

٢ ـ د. إبراهيم أيوب ، التاريخ العباسي السياسي والحضاري، مصدر سابق، ص٩١

٣ ـ المصدر السابق، ص٩١.

الكثيرين، وكذلك الموجة الدموية في حرب الزنادقة، ثم الثورات العديدة التي كان لأكثرها أبعاد فكرية وسياسية لم تكن غير انعكاس لحرب عقائدية غير معلنة كانت تجري في الخفاء منذ أمد غير قصير بين الفرق الإسلامية الفكرية التي كانت قد دخلت فيما بينها بمنازعات جدلية عقائدية ومناظرات فكرية مطولة كالشيعة والخوارج والمعتزلة والمرجئة والزيدية والقدْرية والجبرية وإخوان الصفا وغيرها، بعد أن استطاع أتباع ومريدو تلك الفرق الإسلامية المتنازعة نقل الصراع الفكري والعقائدي من النقاش والجدل وحلقات البحث والإقناع والتبشير السلمي، إلى التآمر السياسي والمكائد الدموية فاستطاعوا تحت عناوين مختلفة وحجج فلسفية ودينية سوق خصومهم تباعاً إلى ساحات الإعدام ومطاردتهم بقوة الدولة والتنكيل بهم، وإصدار الأحكام عليهم بتهم وفتاوى كانوا يقنعون بها الخلفاء والقادة والقضاة ضد بعضهم البعض حيثما سنحت الفرصة، وبذلك وضعوا الأساس التنفيذي لتطبيق دكتاتورية العقيدة الواحدة، والإرهاب المرتكز على طاعة الرأي الواحد في العصر العباسي. وكان من ضحايا تلك الحرب الإرهابية الخفية عدد من القادة والسياسيين والمفكرين والقضاة ورواة الحديث والأدباء والشعراء.. وخير مثال لذلك ما جرى لأحمد بن نصر الخزاعي، وكان من رواة الحديث، حيث أحضره الخليفة الواثق من بغداد إلى سامراء مقيداً، وسأله عن القرآن فقال: ((ليس بمخلوق)) فقال الواثق تكذب، فقال الخزاعي بل أنت تكذب وجرت ملاسنة شديدة بينه وبين الواثق ((فقال جماعة من فقهاء المعتزلة الذين حوله (الواثق): هو حلال الضرب، فدعا بالسيف وقال: إذا قمت إليه فلا يقومن أحد معي فإني أحتسب خطاي إلى هذا الكافر ثم أمر بالنِّطْع فأجلس عليه وهو مقيد فمشى إليه فضرب عنقه وأمر بحمل رأسه إلى بغداد فصلب بها وصلبت جثته في سامراء))[1] . وقد أمر الواثق أن يحبس كل من عرف من أصحاب الخزاعي ممن يوافقونه على رأيه فأدخل عشرون رجلا منهم إلى السجون المظلمة وثقلوا بالحديد[2].

---

١ ـ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٤١.

٢ ـ تاريخ الطبري ج٩، مصدر سابق، ص١٣٩.

إن مقتل راوية من رواة الحديث النبوي في دولة تدين بدين النبي محمد (ص) بهذا الشكل الدموي المأساوي المرعب وسجن أصحابه وتقييدهم بالحديد داخل السجون المظلمة هو أمر يصعب على الفهم، ويعطي الدليل القاطع على أنَّ تلك الدولة إنما تدين بدكتاتورية العقيدة الفئوية الواحدة، عقيدة الفرقة الإسلامية التي ينحاز إليها الخليفة الذي ارتضى أن يكون بعمله هذا خليفة لفئة من المسلمين المنتظمين في تلك الفرقة الإسلامية وليس خليفة لكل المسلمين المؤمنين بدين الرسول محمد (ص)، وربما كان أخطر خرق استطاعت أن تُحدثه تلك الفرق الإسلامية غير الرسمية في الهيكل الرسمي للدولة هو ذلك النجاح الذي حققته فرقة المعتزلة، بعد أن أقنعت الخليفة المأمون وبعض الخلفاء من بعده بأفكارها واجتهاداتها وكسبتهم إلى صفوفها، فاستطاعت بذلك الهيمنة على العقيدة الرسمية للدولة، مما نقل تلك الفرق وآراءها إلى موقع القوة المادية الإجرائية المؤثرة في حياة المجتمع، ذلك الموقع المتمثل بمنصب الخليفة (أي السلطة الحكومية) وما يحمله من صلاحيات واسعة باعتباره أميراً للمؤمنين وقائداً للإمبراطورية الإسلامية في ذلك الوقت، وبذلك ربما استطاعت هذه الفرقة على نحو غير مباشر فرض وتطبيق شعار دكتاتورية العقيدة الواحدة بقوة العنف والإرغام.. ثم المباشرة بالانتقام من خصومها ومخالفيها خصوصاً المفكرين من أتباع الفرق الأخرى...

ولعل تفجر تلك الموجة من الخلافات ذات الطبيعة الإرهابية الفئوية في الفترة السياسية التي كانت تبدو مستقرة نسبياً في حياة الدولة العباسية هي إحدى الابتكارات الشريرة للعقل العراقي الذي استطاع أن يخترع وسائل دكتاتورية جديدة لتحريك واستنهاض منهج العنف الدموي وتسعير أساليب الإرهاب والقوة والتسلط والإرغام والتعسف.

وكما ذكرنا سابقاً، فقد إنتهج الخليفة المعتصم نفس الأسلوب الذي التزمه المأمون في امتحان الناس بخلق القرآن، «فكتب إلى البلاد بذلك وأمر المعلمين أن يعلموا الصبيان ذلك وقاسى الناس منه مشقة في ذلك وقَتَل عليه خلقاً من العلماء»[1]. كذلك فقد أهدر الخليفة المعتصم دم الشاعر دعبل الخزاعي أحد

---

١ ـ المصدر السابق، ص٣٣٥.

شعراء الشيعة المتحمسين وقرر اغتياله بعد أن نظم قصيدة مقذعة شبه المعتصم فيها بالكلب لأنه جاء ثامن خليفة عباسي، كما ورد في القرآن حول أهل الكهف فقد كانوا سبعةٍ أخيارٌ وثامنهم كلب، فهرب الشاعر الخزاعي إلى الجبل وبقي مختبئاً مطارداً حتى وفاة المعتصم، ومن تلك القصيدة الشهيرة نورد البيتين التاليين:

ملوك بني العباس في الكتب سبعة خيار ولم تأتنا عن ثامن لهم كُتُبُ

كذلك أهل الكهف في الكتب سبعة خيار إذا عدوا وثامنهم كلب

كذلك أقدم الشاعر دعبل الخزاعي على هجاء الخليفة الواثق الذي جاء بعد المعتصم، فأمر الواثق أحد أفراد حاشيته المدعو مالك بن طوق للانتقام منه، فأرسل هذا شخصاً كلفه بقتل الشاعر الذي هرب واختفى في الأهواز فتتبعه هناك، وعندما عثر عليه ضرب ظهر قدمه بعكاز لها زج (رأس مدبب) مسموم فمات في اليوم الثاني[1].

إن مشهد الشاعر الهارب من سطوة الحاكم وأوامره الدموية والمختفي في أصقاع الأرض والذي يواجه مصيره المحتوم بالاغتيال أو الأسر أو قطع الرأس قد أصبحت من المشاهد المألوفة المكررة كثيراً في مسلسل العنف الدموي في العراق. وقام المعتصم أيضاً بقتل العبّاس وهو ابن أخيه الخليفة المأمون وكان ذلك عملاً تنكيلياً شديد القسوة، فقد وصلته وشاية أن العباس بن المأمون قد تآمر مع بعض الأمراء لقتله (المعتصم) وأخذ البيعة له، فقتله في طريق عودته من غزوة عمورية وذلك بحبسه ومنع عنه الماء عدة أيام فمات من العطش ودفن في منبج. ومن أعماله في القسوة والمبالغة في التنكيل ذلك الأسلوب الذي قتل فيه بابك الخرمي الذي قاد تمرداً في بلاد فارس، فبعد أن أسره «أمر بقطع يديه ورجليه وحز رأسه وشق بطنه ثم أمر بحمل رأسه إلى خراسان وصلب جثته على خشبة بسامراء»[2].

---

١ ـ الأغاني ج٢٠ ، مصدر سابق، ص١٨٦.

٢ ـ ابن كثير، البداية والنهاية ، ج ١٠، مصدر سابق، ص٣١٢.

العنف يتواصل في عهد الواثق با لله(٨٤١ ـ ٨٤٦م):

ولقد تتابع الخلفاء العباسيون في الالتزام بفكرة خلق القرآن وإجبار الناس على الالتزام بها حيث أن الخليفة الواثق الذي تولى بعد المعتصم كان من المتحمسين لهذا الرأي. وهناك حادثة تاريخية غريبة تدل على مقدار تعلق الخليفة الواثق والتزامه بفكرة خلق القرآن إلى حد المبالغة، حيث يُذكر أن الإمبراطور البيزنطي أرسل في عام ٢٣١هـ/٨٤٥م رسلاً إلى الخليفة الواثق يطلب فيها أن تتبادل الدولتان البيزنطية والإسلامية الأسرى فيما بينهما من كلا الطرفين فوافق الواثق على ذلك وأقيم جسران قرب طرسوس لهذا الغرض فكان المسلمون يرسلون أسرى البيزنطيين على الجسر الذي أقاموه ويرسل البيزنطيون أسرى المسلمين على الجسر الذي أقاموه واسترجع في هذه العملية ٤٦٠٠ أربعة آلاف وستمائة أسير غير أن الغريب في الأمر «أن أسرى المسلمين كانوا يخضعون إلى امتحان في القول بخلق القرآن ولا يفدى منهم من لا يقول بأن القرآن مخلوق»[1] حيث أرسل الواثق إلى هناك بعض الأفراد برئاسة طالب بن داوود وأمره بامتحانهم «فمن قال: أن القرآن مخلوق فودي به ومن أبى ذلك ترك في أيدي الروم»[2].

لقد وصل الأمر بالخليفة العباسي - حاكم العراق ـ أن يترك المواطن المسلم يعاني في الأسر لدى البيزنطيين إذا لم يكن على استعداد لترديد شعار السلطة السياسية وآراءها في خلق القرآن ، إن ذلك الموقف يؤكد وجود الخلط التام لدى الخليفة في سلّم الأولويات بين ماهو جزئي وما هو كلي، فأين يمكن أن يقف ويندرج شعار خلق القرآن بين الأهداف الجهادية التي أسر بسببها المسلم لدى البيزنطيين، إنه الوقوف بالموضوع خارج مساحة المنطق والعقل والتسلسل الموضوعي، إنها المغالاة والتطرف والمبالغة عند العراقي حين يقتنع بشعار فئوي أو فكرة أو موقف في شأن من الشؤون وفي أي زمن كان..

---

١ ـ د. إبراهيم أيوب ، التاريخ العباسي السياسي والحضاري، مصدر سابق، ص٩٩.

٢ ـ تاريخ الطبري ج٩ ، مصدر سابق، ص١٤٢.

ومن أعمال الواثق المتصلة بالعنف والقسوة إصداره الأمر بحبس الشاعر الطريف والرقيق (أبو الينبغي). وكان الوزير الفضل بن مروان قد نصح الخليفة بحبسه لخلاف بينه وبين الشاعر، وبقي (أبو الينبغي) في السجن حتى مات.

وكما نكب الخليفة هارون الرشيد البرامكة فقد نكب الخليفة الواثق كتّابه وموظفيه المشرفين على دور المال وقام بتعذيبهم ومصادرة أموالهم[1] لإساءتهم حفظ الأموال العامة..

مات الخليفة الواثق وجاء بعده المتوكل ويروى أنه عندما توفي الواثق «ترك وحده واشتغل الناس بالبيعة للمتوكل فجاء جرذون فاستل عينه فأكلها»[2].

ويبدو أن مرحلة عباسية جديدة قد بدأت بعد عهد الواثق حيث تتزاحم أحداث العنف الدموي والمؤامرات والدسائس والتصفيات الفردية بكثرة ملفتة للانتباه حتى ليصعب إدراجها جميعاً لذلك ومنعاً للإطالة والتكرار المتشابه في الأحداث فإننا سوف نقوم بتسريع وتيرة الاستعراض التاريخي لتلك الأحداث والاقتصار على تناول الأحداث الكبيرة والفاصلة ذات الدلالة في مفهوم العنف الدموي، أما الخلفاء فسوف لن نذكرهم جميعاً بل نكتفي بذكر الذين سقطوا ضحايا للعنف بمستوياته المختلفة وهو ما يحقق الهدف في موضوع بحثنا.

الخليفة المتوكل (٨٤٦ - ٨٦١م) يقتله ابنه المنتصر:

تولى المتوكل الخلافة بعد وفاة أخيه الواثق واستمر عهده نحواً من خمس عشرة سنة وقد أوقف الحملة الإلزامية في موضوع خلق القرآن وامتحان الناس في ذلك الموضوع الفلسفي. وكما استطاعت فرقة المعتزلة أن تقنع الخليفة المأمون بأفكارها وآرائها وتجعله هو وبعض الخلفاء من بعده من دعاتها المتحمسين والمنفذين لآرائها وأفكارها وشعاراتها فقد استطاع الناصبيون - وهم الذين ناصبوا الإمام علي البغض والكره والعداء - أن يستميلوا إلى جانبهم الخليفة المتوكل ويقنعونه بآرائهم المعادية للإمام علي وأتباعه، ولهذا السبب توجه المتوكل لمعاداة العلويين ومطاردتهم والتنكيل بهم بأقسى الأساليب حتى أنه أقدم على

---

١ - المصدر السابق، ص١٢٥.

٢ - السيوطي، تاريخ الخلفاء، مصدر سابق، ص٣٤٤

هدم قبر الحسين بن علي بن أبي طالب كما هدم المنازل والدور التي حوله ثم قام بحرث موضع القبر ثم زرع تلك الأرض وسقاها... وهكذا يتوضح أن روح المبالغة والمغالاة والتطرف والنزوع نحو القسوة في التنكيل واضحة في هذا العمل الذي يتصارع فيه الخليفة مع قبرٍ مات صاحبه قبل أكثر من ١٧٠سنة. كما أقدم المتوكل على قتل الأستاذ يعقوبَ بن السكيت وهو الإمام في اللغة العربية وكان مدرساً لأولاده، والسبب في ذلك رفض ابن السكيت شتم الإمام علي - الخليفة الرابع وابن عم الرسول - وإصراره على موالاته ومحبته له. وبعد أن قتله أرسل مبلغاً من المال إلى ابنه، دية عن أبيه. إن إقدام هذا الحاكم - العراقي - على قتل معلم أولاده - بقطع لسانه من الحنجرة - يعطينا دلالات بالغة العمق على تغلغل روح الانتقام والنزوع للقسوة والشراسة والعنف الدموي. (انظر شكل: ١١)

كذلك أقدم المتوكل على قتل الشاعر والوزير محمد بن عبد الملك الزيات حيث أدخله في تنور للتعذيب، كان ابن الزيات ذاته قد صنعه عندما كان وزيراً ليعذب به الموظفين والمصادرين والمطلوبين بالأموال، وكان ذلك التنور مصنوعاً من الحديد وبداخله مسامير ذات نهايات مدببة متوجهة إلى داخل التنور يُدخل فيه من يريد معاقبته ثم يحكم إغلاقه ويقوم بتسخينه فكيفما تحرك أو انقلب مَنْ بداخله تدخل المسامير بجسمه فيتألم أشد الألم[1].«ولم يسبقه أحد إلى هذه المعاقبة»[2] .ويبدو وفق النص السابق الذي يذكره ابن خلكان أن هذا التنور هو اختراع عراقي حيث يذكر أنه لم يسبقه أحد لمثل تلك العقوبة..

وعندما كان المعاقب داخل التنور يصيح ارحمني أيها الوزير: كان ابن الزيات يقول: الرحمة ضعف في الطبيعة.

ولاشك أن هذا الابتكار هو من إبداعات ذلك الوزير العراقي محمد بن عبد الملك الزيات الذي دخل هو الآخر بداخل هذا التنور في آخر أيامه بأمر من الخليفة المتوكل لضغينة كانت بينه وبين ابن الزيات منذ أيام أخيه الواثق وقد أثقله بخمسة عشر رطلاً من الحديد في التنور وعندما كان ابن الزيات يصرخ داخل التنور وينادي ارحموني. كان الجلادون يجيبونه: إن الرحمة ضعف في الطبيعة،

---

١ ـ هناك وصف تفصيلي لهذا التنور في كتاب ابن خلكان، وفيات الأعيان ج٥، ص١٠٠

٢ ـ المصدر السابق، ص١٠٠

تماماً كما كان يجيب ضحاياه. «وكانت مدة إقامته في التنور أربعين يوماً»[1] ، ولما جاءوا إليه وجدوه ميتاً. هكذا مات هذا الوزير العباسي وهكذا فكيفما تكونوا يولّى عليكم...!

عجيب أمر هذه البلاد الولوعة بالعنف والدم والقسوة والاستبداد.. القاتل فيها ظالم جبار متكبر والمقتول المظلوم كان سبّاقاً في الظلم والتكبر والتعذيب..

ومات المتوكل قتلاً وقد قتله ابنه المنتصر بعد أن دبّر مع الأتراك مكيدة لاغتيال أبيه فدخلوا عليه في آخر الليل وهو في مجلس لهوه فقتلوه هو ووزيره الفتح بن خاقان[2].

الخليفة المنتصر (٨٦١ ـ /٨٦٢م) يغتاله طبيبه المرتشي:

وهو ابن المتوكل، وقد قام بقتل أبيه ولا نعرف سبباً لتسميته بالمنتصر إلا إذا كان المقصود في ذلك هو انتصاره على أبيه واغتياله له. إن رائحة الغدر والعنف تفوح من هذا الخليفة المنتصر، وقد قتل هو الآخر اغتيالاً بالسم ، قتله طبيبه الخاص المدعو ابن طيفور بعد أن قبض رشوة مقدارها (٣٠,٠٠٠) ثلاثون ألف دينار، ففصده بريشةٍ مسمومةٍ فمات[3]، وقد قال وهو يحتضر مخاطباً أمه: «يا أماه ذهبت مني الدنيا والآخرة عاجلتُ أبي فعوجلتُ»[4].

المستعين با لله (٨٦٢ ـ ٨٦٦م) يقتله المعتز با لله:

قتله المعتز با لله حيث أرسل له سعيد الحاجب فذبحه وعمره إحدى وثلاثون سنة «وقيل بل جعل في رجله حجراً وألقاه في دجلة»[5] وإذا صحت هذه الرواية فإن نهايته تشبه نهاية عبد الكريم قاسم حاكم العراق عام ١٩٦٣ حيث ألقيت جثته في دجلة بعد أن ربطت بأحجار ثقيلة، وقد ثار العلويون في عهده

---

١ ـ المصدر السابق، ص١٠٠.
٢ ـ تاريخ الطبري ج٩ ، مصدر سابق، ص٢٢٦.
٣ ـ تاريخ الطبري ج٩ ، مصدر سابق، ص٢٥٣.
٤ ـ السيوطي، تاريخ الخلفاء، مصدر سابق، ص٣٥٧.
٥ ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ص٣٩٠.



(شكل رقم: ١١) صورة لقطعة نقود عباسية من الفضة

وقد طبع عليها اسم وصورة الخليفة العباسي المتوكل على الله إضافة إلى كلمات (بسم الله - محمد رسول الله) وهى من الصور النادرة التى تعطى فكرة عن شكل وملامح الخليفة المتوكل

بقيادة يحيى بن عمر الزيدي واستولوا على الكوفة ثم فشلت الثورة وقتل يحيى وقطعت رأسه وحملت إلى سامراء وعلّقت هناك.

المعتز با لله (٨٦٦ ـ ٨٦٩م) يقتله المهتدي با لله:

من أعماله البارزة ! أنه قام بقتل أخيه المؤيد بعد تقييده ثم أحضر القضاة ليشاهدوه على تلك الحال كي يبعد التهمة عن نفسه.

أما المعتز ذاته فقد قتله المهتدي محمد بن الواثق. وكان رجال المهتدي قد أدخلوه إلى الحمام وعندما عطش منعوا عنه الماء فمات عطشاً[١] وقيل أنهم «أدخلوه سرداباً وجصصوا عليه فمات»[٢].

المهتدي با لله (٨٦٩ ـ ٨٧٠م) يموت تحت الضرب المبرح:

مات قتلاً بعد أن اعتقل إثر هزيمة جيشه فضرب ضرباً مبرحاً وداسوا خصيتيه حتى مات من الألم[٣].

المعتمد على ا لله (٨٧٠ ـ ٨٩٢م) يموت مسموماً

قيل أنه مات مسموماً وكانت أكبر الوقائع ذات الصلة بالعنف الدموي في عهده قيام ثورة الزنج التي تحولت إلى أكبر مجزرة بشرية في التاريخ العباسي.

ثورة الزنج: الحجم الهائل من العنف الدموي:

وهي الثورة التي انتشرت في البصرة والأهواز والمستنقعات في جنوب العراق، ودامت مدة أربع عشرة سنة متواصلة من سنة (٢٥٥ ـ ٢٧٠ هـ/ ٨٧٠ ـ ٨٨٣م). وكان زعيم الثورة يسمى (صاحب الزنج) وهو شخص يدعى علي بن محمد الذي تزعم الفلاحين العبيد الفقراء الذين كانوا يستقدمونهم للعمل في إزالة السباخ من الأرض الزراعية فكانوا يعيشون ظروفاً حياتية سيئة للغاية. وقد أرسل الخليفة عدة حملات عسكرية للقضاء على ثورة الزنج إلا أنها في كل مرة

---

١ ـ السيوطي، تاريخ الخلفاء، مصدر سابق، ص٣٦٠.
٢ ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ ، مصدر سابق، ص٤٠٥.
٣ ـ المصدر السابق، ص٤٢٦.

كانت تندحر وتتكبد خسائر بشرية كبيرة، ثم إن الزنج كانوا في أغلب الأحيان يقطعون رؤوس الأسرى من جيش الخليفة حتى بلغ عدد القتلى في هذه الثورة، في بعض التقديرات، حوالي النصف مليون قتيل وأكثر، ((وحدث بعد إحدى المعارك الحامية أن بقي من رؤوس القتلى المسلمين التي لم يأت لها طالب عدد كبير فألقاها الزنج في قناة فوافت البصرة فجعل الناس يأتون تلك الرؤوس فيأخذ رأس كل رجل أولياؤه وعمّ الخراب البصرة وواسط والأهواز))[1]. ((وفي سنة ٨٨٣م قُتل صاحب الزنج وسقطت المختارة ـ القلعة التي ابتناها ـ وبذلك أخمدت نار ثورة عظيمة لم يُعرف في تاريخ آسية الغربية ثورة أفظع وأشد بليّة منها))[2].

وهكذا يتبيّن من النصين السابقين أن حجم العنف الدموي والقسوة والتنكيل واتساع نطاق الخراب والدمار قد وصل إلى حد صارت فيه الرؤوس الآدمية تلقى في الجداول والأنهر في البصرة فتطفو مع الأنهار ثم يقوم الناس بتفقد الرؤوس الطافية ليتعرف عليهم ذووهم فينتشلوا رأس من يعرفونه من أبنائهم أو أقربائهم أو معارفهم.

لقد تكرر مثل هذا المشهد في ذات الموقع في الثمانينات من القرن العشرين خلال الحرب الطاحنة التي قامت بين العراق وإيران حيث طفت فوق سطح الماء وفي الأنهر ذاتها في جنوب البصرة أعداد غير قليلة من جثث القتلى الذين غرقوا أثناء المعارك حول شط العرب والقرى الواقعة على ضفافه وصار أهل البصرة ينتشلون تلك الجثث الطافية ويتعرفون على أصحابها...

إننا نجد في تلك الأحداث من القسوة والفظاعة الدموية ما يكاد يقرب من الخيال السينمائي في أفلام الرعب.

وقد صور الشاعر ابن الرومي وهو من معاصري تلك الفترة حالة البصرة ومعاناتها في هذه الأحداث الدامية بقصيدة حزينة وصف فيها الخراب والدمار الذي حدث فيها خلال احتلالها في ثورة الزنج والمجزرة الدموية التي حلت بأهلها من قتل ونهب وسبي وسفك للدماء. ورثائية ابن الرومي هي قصيدة طويلة تقع

---

١ ـ د. فيليب حتي، تاريخ العرب، مصدر سابق، ص٥٤٣ . وفي الكامل لابن الأثير ج٤ ص٤١٧.

٢ ـ المصدر السابق، ص٥٤٤.

في ستة وثمانين بيتاً، استطاع الشاعر أن يصور فيها أحداث العنف بتفاصيلها الدقيقة تصويراً بارعاً مليئاً بالحركة والحيوية. ولما كان ابن الرومي من معاصري تلك الأحداث فإن قصيدته في رثاء البصرة هي أقرب أن تكون فلماً تسجيلياً وثائقياً عن تلك الأحداث المؤلمة من العنف الدموي الذي تعرضت له هذه المدينة العراقية ونذكر هنا بعض الأبيات من تلك القصيدة[1]:

ذاد عن مقلتي لذيذَ المنام	شغلها عنه بالدموع السجام[2]
أيُّ نوم من بعد ما حل بالبصـ	ـرة من تلكم الهنات العظام[3]
أي نوم من بعد ما انتهك الزنـ	ـجُ جهاراً محارم الإسلام
لهف نفسي عليك أيتها البصـ	ـرة لهفاً كمثل لهب الضِرام
لهف نفسي لجمعك المتفاني	لهف نفسي لعزك المستضام
أين تلك القصور والدور فيها	أين ذاك البُنيان ذو الأحكام
بُدِّلَتْ تلكُمُ القصور تلالاً	من رمادٍ ومن تراب رُكام

لقد كانت البصرة موعودة بالعنف والآلام والأحزان وقد تعاقبت عليها النكبات الكبرى والمجازر وأحداث الخراب في فترات مختلفة من التاريخ فدخل اسمها في الأمثال العربية السائرة حتى قيل ((بعد خراب البصرة)).

ليس الإنسان وحده يتعرض للموت والإبادة والإعدام في العراق بل المدن والحواضر تتعرض هي الأخرى منذ العهود السومرية للموت والإبادة والإعدام في بلاد يستوطن فيها الموت والعنف والقسوة...

وبعد ثورة الزنج تعرضت البصرة للخراب والنهب على يد القرامطة، ثم توالت عليها النكبات في فترات مختلفة من التاريخ حيث جرت في داخلها وفي

---

١ ـ القصيدة موجودة في ديوان ابن الرومي، الجزء الثالث، شرح الأستاذ أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، ص٣٣٨.

٢ ـ الدموع السجام: المنصبّة.

٣ ـ الهنات: الداهية.

أطرافها وعلى مقربة منها حروب ومعارك واضطرابات وفتن دموية سقط فيها الكثير من القتلى والضحايا كما سنرى لاحقاً...

وأخيراً وفي الثمانينات من القرن العشرين، كانت البصرة على موعد مع آخر موجات الخراب والدمار والموت الجماعي عندما صارت مسرحاً لأكبر العمليات العسكرية الطاحنة في الحرب العراقية الإيرانية...

الخليفة المعتضد (٨٤٢ - ٨٩٢م) السفاح الثاني:

كان ظاهر الجبروت قليل الرحمة فإذا غضب على قائد أمر بأن يلقى حياً في حفرة ويطمَّ عليه بالتراب، وسمِّيَ المعتضد بالسفاح الثاني لكثرة ما أسال من دماء[1]

فهل كان العراق خالٍ من العنف الدموي والأساليب الإرهابية ليبتكر هذا الخليفة وسائل جديدة للقتلٍ؟ أم هي الأقدار الدموية التي تسوق العراق دائماً على هذا الدرب المأساوي..؟

الخصي مؤنس الخادم يقتل الخليفة المقتدر با لله (٩٠٧ - ٩٣٢م)

تمرد عليه قائد الجيوش مؤنس الخادم فحدث قتال بينهما قتل فيه الخليفة المقتدر حين رماه بربري برمح أسقطه أرضاً ثم ذبحه بالسيف ورفع رأسهُ على رمح وسلب ما عليه من ثياب، وتُركت جثته على قارعة الطريق وبقي مكشوف العورة حتى سُتر بالحشيش ثم حفروا له في الموضع ذاته ودفن[2]
والخليفة المقتدر هو الذي قتل المفكر والفيلسوف والشاعر الصوفي الحلاج واسمه الحسين بن منصور الحلاج، وكان مقتله بسبب دسائس ووشايات كيدية بتهمة الكفر والزندقة قدّمها الوزير حامد بن العباس ومعه بعض الفقهاء ممن يكرهون الحلاج، وقد أعدم هذا المفكّر والشاعر الصوفي بسبب أفكاره في الناسوت واللاهوت، فهو يرى أن صفات ا لله يمكن أن تتجلى في خلقه..

---

١ - السيوطي، تاريخ الخلفاء، مصدر سابق، ص٣٦٨.
٢ - المصدر السابق، ص٣٨٤.



(شكل رقم: ١٢) قبر الشاعر والفيلسوف والمفكر الصوفي الحلاّج
الذي أعدمه الخليفة المقتدر بالله العباسي في باب الطاق ببغداد بعد أن جلده ألف جلدة وقطع أطرافه ثم قطع رأسه وأحرق جثته

وقد هُدِّدَ بعض أصحاب الحلاج ليشهدوا ضده كذباً بأنه قد ادعى الألوهية. ورغم دفاعات الحلاج الفلسفية البليغة المستندة إلى أحكام القرآن وآياته إلا أنهم حكموا عليه بالإعدام وكان الوزير حامد يستعجل الخليفة المقتدر للموافقة على إعدامه وعندما تأخر قرار الخليفة ثلاثة أيام قلق الوزير حامد بن العباس وصار يحرّض الخليفة ويحثه على إصدار القرار بإعدام الحلاج فلما وصل قرار الخليفة فرح ذلك الوزير وسلّمه إلى مدير الشرطة الذي نفذ به حكم الموت بأشنع وأقسى الصور الهمجية.

وعندما أحضروا الحلاج إلى باب الطاق ببغداد لتنفيذ الإعدام به تجمع الناس هناك فصار يلقي أشعاراً مليئة بالأفكار والمعاني الفلسفية الغامضة ثم صار يقرأ الآيات القرآنية ((وجعل لايزيد على الشهادتين والتوحيد))[1]، ويتحدث بجمل بليغة فأوثقوه ثم ضربوه ألف سوط ثم قطعت يداه وقطعت رجلاه ويقال أنه كان يردد مع كل سوط أحدٌ أحدْ. ثم قطعوا رأسه وأحرقوا جثته وألقوا برمادها في دجلة، أما رأسه فقد نصب يومين على الجسر ببغداد ثم حمل إلى خراسان وطيف به هناك ليراه الناس. ونودي في بغداد بأن لا تشترى كتب الحلاج ولا تباع وكان ذلك سنة ٣٠٩ هجرية. (انظر شكل: ١٢)

وهكذا تضاف صفحة مخزية إلى التاريخ العراقي بل وإلى التاريخ العربي بتلك النهاية الدموية المرعبة التي انتهى إليها هذا الفيلسوف المتصوف - الحلاج - والطريقة الهمجية التي أعدم بها والمكائد الخسيسة المنظمة التي أدت إلى إعدامه..

وفي عهد المقتدر وبالتحديد في عام ٣١١ هجري تعرضت البصرة إلى موجة كاسحة من العنف الدموي عندما هجم عليها ألف وسبعمائة فارس من القرامطة الأشداء القادمين من البحرين بقيادة أبي طاهر سليمان الجنابي أمير القرامطة ودخلوها ليلاً ((وقتلوا من لقوه من أهله وهرب أكثر الناس فألقوا أنفسهم في الماء فغرق كثير منهم ومكث بها سبعة عشر يوماً يقتل ويأسر من نسائها وذراريها ويأخذ ما يختار من أموالها))[2]

---

١ ـ البداية والنهاية ج١١، مصدر سابق، ص١٦٠

٢ ـ المصدر السابق، ص١٦٨

وفي سنة ٣١٥ هجرية / ٩٢٣م أي بعد أربع سنوات من الهجوم على البصرة قام قائد القرامطة أبو طاهر الجنابي ذاته بالسير نحو الكوفة فدخلها وأنزل الهزيمة بجيش الخلافة العباسية ((وحمل منها ماقدر على حمله من الأموال والثياب وغير ذلك وعاد إلى هجر))[١] . ((ثم اتجهوا إلى الأنبار ومنها إلى أرض الجزيرة وهم ينشرون القتل والخراب في كل مكان تصل إليه أقدامهم))[٢].

عبد الله بن المعتز خليفة ليوم واحد:

هو عبد الله بن المعتز بن المتوكل بقي في الخلافة يوماً وليلة، وقتل ٢٩٦هجرية (٩٠٨م)، ودفن خلف داره وهو شاعر وأديب. وأبرز كتبه ومصنفاته كتاب (طبقات الشعراء). إلا أن بعض المصادر لا تعده بين خلفاء بني العباس لقصر مده حكمه.

الخليفة القاهر با لله(٩٣٢ ـ ٩٣٤م) كحّله الراضي بمسمار محمي وأعماه

كان أول عمل قام به القاهر هو مصادرة أموال آل المقتدر والتنكيل بهم وضرب أم الخليفة المقتدر وعذبها حتى ماتت تحت التعذيب. وأم المقتدر اسمها شغب وقد سبق لها أن احتضنت القاهر صغيراً حين توفيت أمه ولما كبر وتولى الخلافة ((طلبها وهي مريضة فعاقبها عقوبة عظيمة جدا حتى كان يعلقها برجليها ورأسها منكوس)) [٣]. إن رائحة الغدر والعقوق والقسوة تفوح من هذا الحاكم العراقي وقد عمي القاهر بعد ما كحّله الراضي بمسمار محمي ولما فقد بصره خلع من الخلافة. وكان لدى القاهر أموال عظيمة وحين تولى الخليفة الراضي فتش في خزائن الدولة فلم يجد شيئاً يدبر به أمور الدولة والجند فطولب القاهر بتلك الأموال فأنكر فعذب بأنواع العذاب.

((وآخر ما عرف عنه أنه كان يستعطي في شوارع بغداد وهو ملتف بكساء قطني وفي رجله قبقاب خشب)) [٤].

---

١ ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ ، مصدر سابق، ص٨٧

٢ ـ د. إبراهيم أيوب، التاريخ العباسي – السياسي والحضاري، مصدر سابق، ص١٢٣.

٣ ـ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١ ، مصدر سابق، ص١٩٩.

٤ ـ د. فيليب حتي ، تاريخ العرب، مصدر سابق، ص٥٤٥.

الخليفة الراضي با لله (٩٣٤ ـ ٩٤٠م) قتل بأيدي الجند

في زمانه ضعف حكم الخلافة وبقي الراضي صورة رمزية للسلطة لا أكثر وليس له من الخلافة سوى الاسم، ((وكان الراضي من الخلفاء القلائل في هذه الحقبة الذين نجوا من الخلع ولكنه مع ذلك لم ينجح من الموت قتلاً بأيدي الجند))[1].

الخليفة المتقي لله ٩٤٠ ـ ٩٤٤م أعماه السلطان توزون بمسمار محمي

تمرد عليه السلطان توزون وكحله بالميل المحمي فذهب بصره وأخذ منه خاتم الخلافة والبردة والقضيب ووضعه في السجن حتى مات وعين بدلاً عنه عبد ا لله بن المكتفي ولقبه بالمستكفي با لله. وفي هذه الفترة بدأ نفوذ البويهيين بالتعاظم وتجاوزت سلطتهم نفوذ الخليفة ودام تأثيرهم في الخلافة العباسية أكثر من مئة عام من ٣٣٤ ـ ٤٤٧هـ. أما الخلفاء الذي خضعوا لنفوذ بني بويه فهم: المستكفي، والمطيع، والطائع، والقادر والقائم.

الخليفة المستكفي با لله (٩٤٤ ـ ٩٤٦م) سملت عيناه وسجن حتى مات

هجم عليه الديلم ونهبوا دار الخلافة وساقوا المستكفي وكحلوه بالمسمار فسملت عيناه وفقد بصره وسجن حتى مات وكانت حادثة اعتقال هذا الخليفة (المستكفي) لا تخلو من الطرافة رغم مأساويتها. ففي أحد الأيام دخل السلطان معز الدولة إلى دار الخلافة وسلم على الخليفة المستكفي وقبل الأرض بين يديه فأمر الخليفة بكرسي فجلس عليه السلطان معز الدولة ثم تقدم إلى الخليفة رجلان من الديلم بالاتفاق مع معز الدولة فمدا أيديهما نحوه فظن الخليفة أنهما يريدان تقبيل يديه فمد يده فجذباه بقوة وأسقطاه من السرير[2] ووضعا عمامته في عنقه وسحباه إلى دار معز الدولة فاعتقل بها وخلع وسملت عيناه هناك.

الخليفة المطيع لله (٩٤٦ ـ ٩٧٤) أمروه بخلع نفسه من الحكم فأطاعهم:

وهو ابن المقتدر. وفي خلافته اشتد الغلاء في بغداد حتى أكل الناس الجيف والروث، وماتوا على الطرق وأكلت الكلاب لحومهم[3] ، وقد خلع المطيع بعد

---

١ ـ المصدر السابق، ص٥٤٥.

٢ ـ الكامل في التاريخ ج٥ ، مصدر سابق،ص٢٦٠.والطبري ج١١ ، مصدر سابق، ص٣٥٤.

١ ـ السيوطي، تاريخ الخلفاء، مصدر سابق، ص٣٩٨.

أن أصيب بالفالج فثقل لسانه[1]. أمره السلطان سبكتكين أن يخلع نفسه فنفذ الأمر فانتقلت الخلافة إلى ابنه الطائع[2].

ومنذ أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي وما بعده ظهر عدد من الحكام الأقزام في العراق يحمل كل منهم اسم الخليفة غير أن كل واحد منهم كان أسيراً وضعيفاً وألعوبة بيد أحد الأمراء أو السلاطين من ذوي النفوذ والسلطة الفعلية في بغداد، وكثرت خلال تلك الفترة الفتن والدسائس والاغتيالات واقتتال الأخوة الأمراء مع بعضهم، وسادت التصفيات الدموية بينهم. أما الخليفة فقد كان ، في أكثر الأحيان، عبارة عن لعبة بيد هذا السلطان أو ذاك. وكثرت التسميات الرنانة والضخمة للسلاطين والأمراء والتي كان الخليفة ذاته يطلقها عليهم إما خوفاً منهم أو تقرباً وتزلفاً إليهم وأصبح بإمكاننا أن نقرأ في تلك الحقبة ألقابا وتسميات مثل أمير الأمراء، ناصر الدولة، سيف الدولة، جلال الدولة، ركن الدولة، معز الدولة، عز الدولة، عضد الدولة، مؤيد الدولة ، بهاء الدولة ، فخر الدولة ، مجد الدولة ، شمس الملّة ، ناصر الدنيا والدين.. إلى آخره من الألقاب.

وفي جانب آخر فقد كانت أسوأ الأحداث التي خلفتها بصمات العنف الدموي في العراق في القرن الرابع الهجري وبالذات في عام ٣٥٤ هجري مقتل الشاعر أبو الطيب المتنبي، أعظم الشعراء في التاريخ العربي، وقد قتل هو وابنه ومرافقوه في العراق قرب النعمانية بين واسط وبغداد عند رجوعه من بلاد فارس حيث كان في ضيافة عضد الدولة البويهي الذي أكرمه إكراماً فائقاً وأكثر له العطايا من المال الذي بلغ ما يقرب من مئتي ألف درهم كما يقال، وكذلك بعض الخيل المطهمة والجواهر. ويذكر ابن كثير في كتاب (البداية والنهاية) أن عضد الدولة بعد أن قدم للمتنبي كل تلك الهدايا أرسل له بالسر ((مَنْ يسأله: أيهما أحسن؟ عطايا عضد الدولة ابن بويه أم عطايا سيف الدولة بن حمدان؟ فقال: هذه أجزل وفيها تكلف وتلك أقل ولكن عن طيب نفسٍ من معطيها لأنها عن طبيعة وهذه عن تكلف، فذكر ذلك لعضد الدولة فتغيّظ

---

٢ ـ ابن كثير، البداية والنهاية ، مصدر سابق، ص٣١٢.

٣ ـ تاريخ الطبري ج١١ ، مصدر سابق، ص٤٣٢.

عليه، ودس عليه طائفة من الأعراب فوقفوا له في أثناء الطريق وهو راجع إلى بغداد ويقال أنه قد هجى مقدمهم ابن فاتك الأسدي - وقد كانوا يقطعون الطريق - فلهذا أوعز إليهم عضد الدولة أن يتعرضوا له فيقتلوه ويأخذوا له ما معه من الأموال"[1] ومن هذه الرواية التي يسوقها ابن كثير يبدو أن عضد الدولة قد غضب على المتنبي بعد أن عرف رأيه بهداياه، لذلك أوعز إلى الأعراب من بني أسد بقتله وأخذ أمواله وكان بينهم فاتك الأسدي الذي كان المتنبي قد هجا أخته قبل عام.

فإن صحت هذه الرواية التي يسوقها ابن كثير في (البداية والنهاية) فإن مقتل المتنبي كان تنفيذاً لمكيدة قاتلة من مكائد العنف الدموي دبرها القائد البويهي عضد الدولة، ونفذها العراقيون من بني أسد ضد المتنبي، ولا يستبعد أن تكون تلك الرواية صحيحة لأن ذلك النوع من المؤامرات والدسائس هي إحدى السمات البارزة التي ميزت تلك الحقبة الدموية من التاريخ العباسي في العراق.

الخليفة الطائع لله (٩٧٤ - ٩٩١م): العوبة بيد السلاطين

كانت أبرز الأحداث التي حصلت في خلافته الحرب التي نشبت بين السلطان صمصام الدولة وأخيه السلطان شرف الدولة فانتصر شرف الدولة على أخيه وكحّله بالمسمار المحمي فأعماه، وعلى إثر ذلك ذهب إليه الخليفة الطائع وهنّأه بالنصر علي أخيه وعهد إليه بالسلطنة... وقيل أن شرف الدولة لما اشتد عليه المرض أمر شخصاً أن يسمل أخاه صمصام الدولة فنفذ أمره وأعماه[2].

ودامت خلافة الطائع سبعة عشر سنة تعاقب فيها على النفوذ خمسة من سلاطين بني بويه.

و((ازدادت حالة البلاد سوءاً في أيام خلافة الطائع لله واشتد تيار الفتنة بين السنّة والشيعة وأُحرقت الكرخ وتعطلت أحوال الناس))[3] ، وقبض السلطان بهاء الدولة على الخليفة الطائع ونهب داره وطرحه أرضاً وهو يستغيث.

---

١ - ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١، مصدر سابق، ص٢٩٠.

٢ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٥ ، مصدر سابق، ص٤٧٧.

١ - د . إبراهيم أيوب، التاريخ العباسي – السياسي والحضاري، مصدر سابق، ص١٣٧.

الخليفة المقتدي بأمر الله: (٤٦٧ ـ ٤٨٧هـ) مات مسموماً:

تمرد عليه السلطان ملكشاه وطلب منه أن يترك بغداد ويذهب إلى أي بلد يشاء فأجاب الخليفة: أمهلني ولو شهراً فأجابه السلطان: ولا ساعة واحدة فعاد الخليفة يرجوه أن يمهله عشرة أيام... وصادف أن توفي السلطان ملكشاه خلال ذلك فارتاح الخليفة.. وقد طلبت زوجة ملكشاه من الخليفة أن يعطي ابنها لقب السلطان وكان عمره خمس سنين فاستجاب الخليفة لذلك ولقّبه (ناصر الدنيا والدين)، وقد تمرد على ناصر الدنيا والدين أخوه المدعو بركياروق بن ملكشاه فاضطر الخليفة أن يلقبه (ركن الدولة). بعدها مات الخليفة فجأة وقيل أن جاريته شمس النهار سمّته[١] وبويع لولده المستظهر.

المستظهر بالله (٤٨٧ ـ ٥١٢هـ) سقطت القدس في عهده

تولى الخلافة وعمره ست عشرة سنة وأيامه مضطربة كثيرة الحروب وخلال حكم هذا الخليفة سقطت القدس بيد الإفرنج في القرن الحادي عشر الميلادي ووردت الأخبار إلى بغداد بسقوط القدس فبدؤوا بالبكاء والنحيب ونظم الأشعار والقصائد، تماماً كما هو الحال هذه الأيام في بكاء مدينة القدس.

المسترشد بالله (٥١٢ ـ ٥٢٩هـ): قتله جنود السلطان وقطعوا أنفه وأذنيه

تولى الخلافة سنة ٥١٢ هجرية، وحصل خلاف بينه وبين أحد سلاطينه المدعو مسعود بن محمد، فخرج الخليفة لقتاله فانتصر السلطان، وأسر الخليفة وحاشيته وحبسهم قرب همدان. وهناك هجم عدد من الجنود على خيمة الخليفة وقتلوه، ومثّلوا به، فجدعوا أنفه وأذنيه وتركوه عرياناً، وقتل معه نفر من أصحابه[٢]

الراشد بالله (٥٢٩ ـ ٥٣٢هـ) قتله الخدم بالسكاكين:

تولى الخلافة ٥٢٩ هجرية فتمرد عليه السلطان مسعود ورفض البيعة له وجمع الفقهاء وطلب منهم الإفتاء بخلعه فأفتوا بجواز خلعه وبايعوا عمه محمد بن المستظهر فخرج الخليفة الراشد إلى الموصل وبلاد أذربيجان ومعه جماعة وهناك

---

٢ ـ السيوطي، تاريخ الخلفاء ، مصدر سابق، ص٤٢٦.

٣ ـ الكامل في التاريخ، ج٦، مصدر سابق، ص ٦٥٢

مرض فدخل عليه جماعة من العجم وكانوا فراشين عنده فقتلوه بالسكاكين ووصل الخبر إلى بغداد فقعدوا للعزاء يوماً واحداً[١]

ومن أحداث العنف التي جرت خلال هذه الفترة ذلك الصراع الذي نشب بين السلطان مسعود وأخيه السلطان محمود والذي كان من نتيجته انتصار السلطان محمود على أخيه في المعركة الفاصلة التي جرت بينهما بالقرب من همدان، وبعد أن استتب الأمر للسلطان محمود أمر بإعدام الشاعر الشهير المعروف بالطغرائي الذي كان يعمل وزيراً لدى أخيه السلطان مسعود في الموصل. والشاعر الطغرائي هو صاحب القصيدة العربية الخالدة المعروفة بلامية الطغرائي أو لامية العجم ومطلعها:

أصالة الراي صانتني عن الخطل وحلية الفضل زانتني لدى العطل

وهي قصيدة طويلة مليئة بالحكم والمواعظ والتجربة الإنسانية. وقد سيق الطغرائي إلى الإعدام ظلماً عام ٥١٥ هجرية وكان قد جاوز الستين سنة من العمر بتهمة الإلحاد وهي التهمة التي لفّقها ودسها عليه المدعو علي السميرمي وزير السلطان محمود.

وبعد عام واحد من إعدام الطغرائي قام أحد أتباعه باغتيال الوزير علي السميرمي في السوق ببغداد عند المدرسة النظامية انتقاماً لأستاذه الطغرائي وكان ذلك في عام ٥١٦ هجري[٢] وفي (الكامل) لابن الأثير أن القاتل قد انفرد بالوزير السميرمي في السوق الضيق بعد أن ابتعد عنه أصحابه وحين عادوا إليه وجدوه مذبوحاً مثل الشاة وفيه أكثر من ثلاثين طعنة[٣]

المستنجد بالله: قتلوه في الحمام وهو يستغيث

من أعمال العنف الدموي الغريبة في عهد الخليفة المستنجد بالله، إصداره الأمر عام ٥٥٨هـ بإبادة بني أسد من أهل الحلة المزيدية بسبب مساعدتهم السلطان محمد خلال حصاره لبغداد، فأمر المدعو يزدن بن قماج بقتالهم

---

١ ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج٦ ، ص٦٥٢.
٢ ـ ابن خلكان، وفيات الأعيان الجزء ٢، مصدر سابق، ص١٩٠
٣ ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، المجلد ٦، ص٥٨١.

وإجلائهم عن البلاد فتعاون هذا مع بعض القبائل من المنتفق والبصرة وتمت محاصرتهم وتطويقهم وقطع الماء عنهم فاستسلموا، فقتلوا منهم أربعة آلاف قتيل، وتم إجلاء من بقي حياً منهم عن الحلة[1]. أما الخليفة المستنجد با لله فقد اشتد عليه المرض في آخر أيامه مما دفع بعض حاشيته للتآمر على حياته حيث أمروا طبيبه الخاص المدعو ابن صفيّة أن يأمر له بما يؤذيه فوصف له دخول الحمام لكن الخليفة امتنع عن ذلك لضعفه فأدخلوه الحمام بالقوة وأغلقوا عليه الباب وهو يستغيث حتى مات.

المستعصم با لله (٦٤٠ - ٦٥٦هـ): قتله المغول رفساً بالأقدام

تولى الخلافة بعد أبيه المستنصر وكان ضعيفاً ومقتراً وسرح أعداداً كبيرة من الجيش الإسلامي وانحدرت الخلافة العباسية في أيامه في طريق الضعف.

والمستعصم هو آخر الخلفاء العباسيين وقد مات قتلاً على يد المغول الذين احتلوا بغداد وأحرقوها وقتلوا أعداداً كبيرة من سكانها، ((وقد تضاربت أقوال المؤرخين في كيفية مقتل الخليفة العباسي المستعصم با لله وكيفما كان الأمر غرقاً أو رفساً وضرباً حتى الموت أو غير ذلك.. فالنهاية واحدة هي مقتل الخليفة العباسي بعدما أخذوا منه كل ما كان الخلفاء العباسيون قد جمعوه على مدى خمسة قرون))[2] كما قتل معه ولديه الأكبر والأوسط. وأبيد عدد كبير من سكان بغداد.

---

١ ـ المصدر السابق، ص١٧٠

٢ ـ د إبراهيم أيوب، التاريخ العباسي – السياسي والحضاري، مصدر سابق، ص٢٠١

بدايات العنف الطائفي:

كان الدور التخريبي غير المباشر الذي لعبته النساء في الحياة السياسية وتدخلهن الكبير والخفي في شؤون الخلافة العباسية - وبالأخص منهن الجواري الأجنبيات اللائي تحولن إلى زوجات للخلفاء ثم أمهات للخلفاء من أولادهن الذين تولوا الخلافة فيما بعد - قد أثّر تأثيراً عميقاً ومباشراً في سلوك عدد من الخلفاء العباسيين وأظهر خلافهم وتناقضهم في تقريب العناصر الفارسية تارة والعناصر التركية تارة أخرى وعدم التردد في الاعتماد على تلك العناصر على نطاق واسع في الجيش والمناصب والإدارات الهامة والشؤون الحيوية في البلاد، وقد أدى هذا الأمر بالتالي إلى انقسام المجتمع وتوزع ولاءاته ومواقفه عموماً بين تيارين، أحدهما يميل لتأييد الفرس وتقريبهم، والآخر يميل لدعم وتأييد الأتراك، إضافة إلى ذلك فإن مجيء عدد من الخلفاء الضعفاء، وحاجتهم للدعم والإسناد والتوجيه من الحاشية والأعوان والأزلام من هذا الفريق أو ذاك، قد جعلهم ألعوبة بيد السلاطين الذين كبر نفوذهم بالتدريج وتوسعت صلاحياتهم نتيجة لذلك الوضع حتى طغى سلطانهم ونشاطهم وهيمنوا على مركز الخلافة الرسمي، وقد ساهم أولئك السلاطين بنقل جميع المظاهر الطائفية والمذهبية والفتن والخلافات والأفكار والآراء الشائعة في طوائفهم التي ينتمون إليها، وحاولوا فرضها وتعميمها على المجتمع العباسي بأكمله.. ومن بين تلك الظواهر الاجتماعية النزاعات المذهبية بين السنة والشيعة حتى أن المتتبع لتفاصيل الأحداث والوقائع اليومية التي تستعرضها كتب التراث والمصادر التاريخية القديمة خلال الفترة الزمنية الممتدة من بداية القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي وما بعدها، بإمكانه أن يعثر على أسماء العديد من الأشخاص والقادة والوجهاء ورؤساء القبائل والزعماء والفقهاء والقضاة وذوي المناصب الكبيرة في الدولة وغيرهم.. قد قتلوا أو اغتيلوا أو نكبوا أو نكّل بهم أو استبعدوا واختفوا أو سجنوا بسبب وقوعهم ضحايا لإحدى حوادث الفتن والعنف أو مؤامرات القتل أو السم أو المكائد السياسية

القاتلة أو الفتاوى الكاذبة المزورة أو دسائس التحريض التصفوي أو الوشايات الكيدية الكثيرة التي كانت تزدحم بها تلك الحقبة الزمنية المضطربة، والتي كان يقف وراءها في الغالب السلاطين أو بعض أتباعهم وأزلامهم وحاشيتهم لدوافع طائفية في أكثر الأحيان...

ولم يكن الصراع الدموي المرير الذي دام بضعة قرون، بين البويهيين والسلاجقة بكل ما أحاطه واكتنفه من فتن ومؤامرات ودسائس واغتيالات، إلا أحد الأوجه العلنية لذلك لصراع الطائفي المذهبي الذي حاولت القوى الخارجية دون جدوى أن تطبع بصماته الرديئة على وجه المجتمع العراقي.

وفي بادئ الأمر كان هذا الانقسام الذي عانى منه المجتمع العباسي في تلك الفترة ضيقاً ومحدوداً وغير شامل، إلا أنه توسع بالتدريج وتحول فيما بعد إلى ظاهرة سيئة من الانقسام المذهبي في المجتمع العراقي خصوصاً بعد أن شجعت هذا النهج الطائفي، كل من الإمبراطورية الفارسية والدولة العثمانية، اللتان حكمتا العراق بالتناوب أكثر من أربعة قرون متواصلة، حتى أن هذه الظاهرة كانت وراء كثير من الأحداث الدموية التي حصلت لاحقاً في تاريخ العراق خصوصاً في الفترة التي أعقبت سقوط بغداد واحتلالها من قبل المغول ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وخضوع العراق للحكم الأجنبي كما سنرى.

المجزرة الدموية الكبرى وسقوط بغداد ١٢٥٨م (٦٥٦هـ)

سيناريو الإبادة الجماعية

إن سقوط بغداد هو واحد من أحداث العنف الكبيرة في التاريخ العربي والإسلامي، ولعل جميع المتعلمين العرب والعراقيين يعرفون هذه الواقعة المأساوية من خلال ما تعلموه في الكتب المدرسية، ومن النادر أن نجد مواطناً عربياً متعلماً لا يردد ما سمعه من عبارات عن سقوط بغداد، وكيف جرت أنهر العراق باللون الأحمر والأزرق من كثرة ماألقي بها من كتب ومجلدات، وما سال فيها من دماء بشرية... إلى آخر هذه الجمل الخيالية والعبارات الافتراضية المبهمة الحدود غير أن حقيقة الأمر أن معظم المتعلمين وكثير من المثقفين ربما لم يطلعوا على تفاصيل ما حدث تماماً في هذه الواقعة التاريخية الفاصلة ، وسبب ذلك قد يعود إلى عزوف

وامتناع الكتب المدرسية وحتى الكتب التاريخية غير المتخصصة عن التوسع في وصف تفاصيل ما حدث، ليس بسبب ضيق المجال فحسب، بل ربما عدم الرغبة لدى الباحثين في تجسيم أبعاد المأساة الدموية والهزيمة الشنيعة والسقوط المريع الذي تعرض له المجتمع العراقي والإسلامي وحالة البوس والإذلال التي عاشها الناس في بغداد خلال ذلك الغزو الدموي وما يمكن أن يعكسه من أثر نفسي ربما على الأجيال الحاضرة.

وقد يكون لأسلوب الصياغة اللغوية القديمة التي اعتمدتها الكتب التراثية ذات المفردات القاموسية الصعبة في تقديم هذا الحدث، والصعوبة التي تواجه الأجيال المعاصرة في قراءة وفهم النصوص القديمة، وسير الأحداث وفق وصفها ورواياتها سبب إضافي آخر في عزوف الكثيرين عن متابعة تفاصيل هذا الحدث الخطير، وإذا كان لتلك الكتب ولأولئك الباحثين أعذارهم في تجنب الخوض في تفاصيل المأساة، فإن بحثنا الذي يستقصي أحداث العنف الدموي في العراق خليق أن يتوقف عند هذا الحدث التاريخي الهام ويتبصر في وقائعه وتفاصيله المؤلمة. وسنحاول هنا صياغة أخبار الوقائع في أحداث سقوط بغداد بلغةٍ وعبارات حديثة واضحة وبسيطة ومفهومة مع الاحتفاظ بالأمانة التاريخية التي تسوقها النصوص القديمة في الكتب التراثية، على أننا سوف لن نبالغ في التوسع بعرض تاريخ ذلك الحدث المأساوي منعاً للملل والتكرار رغم أن سقوط بغداد بيد المغول كان من الأحداث التي اعتبرت حداً فاصلاً في تاريخ العراق والمنطقة بأكملها.

وعلى العموم لا بد لنا في الإشارة إلى أن العنف الذي تعرضت له بغداد على يد هولاكو إنما هو عنفٍ دموي قادم من الخارج، وقد سلط على العراق من جيش أجنبي محتل وليس عنفاً نابعاً من داخل المجتمع العراقي، أو صادراً عن أهل البلاد ذاتهم، غير أن ذلك لا يبدل شيئاً كثيراً في الأمر فهو عنف مُنَفَّذ على أرض العراق وضحاياه هم أهل العراق والمدن العراقية.

لقد قام الجيش المغولي كما هو معروف باجتياح بلدان شرق آسيا بأكملها، وقام بتدمير المدن والأقطار والبلدان الأخرى التي صادفته في طريقه أو التي وقفت في وجه زحفه العسكري المتواصل باتجاه الغرب، وكان المغول يتصفون بالشراسة

والهمجية ويمارسون العنف الدموي بأقسى الأساليب، ((ولقد انطمست أمام هجماتهم معالم الثقافة في عواصم الإسلام الشرقية وانقلبت الديار التي احتوت على القصور الفخمة وخزائن الكتب والمتاحف قاعاً صفصفاً وأفناءَ خاويةٍ لا حياة فيها وجرت الدماء على طول الخط الذي سلكته جحافلهم تاركة أثراً لا يمحى))[1]

أما ما يتعلق بوضع العراق فقد أرسل هولاكو القائد المغولي رسالة إلى الخليفة المستعصم ((يطلب منه التسليم وهدم سور بغداد الخارجي فرد الخليفة مراوغاً))[2] .وفي كانون الثاني من سنة (١٢٥٨م/٦٥٦ هـ.) هاجم هولاكو بغداد وقذفها بالمنجنيق فأحدث ثغرة في السور ففوجئ الناس في بغداد بظهور رايات المغول في سورها الداخلي.

أحاط التتار بعد دخولهم المدينة بدار الخلافة وصاروا يرشقونها بالنبال، وكان عدد جنود هولاكو نحو مئتي ألف مقاتل وكان هولاكو شديد الحنق على الخليفة المعتصم لأنه لم يحسن التعامل معه بعد أن أرسل له الرسائل عندما كان هولاكو خارج العراق، ولم تكن مراوغة الخليفة في تعامله مع هولاكو ناتجة عن خطة مرسومة لديه أو تبرير محكمٍ ومدروسٍ، بل على العكس من ذلك فهو لم يكن قد احتاط للأمر لا عسكرياً ولا سلمياً لدرء الخطر المحيط بالبلاد والأمة، وحتى الهدايا التي أرسلها إلى هولاكو كانت شحيحة وقليلة، إذ لم يوافق على إرسال هدايا ذات قيمة لاسترضاء المغول بسبب ما عرف عنه من بخل وحب للمال، فاحتقر هولاكو تلك الهدايا وأرسل إلى الخليفة يطلب منه أن يرسل إليه الدويدار الصغير مجاهد الدين وسليمان شاه فلم يبعثهما الخليفة إليه. ولا بد لنا أن نلتقط تلك الإشارات الواردة في الروايات حول الهدايا والكنوز الثمينة التي كان يطلبها ويريدها هولاكو من المدن التي حاصرها خلال زحفه حيث استطاعت بعض المدن أن تفدي نفسها بالذهب والكنوز والهدايا النادرة. ولما كانت بغداد هي عاصمة الإمبراطورية فقد ذاع صيتها وغناها وثراؤها في كل الآفاق، لذا فإن هولاكو ربما وجد في تلك الهدايا الرخيصة التي أرسلها الخليفة العباسي إليه نوعاً

---

١ ـ د. فيليب حتى، تاريخ العزب، ص٥٥٩.

٢ ـ المصدر السابق، ص٥٦٣.

من الإهانة له، وحتى إن لم يكن كذلك فإن الطمع بأرض العراق هو السبب الذي يواجهنا ويبرز أمام أعيننا ليس في حصار هولاكو لبغداد فحسب بل في أكثر أحداث العنف الدموي التي حصلت في العراق منذ فجر السلالات وبالأخص أحداث العنف الموجه من الخارج.. فالأطماع بكنوز العراق وثرواته وخيراته تكاد تكون هي القاسم المشترك وراء أسباب ودوافع الغزوات والحروب والصراع الدموي للسيطرة على هذه البلاد على مدى قرون عديدة، ولعل بإمكاننا أن نتخيل أن الخليفة المستعصم - رغم قلة تدبيره - ربما لم يكن يستطيع أن يدرأ تلك الكارثة حتى لو أرسل كل كنوز العراق لأن خيال الغزاة عن العراق ترسم على الدوام صوراً أسطورية مبالغاً فيها عن الغنى والثروات والكنوز والأموال الكثيرة والذهب والأحجار الكريمة والطرف والهدايا النادرة المكدسة في بغداد وبلاد الرافدين. وهذه القناعة ربما هي التي كانت تدفع الغزاة باستمرار للإصرار على غزو العراق والسيطرة على بغداد واحتلالها وهذا ما أكدته الأحداث اللاحقة في الاحتلالات العديدة التي شهدتها بغداد بعد الاحتلال المغولي الأول، وهو ما سنتحدث عنه في الصفحات القادمة...

كان جيش هولاكو قد أحاط ببغداد من ناحيتيها الشرقية والغربية، أما الجيش العباسي المدافع عن بغداد فيبدو أنه لم يكن يتجاوز العشرة آلاف مقاتل بعد أن تم منذ سنين تسريح أعداد كبيرة منه نتيجة لسياسة التقتير التي انتهجها الخليفة المعروف ببخله، ويذكر ابن كثير في (البداية والنهاية) أن أعداداً كثيرة من عناصر الجيش الإسلامي المسرحين صاروا يستعطون الناس في الأسواق وأبواب المساجد، ويذكر الدكتور فيليب حتي في كتابه (تاريخ العرب) أن الوزير ابن العلقمي ومعه جاثليق النساطرة وكان لهولاكو زوجة نصرانية - قد خرجا للمفاوضة بالصلح إلا أن هولاكو رفض مقابلتهما[1] بعد ذلك خرج الخليفة المستعصم مع جمع من القضاة والفقهاء والصوفية والأعيان، فلما اقتربوا من موضع هولاكو أوقف الركب وسمح لسبعة عشر شخصاً بينهم الخليفة للحضور أمام هولاكو ، أما باقي الأشخاص فقد قتلوا جميعاً عن آخرهم ونهبت حاجياتهم وفي المقابلة سأل هولاكو الخليفة عن أشياء كثيرة.. و لم يذكر ابن كثير ما هي

---

١ ـ المصدر السابق، ص٥٦٤.

تلك الأشياء التي سأل عنها وطلبها هولاكو غير أنه كما يبدو قد طلب من الخليفة الأموال والكنوز التي لديه لأن الخليفة عاد إلى بغداد بعد تلك المقابلة وهو تحت الرقابة والخفارة والسيطرة المغولية فأحضر من دار الخلافة كثيراً من الذهب والحلي والمصاغ والجواهر والأشياء النفيسة[1] وحين عاد المستعصم وهو يحمل تلك الكنوز إلى هولاكو أمر بقتله فقتل. وتشير بعض الروايات أن الخليفة قد قتل ركلاً ورفساً حيث كانوا يتجنبون أن تنزل من دمه قطرة إلى الأرض حتى لا يؤخذ بثأره.. لاعتقاد خرافي كان سائداً لدى المغول أن دمه سيكون وبالاً عليهم إذا لامس الأرض[2] بعد ذلك هجموا على بغداد فقتلوا جميع من قدروا على قتله من الرجال والنساء والمشايخ والكهول والشباب ودخل كثير من الناس في الآبار والمزابل والخرائب ومجاري المياه واختبأ كثير منهم تحت أكوام القش والتبن وزرائب الحيوانات وكانت مجاميع من الناس يدخلون إلى الخانات ويغلقون الأبواب عليهم فيفتحها المغول إما بالكسر أو بالنار ثم يدخلون عليهم فيهربون أمامهم إلى الأسطح فيتبعونهم ويقتلونهم هناك حتى سالت المزاريب بالدماء في الأزقة. ولم ينج من أهل بغداد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى وطائفة من التجار الذين أخذوا لأنفسهم الأمان بعد أن بذلوا أموالاً طائلة حتى سلموا وسلمت أموالهم[3] ويذكر ابن كثير أن الناس قد اختلفوا في عدد الذين قتلوا ببغداد، ((فقيل ثمانمائة ألف وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف))[4] وواضح أن هذا النص يرجح أن يكون عدد القتلى بين (٨٠٠٠٠٠) ثمانمئة ألف ومليون وثمانمئة ألف... وبغض النظر عن دقة الأرقام التي توردها نصوص المصادر القديمة ومبالغاتها إلا أن ماورد في النص السابق يشير بلا شك إلى أن عدد القتلى كان كبيراً جداً واستمر القتل في بغداد مدة أربعين يوماً[5]. وذكر الدكتور فيليب حتي في وصف تلك الأحداث، فيقول: ((ثم أطلق الفاتحون ايديهم ببغداد وأهلها قتلاً ونهباً وتمثيلاً حتى قضوا على أكثر سكانها ولم يستثنوا أسرة الخليفة، وثقل الهواء

---

١ - ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٣٤.

٢ - المصدر السابق، ص١٣ وص٢٣٤.

٣ - المصدر السابق.

٤ - المصدر السابق، ص٢٣٥.

٥ - المصدر السابق، ص٢٣٦.

بما حمل من كريه رائحة الجيف المنتفخة وأشلاء القتلى المطروحة في شوارع المدينة))[1].

وبمقتل الخليفة المستعصم العباسي بعد احتلال بغداد عام ١٢٥٨م تنتهي سلسلة الحكام الذين تولوا الحكم في بغداد من سلالة الرسول محمد (ص) كما يدعون.. غير أن من المفارقات الغريبة أن يتكرر مثل هذا الحدث بعد (٧٠٠) سبعمئة عام من ذلك التاريخ أي في العام ١٩٥٨ حيث تم احتلال بغداد من قبل إحدى وحدات الجيش العراقي بقيادة الضابط عبد السلام عارف مما أدى إلى مقتل الملك فيصل الثاني وجميع أفراد العائلة الملكية في العراق وبذلك انتهت مرة أخرى في بغداد سلسلة الحكام والملوك الذين ينتمون (كما يدعون) إلى سلالة الرسول محمد (ص). وكان ممن قتل من المشهورين في هجوم المغول الشيخ محي الدين ابن الجوزي أستاذ دار الخلافة وأولاده الثلاثة وعدد كبير من أكابر الدولة والخطباء والأئمة وحملة القرآن... وكان الرجل من بني العباس يستدعى فيخرج بأولاده ونسائه فيذهبون به إلى مقبرة الخلاّل فيذبح كما تذبح الشاة ويأسرون من يختارون من بناته وجواريه... ولما انقضت الأربعون يوما بقيت بغداد خاوية على عروشها ليس فيها إلا القليل من الناس، وجثث القتلى مكدسة في الطرقات وقد انتشرت الروائح الكريهة بعد أن تعفنت الجثث في طرقات المدينة... وبعد أن نودي في بغداد بالأمان خرج من كان مختبئاً تحت الأرض وفي الأقنية والمقابر أو تحت أكوام القش والتبن وهم مذهولون مما جرى يكاد لا يعرفون بعضهم البعض حتى كأنهم الموتى.. وانتشرت الأمراض في المدينة.. فاضطر هولاكو لترك بغداد والابتعاد عنها بسبب كثرة الجثث والروائح الكريهة والأمراض وكان يفكر بالإقامة فيها واتخاذها مقراً له.

ويذكر المؤرخ ابن كثير في كتاب (البداية والنهاية) بأن جنود هولاكو عندما بدأوا بالدخول إلى بغداد وأحاطوا بدار الخلافة صاروا يرشقونها بالنبال من كل جانب فأصابوا راقصة كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه فيوردُ ما نصّه ((وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب حتى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه، وكانت من جملة محظياته

---

١ ـ د. فيليب حتي، تاريخ العرب ، مصدر سابق، ص ٥٦٤.

وكانت مولدة اسمها عرفه جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة فانزعج الخليفة من ذلك وفزع فزعاً شديداً))[1].

ويبدو من خلال هذه الرواية التي يسوقها ابن كثير أن الخليفة لم يعلم بالغزو المغولي ولم يفزع منه إلا بعد أن دخل سهم إلى القاعة وأصاب راقصته التي كانت تسليه وتضحكه فعند ذلك انزعج وفزع من الهجوم المغولي الذي كان قد اكتسح ودمر أكثر بلدان آسيا وأحاط خطرهُ المحدق ببغداد والعراق وديار الإسلام والمنطقة بأكملها منذ وقت طويل.. إن الانهيار كان قد دب في جسم الدولة العباسية ونال من قوتها وتماسكها وقد كُتب الكثير حول أسباب ذلك الانهيار ومقدماته ووقائعه وابعاده لذلك فإن سقوط بغداد وتعرضها لتلك الكارثة الدموية كان نتيجة طبيعية لضعف الحكومة المركزية وضعف القيادة السياسية والعسكرية في الدولة العباسية, فالجيش المغولي لم يكن ذلك القدر الذي لايرد ولا يقهر عندما تتوفر الإرادة والعزيمة والتنظيم والاستعداد والقيادة الكفوءة المتماسكة وأوضح دليل على ذلك أن سلطاناً مغموراً من المماليك في سوريا واسمه قطز وقد سمى نفسه الملك المظفر استطاع بعد سنتين من سقوط بغداد أن يهزم المغول ويكسر شوكتهم وينتصر عليهم انتصاراً حاسماً في معركة عين جالوت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م ويقوم بمطاردتهم وإخراجهم من بلاد الشام.

لقد قدّر لمدينة بغداد درّة مدن العالم الإسلامي في ذلك الزمان أن تكون تحت إمرة هذا الخليفة الضائع اللاهي فلم يحسن الدفاع عنها أو حمايتها لا بخطة قتالية ولا بخطة سلمية عقلانية في الصلح والمسالمة فسقطت بغداد حتى بدون وقفة عز تغيظ العدو بل أسلمت رقبتها للذبح رخيصة ذليلة مهانة..

وقد رثى الشعراء مدينة بغداد بقصائد حزينة ومن ذلك قول الشاعر ابن أبي اليسر الذي قال فيها:

لسائل الدمع عن بغداد أخبار   فما وقوفك والأحباب قد ساروا

يا زائرين إلى الزوراء لا تفدوا   فما بذاك الحمى والدار ديّارُ

---

١ ـ ابن كثير، البداية والنهاية ، ص ٢٣٣.

أما الأعمال الدموية للمغول في مناطق العراق الأخرى خارج بغداد فإن أبرز الإشارات حولها هو ما يورده ابن الأثير في كتابه (الكامل في التاريخ) عن قيامهم باحتلال اربيل في الشمال وقتلهم أعداداً من التركمان والأكراد وكل من ظفروا به في طريقهم من أهل تلك المناطق كما نهبوا القرى وقاموا بالأعمال الشنيعة حيث يقول: ((وصلت طائفة من التتار من أذربيجان إلى أعمال اربل فقتلوا من كان على طريقهم من التركمان الإيوانية والأكراد الجوزقان وغيرهم إلى أن دخلوا بلد اربل فنهبوا القرى وقتلوا من ظفروا به من أهل تلك الأعمال وعملوا الأعمال الشنيعة التي لم يسمع بمثلها من غيرهم))[1].

كذلك رفضت مدينة واسط الخضوع وأبدت المقاومة مما دفع المغول لتشديد حصارهم لها فدفعت خسائر جسيمة من أبنائها[2] ومن المفارقات المؤلمة في تاريخ سقوط بغداد أن أحد الأشخاص من العائلة العباسية ـ وهو أخو الخليفة المستنصر واسمه أحمد أبو القاسم بن الخليفة الظاهر ـ كان محبوساً في السجن ببغداد حينما دخل المغول هذه المدينة فأطلق سراحه خلال تلك الفوضى فهرب إلى الأعراب خارج بغداد وبقي مختبئاً ثم هرب بعد ذلك والتجأ إلى الملك الظاهر بيبرس في مصر فأكرمه إكراماً فائقاً بعد أن تأكد من نسبه ونظّم حفلاً كبيراً وموكباً ضخماً لاستقباله حضره الملك وجميع رجال الدولة وبايعه بالخلافة ولقبه باسم أخيه الخليفة المستنصر بالله وطبع اسمه على العملة، وعندما عزم على العودة إلى بغداد لإعادة حكم العباسيين فيها جهّزه برجال وأموال كثيرة وسار معه إلى دمشق لتوديعه.. وعندما دخل هذا الرجل إلى العراق سيطر على سنجار ثم احتل حديثه ثم هيت فجاءه عسكر من التتار واصطدموا معه بقتال شديد فقتل الخليفة المستنصر وقيل هرب و لم يعرف عن أخباره شيء بعد ذلك...

وهكذا بقي هذا الرجل بعد هروبه من سجن بغداد حيّاً ومعافى بل ومكرّماً حتى عاد إلى العراق فتناولته أنياب العنف الدموي لينتهي بالقتل...

---

١ ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، المجلد ٧ ، ص٦٦٢

٢ ـ د. صالح أحمد العلي ، العراق في التاريخ، دار الحرية للطباعة، ص٥٤٨.

الفصل الخامس

أحداث العنف الدموي في العراق

من الاحتلال المغولي - إلى عصر المماليك

١٢٥٨ ـ ١٧٤٩م

- ـ المذابح والكوارث تتواصل
- ـ مذابح تيمورلنك
- ـ مذابح القبائل التركمانية ببغداد ـ دولة الخروف الأسود ـ دولة الخروف الأبيض
- ـ مذبحة الشاه إسماعيل في بغداد.
- ـ الصراع الدموي بين الفرس والعثمانيين في العراق.
- ـ الأعصار الدموي: أحداث القرن السابع عشر والثامن عشر.
- ـ بكر صوباشي نموذج الشخصية الدموية في العراق.
- ـ مقارنة وصفية بين شخصية بكر صوباشي وشخصية ناظم كَزار.
- ـ مجازر العنف الطائفي المتناوب تتواصل في العراق.
- ـ المهرجان الأكبر للقتل والعنف المتواصل.

المذابح والكوارث تتواصل:

تسود بين المتعلمين والمثقفين العرب، والعراقيين منهم بصورة خاصة فكرة خاطئة تكاد تشبه الأخطاء الشائعة في اللغة هي ما يظنه الكثيرون أن مدينة بغداد قد سقطت مرة واحدة على يد المغول بقيادة هولاكو فقط، غير أن أكثر أولئك ربما لم يتابعوا بدقة وتواصل ماحصل لبغداد وللعراق عموماً بعد ذلك الغزو الهمجي، وعدم متابعتهم لوقائع السقوطات المتكررة التي تعرضت لها هذه المدينة إذ أن تلك الفترة تكاد تكون منسيّة أو مهملة ولا تحظى بالاهتمام والدراسة والمتابعة الكافية رغم خطورتها وانعكاساتها السيئة البعيدة الأثر كما نعتقد - على البنية النفسية والسلوكية للفرد في المجتمع العراقي حتى الوقت الحاضر - نظراً لامتدادها الزمني الذي يصل حتى تخوم القرن العشرين، ونظراً لما احتوت عليه من أحداث مثيرة ومرعبة، قلما حصلت في تاريخ أمة من الأمم من حيث بشاعتها وقسوتها وغرابتها ولعل اكثرنا سيصاب بالدهشة والاستغراب إذا تيسّر له الاطلاع على بعض تفاصيل ماجرى في بغداد وفي العراق عموماً من مجازر ومآسي وكوارث ونكبات خلال تلك الحقبة..

وسنحاول أن نمر سريعاً على مجريات تلك الأحداث بما يسمح به المجال رغم أن تلك الفترة تعج على نحو كثيف وغير طبيعي بحوادث متزاحمة من العنف والدم والفتن والقتل والاغتيالات السياسية والمؤامرات السيئة الصيت إضافة إلى الكوارث الطبيعية نتيجة الخراب الإداري والعمراني الذي شمل المؤسسات ومشاريع الري والسدود في عموم البلاد.

كما توالى على الحكم والمناصب عدد كبير من الحكام والولاة والموظفين يصعب تتبع أسمائهم وأعمالهم إلا أنهم جميعاً كانوا غارقين في بحر متلاطم من الدسائس والفتن والمؤامرات الدموية فمات أكثرهم موتاً شنيعاً إما بالقتل أو بالسم أو الإعدام، وعمت الفوضى والاضطرابات والحروب على نحو متواصل وبلا هوادة، وساد الجهل والتخلف والخرافات وانتشرت الأمراض والأوبئة الفتاكة وانهارت السدود وتكررت الفيضانات المدمرة مرات عديدة فانهارت البلاد انهياراً لا مثيل له وتقزّم دور العراق السياسي والحضاري ليتحول إلى ولاية تابعة يتناوب على احتلاله وحكمه والتحكم به قادة وحكام وجيوش غازية من اطراف وجهات مختلفة.

وفي سبيل الدخول إلى بغداد وامتلاك مقاليد الأمور فيها فإن هذه المدينة قد حوصرت وطوقت واحتلت من قبل الجيوش الأجنبية أكثر من اثنتي عشر مرة بعد سقوطها الأول على يد هولاكو. وفي كل مرة كانت تدفع ثمناً باهظاً من دماء أبنائها وأرواح أهلها ومن عمرانها وتاريخها ومجدها الحضاري، و لم يقتصر الأمر على بغداد فقد تكررت الصور المأساوية لمدن العراق المنكوبة مثل البصرة والموصل وكركوك والنجف وكربلاء وأربيل وغيرها..

إن جميع المصادر التي تؤرخ تلك الفترة تكاد تجمع على تكرار الوصف المأساوي المشابه لصورة المدينة المنكوبة التي يتكرر فيها مشهد الدمار والخراب والموت أكثر من مرة، حتى أن المرء ليعجز - حزناً وجزعاً - عن متابعة وصف تلك الحقب المظلمة من تاريخ العراق، ويضيع عن الإحاطة بالأحداث والأسماء والتفاصيل المحزنة المتشابهة.

إن القرون الستة التي أعقبت احتلال هولاكو لبغداد مكتظة بالتطورات والأحداث والوقائع ومزدحمة بشواهد العنف الاستثنائي إلى الحد الذي يجعل الاختيار والانتقاء منها أمراً في غاية الصعوبة إذا أريد الحفاظ على التسلسل التاريخي والترابط بين الأحداث نظراً لكثرتها وتنوعها وتكرارها.. وفي كل الأحوال فإن العديد من الشواهد والأمثلة تؤكد وتشير إلى تلازم العنف والقسوة والشراسة وترافقها مع جميع أحداث تلك الفترة التي افتقد فيها العراق الأمان والاستقرار والهدوء.

وقبل أن نبدأ في سرد الأحداث والوقائع من جانبها التاريخي لابد لنا كي نستبق الملل والتكرار الذي سيصادفنا أن نعرض وصفاً تقليدياً مكرراً للمدينة العراقية المستباحة التي يصفها التاريخ خلال تلك القرون

فالصورة المكررة في العراق هي صورة المدينة التي تتكدس في طرقاتها جثث القتلى وأشلاء الموتى والتي يأكل الناس فيها بسبب الجوع جثث الكلاب وجثث الأطفال ويبيع الناس فيها أطفالهم ليأكلوا بثمنها.. المدينة التي تنتشر فيها الأوبئة والأمراض ويفتك الطاعون بالآلاف من سكانها فتتكدس جثثهم في الشوارع والأحياء ولا يوجد من يدفنها.. المدينة التي تعمها الفوضى ويجوب أحياءها المظلمة قطاع الطرق واللصوص والشطار.. والتي تنهار سدودها ويغرق أهلها وتطفو جثث الموتى المتعفنة والمتفسخة من أبنائها فوق أوحال الفيضان.. بينما تنتظر وهي على تلك الحال دخول الجيش الأجنبي الذي يحاصرها من كل جانب ليحتلها ويحقق النصر على الفئة الحاكمة بداخلها لتبدأ موجة جديدة من المجازر والمذابح والتنكيل والدمار..

تلك هي صورة المدن العراقية المعروفة في الفترة الممتدة منذ الاحتلال المغولي وحتى بداية القرن العشرين.

ولعل بامكاننا إزاء تلك الحالة أن نتخيل أية آثار سلبية نفسية زرعت بالتدريج في مخيلة وذكريات الفرد العراقي وأي تخريب سايكولوجي وسلوكي يمكن أن تكون قد تركته تلك الأحداث والمآسي في أعماق الذات الانسانية للمواطن في العراق وفي نمط تفكيره وسلوكه المدني وما يمكن أن يكون قد خلفه هذا التراكم الهائل من الأحداث المتسمة بالدموية والقسوة البالغة.

مذبحة الموصل:

لقد سقطت بغداد بيد هولاكو كما مر بنا في عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وبعد عامين من هذا التاريخ اندحر المغول في سوريا في معركة عين جالوت مما شجع بعض المدن على تحدي المغول فتمردت مدينة الموصل عام ٦٥٩هـ/١٢٦١م وقاومت القوات المغولية بقيادة الملك الصالح أي بعد سقوط بغداد بثلاث سنوات، إلا أن هذا الملك اضطر بعد نفاذ مؤونة المدينة تحت حصار المغول إلى طلب الصلح فوافق القائد المغولي - سنداغو - على ذلك ولما خرج الملك الصالح

وولده وبعض حاشيته للمفاوضة أقدم المغول على قتل ولده وأرسلوا الملك وأخاه وبعض أصحابه إلى هولاكو الذي أمر بسلخ وجه الملك الصالح وهو حي ثم قتل أخاه وبقية أتباعه.. ودخل الجيش المغولي مدينة الموصل عام ٦٦٠هـ فقتل أكثر أهلها وأخذ الناجين من الموت أسرى حتى خوت المدينة من الناس[1]

وهكذا سحق العنف بدوامته المرعبة هذه المدينة العراقية المسالمة البعيدة نسبياً عن خطوط الصدامات الساخنة بين الدول والامبراطوريات المتصارعة في ذلك الوقت.

ثم خضع العراق للحكم الجلائري المرتبط بالمغول الذي انتشرت فيه بعد وقت قصير الفتن والاضطرابات بسبب النزاع الذي نشب بين السلطان واخويه وهما الشيخ علي الذي كان حاكماً على بغداد والشيخ أحمد حاكم البصرة.

مذابح تيمورلنك:

ثم سقطت بغداد للمرة الثانية على يد تيمورلنك ٧٩٥هـ/١٣٩٣م ونهبت المدينة وعذّب أهل بغداد لاستحصال المال منهم ثم استعادها السلطان أحمد. فعاد تيمورلنك وأطبق حصاره عليها ٨٠٣هـ/١٤٠١م، وبعد حصار دام أربعين يوماً سقطت بغداد للمرة الثالثة فدخلتها قوات تيمورلنك، وفي هذه المرة جرت مذبحة عامة للسكان واستبيحت المدينة ثلاثة أيام أقيمت خلالها عدة أبراج من رؤوس القتلى وتم تهديم المنشأت العمرانية من جوامع ومدارس ومساكن واضطر تيمورلنك تماماً كما حصل لهولاكو أن يغادر بغداد ويبتعد عنها قليلاً بسبب الجيف والروائح الكريهة وفساد الهواء من كثرة الجثث المتفسخة والمتعفنة.

مذابح القبائل التركمانية في بغداد:

دولة الخروف الأسود ـ دولة الخروف الأبيض:

في عام ٨١٤هـ/١٤١١م سقطت بغداد للمرة الرابعة بعد أن دخلها جيش قره يوسف وكان ذلك الجيش بقيادة ابنه محمد شاه الذي ولاّه أبوه على بغداد

---

١ ـ د. صالح أحمد العلي ومجموعة من الباحثين، العراق في التاريخ، مطبعة دار الحرية، بغداد، ص٥٤٨.

بعد احتلالها وتم بذلك تأسيس دولة الخروف الأسود التركمانية وتسمى (قره قوينلو). وتسمية هذه الدولة باسم (الخروف الأسود) جاءت بسبب اشتهار قبائل هذه الدولة باقتناء (الشياه السود) وهي قبائل تركمانية نزحت من تركستان الغربية إلى جهات اذربيجان. وقيل لأن راية هذه الدولة كانت تحمل شارة خروف أسود[1]

وفي عام ٨٣٨هـ/١٤٣٤م سقطت بغداد للمرة الخامسة على يد القائد اسبان وهو ابن قرة يوسف ايضاً لانتزاع بغداد من أخيه محمد شاه وبعد معارك طاحنة استطاع اسبان احتلال المدينة وأخذها من يد أخيه، وحكمها عشر سنوات حتى توفي وكان قد عين ابنه فولاذ حاكماً على بغداد من بعده.

وفي عام ٨٤٩هـ/١٤٤٥م زحف السلطان جهان شاه حاكم دولة القره قوينلو (دولة الخروف الأسود) وحاصر بغداد مدة ستة أشهر فسقطت المدينة للمرة السادسة وحين دخلها قام بتخريبها رغم خرابها كما وضع حاكمها فولاذ بالسجن وبقي مسجوناً حتى مات، ثم عين ابنه المدعو بيربوداق والياً على بغداد وعاد إلى تبريز.

ولم تمض مدة طويلة حتى انفصل بيربوداق عن حكم أبيه السلطان جهان شاه فعاد السلطان جهان بجيشه وحاصر بغداد مدة تزيد على السنة اضطر الناس فيها إلى أكل الجيف والبحث عن الطعام في المزابل نتيجة الحصار وتعرضت المدينة إلى خراب مدمر وفي النهاية سقطت بغداد - للمرة السابعة - بيد السلطان جهان فدخلها عام ٨٧٠هـ/١٤٦٦م حيث أمر باعدام ابنه بيربوداق، فأعدم وعلى إثر ذلك ولّى عليها بير محمد الطواشي...

لقد أعدم الأب ابنه في هذه البلاد التي تلاحقها لعنة العنف الدموي في كل الأزمان، فأية ذكريات يمكن أن تختزنها ذاكرة الأجيال العراقية المتعاقبة من هذه الأعمال والأحداث الشاذة والغريبة والغادرة؟ وما هي المعاني التربوية والسلوكية التي يمكن أن يورثها الفرد العراقي من التاريخ لأبنائه في الأجيال اللاحقة؟..

---

١ - المصدر السابق، ص٥٥٨.

إن القسوة والشراسة والعنف تحاصر الإنسان العراقي وتتسرب عبر مسامات جلده لقرون من الزمان ولا مهرب له منها لأنها تحيط به وتكتنف حياته من كل جانب وذلك ديدنه مع العنف الدموي منذ أيام السومريين.

وبعد أن ضعف نفوذ دولة الخروف الأسود (قره قوينلو) تقدم جيش دولة الخروف الأبيض (الآق قوينلو) بقيادة مقصود بن حسن الطويل ودخل بغداد فسقطت ـ للمرة الثامنة ـ وقام بقتل الوالي وهكذا حتى القبائل المتخلفة من مربي الأغنام والماعز صارت لهم إمارات ودول وجيوش احتلت العراق ومارست العنف الدموي فيه..

ولعل اطلاعنا على بعض ما كتبه المؤرخ ستيفن لونكريك في وصفه للوضع السياسي في العراق في هذه الفترة يعطينا فكرة واضحة عما كان يجري في هذه البلاد في تلك الحقب المضطربة والتائهة من التاريخ العراقي حيث يقول: ((ولا نرى في أنفسنا حاجة للتنويه بعد كل هذا، بأن العراق قد مضت عليه مدة طويلة وهو فريسة للإضطرابات والفقر وعرضة للانقلابات وسفك الدماء وحكم الأجانب، واستمرت هذه الحالة فيه مدة أجيال ثمانية يغوص في كل عام منها في لجج القلاقل والاضطرابات والاستيلاء الجديد وكان كل شهر من تلك المدة حافلاً بسقوط السلالات المختلفة والأسر المالكة العديدة. وعلى هذا المنوال كان حكام بغداد يتجددون الواحد تلو الآخر))[1]

مذبحة الشاه اسماعيل الصفوي في بغداد:

لقد انهارت دولة الخروف الأبيض على يد اسماعيل الصفوي ـ مؤسس الدولة الصفوية ـ الذي سمى نفسه الشاه اسماعيل، وبعد أن سقطت بغداد ـ للمرة الثامنة ـ في عام ٩١٤هـ/١٥٠٨م على يد الشاه اسماعيل جرت مذبحة راح ضحيتها عدد كبير من السكان وهدمت خلال ذلك قبور أئمة السنّة وذبح جماعة من علمائهم[2] ، وعين الشاه شخصاً اسمه خادم بيك والياً على بغداد وأطلق عليه لقب (خليفة الخلفاء)، ومن خلال التناقض في اسم هذا الوالي ـ

---

١ ـ ستيفن لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط، مطبعة أركان، ص٣١.

٢ ـ المصدر السابق، ص٣٢.

خادم بيك ـ يمكننا أن نلمح ذلك التناقض الذي تسرب إلى كل المعاني والمفاهيم في العراق، إضافة إلى كل ذلك فقد أصبح هذا الوالي خليفة لكل الخلفاء السابقين في الدولة الإسلامية...! (انظر شكل رقم: ١٣)

الصراع الدموي بين الفرس والعثمانيين في العراق:

ومنذ ذلك الوقت وما بعده راح العراق يتأرجح بين النفوذ الفارسي والنفوذ العثماني، وتحول إلى ساحة للحروب الطاحنة بين جيشي الدولتين المتصارعتين لبضع مئات من السنين نال فيها العراق من العنف والمجازر الدموية والخراب وأعمال التنكيل العرقي والمذهبي ما لم يحدث ربما في أي بلد في العالم كما سنرى.

ولعل من المفيد في هذا الخصوص أن ننقل نصاً من كتاب الدكتور علي الوردي (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث) يؤكد هذا المعنى الذي أوردناه آنفاً حيث يقول: «كانت الدولة العثمانيه قد ظهرت في تركيا منذ القرن السابع الهجري غير أنها اتجهت في توسعها أولاً نحو الغرب باتجاه أوربا وهي لم تتجه نحو الشرق أي باتجاه العراق وغيره من البلاد العربية إلا بعد ظهور الدولة الصفوية في إيران. ومنذ ذلك الحين صار العراق موضع نزاع عنيف بين الدولتين الإيرانية والعثمانية واستمر كذلك مايزيد على الثلاثة قرون، ومن هنا نشأ المثل المشهور في العراق ((بين العجم والروم بلوى ابتلينا)) إن هذه (البلوى) التي ابتلى بها العراق إذ ذاك نشأت من كون الدولة الإيرانية اتخذت المذهب الشيعي شعاراً لها بينما اتخذت الدولة العثمانية المذهب السني شعاراً لها، فأدى ذلك إلى استفحال الصراع الطائفي في العراق إلى درجة لا تطاق»[1].

وقد جرت معركة كبرى قرب مدينة تبريز بين الجيش العثماني بقيادة السلطان سليم الأول والجيش الإيراني بقيادة الشاه اسماعيل وكان النصر في تلك المعركة للعثمانيين حيث اندحر فيها الشاه اسماعيل، وعلى إثر ذلك امتدت سلطة العثمانيين إلى الأجزاء الشمالية من العراق ومنها الجزيرة والموصل وسنجار وتلعفر والعمادية وأربيل وكركوك وهيت وحديثه وعانة، أما وسط العراق وجنوبه فقد

---

١ ـ د. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج١، دار كوفان للنشر، لندن، ص١٢

بقي تحت نفوذ الفرس الصفويين يحكمه الوالي الصفوي إبراهيم خان الذي عينه الشاه الصفوي (طهماسب) فور تسلمه العرش في إيران بعد وفاة والده الشاه اسماعيل الصفوي.

وعندما كان الوالي الصفوي إبراهيم خان متوجهاً من بغداد في طريقه لمقابلة شاه إيران[1] هجم عليه أحد الزعماء الأكراد واسمه ذو الفقار بن علي بك وذبحه ليلاً قرب جبال الحدود ثم سار ذو الفقار وأتباعه مسرعاً نحو بغداد فدخلها وسيطر على المدينة وأعلن استقلاله عن الدولة الصفوية وطلب الاستعانة بالعثمانيين وأظهر الولاء لهم، وبذلك أصبح ذو الفقار سيد العراق الأوسط بلا منازع.

وعلى إثر ذلك غضب الشاه طهماسب على مقتل إبراهيم خان وجهّز جيشاً تقدم به نحو بغداد لإعادة السيطرة الصفوية عليها، وحاصرها عام ١٥٣٠م فقاوم ذو الفقار داخل بغداد مقاومة ضارية إلا أن الشاه استطاع أن يغري أخوي ذي الفقار بالوعود والمناصب فقاما باغتياله غدراً فانهارت بغداد أمام الجيش الصفوي وسقطت - للمرة التاسعة - وفي هذا السقوط يمكننا بسهولة التعرف على بصمات الغدر والخيانة التي نفذها أخوا ذي الفقار طمعاً في السلطة والحكم فقتلا أخاهما من أجل ذلك.

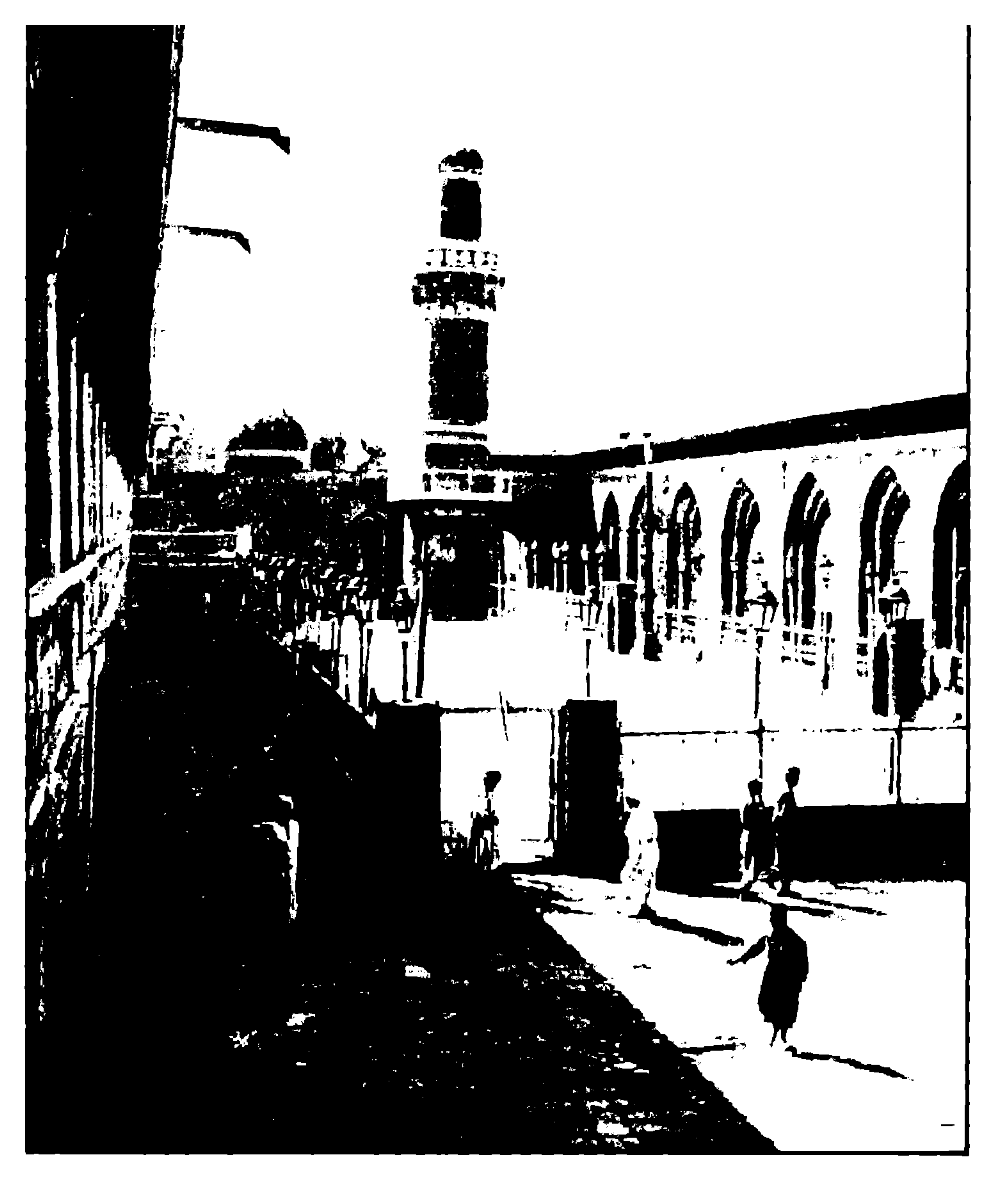
فدخل الشاه طهماسب مدينة بغداد وعين الأخ القاتل بمنصب الإمارة ولقبه بلقب (سلطان علي ذو الفقاركش) أي (قاتل ذي الفقار)[2] ثم عاد إلى قزوين وبذلك نال هذا الأخ الغدّار جائزة غدره بحصوله على لقب (قاتل)، وإذا كان الخليفة أبو العباس هو الذي أطلق على نفسه لقب السفاح وهي الكلمة التي لا توحي إلا بالدم والعنف والقسوة، فإن الأحداث الدموية التي جرت في بغداد خلال هذه الحقبة والتي كانت مشوبة بالغدر والعقوق هي التي أوحت أن تكون كلمة (قاتل) لقباً لهذا الحاكم العراقي الذي قتل أخاه غيلة من أجل الحكم. لقد عشعش منطوق العنف الدموي حتى في أسماء الحكام وألقابهم في العراق.

أما البصرة فقد تعرضت في ذلك الوقت للحملة البرتغالية الأولى بقيادة (مونادي كونها)، وكان تبرير البرتغاليين لحملتهم تلك هو حماية حاكم البصرة

---

١ - ستيفن لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، مصدر سابق، ص٣٤.

٢ - مجموعة باحثين، العراق في التاريخ، مطبعة دار الحرية، بغداد، ص٥٦٩.



(شكل رقم: ١٣) الحضرة الكيلانية

ضريح الشيخ عبد القادر الكيلاني في بغداد في أوائل القرن العشرين لقد تعرض هذا المقام إلى موجات متعاقبة من الاعتداء والتخريب والهدم ثم إلى الإعزاز والتكريم والاحترام والرعاية والاعتناء. إن معاناة هذا القبر تُـمَثِّل في وجه من الوجوه معاناة الشعب العراقي بأكمله على يد الحكام المتناقضين في ميولهم وانتماءاتهم المذهبية في العهود المختلفة منذ سقوط بغداد على يد المغول

ضد شيخ الجزائر - والمقصود بالجزائر هي منطقة واقعة وسط الأهوار والمستنقعات بين الكوت والناصرية والبصرة.

كم هي ساذجة وسطحية وتافهة مبررات المستعمرين في كل الأزمان والعصور، فهذه الحملة قد جاءت من البرتغال لتحمي حاكم البصرة من سكان هور الحمّار...! هذا هو مابرر به البرتغاليون حملتهم الاستعمارية في البصرة !!.

وفي عام ٩٤١هـ/١٥٣٤م سقطت بغداد - للمرة العاشرة - بيد العثمانيين، حيث دخلها السلطان سليمان وسط مظاهر الأبهة والفخامة.. وقام بزيارة ضريح عبد القادر الكيلاني وقبّة موسى الكاظم وبذل جهداً كبيراً ومركّزاً للتعرف على موقع قبر أبي حنيفة الذي هدم ودمر كلياً بعد دخول الإيرانيين فأعاد بناء ضريحه وأقام فوقه قبة فخمة أصبحت مزاراً سنيّاً عظيماً على مدى العصور[1] كذلك قام بزيارة العتبات المقدسة في الفرات الأوسط كما نفذ بعض الاصلاحات في أقنية الري والزراعة هناك. وقام بإعداد الأسطول العثماني لمنازلة البرتغاليين، وعين والياً على بغداد اسمه سليمان باشا الطويل. وخلال تلك الفترة اعلن أمير البصرة المدعو مغامس بن مانع انضمام البصرة والحويزه إلى العثمانيين، فألحقت البصرة بالممتلكات العثمانية. وقد قسّم العثمانيون العراق إلى أربع ولايات هي:

- ولاية بغداد.
- ولاية الموصل.
- ولاية شهرزور.
- ولاية البصرة.

وبعد فترة من الزمن كانت المشاكل التي واجهت الحكم العثماني في العراق قد تركزت في كل من ولاية شهرزور وولاية البصرة، فالأولى واقعة في المنطقة الجبلية على حدود الدولة الصفوية، أما البصرة فتقع في منطقة تقطنها

---

١ - ستيفن لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، مصدر سابق، ص٣٩

قبائل شديدة المراس، وكانت اجرءات العثمانيين الصارمة في تثبيت سلطانهم في البصرة والتحكم بشبكة الطرق التجارية قد دفعت أسرة راشد المغامس إلى إعلان الثورة والتمرد على السلطة العثمانية[1]

فأرسل العثمانيون حملة عسكرية كبيرة لفرض سيطرتهم وسلطانهم على البصرة والتحكم بطرق المواصلات واخضاع القبائل المنتشرة بين بغداد والبصرة، وبقيت الحروب والحملات العسكرية بين الجيش العثماني والقبائل في الجنوب مستمرة لسنين طويلة بين كرٍ وفرٍ جرت خلالها حوادث ووقائع يطول شرحها والحديث عنها.

وكان الجيش العثماني يفشل في تلك الحملات ويتراجع مما يؤدي إلى تنامي قوة القبائل لفترة من الزمن فيعود لضربها مرة أخرى، كما أدى فشل الأسطول العثماني في مواجهة البرتغاليين إلى معاودة القبائل للتمرد والثورة والعصيان، وازدادت جرأة تلك القبائل فأخذت تهاجم الحامية العثمانية في البصرة بشكل متواصل، كما اشتد تمرد آل عليان قرب القرنة في شمال البصرة، فنظم العثمانيون حملة كبيرة في عام ١٥٦٧م اشتركت فيها حاميتا شهرزور والموصل كما ارسلوا ٤٥٠ أربعمائة وخمسين سفينة مزودة بمائتي مدفع سارت عبر الفرات.

وكلف العثمانيون اسكندر باشا والي بغداد بقيادة هذه الحملة. وقد حقق بعض النجاح لكن القبائل استطاعت أن تستخدم حرباً هي أقرب إلى حرب العصابات مستفيدة من الأهوار وبساتين النخيل الكثيفة، مما دفع قائد الحملة اسكندر باشا أن يأمر بَقطع أشجار النخيلِ لتحويل تلك المناطق إلى ساحات مكشوفة مناسبة للقتال والحرب وتفويت الفرصة على المقاتلين والمتمردين للاحتماء بتلك الغابات الكثيفة من النخيل على ضفتي الفرات وكذلك أمر باتلاف المحصولات التي تعيش عليها القبائل[2]

لقد تجاوز العنف في العراق قتل البشر وإبادتهم فتعداهم إلى قتل الأشجار وحرق المحصولات، وبهذا التخريب والعنف المتواصل عمّ الخراب بالتدريج كل مرفق وكل شأن حياتي في بلاد الرافدين.

---

١ ـ مجموعة باحثين، العراق في التاريخ ، ص٥٧٥.

٢ ـ المصدر السابق، ص٥٧٦.

أما المفارقة الغريبة في إحدى هذه الحملات العسكرية التي نفذت في عام ١٥٦٧ للميلاد فهي أن الآلاف من أشجار النخيل التي كانت تغطي بكثافة مساحات واسعة من الأرض في أطراف البصرة والتي قطعت في تلك الحملة تحت مبرر تسهيل العمليات العسكرية ومنع المقاتلين من الاحتماء بها، قد أعيد قطعها مرة ثانية بعد (٤٠٠) أربعمائة عام من تلك الحملة في ذات المنطقة تقريباً ولنفس المبررات والأسباب العسكرية وذلك عندما تم قطع الآلاف من أشجار النخيل في أعوام ١٩٨٣ و ١٩٨٤ ميلادية في الحرب العراقية الإيرانية على ضفاف الأنهر قرب البصرة لمنع المقاتلين الإيرانيين من الاحتماء بها خلال تسللهم إلى داخل العراق أثناء الهجمات العسكرية التي كانت تشنها إيران لاحتلال البصرة والعمارة والقرنة والأهوار.

مرة أخرى يمكننا أن نقول بأن منهج العنف يبقى واحداً ولا تتغير فيه سوى التسميات والزمن وأجيال البشر الذين هم دائماً الوقود المجاني في ذلك العنف.

لم تستقر الأحوال ولا الأمن في ولاية البصرة - وكانت هذه الولاية تعني ربع العراق بعد أن قسم العثمانيون العراق إلى أربع ولايات كما ذكرنا سابقاً - وبقيت الادارة مضطربة وقلّت الواردات حتى أصبحت لا تكفي لسد النفقات واستمرت اشتباكات القبائل وغزواتها المتواصلة على الحامية التركية بصورة شبه دائمة وبلغ الأمر أن السكان العرب في البصرة لم يستطيعوا احتمال وجود الحامية الأجنبية في القلعة، وكانت القبائل والسكان في نزاع وكان كثيراً ما يؤدي إلى الاصطدام مع الترك فيسارع عرب البادية لاسناد السكان ومساعدتهم فيحاصرون الباشا في الحصن...

وقد ملّ الباشا التركي هذه الحالة فأقدم في عام ١٠٠٥هـ/١٥٩٦م على اتخاذ خطوة غريبة ومثيرة للتخلص من متاعب ذلك الوضع المضطرب الميئوس من إصلاحه في هذه الولاية ((فعزم على بيع حكومته (أي حكومة الولاية) إلى أحد أغنياء المدينة (البصرة) بأربعين ألف قرش، وتمت الصفقة وجهّز ذلك المشتري أجناداً ((جنوداً)) لتهدئة الناس، وسمي هذا الرجل العظيم باسم افراسياب باشا..

وقد تمكن أن يخلع النير التركي عن بلده ويلقب نفسه أمير البصرة، أما الباشا الذي باع حكومته فقد شنق ساعة وصوله إلى القسطنطينية»[1].

وكان من شروط صفقة بيع ولاية البصرة أن تستمر الولاية مرتبطة بالدولة العثمانية وتدفع الضرائب للخزينة المركزية وأن لا تقطع الخطبة باسم السلطان...

وبذلك تشكلت إمارة في البصرة لا تدين للعثمانيين إلا بالاسم حتى سقطت هذه الإمارة بحملة عسكرية قادها والي بغداد قره مصطفى بعد أكثر من خمسين سنة..

الإعصار الدموي: أحداث القرن السابع عشر والثامن عشر

سنحاول خلال استعراضنا أحداث القرن السابع عشر والثامن عشر أن نكون أشد حرصاً وأكثر دقة في اختيار العبارات وفي توثيق الوقائع وتسلسلها لأن ماجرى من أحداث دموية في هذه الحقبة التاريخية داخل العراق يكاد لا يصدق وربما سيظن القارئ أن مانعرضه أمامه من أحداث دموية فائقة الغرابة والكثافة ليست أحداثاً تاريخية حقيقية بل هي جزء من مسلسل خيالي ربما يستهدف تحقيق الإثارة والرعب..!

وعلى العموم فإن أحداث القرنين الآنفة الذكر تشكل بمجموعها - إذا اردنا الابتعاد عن الغوص في تفاصيلها — مايمكن أن نطلق عليه اليوم الحرب الأهلية. لقد تأجج العنف الدموي وتواصل على نحو يصعب على الباحث تتبع أحداثه بشكل مفهوم دون الوقوع في الملل والتكرار والالتباس، كذلك فإن الهدر المجاني للأرواح البشرية نتيجة الابغال المتواصل بالقتل الجماعي والقتل الفردي من كافة الأطراف دون هوادة يثير الدهشة والاستغراب والحيرة.

وفي محاولة للإبقاء على الشكل المفهوم لسير الوقائع سنحاول المرور على أبرز الأحداث واكثرها أهمية متجنبين الغوص في تفاصيلها، رغم أن تلك الوقائع المأساوية مترابطة مع بعضها البعض ترابطاً سببياً وتاريخياً، كذلك سنعمد لعرض بعضها تحت عناوين منفصلة.

---

١ - ستيفن لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، مصدر سابق، ص١٢٧

بكر صوباشي نموذج الشخصية الدموية في العراق

في بداية القرن السابع عشر الميلادي وبالتحديد في عام ١٠٢٩هـ/ ١٦١٩م استطاع شخص دموي طموح اسمه بكر صوباشي السيطرة على مقاليد الأمور في بغداد وكان هذا الشخص ـ وهو من الانكشاريين ـ قد تدرّج في المناصب حتى أصبح صوباشياً (أي قائداً للشرطة) وبسبب طموحه وصفاته السايكولوجية والسلوكية الفريدة فقد أصبح صاحب النفوذ الأول بين الانكشاريين في بغداد وتعالت سلطته حتى تفوقت على سلطة الحاكم الضعيف يوسف باشا[1]، حيث استطاع بكر صوباشي أن يحيط نفسه بعدد كبير من (السكبانية) ـ وهي فرق المشاة المحلية رماة البنادق ـ بالإضافة إلى (١٠٠٠) ألف من فرق المشاة غير النظامية واربعة آلاف من الانكشاريين، وقيل أن عدد الأفراد الذين صاروا يأتمرون بأمره قد بلغ (١٢٠٠٠) اثني عشر ألف رجل. وكان لبكر صوباشي خصم قديم اسمه محمد قنبر، يترأس مجموعة من المتذمرين المعادين لنفوذ بكر صوباشي، وصادف أن تحرك صوباشي على رأس قوة لاخضاع بعض القبائل في الفرات الأوسط فاغتنم محمد قنبر هذه الفرصة ودعى الضباط وأشراف المدينة وكبار المسؤولين إلى اجتماع سري اتفق فيه الجميع على خلع الصوباشي، فنقلت أخبار هذا الاجتماع إلى أتباع بكر صوباشي الموجودين في بغداد مما دفعهم إلى إغلاق أبواب المدينة ومحاصرة الشوارع والاستيلاء على الأبنية ذات المواقع التعبوية الهامة وبدأ القتال في داخل المدينة وفي الشوارع وتكبدت قوات الوالي يوسف باشا خسائر بشرية جسيمة وتحولت المدينة إلى ساحة حرب، واستطاع أتباع صوباشي تشديد الحصار على القلعة وهي مقر الوالي، ولما علم بكر صوباشي بما حصل في العاصمة عاد مسرعاً إلى بغداد بعد أن حقق نصراً على العشائر المتمردة وعبر نهر دجلة تحت وابل شديد من نار القلعة التي كانت محاصرة وصادف أن قتلت إحدى الرصاصات الطائشة الوالي يوسف باشا فدخلت قوات بكر صوباشي القلعة، وأبادت من وجدته في طريقها وفرّ قليل

---

١ ـ المصدر السابق، ص٧٢.

من جند الحامية الذين بقوا على قيد الحياة إلى الشوارع وإلى البادية ووقع أكثرهم في الأسر واستسلم قنبر وابنيه إلى بكر صوباشي فقيدهم بالسلاسل ووضعهم في زورق في نهر دجلة، مملوء بالكبريت والقار وربطهم فيه وأشعل النار في الزورق، فماتوا أشنع ميتة، «وبذلك شفى بكر غليله بقتل أعدائه برؤية العين وسمع الأذن حتى غطست آخر ذرة من الرماد في دجلة»[1]. «فرددت ألسنة الناس يومذاك اسم هولاكو وتيمور»[2]، ولاقى باقي الأسرى مثل ذلك المصير لأن بكر صوباشي كان يتلذذ بتعذيب اعدائه وخصومه وغدا الصوباشي سيد بغداد بلا منازع. وحاول بكر صوباشي أن يمارس التكتيك ويلعب على توازن القوى بين العثمانيين والفرس، (وكما هو معروف فإن العراقي لا يجيد ممارسة التكتيك في أغلب الأحيان وهناك أمثلة عديدة في التاريخ يمكن أن تشهد على ذلك)، فقد حاول استرضاء العثمانيين فأرسل إلى السلطان يخبره بأنه قد أقدم على قتل الوالي العثماني يوسف باشا، من أجل انقاذ بغداد من الإنشقاق والعنف وخلص الإمبراطورية العثمانية من الخائن يوسف باشا وطلب تعيينه هو والياً على بغداد. إلا أن السلطان العثماني لم يغفر لبكر صوباشي قتله لوالي بغداد العثماني يوسف باشا بأي حال من الأحوال و لم تنفعه رسائله ولا رسلهُ الذين أرسلهم إلى السلطان، فقد أصدر السلطان العثماني أمراً بتعيين سليمان باشا حاكماً على بغداد كما ارسل رجلاً اسمه علي أغا ليقوم بوظيفة الاستلام والتسليم لحين وصول الوالي الجديد، واصدر أوامره إلى والي ديار بكر لاسناد والي بغداد الجديد بالجيوش ليتسلم المدينة.

وصل علي أغا إلى بغداد ليقوم بعملية الاستلام والتسليم تحضيراً لوصول الوالي سليمان باشا فما كان من بكر صوباشي إلا ان أقدم على قتله.. وعندما بدأت الجيوش العثمانية تتجمع وتقترب من بغداد، أرسل بكر صوباشي رسلاً إلى إيران يحملون مفاتيح مدينة بغداد إلى الشاه عباس عارضاً عليه تقديم الولاء له بشرط أن يبقى حاكماً على بغداد.

---

١ ـ ستيفن لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، مصدر سابق، ص٧٣

٢ ـ المصدر السابق.

فاستقبل الشاه أولئك الرسل بسرور كبير واعتبر ذلك فرصة ذهبية للسيطرة على بغداد واستعادة حكم العراق وعتباته المقدسة، فأسرع بتشكيل جيش كبير مكون من (٣٠٠٠٠) ثلاثين ألف رجل وسار بسرعة نحو حدود العراق واقترب من بغداد.

وتصرف العثمانيون بكثير من الدهاء لمواجهة هذا الموقف المعقد المستجد فوافقوا على منح بكر صوباشي لقب الباشوية وتوليته بغداد[1] ثم انسحب الجيش العثماني إلى الموصل وديار بكر ليتحاشى الاصطدام بالجيش الإيراني فاطمأن بكر صوباشي إلى زوال الخطر التركي، وبدأ يفكر بالخروج من ورطته مع الشاه فأرسل وفداً إلى الإيرانيين يشكرهم على تلبيتهم لندائه ويبلغهم بعدم الحاجة إلى قدومهم وأنه مستعد لدفع نفقات الحملة العسكرية الإيرانية التي وصلت وأخذت تطوق بغداد، كما أبلغهم بأنه غير مستعد لتسليم بغداد...

كانت تلك هي الأبعاد الساذجة للتكتيك العراقي الذي نفذه هذا الحاكم المتمترس في بغداد والذي أغرق نفسه في ورطة يصعب الخروج منها.! غير أن الشاه لم يلتفت إلى بكر صوباشي وواصل تقدمه لاحتلال بغداد وكان ذلك في عام ١٠٣٣هـ/١٦٢٣م. وبدأ حصار بغداد فحدثت مجاعة مروّعة، «فقد أكل الناس لحم الكلاب والأطفال وجثث الموتى فضغط الحصار بشدة وامتلأ الجو بدوي الألغام المتفجرة»[2]، واستعد بكر صوباشي للمقاومة وكلف ابنه محمد بالدفاع عن بغداد وعن القلعة، إلا أن هذا الإبن خان والده وأجرى مفاوضات سرية مع الشاه بعد فترة من الحصار فوعده الإيرانيون بولاية بغداد.

وفي ليلة ٢٨ تشرين الثاني ١٦٢٣م فتح لهم (باب السر) وهو الباب الذي بجانب الشط (النهر) فدخل منه عشرة آلاف من جنود الشاه وقت الفجر إلى

---

١ ـ يذكر ستيفن لونكريك في كتابه اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص٧٦ بأن القائد التركي قد نظم ذلك الفرمان بعد ذلك بصيغة مختلفة وذلك بتسمية بكر صوباشي حاكماً للرقة. لذلك يبدو أن العثمانيين قد خدعوا صوباشي وصاغوا الفرمان بنسختين مختلفتين حيث ان صوباشي عندما استلم فرمان تعيينه والياً على بغداد انقلب بشدة ضد الإيرانيين وأجابهم بعبارات مليئة بالتحقير والتهكم. وفي كل الأحوال تحول ذلك الحاكم العراقي إلى ألعوبة بيد الطرفين.

٢ ـ المصدر السابق، ص٧٧.

المدينة «وما حل فجر تلك الليلة حتى كان كل سطح وكل منارة ترتفع فيها اصوات الطبول الإيرانية»[1]، وبذلك سقطت بغداد للمرة الحادية عشر وهكذا تدفقت قوات الجيش الصفوي إلى بغداد وذبحت كل من صادفته من انصار بكر صوباشي وقبض على الآلاف من الأهالي وعذبوا بشتى أنواع التعذيب، وقبض الشاه على بكر صوباشي وعذبه بوحشية ثم قتله قتلة شنيعة، وكان محمد ابن بكر صوباشي حاضراً جلسة التعذيب التي تعرض لها والده.

لننظر في هذا النص من كتاب (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) لونكريك ص٧٨ "فما أن جيء به مكبلاً بين يدي الشاه حتى رأى ابنه محمداً جالساً بانتصاب إلى جانب الشاه فأنصت إلى تأنيبه وتقريعه. ولم تُترك أية وسيلة وأي نوع من القسوة في تعذيبه وقتله في وقت كان محمد ابنه يرى ذلك رأي العين ويساعد في تنفيذه"

يوضح لنا هذا النص المفجع الذي يورده ستيفن لونكريك أن محمد بن بكر صوباشي لم يكن يتفرج على تعذيب والده بيد الإيرانيين فحسب بل كان يساهم ويساعد في ذلك التعذيب...!!

ومادمنا وسط هذا المغطس الدموي العراقي فإن خاطراً يدعونا لاجراء مقارنة بين بكر صوباشي مدير الشرطة العامة في بغداد ١٦٢٠ ميلادية وصاحب الشخصية الدموية المثيرة، وبين السيد ناظم كزار مدير الشرطة السريّة العام (الأمن) في العراق ١٩٧٠ ميلادية باعتبارهما مسؤولين عراقيين من ذوي المناصب الكبيرة حكما العراق وتحكما بأهله وبشعبه فترة من الزمن، وذلك لما بينهما من أوجه التشابه والتماثل والتناظر في كثير من الأمور المتعلقة بشخصيتهما المثيرتين ودورهما في التاريخ السياسي لبغداد والعراق:

---

١ - المصدر السابق، ص٧٨.

مقارنة وصفية بين شخصيتي بكر صوباشي وناظم كزار

بكر صوباشي	ناظم كزار
• ـ كان مغموراً في بدايات حياته وعمل انكشارياً بسيطاً.	• ـ كان مغموراً في بداية حياته السياسية ومن أسرة فقيرة كما كان عاطلاً لم يمارس اية مهنة.
• ـ أوصله الترفيع إلى درجة صوباشى وهى مرتبة عسكرية تعنى منصباً في الجيش يقوم بأعمال الشرطة في المدن.	• ـ رغم كونه مدنياً فقد منح رتبة لواء في الجيش واستلم منصباً كبيراً في الشرطة السرية (الأمن).
• ـ اصبح مديراً للشرطة في بغداد عام ١٦٢٠م.	• ـ اصبح مديراً للشرطة السرية (الأمن) في بغداد والعراق عام ١٩٧٠م.
• ـ كان ولوعاً باستعمال التعذيب والعنف والقسوة ضد خصومه ومناوئيه والمختلفين معه وقد استخدم وسائل جديدة من التعذيب في زمانه من ذلك ما قام به ضد خصمه محمد قنبر وأولاده بعد ان قيّدهم في زورق ملأه بالكبريت والزفت وأشعل النار بهم وسط نهر دجلة عند المساء فاحترقوا وغرق الزورق المشتعل بمن فيه وهم يصرخون...	• ـ كان ولوعاً باستعمال التعذيب والعنف وابتكر وسائل جديدة للتعذيب في التحقيق واستقدم بعض الخبراء والمعدات من الدول الأجنبية المعروفة بخبرتها في تعذيب السجناء السياسيين. ونادراً ما استطاع سجين أن يصمد أمام التعذيب الذي كان يمارسه ناظم كزار في التحقيق وخلال عملية الانقلاب الفاشلة التي قام بها للسيطرة على السلطة اعتقل خصمه اللواء حماد شهاب وزير الدفاع العراقي في ذلك الوقت وعرّضه للتعذيب في أقبية الأمن العام السرية ثم قتله وقيل في حينه أنه أذابه في حوض مليء بالأحماض الكيماوية الشديدة الفعالية.
• ـ وسع حراساته وأكثر من عدد الرجال الذين يأتمرون بأمره ويطيعونه	• ـ اهتم بتنظيم جهاز الشرطة السرية (الأمن) وزع العمل في هذا الجهاز إلى

حتى بلغ عددهم (١٢٠٠٠) اثنى عشر ألف رجل يتوزعون إلى مراتب وصنوف ذات تسميات معروفة في حينه[1].

فروع وأقسام متخصصة وزاد في عدد هذا الجهاز في عموم العراق وتم تخصيص ميزانية كبيرة لهذا الغرض. أما عدد الذين كانوا يأتمرون بإمرة اللواء ناظم كزار فغير معروف على وجه الدقة لأن ذلك يعتبر من الأسرار الأمنية للدولة غير أنه من المؤكد أن العدد يفوق ماجمعه بكر صوباشي حوله أضعافاً مضاعفة...

• ـ كبر نفوذ بكر صوباشي وعظم شأنه حتى أصبح نفوذه وسلطته تنافس سلطة الحاكم. إن اطلاعه الفوري على خبر عزله في الاجتماع السري الذي عقده المسؤولون في غيابه يدل على قوة نفوذه وكثرة المخبرين لديه في العاصمة.

• ـ تعاظم نفوذ وسلطة ناظم كزار وكبر شأنه في العراق حتى صار يخشاه ويهابه أكثر المسؤولين في الدولة ويحسبون له ولسطوته كل حساب وأصبح الجميع مقتنعين أنه يعلم عنهم من الخفايا والأسرار ما يمكنه من فضحهم والبطش بهم متى أراد.

• ـ انقلب بكر صوباشي على الحاكم في أيامه وهو الوالي يوسف باشا وتمرد عليه واستطاع قتله وإبادة أتباعه واستلام السلطة منه في بغداد.

• ـ انقلب ناظم كزار على الحاكم في أيامه وهو الرئيس أحمد حسن البكر وتمرد عليه لكنه لم ينجح في قتله بسبب أخطاء فنية عرضية في تنفيذ خطة الانقلاب مما أعطى فرصة لخصومه للحيطة والحذر ففشلت خطته في استلام السلطة.

• ـ كانت نهايته الأسر ثم التعرض

• ـ كانت نهايته الأسر بعد فشل

---

١ ـ ذكرت بعض تلك التسميات في كتاب (العراق في التاريخ) ص٥٧٩ ـ ٥٨٢ وفي كتاب (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) ص٧٠ ـ ٧٨ ومن تلك التسميات مثلاً عزاب: وتعني ثلة من الجند موكلة بمخازن البارود / السكبانيه/ و / الصوباشي...الخ

للتعذيب الوحشي ثم القتل تحت التعذيب وقد أقيم مايشبه الحفل لتعذيبه وقتله حضره أركان الدولة ثم جيء ببكر صوباشي فنفذت فيه عمليات التعذيب القاسية بكل أنواعها قبل قتله وقد شارك في ذلك ابنه وبعض جماعته وأتباعه.

محاولته الانقلابية وتواترت المعلومات عن تعرضه للتعذيب الشديد والتشويه قبل قتله من قبل رفاقه في السلطة والحزب. وقد روى لنا أحد الذين شاهدوا جثته في الطب العدلي ببغداد أن أذنيه كانتا مقطوعتين وأن اسفيناً غليظاً من الحديد قد دق في يافوخه.

• ـ خلال الفصل الأخير من نهايته الدموية سقط عدد كبير من القتلى من أتباعه مع عدد من الأبرياء وتحولت العاصمة بغداد إلى ساحة حرب وساد التوتر والخوف جميع مرافق البلاد.

• ـ خلال الفصل الأخير من نهايته الدموية سقط عدد من القتلى من أتباعه مع بعض الأبرياء وجرت تصفيات دموية لعدد من المتواطئين معه كما حصلت موجة من التنقلات والعقوبات الإدارية والمسلكية لكثير من مؤيديه في سلك الشرطة السرية وصدرت أحكام مختلفة ضد عدد منهم وخلال المطاردة لاعتقاله والقضاء على حركته ساد جو من التوتر والخوف في عموم البلاد.

لعل هذا التشابه الذي يقرب من التطابق بين شخصيتين وواقعتين تاريخيتين دمويتين في بغداد يفصل بينهما (٣٥٠) ثلاثمائة وخمسون سنة تقريباً (١٦٢٠ ـ ١٩٧٠م) ربما هو من الحالات القليلة والنادرة، غير أن ذلك يؤكد بصورة قطعية أن مسيرة العنف الدموي في هذه البلاد تسير بمنهج واحد لا يتغيّر وهي مازالت متواصلة دون توقف مدفوعة بذات النوازع السايكولوجية العدوانية وذات الأسلوب والمنهج التصعيدي المتفجر ولا يتغير فيها سوى التسميات وتاريخ السنين واسماء الأشخاص...

أما التكتيك الذي استخدمه وانتهجه ذلك الحاكم العراقي بكر صوباشي فإنه قد جلب له شخصياً - في نهاية الأمر - المهانة والموت الشنيع كما جلب لبغداد الجيوش الأجنبية والاحتلال والخراب...

مجازر العنف الطائفي المتناوب تتواصل في العراق:

كان الشاه عباس قد أعطى الأمان لأهالي بغداد عند دخولها عام ١٠٣٣هـ/١٦٢٣م إلا أن ذلك الأمان كان أشبه بالخدعة، فقد طلب جميع الأسلحة وقبض على جميع الجنود، كما قتل وعذب الآلاف من سكان بغداد بيد الجيش الفارسي، وبالذات سكان المدينة الذين ينتمون إلى المذهب السني وبيع عدد كبير من الناس والأطفال كالعبيد ونقلوا إلى إيران واختفوا إلى الأبد[1] بينما التجأ أعداد من السكان السنّة إلى تركيا فراراً من القتل، ((وهدم مشهد أبو حنيفة ومشهد عبد القادر الكيلاني))[2]

ويبدو أن الشاه عباس كان ينوي إبادة جميع السكان السنّة من أهل بغداد لولا التماسات عدد من رجال الشيعة العراقيين المعروفين الذين صرفوا فكره عن تنفيذ ذلك[3] ويروى أن قيِّم مدينة كربلاء (كليدار كربلاء) السيد درّاج قام بانقاذ حياة كثير من سكان بغداد من أتباع المذهب السني بعمل شهم دفعه لادراج اسمائهم في عداد قوائم السكان الشيعة التي طلبها منه الشاه وبذلك انقذهم من الموت المحقق غير أن تلك الأريحية لم تنفعه في شيء بعد بضعة سنين و لم تنقذ حياته عندما عاد العثمانيون واحتلوا العراق ونفذوا مذابحهم الدموية بإبادة الشيعة وتصفيتهم، فقد قتله القائد التركي درويش محمد باشا واستولى على أمواله لكونه شيعياً معروفاً[4]

---

١ ـ ستيفن لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، مصدر سابق، ص٧٨.

٢ ـ المصدر السابق، ص٧٩.

٣ ـ المصدر السابق، ص٧٨.

٤ ـ يمكن الإطلاع على تفاصيل مرعبة عن مجريات الأحداث خلال الاحتلال الصفوي والاحتلال العثماني لبغداد في كتاب ستيفن لونكريك ، (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) مع الهوامش المنقولة عن كتاب (تاريخ العراق بين احتلالين).

وهكذا يتبين لنا من خلال هذه الحادثة التي تعتبر نموذجاً للكثير من الأمثلة المشابهة جرت على أهل العراق في الحروب الطائفية المفروضة عليهم من الخارج. إن العنف الدموي المذهبي المنفّذ بقوة الجيوش الخارجية الغازية كان يضغط بلا هوادة لتفتيت الوحدة الداخلية لشعب العراق ويسعى لتمزيق التلاحم والترابط العضوي بين سكان هذه البلاد.

غير أن تماسك النسيج الذاتي لشعب الرافدين وعمقه الحضاري والتاريخي قد جعلت المجتمع العراقي يبدي مقاومة ذاتية صلبة ورائعة في مقاومة المنهج الطائفي الذي التزمت بتطبيقه الامبراطوريتان العثمانية والفارسية سنين طويلة خلال تناوبهما على حكم العراق.

وإذا عدنا لسير الأحداث التاريخية في القرن السابع عشر للميلاد فإننا نجد ان الإيرانيين كانوا يحكمون بغداد وطريق الزوار إلى العتبات المقدسة. بينما كانت الجيوش التركية متمسكة بكركوك والموصل وتمد نفوذها حتى حدود بغداد. وكان لدى البلاط العثماني رغبة كبيرة وملحة في استعادة مدينة بغداد.

وجرت وقائع وحروب للسيطرة على بغداد بين الإيرانين والعثمانيين دفع فيها الطرفان خسائر كبيرة في الأرواح والمعدات لكن أحداً منهما لم يستطع أن يحسم الموقف النهائي لصالحه فبقيت الحرب سجالاً بين الطرفين.

وحين تولى السلطان مراد - الذي امتاز بالقسوة والجبروت والدموية - اعطى اهتماماً خاصاً لهذا الموضوع وكان مصراً على احتلال بغداد والسيطرة التامة على العراق وإعادته إلى الحكم العثماني فنقل جيوشاً ومعدات عسكرية هائلة وأرسلها إلى العراق تحضيراً لاحتلال بغداد ثم بدأ في فرض الحصار على المدينة.

وفي يوم عيد الميلاد من سنة ١٦٣٨م سقطت بغداد بيد السلطان مراد بعد عدة محاولات فاشلة، وكان هذا هو السقوط الثاني عشر لهذه المدينة واقتادوا الوالي الإيراني بكتاش خان، والي بغداد، وأحضروه بين يدي السلطان مراد فطلب العفو عن مقاومته الطويلة فعفا عنه السلطان مراد وطلب منه تسليم المدينة فوافق على ذلك وأبلغ قواته بالتسليم إلا أن خطأً قد حصل في ترتيب الهدنة أدى إلى إطلاق النار من المدفعية والجنود فسادت موجة عارمة من القتل والانتقام والفوضى وأزهقت في معارك الشوارع ارواح عديدة لكبار الضباط وحصدت

المدفعية عشرين ألف قتيل إيراني كانوا في الحامية التي رفضت الاستسلام[1]. ولم تهدأ المدينة إلا بعد أن تضرجت بالدماء. ويصف الدكتور علي الوردي تلك المذبحة بأنها لا تقل في بشاعتها عن أفظع مذابح التاريخ[2].

وبعد أن استتب له الأمر في بغداد، أوعز السلطان مراد إلى مفتي بغداد أن يعيد بناء قبة الشيخ عبد القادر الكيلاني وأوقف لها أوقافاً كثيرة معظمها من أملاك الشيعة[3]

وبعد أيام من تلك المذبحة وقعت حادثة مفجعة جددت المشاهد الدموية في بغداد فقد احترق مخزن البارود في المدينة وانفجر فجأة فسبب اضراراً جسيمة بالأرواح وكان بين الموتى ثلاثمائة من الانكشاريين الأتراك ، ويبدو أن السلطان مراد اعتبر ذلك عملاً تخريبياً فأمر بذبح جميع الإيرانيين أينما وجدوا وكان الكثير منهم قد التجأوا إلى المعسكر العثماني بعد استسلام معسكراتهم فذبح الجميع دون استثناء وكان بين المقتولين ثلاثمائة زائر إيراني كانوا قد عبروا خلال تلك الأيام لزيارة الكاظمين. وجيء بألف شخص من الأسرى التعساء بين يدي السلطان فأمر بقطع رؤوسهم فقطعت حالاً ولم يترك أي إيراني حياً لا في المعسكر ولا في حواليه ولا في المدينة نفسها، ومن المحتمل أن هذه المذبحة لم يفرق فيها كثيرا بين العرب والفرس لأن عدد المقتولين كان عظيماً ـ يقدر بثلاثين الفاً حسبما ما كتبه مؤرخو الباب العالي ـ وكان من بين الذين ذبحوا عدد من رؤساء المدينة ووجهائها[4].

ويذكر الدكتور الوردي بشأن هذه الحادثة أن السلطان أمر بالذبح العام بعد حصول الانفجار حيث يقول: ((وقد اختلف المؤرخون هنا أيضاً فيمن شملهم الذبح، فالمؤرخ كريسي يذكر أن الذبح شمل سكان بغداد وربما قصد الشيعة منهم

وبعد انتهاء المذبحة تقدم الباقون من سكان بغداد صفوفاً بأطفالهم ونسائهم وهم يصرخون ((الداد - أمان)) فأصدر السلطان أمره بالأمان لهم))[5]. أما بكتاش

---

١ ـ ستيفن لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، مصدر سابق،ص ٩٨.
٢ ـ د. علي الوردي، تاريخ العراق الحديث ، ج١ ، ص٨٤ – دار كوفان، لندن.
٣ ـ ستيفن لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، مصدر سابق، ص٩٨.
٤ ـ المصدر السابق، ص٩٨.
٥ ـ د. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث –ج١ ، مصدر سابق،ص٨٤.

خان الوالي الإيراني المهزوم الذي وافق على الاستسلام أمام السلطان مراد فقد مات فجأة بالسم.. بعد ذلك ترك السلطان مراد المدينة متوجهاً إلى تبريز عام ١٦٣٩ وأمر باغلاق الباب الذي خرج منه مع جيشه وهو باب السور الذي سمي بعدئذ (باب الطلسم)[١] ، وهو أحد أبواب بغداد، فأغلقه وبناه وبقي على تلك الحال حتى القرن العشرين. ومن المؤسف أن هذا الباب قد دمر تدميراً كاملاً فيما بعد عند احتلال الإنكليز لبغداد عام ١٩١٧ بقيادة الجنرال مود وقد نسفه الأتراك عند انسحابهم من بغداد لوجود مخزن للذخيرة فيه وهو من الأبواب القديمة ومن كنوزها الأثرية، ((وقد هز نسفه مدينة بغداد هزاً عنيفاً))[٢].

ولعل من المؤلم في مثل تلك الأحداث الدموية أن نجد بعض العراقيين من كلا الطرفين يمجدون ويمدحون المذابح التي يقوم بها هذا المحتل أو ذاك عند دخولهم بغداد والتنكيل بأهلها وإقامة المجازر الطائفية فيها، فقد نظم القاضي تاج الدين المالكي أبياتاً من الشعر يؤرخ فيها فتح السلطان مراد لمدينة بغداد، يقول فيها:

خليفة الله مراد غزا قلعة بغداد فأرداها

فلنشرحن فعل مراد بها مؤرخاً قد ذبح الشاها

إن مثل هذا الشاعر هو نموذج لكثيرين غيره من الشعراء والأدباء في تلك الفترة المظلمة أنه يفتقد لأحاسيس الانتماء إلى الوطن والشعب والمدينة التي يعيش فيها.

وفي عام ١٦٣٩ تم تعيين حسن باشا الصغير والياً على بغداد إلا أنه استبدل وعين بدلاً عنه درويش محمد باشا وكان هذا شديداً قاسياً مندفعاً في قسوته التأديبية، وقد صادف في أيامه أن قام شيخ الخزاعل بخلق الاضطرابات في منطقة السماوة فبعث درويش باشا من قبله قائداً تركياً اسمه علي أغا ففرّق جموعهم وقتل منهم خلقاً كثيراً وارسل إلى بغداد ستمائة رأس أدمي مقطوع من رؤوسهم[٣].

---

١ ـ المصدر السابق.

٢ ـ المصدر السابق، ج٤ ، ص٣٢٨

٣ ـ ستيفن لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، مصدر سابق،ص١٠٧

إن النظر إلى ستمائة رأس خروف مقطوع يثير في نفس الإنسان بالتأكيد الشعور بالتقزز والقشعريرة فهل يمكن أن يتخيل القارئ مايثيره منظر تلك الرؤوس الآدمية الستمائة من أهل العراق التي أرسلت من السماوة إلى بغداد؟ إنها حتماً إحدى حمامات الدم في التاريخ العراقي.

إنه دولاب العنف الدموي الدائر في هذه البلاد دون توقف منذ فجر السلالات!!

وكنتيجة للتطورات التي حصلت في العرش الإيراني وسيطرة نادر شاه على العرش الصفوي وظهور نواياه في استعادة حكم العراق من العثمانيين فقد تجددت المنازعات بين الإيرانيين والأتراك. وزحف نادر شاه باتجاه بغداد على رأس جيش قدر بمائة ألف جندي، وعند دخوله الأراضي العراقية توزع الجيش إلى ثلاثة أقسام. تقدم القسم الأول منه باتجاه كركوك - أربيل وتوجه الثاني نحو الموصل ، أما القوة الرئيسية فواصلت زحفها نحو بغداد. وفي أواخر رجب ١١٤٥هـ/ كانون الأول ١٧٣٢م فرض حاكم إيران الشاه نادر الحصار على بغداد غير أن نجدات تركية كانت تزحف ببطء من الشمال نحو بغداد، وفي عام ١٧٣٣ دارت معركة حامية بالقرب من الدجيل استمرت تسع ساعات متواصلة بين الجيش التركي والجيش الإيراني انتهت بهزيمة الإيرانيين وسقوط ثلاثين ألف قتيل منهم مع ثلاثة آلاف أسير فتراجع الشاه نادر وعاد إلى إيران. وبعد إنتشار أنباء الانتصار التركي قرب الدجيل على الإيرانيين قامت القوات التركية الموجودة داخل بغداد بالهجوم على القوات الإيرانية التي كانت تحاصر المدينة والتي كان عددها ثمانية آلاف جندي إيراني، وقد أبيدت القوة الإيرانية بالكامل ولم ينج منها إنسان. وكان قد مات في بغداد بسبب الحصار والجوع مايزيد على مائة ألف إنسان ورميت جثث الألوف منهم بالنهر[1]

كما عجزت القوات الإيرانية عن احتلال الموصل نتيجة المقاومة الشديدة رغم أن مدفعية الجيش الإيراني كانت قد أمطرت المدينة بأكثر من أربعين ألف قنبلة، فطلب الإيرانيون الصلح ، كذلك رفضت البصرة طلباً تقدم به القائد الإيراني لتسليم المدينة، وبعد حصار دام ثلاثة أشهر انسحبت القوات الإيرانية

---

١ ـ د. علي الوردي ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج١ ، مصدر سابق، ص١١٣

عن المدينة، وكان ذلك في تشرين الثاني من عام ١٧٤٣ م، إلا أن هذه القوات قد ارتكبت عدداً من المذابح بين السكان القاطنين في بعض القرى الواقعة على شط العرب لاسيما في قرية (السبيليات)[1]، والسبيليات هي قرية صغيرة وجميلة وتسمى بنفس الإسم حتى اليوم وتقع جنوب البصرة على ضفة شط العرب من الجهة الغربية وسط غابات النخيل وتبعد حوالي ١٥ خمسة عشر كيلومتراً إلى الجنوب من مدينة البصرة، «كما لم تنجُ مدينة الزبير من الغزو والتخريب والعبث بقبور الأموات وهدم بعض الأضرحة»[2]

ويبدو أن البوصلة التي كان يستدل بها الإيرانيون في تلك المذابح هي البوصلة الطائفية حيث ما زال أبناء الطائفة السنية هم الأكثرية بين سكان هذه القرى والمدن التابعة للبصرة ـ أي السبيليات والزبير وأبي الخصيب.

ولعلنا نجد لزاماً أن نقف هنا وقفة تفكر وتبصر وتحليل لنقلّب الرأي في شأن هذا النمط من العنف الدموي الذي أخذ يغزو العراق من الخارج ويحيط به من الشمال إلى الجنوب ونعني به العنف الدموي الطائفي...

فإذا تفحصنا أوضاع العراق وهو يغرق تحت هذا النوع الجديد من العنف الشرس فبإمكاننا أن نتبيَّن النقاط الموضوعية التالية:

١ ـ أن هذا العنف الذي انتشر في العراق بعد سقوط بغداد ودخول المغول هو دائماً ـ وفي أغلب الأحيان ـ عنف قادم من الخارج تمارسه وتقوم به وتستجلبه معها الجيوش الغازية والفاتحة القادمة إلى العراق من خارج حدوده وبالذات جيوش الدولة الإيرانية وجيوش الدولة العثمانية..، ولا يعني ذلك خلو الأمر من بعض القادة والعناصر والأتباع والمناصرين العراقيين من أهل البلاد ممن قاموا بالتحريض والمساعدة والمشاركة في ذلك العنف رغم قلتهم وتفاهة دورهم...

٢ ـ إن هذا العنف الدموي القادم من الخارج كان يحمل صبغة مذهبية طائفية، وقد عجز المجتمع العراقي رغم تماسكه ووحدته الداخلية الصلبة عن تجنب الوقوع في هذا المغطس الطائفي المؤذي بل ربما انجرَّت إليه بعض قطاعات هذا المجتمع بارادتها أو رغماً عنها. إلا أن عراقة الشعب الموجود في

---

١ ـ مجموعة باحثين، العراق في التاريخ، مصدر سابق، ص٥٩٨.

٢ ـ المصدر السابق، ص٥٩٩.

وادي الرافدين والعمق التاريخي والحضاري لهذه البلاد وقوة التماسك الداخلي العائلي والقبائلي وقوة القوانين الاجتماعية السائدة وصرامتها كانت تشكل إلى حد مقبول درعاً قوياً في مواجهة تلك النزعات الطائفية وحروبها المدمرة.

٣ ـ لما كانت الأطراف المتصارعة هي أطراف غريبة عن العراق فقد استخدمت العراق بأهله ومدنه ومرافقه ساحة للمعارك والصراعات والحروب والدمار ولهذا لم تكن الأطراف المتحاربة بأي حال من الأحوال حريصة على سلامة كيان العراق أو مرافقه، لا البشرية ولا المادية ولا العمرانية ولا الحضارية، ومن هذا المنطلق كان العنف الأهوج المنفذ في العراق يجري بأقصى درجات القسوة والهمجية وعلى أوسع نطاق دون حرصٍ للإبقاء على أية قيمة من القيم في هذه البلاد.

٤ ـ إن موجات العنف الدموي الطائفي التي فرضتها وطبقتها ونفذتها في العراق جيوش الدولتين، العثمانية والإيرانية، بالتناوب وما نتج عنها من مذابح ومجازر بشرية بشعة هي في إحدى أشكالها وصورها التطبيقية وجه من وجوه دكتاتورية العقيدة الواحدة أو الرأي الواحد حيث استطاعت تلك الحروب وما أفرزته من موجات الانتقام والثأر والعنف الطائفي المدعوم بقوة الدولة وسلطتها القاهرة ان تصبغ العنف المنفذ في العراق بصبغتها الدكتاتورية العقائدية وبعدها الطائفي...

٥ ـ نظراً لقوة الامبراطوريتين المتصارعتين في العراق ـ الإمبراطورية العثمانية والامبراطورية الفارسية ـ والامكانيات العسكرية والتسليحية والبشرية الهائلة التي سخرتها كل واحدة منها في خدمة منهجها العسكري العدواني في البطش والقسوة والعنف الدموي الطائفي فإن شعب العراق قد تحول بالكامل إلى جهة متلقية بعد أن فقد القدرة على التفاعل والتأثير الجدي في مسار الأحداث، أنه يتلقى الحروب وويلاتها ويتلقى المذابح التي تحصد الآلاف من أبنائه بسبب الانتماء الطائفي والهوية المذهبية، ويتلقى الأوامر من هذا الطرف أو ذاك بتنصيب المسؤولين الأجانب القادمين من الخارج ليتولوا أمره وحكمه والتحكم فيه ليباشروا السرقة والاختلاس ونهب الأموال العامة ويتصارعون فيما بينهم داخل الدولة الواحدة في حروب تصفوية رديئة واغتيالات غادرة.. ويتلقى كذلك الكوارث الطبيعية من فيضانات

مدمرة وجائحاتٍ مرضية كبرى بسبب التسيب والإهمال والفوضى في أمور الدولة كموجات الطاعون والكوليرا والأمراض الخطيرة الأخرى، والأهم من كل ذلك أنه يتلقى دروساً دموية قاسية في النزاع الطائفي لتدمير وحدته الداخلية، لذلك فشعب العراق خلال هذه الفترة المظلمة من تاريخه هو شعب مغلوب على أمره، مسلوب الإرادة، فاقد القدرة على التغيير والتحرر والخلاص، تستحكمه ظلمات الجهل والخرافات والتخلف، وتثقل كاهله عوامل الفقر والمجاعات والحروب والمجازر المتكررة.. وفوق ذلك كله كان مطلوباً منه أن ينحاز ويتحمس لهذا الطرف أو ذاك من حاكميه المتناقضين المتنازعين طائفياً.

ورغم ذلك وإزاء كل ماتقدم في هذا الموضوع لابد لنا أن نشير بشيء من الاعتزاز أن المجتمع العراقي قد أظهر تماسكاً وصلابة غريزية فائقة في مواجهة الطائفية المذهبية وحروبها الدموية، إذ لولا ذلك التماسك في نسيج البنية الاجتماعية لشعب العراق فإن تلك الحروب والمجازر الهمجية التي نفذت بقسوة فائقة أكثر من خمسة قرون متواصلة من الزمان كانت كافية لهدم أي مجتمع من المجتمعات وتفتيت وحدته الداخلية والقضاء عليه، بينما نجد أن المجتمع العراقي قد استطاع بعد انتهاء الاحتلال العثماني والفارسي أن يحافظ على تماسكه وأن يستعيد بسرعة قياسية مسيرته الحياتية المدنية الموحدة وينطلق دون عائق في تبني الشعارات والأهداف العصرية المتطورة الأكثر إشراقاً وحيوية وتقدمية كالوطنية والحرية والانتماء القومي والالتزام الدّيني اللاطائفي والكفاح من اجل الاستقلال وإدانة التدخلات الخارجية في شؤونه الداخلية، ولعل من غير المبالغ فيه أن نقول بأن هذه الميزة الفريدة في قوة التماسك والوحدة الاجتماعية والصلابة الذاتية هي التي يعود لها الفضل في إبقاء الشكل الحالي للبلاد المعروفة اليوم باسم العراق.

المهرجان الأكبر للقتل والعنف المتواصل

بعد موجة المذابح الانتقامية التي أعقبت سقوط بغداد بيد العثمانيين واحتلالها على يد السلطان مراد الذي غادرها بعد ذلك إلى تبريز عام ١٦٣٩م كما ذكرنا سابقاً، مرت على العراق فترة من الزمن تقارب الستين عاماً تميزت بالاضطرابات والفوضى وفقدان الأمن والدمار والخراب على كل صعيد كما تميزت بكثرة تغيير الولاة العثمانيين الذين بلغ عددهم تسعة وثلاثون والياً خلال

تلك الفترة[1] ، و لم يحدث فيها أي أمر ذو أهمية سوى تتابع مسلسل التخلف والخراب والسرقات والإفلاس في الخزينة..

كذلك تميزت تلك الفترة بنشاط واسع للقبائل العراقية التي أقام بعضها اتحادات قبلية فيما بينها، وفي ذلك الوقت كانت العشائر ذات النفوذ والقوة تقوم بأعمال السطو وقطع الطرق وأخذ الضرائب.

على أن الحدث الأكثر مأساوية خلال ذلك هو حصول المجاعة الشديدة التي أصابت مناطق وسط العراق.. فامتلأت أزقة بغداد بجثث الموتى الجياع وتبع تلك المجاعة انتشار الطاعون الذي قضى على الآلاف من السكان، كذلك فإن الوضع في كردستان بقي مضطرباً خلال تلك السنين، وفي الجنوب لم تتوقف القبائل هناك عن القيام بالعصيان والتمردات المتتالية حيث يذكر ستيفن لونكريك في كتابه (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) خلال استعراضه لتلك الفترة حصول معركة ضارية في جنوب العراق قرب مدينة الرماحية[2] بين الجيش العثماني بقيادة دلتبان مصطفى باشا حاكم بغداد وبين عدد من القبائل المعادية للسلطة العثمانية. وقد جرت المعركة في كانون الأول عام ١١١٣هـ/١٧٠١م وفيها انهزمت العشائر هزيمة تامة وكانت الخسائر بالأرواح جسيمة حيث قام الجيش التركي بعد ذلك بتشكيل هرم من الرؤوس المقطوعة التي قدر عددها بألف رأس من أبناء العشائر كما صنع من جثثهم رابية بقيت ظاهرة للعيان مدة أربعين سنة ونذكر هنا النص الوارد في ذلك الكتاب حول هذه الواقعة:

((ثم سار الجيش ببطء ماراً بالحلة وحسكة إلى الرماحية. و لم يشهد العراق الجنوبي قوة عظيمة مثل هذه منذ جيل. فخف الرؤساء الذين كانوا لصوصاً بالأمس لتقبيل أيدي دلتبان متذرعين لذلك بمختلف الذرائع، ثم جرى الاشتباك مع جمهرة من القبائل كانت ماتزال معادية في جنوبي الرماحية في أواخر كانون الأول ١١١٣هـ/١٧٠١م فدحرت تماماً.

---

١ ـ مجموعة من الباحثين، العراق في التاريخ، ص٥٦٨

٢ ـ الرماحية – مدينة عراقية قريبة من النجف وقد زالت من الوجود بعد أن تحول عنها مجرى نهر الفرات وربما أبيد سكانها أو هاجروا بسبب المذابح.

وقد كوّنت رؤوس ألفٍ من العصاة المقطوعة هرماً كالح اللون. وبقيت رابية أشلائهم ظاهرة للعيان بعد أربعين سنة...»[1].

وتمشياً مع كلمات هذه الأسطر من كتاب لونكريك نقلاً عن كتاب للمؤلف م. أوتر الذي كان وكيلاً للحكومة الفرنسية في ذلك الوقت فإن أحداً لم يجرؤ على دفن جثث أولئك القتلى الذين رصفت رؤوسهم على هيئة هرم وصنع من أجسادهم تلة صغيرة حتى تفسخت وبقيت عظامها مكوّمة مدة أربعين عاماً كما يشير النص، وربما لم يعد هناك بشر على الإطلاق في تلك المنطقة يمكن أن يقوموا بدفن الموتى.

ولعلنا نجد إزاء ما تثيره فينا أمثال هذه الواقعة الدموية المشحونة بالهمجية من مشاعر صاعقة من الغضب والألم والأسى، أن نؤكد على أن من ضرورات ودواعي الوطنية في العمل السياسي العراقي أن تبقى مثل هذه الصور للعنف والقسوة الفائقة التي شاعت في ربوع العراق راسخة وماثلة على الدوام في خاطر كل سياسي عراقي يسعى لبناء بلاده على نحو حضاري وعصري ليتمثل على الدوام بمجموع الدوافع والمقدمات والنتائج التي قادت وربما تقود في المستقبل لمثل هذه الفظائع.

ورغم كثرة عدد الولاة في تلك الفترة فإن أحداً منهم لم يتمكن من ضبط الوضع في العراق أو إنهاء فوضى الاضطرابات والنهب والفتن في أرجائه، وفي عام ١٧٠٤ تسلم ولاية بغداد الوالي حسن باشا وكان قوياً ومحنكاً يتصف بالشدة والقسوة، فقرر إرهاب العشائر وإعادتها إلى الطاعة بعد أن عجز كل الولاة الذين سبقوه عن ذلك.

وكانت أخبار حوادث النهب والسطو وقطع الطرق التي تقوم بها العشائر على القوافل والمسافرين تصل إلى بغداد تباعاً.. فنهبت قافلة كبيرة من الزوارق المحملة بالبضائع والأرزاق في دجلة بمنطقة الموصل وكانت قادمة إلى بغداد وقتل أكثر رجالها كما قطعت طريق كركوك ونهبت القرى هناك. وفي شرق أربيل قام الأكراد الجبليون (البلباس) بالتمرد وشق عصا الطاعة، وفي سوران أدت أحداث

١ ـ لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، مصدر سابق، ص١٥٢.

جرت هناك إلى سفك الدماء، وفي سنجار نشط اللصوص بين اليزيديين، وحدثت اضطرابات في الجنوب في منطقة بني لام بعد أن هرب شيخهم من السجن والتجأ إلى الحويزة. كما قامت قبائل الخزاعل وقسم من شمر وعنزه بالسطو على قرى بغداد وصارت تهدد مدينة الحلة.

وفي الجنوب حدث التمرد الكبير بالثورة التي قام بها مغامس المانع والمنتفكين لأسباب تتعلق بنزاعات الأراضي والضرائب. وعلى العموم فإن الوضع في البلاد هو أشبه بمهرجان كبير للفوضى والعنف والاضطراب والتسيب. وإذا أردنا الإحاطة بوصف تلك الحالة العارمة من الفوضى والاضطرابات والحوادث التي نشبت في كل مكان من العراق في تلك الفترة فإن ذلك يستغرق صفحات طويلة ومملة لا مجال لها هنا.. وقد باشر الوالي حسن باشا أعماله الحازمة بالتوجه نحو الموصل على رأس جيش حكومي كبير ليجعل من تلك القبائل هناك عبرة لغيرها.. فحاصرهم في موضع يسمى الخانوقة قرب الموصل وأمطرهم بالمدفعية فقضى على الأكثرية منهم وألقى القبض على رئيسهم ونهب الجنود أموالهم[1].

ثم أصدر الوالي بياناً شديد اللهجة وجهه إلى البدو والعشائر العراقية ينذرها فيه بضرورة الالتزام بالنظام وطاعة السلطان والامتناع عن أعمال العصيان والفساد والفوضى وإثارة الاضطرابات، ولعل الإطلاع على لهجة وأسلوب ذلك البيان تُعيد إلى الذاكرة خطب الحجاج وبياناته الدموية إلى أهل العراق.

وننقل هنا جزءاً منه للإطلاع: ((بعد حمدٍ من خلق العباد في عالم الكون والفساد والصلاة والسلام على خير الأنام محمد المرسل لقمع أهل البغي والعناد والتمادي في الفساد وعلى آله وأصحابه الذين شيدوا الأحكام وسددوا أمور الأنام، فهذا كتابي إليكم وارد عليكم معاشر أهل البادية... وقد أُمرتم بطاعة السلطان منذ أزمان ونهيتم عن الفساد واشتكت الناس من ضركم حيث أضرمتِ نار بغيكم وشركم ، فكأنما أمرتم بالعكس، حتى نهبتم الأموال وأبحتم قتل النفس، و لم ترعوا شعائر الإسلام... ولا تغرنكم كثرتكم فسيفنا صقيل ولا يأمنكم شطوطكم ونبوتكم فرمحنا طويل... وقد أفتى العلماء بهدر دمائكم وسبي

---

١ ـ د. علي الوردي ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج١ ، مصدر سابق، ص٩٦

نسائكم وإمائكم. وإن عزمتم على القتال فاعلموا أن قد دنت منكم الآجال فإن هربتم إلى الأقطار القاصية وذهبتم إلى الأمصار النائية فالوصول إليكم غير بعيد وحصد رؤوسكم ليس علينا بأمر جديد»[1].

وقد أدت سياسة الشدة التي اتبعها الوالي حسن باشا إلى قيام عدد من العشائر بعقد تحالف فيما بينها ضد الوالي وكان هذا التحالف برئاسة مغامس المانع شيخ مشايخ المنتفق الذي احتل البصرة واجتمعت حوله النجدات من شتى العشائر مثل شمر والخزاعل وزبيد والمياح وغزية وآل سراي وبني خالد حتى بلغ عدد الذين معه مائة ألف رجل. وقد وجه الوالي حسن باشا جيشاً قوياً اصطدم مع هذا التحالف وجرت بينهما معركة طاحنة قرب البصرة كان النصر فيها لجيش الحكومة وقيل أن عدد القتلى فيها قد بلغ عشرة آلاف قتيل تكدست جثثهم في ساحة المعركة. وكان الوالي حسن باشا خلال ذلك يعطي هدية من الذهب والفضة لكل من يأتيه برأس أحد القتلى (العراقيين) أو بقلبه[2]

ورغم ذلك كله فإن هذا الأسلوب لم ينفع شيئاً فقد بقي الوالي حسن باشا طيلة أيام عهده يخرج من حرب مع إحدى القبائل ليدخل في حرب أخرى دون أن يتغير في الأمر شيء..

بعد رحيل حسن باشا عُيِّن مكانه أحمد باشا وفي عهده ثار الأمير سعدون شيخ المنتفق عام ١٧٣٨م ومعه عشرة آلاف مقاتل ونزل في موضع بين النجف والكوفة ثم أرسل قوة لمحاصرة الحلة وأخرى لمحاصرة البصرة واستمر تمرده أربع سنوات سيطر فيها على مناطق واسعة من الفرات الأوسط والأسفل وفرض الأتاوة على المسافرين. وقد وجه الوالي أحمد باشا قوة حكومية ضخمة اصطدمت مع مقاتلي العشائر وانتهت بمقتل الأمير سعدون وقد أهدى أحمد باشا هدايا كثيرة لقاتله كما أهدى مَنْ بشّره بمقتل الأمير المتمرد بعض الهدايا. ثم قام بسلخ رأس الأمير سعدون وحشاه تبناً وأرسله إلى إسطنبول[3] وهكذا لم

١ ـ المصدر السابق، ص ٩٦.

٢ ـ المصدر السابق، ص٩٨.

٣ ـ المصدر السابق، ص١١٧، نقلاً عن عباس العزاوي، ج٥، ص٢٥٨.

يكتف هذا الوالي بقتل الشيخ سعدون وقطع رأسه بل قام بسلخ الرأس وتع
بالتبن قبل إرساله إلى اسطنبول.

إن قطع الرؤوس خلال الصراعات السياسية وإرسالها إلى البلدان المجاورة هو
ابتكار عراقي قديم ومعهود نفذ في العراق بالعديد من القادة والزعماء والثوار
عهود مختلفة بدأت منذ العهد الأموي غير أن سلخ الرأس وتعبئته بالتبن ثم إرس
إلى الخارج ربما هو التطوير الجديد الذي استحدث على ذلك الابتكار...!!!

وعلى العموم فقد كانت أحداث هذه الفترة هي المهرجان الأكبر للمو
المتواصل والقتل والعنف الدموي في أرض العراق رغم أن الأحداث القادمة لا
تقل عنفاً ودموية في هذا الدرب المأساوي كما سنرى...

الفصل السادس

أحداث العنف الدموي في عصر المماليك في العراق

١٧٤٩م - ١٧٣١م

- **ــ نبذة مختصرة عن مماليك العراق:**
- **ــ الاضطرابات والصراع الدموي على الحكم في بغداد:**

ـ قتل الوالي علي باشا ـ قتل الوالي عمر باشا في بغداد وقطع رأسه ــ تعيين مصطفى باشا ثم قتله وإرسال رأسه إلى إسطنبول ــ الفتنة في كردستان ـ ايران تحتل البصرة.

- **ــ العنف في عهد سليمان باشا الكبير ١٧٨٠م:**

تكدّس عظام آلاف الرجال والخيول في معركة أم الحنطة دون أن تدفن.

- **ــ الورثة يتقاتلون:**

الفتنة الدموية في بغداد ــ انتصار علي باشا وقتل أحمد آغا وتقطيعه ـ اغتيال علي باشا، مقتل ناصيف آغا وسحله ـ طرد أهل الموصل من بغداد ــ مقتل سليمان باشا الصغير وسلخ رأسه ـ انقلاب الجيش على قائده ومقتل التتونجي وقطع رأسه.

- **ــ العنف في عهد سعيد باشا**

الوالي سعيد باشا يعشق غلاماً من أهل بغداد ـ الفوضى والعصيانات والنهب تعم البلاد.

- **ــ العنف في عهد داوود باشا:**

التصفيات الدموية تطحن العائلة الحاكمة ـ الفتن والاضطرابات تتواصل ـ تعزيز النفوذ البريطاني.

- **ــ مذبحة الانكشاريين :**

- ـ **التكتيك العراقي الساذج:**

الوالي داوود يقتل مبعوث السلطان

- ـ **الطاعون والفيضان والجيش العثماني يدخلون بغداد في وقت واحد:**

وصف تفصيلي بانورامي لكارثة الطاعون والفيضان.

- ـ **الصراع الدموي بين علي رضا وداوود باشا:**

أهالي بغداد ينهبون السراي ويحرقون مقر الحكومة ويقتلون مندوب الوالي الجديد.

- ـ **مذبحة المماليك الكبرى في العراق:**

الاحتفال الدموي وتنفيذ المجزرة ؛ القتل على الهوية.

نبذة مختصرة عن مماليك العراق:

خضع العراق لحكم المماليك في منتصف القرن الثامن عشر ودام مايقرب من ثمانين عاماً "فقد بدأ في عام ١٧٤٩ بولاية سليمان باشا (أبو ليلة) وانتهى في عام ١٨٣١م بعزل داوود باشا وكان مماليك العراق يشبهون مماليك مصر من حيث أصلهم ونشأتهم. فقد أتوا في الغالب من جورجيا ومنهم من أتى من بلاد الشركس والداغستان وكانوا يستجلبون أطفالاً كالانكشارية فيودعون في مدارس خاصة بهم ليتعلموا القراءة والكتابة والسباحة والفروسية وفنون القتال فإذا تخرجوا أدخلوا في سلك الجيش أو الوظيفة الحكومية.

إن أول من عني باستجلاب المماليك في العراق هو الوالي المشهور حسن باشا فقد أراد هذا الوالي أن يجعل لنفسه جنداً مختصين به - يستعين بهم ويتعصبون له فأرسل إلى بلاد القفقاس من يأتي إليه منها بالصبيان"[1] وكان استلام المماليك للحكم في العراق هو أحد مظاهر العجز في الدولة العثمانية التي تعاملت مع الحكام والولاة والباشوات المماليك كأمر واقع مع بقاء الرغبة لديها للسيطرة عليهم وإخضاعهم.

خلال عهد المماليك تأرجح النفوذ العثماني والإيراني والمملوكي في صراع تنافسي خفي فوق أرض العراق[2].

وكان حكمهم يحظى بدعم وإسناد بعض الدول الأجنبية بصورة غير مباشرة مثل بريطانيا وفرنسا.

---

١ - د. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج١ ، مصدر سابق، ص١٤٩.

٢ - مجموعة باحثين، العراق في التاريخ، مصدر سابق، ص٦٠٤.

ولعل أبرز حكامهم كان سليمان باشا الكبير وسليمان باشا الصغير وداوود باشا، وقد شملت سلطتهم في مراحل من تاريخهم معظم أنحاء العراق المعروف في الوقت الحاضر، "كما أنهم مارسوا إشرافاً غير مباشر على مناطق أخرى أهمها إمارة بهدينان التي يشمل حكمها العمادية وزاخو وعقرة وكانت هذه الإمارة تحكمها أسرة عباسية تنتمي نسباً إلى أحد أحفاد الخليفة المستعصم العباسي يدعى بهاء الدين نسبت إليه وعرفت بالبهدينانية"[1]

كذلك كان للمماليك علاقة مباشرة بالإمارة البابانية التي ظهرت في كردستان في أواخر القرن السابع عشر وقد ترسخ حكم تلك الإمارة حتى أنشأ البابانيون مدينة السليمانية عام ١١٩١هـ/١٧٨٤م.

ولكي لا نلقي اللوم دائماً على العامل الخارجي في ظهور وتطبيق منهج العنف الدموي والقسوة الدموية في العراق خصوصاً في الأحداث والوقائع الداخلية والمحلية لابد لنا من الإشارة إلى التغيير النسبي الذي حصل في مركزية السلطة العثمانية والمستوى الحقيقي لسيطرتها الفعلية على الوضع في العراق في عهد المماليك حيث "تميز عهد المماليك عما قبله وما بعده بشدة التنافس والتنازع على الحكم في العراق، فقد كان الولاة قبل عهد المماليك يعينون بفرمان يصدر من السلطان في إسطنبول، ومعنى هذا أن من يطمح إلى الحكم في العراق يجب عليه أن يبذل جهده في اسطنبول حيث يحاول استرضاء السلطان أو حاشيته من أجل نيل الفرمان - أي القرار السلطاني- أما في عهد المماليك فقد تغير الحال إذ أصبح الفرمان السلطاني قليل الأثر في تعيين الولاة، وفي بعض الأحيان لم يكن له أي أثر على الإطلاق. إن الذي كان له الأثر الأكبر في تعيين الولاة هو ما ينتهي إليه التنازع بين المماليك أنفسهم فأي مملوك يستطيع أن يكون والياً على بغداد إذا تمكن من التغلب على منافسيه بطريقة من الطرق، وحين يتم له ذلك يجتمع أعيان بغداد وعلماؤها فيكتبون عريضة إلى السلطان يسترحمون منه أن يصدر أمره في منح الوزارة (الولاية) إلى المملوك الغالب وكثيراً ما يستجيب السلطان لاسترحامهم فيرسل إليهم الفرمان المطلوب.

---

١ ـ المصدر السابق ص٦١٠

خلاصة القول أن مركز الثقل في تعيين الولاة قد تحول من اسطنبول إلى بغداد"[١]

لقد أوردنا هذا النص المطول للدكتور علي الوردي لكي نثبت في أحد جوانب بحثنا هنا أن العامل الخارجي ليس هو السبب الرئيسي الأساسي أو الجهة الملومة عن أعمال العنف المتصاعدة التي تصادفنا في العراق خلال هذه الفترة من حكم المماليك على الأقل. فالعنف الدموي والرجال الذين يقومون به وأصحاب القرار الفعلي فيه هم عراقيون بدرجة أساسية، لذلك فإن ما يصادفنا في هذا العهد من أعمال وأحداث دموية تتصف بالقسوة والعنف البالغ والشراسة الهمجية هي في أغلب الأحيان من صنع عراقي وبوحي من إرادة عراقية.

ولكي نبتعد عن الإطالة فسوف نبدأ باستعراض مسلسل أحداث العنف الدموي في عصر المماليك تباعاً

الاضطرابات والصراع الدموي على الحكم في بغداد:

كان أول حاكم من المماليك تولى حكم العراق عام ١٧٤٩م هو سليمان باشا الملقب (أبو ليلة)، ولقب بهذا اللقب لأنه كان يخرج في الليل ليتفقد شؤون الناس ويراقب عمل الدوائر في ضرب العابثين بالأمن والخارجين على القانون.

وقد وصل إلى الحكم بعد حصول فتنة طاحنة قام بها الانكشاريون في بغداد وخربوا مقر الحكومة بالقنابل مما أدى إلى فرار والي بغداد فاضطرت الدولة العثمانية إلى تعيين سليمان باشا والياً مكانه، وكان هذا الوالي صارماً وقوياً وحازماً وشديداً مع الشعب إلا أنه كان ضعيفاً مسلوب الإرادة مع زوجته المغرورة - عادلة خاتون - التي هي بنت سيده السابق، "وقد وصف السائح الألماني نيبور هذه السيدة فقال: إنها لم تنس أن زوجها كان في شبابه مملوكا لوالدها"[٢]، وقد أكثر هذا الحاكم من استخدام المماليك في وظائف الدولة والاعتماد عليهم وصار الصبيان المستوردون يصلون إلى بغداد بأعداد كبيرة.

---

١ - د. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث،ج١ ، مصدر سابق، ص١٥٠

٢ - المصدر السابق، ص ١٥٤.

وبعد وفاته في عام ١٧٦١ عينت الدولة العثمانية علي باشا والياً على بغداد ودامت ولايته مدة سنتين انشغل خلالها في محاربة العشائر العراقية في الجنوب والشمال بسبب أعمال الفوضى والخروج على القانون، وكان منافسوه يريدون التخلص منه، فدبروا محاولة لاغتياله إلا أنه نجا منها. وعلى اثر ذلك انتقل أولئك المنافسون للعمل العلني ضده وكان يقودهم أحد المماليك المدعو عمر باشا وكانت التهمة التي أعلنوها ضده أنه كان موالياً للشيعة وأنه يقسو على الأكراد الذين هم من أهل السنة[1] ، فأعلنوا تمرداً واسعاً ضده في بغداد عام ١٧٦٣م اشترك فيه قسم من سكان العاصمة وأصحاب المحلات، فاحتلوا القلعة التي كانت تمثل الرمز العسكري لسلطة الدولة، ثم أخذوا يلقون القنابل على السراي (مركز الحكومة) وانتشرت المتاريس في طرقات وشوارع بغداد وعمت الفوضى والمظاهرات وانتشرت مظاهر التمرد، فاضطر الوالي علي باشا، الحاكم الفعلي لبغداد والعراق، أن يهرب متنكراً بزي امرأة والتجأ إلى أحد الدور في بغداد، إلا أن صاحب الدار قد أخبر عنه فجاءوا إليه وأخرجوه من البيت وقتلوه[2]

ومن المفارقات الغريبة أن تشهد بغداد حادثة مشابهة بعد (١٩٥) سنة مائة وخمسة وتسعين سنة عندما هرب نوري باشا المسمى نوري السعيد وهو الحاكم الفعلي لبغداد والعراق متنكراً أيضاً بزي امرأة بعد اندلاع الثورة التي أسقطت النظام الملكي في بغداد عام ١٩٥٨م والتجأ إلى أحد الدور في بغداد إلا أنه اضطر لمغادرة تلك الدار للالتجاء إلى إحدى السفارات الأجنبية في العاصمة إلا أن الناس في بغداد اكتشفوا أمره واعتقلوه ثم قتلوه وسحلوه. وبعد مقتل علي باشا اجتمع وجهاء بغداد وعلماؤها وأعيانها كالعادة وكتبوا إلى اسطنبول يطلبون من السلطان العثماني تعيين عمر باشا فجاءت موافقة السلطان على تعيينه والياً على بغداد، وفي عهده لعلع صوت العنف والموت عالياً في عموم أرجاء العراق...

فقد دشن عمر باشا عهده بالهجوم على العشائر العراقية التي كانت قد أقامت حلفاً فيما بينها في الفرات الأوسط بقيادة شيخ الخزاعل حمود الحمد

---

١ ـ المصدر السابق، ص١٥٦

٢ ـ المصدر السابق، ص١٥٦.

فاشتبك جيش الحكومة معهم في معركة طاحنة انتصر فيها الجيش ونهب خيام العشائر وأموالهم وحاجياتهم بعد أن قتل وأسر عدداً كبيراً منهم.

ثم وجّه حملة عسكرية ضد عشائر المنتفق قرب البصرة، ورغم انتصاره هناك وانسحاب تكتل العشائر أمام جيش الحكومة إلا أن عمر باشا أقدم على قتل الوسيط عبد الله الشاوي من رؤساء عشيرة العبيد معتبراً أن وساطته لم تكن تخلو من الخيانة، وعلى اثر إعدام الشاوي تمردت عشيرة العبيد في منطقة الدجيل شمال بغداد، فاضطر الوالي عمر باشا للعودة بجيشه مسرعاً إلى بغداد للهجوم عليهم والاشتباك معهم...

ثم حدثت فتنة في كردستان بين آل بابان فالتجأ محمد باشا بابان إلى حاكم إيران كريم خان الزند فأمده بالأموال والقوات وعاد إلى العراق فوقعت بينه وبين قوات عمر باشا معركة شديدة كان النصر فيها لقوات عمر باشا وسقط الآلاف من القتلى.

وفي عام ١٧٧٥ وبعد تدهور الوضع في شمال العراق تقدم الجيش الإيراني وحاصر البصرة ودام الحصار سنة وشهرا تفاقمت المجاعة في المدينة فأكل الناس القطط والكلاب ثم دخل الجيش الإيراني واحتل البصرة وأسر الوالي سليمان آغا الذي استسلم بأمر السلطات التركية وتم نقله إلى تبريز.

أرادت اسطنبول التخلص من عمر باشا بعد تدهور الوضع في العراق وسقوط البصرة بيد الإيرانيين، فأرسل العثمانيون ثلاثة من القادة ومعهم أعداد من العسكر وتظاهروا بدعم عمر باشا غير أن اسطنبول كانت قد عينت أحد هؤلاء الثلاثة ويدعى مصطفى باشا والياً على بغداد وخولته صلاحية قتل الوالي عمر باشا إذا امتنع عن تسليم الولاية خوفاً من تمرده على الدولة العثمانية وحين علم عمر باشا بأمر إقصائه غادر بغداد مع عدد من أصحابه بعد أن «أفرغ الخزانة هو وخدامه»[1]، وخيّم في منتصف طريق الكاظمية (وهي من أحياء بغداد حالياً) فأرسل مصطفى باشا جماعة من الجنود ليهاجموه ليلاً ولكنه علم بالأمر فهرب، إلا أنه سقط من الفرس وانكسرت رقبته فعثر عليه أحد الجنود فقطع رأسه وجاء به إلى مصطفى باشا فأرسل الوالي مصطفى هذا الرأس إلى اسطنبول.

---

١ ـ ستيفن لوكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، مصدر سابق، ص٢١٨.

بقي مصطفى باشا والياً على بغداد مدة ثمانية أشهر، عُزِل في نهايتها وسيق إلى ديار بكر مخفوراً وهناك قطع رأسه بأمر السلطان. ويقول ستيفن لونكريك: ((بل هرب إلى الموصل ومنها إلى ديار بكر حيث كان ينتظره القبوجي الذي أخذ رأسه بيده إلى اسطنبول بعد بضع ساعات))[1]

إن مثل تلك الأعمال الدموية آنفة الذكر وغيرها مما سيصادفنا لاحقاً تؤكد أن العراق مازال مستمراً - كما في السابق - بتصدير الرؤوس الآدمية المقطوعة بكل الاتجاهات.

بعد ذلك صدر قرار بتعين زعيم المماليك عبد الله باشا والياً على بغداد.

وتواصلت الاضطرابات والفتن والفوضى وزاد الوضع العام تفسخاً وفساداً مما هيأ الفرصة لظهور زعامات محلية في الأحياء الشعبية ومن أمثلة ذلك بروز شخصية محمد العجمي وهو أحد القوادين المعروفين في بغداد حيث أصبحت له سطوة ونفوذ وشعبية كبيرة وأيدته محلات الفضل والقراغول والميدان في بغداد ومال الوالي عبد الله باشا لدعم محمد العجمي بينما أيدت أحياء أخرى في بغداد زعيماً محلياً آخر اسمه إسماعيل آغا.

ولا نريد التوسع في الحديث عن موضوع زعامات بغداد الشعبية رغم مافيه من طرافة وتشويق لضيق المجال، إلا أننا نستطيع القول بأن ذلك كان مألوفاً في بغداد منذ أيام العيارين والشطار في العصر العباسي ومابعده وامتد طويلاً في تاريخ بغداد خصوصاً في الفترات التي ضعفت فيها سلطة الحكومة المركزية.

وبإمكاننا اعتبار ظاهرة الشقاوات وعصابات البلطجية في بغداد الذين كانوا يتميزون بالقوة والقسوة والشجاعة والنزعة الدموية في القتل مع الاحتفاظ ببعض قيم الفروسية في النخوة ونجدة المظلوم وحماية الجار والحفاظ على العهود والتي بقيت موجودة ومعروفة حتى الخمسينات والستينات من القرن العشرين في بغداد قبل زوالها نهائياً، هي الامتداد الطبيعي لتلك الظاهرة القديمة من زعامات الأحياء والتي هي في الأساس إحدى مظاهر انتشار وسيادة شريعة العنف الفردي في المجتمع العراقي

---

١ ـ المصدر السابق، ص٢١٩

وخلال تلك الفترة توفي حاكم إيران كريم خان الزند فاضطر الإيرانيون للخروج من البصرة والانسحاب منها دون قتال، وعاد إلى البصرة من إيران واليها الأسير سليمان آغا الذي سيكون له شأن كبير في تاريخ العراق، فهو ذاته الذي سمي فيما بعد سليمان باشا الكبير.

وفي عام ١٧٧٩م كثرت في بغداد العصيانات المدنية والشجار والفتن، وخرج الأهالي يصرخون ويهتفون ضد الوالي مما دفعه إلى الهرب خارج العراق فانتهز سليمان آغا والي البصرة العائد من الأسر مناسبة الفوضى والاضطرابات الناشبة في بغداد وعموم العراق وهروب والي بغداد فقام بمراسلة السلطان طالباً منه توليته على بغداد ليقطع دابر الفتنة والفوضى في العراق فوافق السلطان على تعيينه والياً على بغداد في عام ١٧٨٠م ودام حكمه مدة (٢٢) اثنتين وعشرين سنة واعتبر عهده العهد الذهبي للمماليك في العراق وتحول إلى ما يشبه الأسطورة في التاريخ العراقي الحديث.

وقد عثرنا على بعض التلميحات المقتضبة عن دعم خفي تلقاه والي البصرة سليمان باشا من أحد أصدقائه الحميمين من الإنكليز وهو الوكيل البريطاني المستر لاتوش في مسعاه للحصول على موافقة اسطنبول على تعيينه والياً على بغداد ((لأنه كان صديقه ودائنه في الوقت نفسه زيادة على أنه كان وسيطه الخاص في تحويل المبالغ العظيمة إلى اسطنبول))[1] ، لذلك لابد وأن يكون ذلك الدعم قد ساعد على صدور قرار السلطان بالموافقة على تعيينه والياً على بغداد والعراق...

ولعل من المفيد أن نشير إلى الانتعاش الذي شهدته الحركة التجارية في البصرة والخليج وشط العرب في الفترة التي سبقت احتلال إيران لمدينة البصرة، كما انتعش نشاط شركة الهند الشرقية، ويصف ستيفن لونكريك ذلك فيقول" ((ثم أصبحت التجارة رابحة سنة بعد أخرى. فكان للوكيل الأفرنسي - وهو قس في بادئ الأمر وعلماني فيما بعد - محل ثابت في البصرة من بعد ١٧٥٥م (١١٦٩هـ). ورحل البرتغاليون عنها نهائياً ثم انتقل الهولنديون إلى جزيرة خرج ١٧٥٢م. وكان عدد من الإيطاليين يترددون إلى الميناء (البصرة) ويقضون

---

١ - المصدر السابق، ص٢٣٤

مآربهم التجارية، وصار بوسع الأرمني واليهودي أن يعامل هناك الفارسي والهندي، واشتغل العرب اليمانيون بجلب القهوة من اليمن والرجوع إلى بلادهم مستبضعين تمراً، وكانت شركة الهند الشرقية تستجلب من الخارج اللوازم المعدنية والأقمشة الصوفية فتستبدل بها الحرير الإيراني والنقود»[1]

كما نجد بعض الإشارات عن وجود القليل من قطع الأسطول الإنكليزي في شط العرب، وقد ذكر أن من بين تلك السفن السفينة المسماة (سي هورس) التي كان على ظهرها في ذلك الوقت ضابط الصف البحري نلسون[2] الذي ذاع صيته فيما بعد واشتهر كقائد بحري أسطوري بين قادة الأساطيل البريطانية.

العنف في عهد سليمان باشا الكبير - ١٧٨٠ م

كان السلطان العثماني قد أصدر قراراً بتعيين سليمان باشا والياً على بغداد عام ١٧٨٠م وقد توجه هذا الوالي الذي كان في البصرة إلى بغداد بمسيرة بطيئة توقف فيها بعدد من المناطق وكانت مسيرته تلك أشبه باستعراض للقوة حيث أراد أن يؤكد فيها قوته وشخصيته ونفوذه وصلاحياته وكثرة مؤيديه، فقد أحاط نفسه وموكبه بقوات عشائرية ضخمة مسلحة خلال توجهه نحو بغداد. وقد بدأ سليمان باشا عمله في العاصمة بالقضاء على محمد العجمي وعصابته مما أدى إلى هربه لإيران.

ثم توجه إلى الخزاعل الذين سيطروا على الفرات الأوسط مدة ثماني سنوات، وفي عام ١٧٨٢م توجه إلى كردستان لإخضاع ثورة قام بها محمود باشا بابان، فهرب محمود إلى إيران، فعين الوالي مكانه شخصاً اسمه إبراهيم بك بابان، وقام هذا بإنشاء مدينة السليمانية التي سماها نسبة لاسم الوالي سليمان باشا وليّ نعمته[3]. ومن الأعمال التي اتسمت بالعنف الدموي في عهده قيام المتظاهرين الجياع في بغداد بالهجوم على السراي إثر المجاعة المروعة التي حلت بالعراق عام ١٧٨٦م وحملوا علم الشيخ عبد القادر الكيلاني وشتموا الوالي وطالبوا بعزله،

---

١ - المصدر السابق، ص٢٢٦.

٢ - المصدر السابق، ص٢٢٩.

٣ - د. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج١ ، مصدر سابق، ص١٧٢

فأمر الوالي بفتح النيران على المتظاهرين فسقط عـدد مـن القتلى، وأمـر باعتقـال الرؤساء والنشطين منهم، فشـنق بعضهـم علـى الفـور وسـجن البـاقين. وفي عـام ١٧٨٧م استطاع حلف عشـائري واسـع اشـترك فيـه عشـائر العبيـد والمنتفـق والخزاعل أن يمد نفوذه من الفرات الأوسط حتى البصرة وأن يهـدد جديـا حكـم المماليك، حيث فرضت العشائر سيطرتها على البصرة مما أجبر محافظها المملوكـي إبراهيم بك إلى الهرب الى مسقط، وظلت البصـرة تحت حكـم شيوخ العشائر بضعة أشهر مما دفع حكومة بغداد إلى حشد قوات كبيرة زحفت تجاه البصـرة، فدارت معركة رهيبة في مكان قـرب البصـرة يسـمى (أم الحنطـة) أدت إلى دحـر قوة العشائر وعودة سيطرة المماليك على البصرة. وقد وصف الرحالـة البريطـاني توماس هاول تلك المعركة بقوله: ((إنها لابد كـانت مذبحـة رهيبـة فـالميدان كلـه مغطى بعظام الرجال والخيول))[١]

ويبدو من خلال هذا الوصف الذي يسوقه الرحالة البريطاني تومـاس هـاول (THOMAS HOWEL) إن ميدان المعركة لم ينظف من جثث القتلى ومن الخيـول الميتة فبقي على حالة حتى استحالت الجثث بعد فترة من الزمن إلى عظام متنـاثرة في الميدان حيث تسنى لهذا الرحالة وصفها على الحال التي رآها فيها، وإذا عرفنـا أن هذا الرحالة قد زار موقع المعركة بعد حدوثها بخمسة أشهر لا أكثر[٢] ، فإنـه يصبح بإمكاننا أن ندرك أن بروز عظـام جثـث الرجـال والخيـول وتناثرهـا علـى أرض المعركة لم يكن بسبب تقادم الزمن واهتراء الجثث فحسب، بـل ربمـا كـان بسبب نهشها من قبل الضواري والذئاب أيضاً.

وليسـت هـذه الحادثـة هـي الوحيـدة الـتي تنفـرد بهـذه الفظاعـة والقسـوة والهمجية، إنها حالة تكررت في التاريخ العراقي مما لايترك مجالاً للشـك أن بـلاداً تتناثر عظام أبنائها القتلى بالآلاف كل مرة على مساحات واسعة مـن الأرض في حروب دموية طاحنة متواصلة دون أن تجد من يدفنها رغم مرور الأيام هي بلاد تتعرض بالتأكيد إلى أعلى درجات القسوة.

---

١ ـ مجموعة باحثين، العراق في التاريخ ، ص٦١٣

٢ ـ المصدر السابق، ص٦١٣.

الورثة يتقاتلون:

توفي سليمان باشا الكبير عام ١٨٠٢م/١٢١٧هـ وفي أعقاب موته حدثت فتنة كبيرة ودموية في بغداد بين المتنافسين على خلافته وبعضهم من أقاربه وأصهاره.

ويشير الدكتور علي الوردي أن الصراع بين خلفائه اخذ طابع الفتنة الطائفية وقد انحصر الخلاف بين علي باشا وأحمد آغا، وبعد معارك في الشوارع واحتلال للقلعة والسراي وقصف مدفعي شمل بعض الأحياء في المدينة، إضافة الى عمليات نهب واسعة للدكاكين والمحلات التجارية والأسواق وحرائق وهجمات متبادلة على الكمائن والمتاريس داخل المدينة، انكشف الموقف أخيرا بانتصار علي باشا وسيطرته التامة على بغداد واختفى خصمه أحمد آغا بعد أن أُحرقت داره وسبيت نساؤه ونهبت أمواله، ونودي في بغداد بتخصيص جائزة ثمينة لمن يعثر عليه[١]، وبعد يومين اعترف أحد أعوانه ودلّهم على مكان اختفاء أحمد آغا فهجموا على البيت وأخرجوه ثم قادوه إلى السراي وأحضروه أمام علي باشا الذي (أمر بتقطيعه)[٢] ، فسحبوه إلى وسط حي الميدان، وراحوا يضربونه بالسيوف والخناجر حتى قطّعوه.. فانتهى نهاية مأساوية تعيسة، كما شنقوا أربعة عشر من أتباعه من بعده[٣] ، ولابد أن يكون القارئ قد تنبه إلى عبارة (أمر بتقطيعه) الواردة آنفاً فهي تتضمن الأمر بإنزال عقوبة التقطيع بحق أحمد آغا وهي العقوبة التي ربما ينفرد بها قاموس العنف الدموي العراقي دون غيره، إذ من المرجح أن لا توجد مثل تلك العقوبة في جميع بلدان العالم...

ونلفت نظر القارئ إلى كثرة التشابه في الوقائع الجارية في التاريخ العراقي حتى يصل ذلك التشابه في بعض الأحيان حد التطابق رغم الفرق الزمني الكبير الذي يصل أحياناً إلى بضعة قرون أو أكثر.

---

١ ـ ستيفن لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، مصدر سابق، ص٢٦٧

٢ ـ د. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج١، مصدر سابق، ص٢٠١

٣ ـ يمكننا أن نلفت نظر القارئ بأن تخصيص جائزة للعثور على قائد أو سياسي أو مسؤول أو رئيس حزب أو شاعر هارب في بغداد هو إجراء اعتادت عليه هذه المدينة كثيراً في التاريخ منذ إنشائها، وربما كانت الجائزة التي خصصت لمن يعثر على نوري السعيد رئيس وزراء العراق في صباح يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ هي آخر تلك الجوائز الممنوحة في هذا الشأن.

كانت أولى الأعمال التي قام بها علي باشا هو توجهه لإخضاع الأكراد في الشمال، كما حصلت في عهده اضطرابات عشائرية في مناطق أخرى من العراق.

وقد قتل علي باشا وهو يصلي، حيث انقض عليه شخص اسمه مدد بك الأباضي مع خدامه بالخناجر وقتلوه في الحال[1] ، والتجأ القتلة إلى بيت سعيد بك بن سليمان باشا الكبير فطردهم، فذهبوا إلى دار نصيف آغا فاستقبلهم ثم أخذهم إلى دار النقيب السيد رمضان مسؤول أوقاف الشيخ عبد القادر الكيلاني.

تولى الأمر سليمان باشا الصغير عام ١٨٠٨م/١٢٢٣هـ فأمر بقصف دار النقيب بالمدفعية مما اضطر القتلة المحتمين بها إلى ترك الدار، ثم نظموا مع ناصيف آغا مظاهرة وتوجهوا نحو السراي مطالبين بتنصيب ناصيف آغا فهاجمهم الجند والأهالي وفرقوهم، فعبر ناصيف وجماعة من المتظاهرين إلى الجانب الآخر من نهر دجلة، وهو جانب الكرخ «يحرض الناس على مساعدة القتلة فلم يتبعه الناس بل حملوا عليه وقتلوه ثم شدوا في رجله حبلاً و(سحلوه) في الأزقة وعبروا به إلى جانب الرصافة والناس يتفرجون عليه»[2]

ويبدو لنا أن حادثة السحل هذه هي الحادثة الأكثر شبهاً من حيث التنفيذ والإخراج بحوادث السحل التي تعرض لها عدد من أفراد العائلة الملكية في العراق عام ١٩٥٨م أي أن يتم القتل في الكرخ ويسحل القتيل إلى الرصافة والناس يتفرجون عليه

استتب الأمر لسليمان باشا الصغير بعد وصول الفرمان بموافقة السلطان على تعيينه والياً. وقد كثرت المشاغبات والمشاغبون ضده وصاروا يتهمونه بالميل إلى المذهب الوهابي وكتبوا إلى اسطنبول بذلك.

وفي عهده جهز حملة ضخمة وسار بها نحو الشمال لقتال القبائل المتمردة وتأديبها، وفي أجواء من الفتن والدسائس التي كانت تسود في تلك الفترة أرسلت اسطنبول شخصاً اسمه (حالت أفندي) للتآمر على سليمان باشا الصغير

---

١ ـ ستيفن لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص٢٧٠.

٢ ـ د. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج١ ، مصدر سابق،ص٢٠٧ ، نقلاً عن ياسين العمري.

وإضعافه فاستمال هذا الشخص أهل الموصل وجهز جيشاً كبيراً قوامه خمسة عشر ألفاً تشكل معظمه من أهل الموصل وبعض العشائر وانضم إليهم عبد الرحمن بابان وجماعته، وزحف الجيش نحو بغداد، ووصل إلى منطقة بعقوبة فخرج سليمان من بغداد على رأس جيش حكومي وتواجه الجيشان استعداداً للقتال.

وخلال ذلك قام رجل في بغداد اسمه عبد الرحمن آغا الموصلي بفتنة وعصيان وحرض أهل الموصل المقيمين في بغداد ضد سليمان باشا وهاجم القلعة وقتل رئيس الانكشارية، فاضطر الوالي سليمان للعودة إلى بغداد وأخذ يتعقب أهل الموصل في العاصمة وينتقم منهم وأمر أن يرحلوا عن بغداد كما أصدر قراراً يمنع فيه أي شخص من أهل الموصل السكن في بغداد فكان قراراً عجيباً، لكن بغداد قد اعتادت على الحكام ذوي القرارات العجيبة منذ مئات السنين.

وخلال انشغال سليمان باشا بأهل الموصل في بغداد تقدم حالت أفندي بجيشه واقترب من بغداد. وفي تشرين الأول عام ١٨١٠م وقعت المعركة الفاصلة وبان النصر التام لسليمان باشا الصغير، ولكن في الصباح وجد أتباعه وجماعته (العراقيين) قد تفرقوا عنه بعد أن علموا بالفرمان السلطاني و لم يبق معه سوى ثلاثين رجلاً فاتجه بهم نحو الجنوب وعبر نهر ديالى وهناك اغتيل على يد عشيرة الدفافعة من شمر طوقة وجاء القتلة برأسه إلى حالت أفندي فأمر بسلخ الرأس وإرساله إلى اسطنبول عن طريق الموصل. ولما مرّ الرأس المسلوخ بالموصل فرح الناس به شماتة وكان يوم مرور الرأس بالموصل يوماً مشهوداً...

وهكذا سرعان ما يصفق العراقيون للعنف الدموي رغم أنهم أولى ضحاياه

كان حالت أفندي يحمل فرماناً خالياً من الاسم فعين أحد المماليك والياً على بغداد واسمه عبد الله آغا التوتونجي الذي دامت ولايته سنتين ونصف السنة.

وكان هذا الشخص (التوتونجي) يريد القضاء على سعيد بك بن سليمان باشا الكبير بعد أن طالب جماعة من أهل بغداد بتنصيبه والياً بدلاً من التوتونجي فهرب سعيد والتجأ عند حمود الثامر شيخ المنتفق في منطقة سوق الشيوخ التابعة لولاية البصرة، فجهز عبد الله آغا التوتونجي حملة عسكرية وتوجه بها نحو منطقة

سوق الشيوخ لإخضاع شيخ المنتفق حمود الثامر لأنه آوى عنده سعيد بك بن سليمان باشا الكبير.

حشد شيخ المنتفق عشرين ألف مقاتل لمساعدة سعيد بك. وقد وصل جيش الوالي التوتونجي قرب سوق الشيوخ وكان الجيش مجهزاً بالمدافع فشتت شمل العشائر ودحرهم ولم يبق مع سعيد سوى ثلاثين رجلاً أيضاً تماماً كما حصل مع الوالي السابق سليمان باشا الصغير قبل مقتله، وفجأة حدث ما لم يكن متوقعا، فقد انقلب العراقيون من أصحاب الوالي وقواده العسكريين وجيشه المنتصر وانحازوا إلى جانب سعيد بك، وحجتهم في ذلك الموقف أنهم تذكروا نعمة أبيه سليمان الكبير عليهم وهم يريدون الوفاء له ولابنه[1].

وهكذا لم يبق مع الوالي المنتصر (التتونجي) غير مائتين من أتباعه وجنده، .. فهجمت العشائر على معسكره، ونهبته نهباً ذريعاً، ووقع الوالي التتونجي اسيراً مع قائد جيشه المدعو طاهر آغا، فقادوهما إلى منطقة (سوق الشيوخ) وهناك قطعوا رأسيهما ورموهما تحت أقدام سعيد بك

العنف في عهد سعيد باشا:

بعد تفكك أتباع الوالي التوتونجي فجأة وانقلابهم ضده وانحياز الجنود إلى عدوه سعيد باشا وتعرض الوالي وقائد جيشه طاهر آغا إلى الهزيمة ثم اعتقالهما وسوقهما إلى مدينة سوق الشيوخ حيث قطع رأساهما وألقيا تحت أقدام سعيد باشا الذي كان مدحوراً ويائساً من النصر تماماً فقد بان النصر فجأة لسعيد باشا بفضل ذلك التبدل المفاجئ في مزاج الجيش الزاحف من بغداد ضده وانقلابه على قيادته، وعلى أثر ذلك عاد سعيد باشا الذي حصل على لقب الباشويه إلى بغداد من الجنوب منتصراً يصحبه شيخ المنتفق حمود الثامر واستلم الفرمان العثماني بتعيينه والياً على بغداد وكان ذلك في عام ١٨١٣م.

وخلال عهده ثارت العشائر في الفرات الأوسط مما شجع عشائر الجرباء والظفير على العصيان، فعمت الفوضى وانقطعت الطرق وساد السلب والنهب وحوصر أربعون ألفاً من الزوار الايرانيين القادمين لزيارة العتبات المقدسة في

---

١ ـ المصدر السابق، ص٢١٧.

العراق بينهم زوجة الشاه في كربلاء وأصبحت أموالهم وأرواحهم مهددة بالخطر الفعلي من قبل العشائر وقطاع الطرق، فخاف الوالي حصول نهب أو هجوم على الزوار الإيرانيين قد يدفع إيران لغزو العراق واحتلاله أو يتسبب ذلك في غضب السلطان في اسطنبول عليه مما اضطره إلى تعيين زوج أخته داوود آغا قائداً للجيش لضبط الحالة في البلاد إلا أنه اضطر إلى عزله بعد اعتراض والدته نابي خانم بشدة على تعيينه بسبب خلافات عائلية[1]

استتبت الأمور للوالي سعيد باشا في بغداد، إلا أنه وقع في عشق غلام مليح من أهل بغداد اسمه (حمادي العلوجي) وهام به فسيطر هذا الغلام عليه سيطرة تامة وشُغِل به انشغالاً كبيراً أضاع كل وقته وألهاه عن أمور الدولة فسادت الفوضى في البلاد من أقصاها إلى أقصاها على كل صعيد وتدهورت أحوال الحكم وانتشرت الاضطرابات[2] فتمردت مدينة مندلي واشتد العداء بين سكان النجف بعد أن انقسموا إلى فريقين، كذلك امتد لهيب العصبية القبلية بين أهل كربلاء فحارب بعضهم بعضاً وانتشر التذمر في صفوف المماليك بسبب تدخلات غلام الوالي في شؤون البلاد العليا وشؤون المماليك بصورة خاصة فالتفوا حول داوود آغا الذي عزله سعيد باشا فأصبح زعيماً للمعارضة. وفي عام ١٨١٦م غادر داود آغا بغداد وذهب إلى كركوك حيث تلقى دعماً من الأكراد وبالذات من محمود باشا بابان وكثر أتباعه والتحق به أغوات بغداد. ويبدو من خلال هذه الوقائع والوقائع الأخرى المشابهة أن ذهاب السياسيين العراقيين المعارضين إلى المنطقة الكردية والتحالف مع الأكراد لإسقاط الحكم في بغداد أو لإحداث تغيير سياسي فيها هو ديدن عراقي تاريخي قديم جداً وليس ابتكاراً حديثاً كما يتوهم البعض في العصر الحاضر.

العنف في عهد داوود باشا:

خلال وجود داوود باشا في كركوك استطاع الاتصال مع (حالت أفندي) وإجراء بعض الاتفاقات معه، وقد مر بنا ذكر هذا الشخص سابقاً، وهو من

---

١ ـ المصدر السابق، ص٢٢١

٢ ـ المصدر السابق، ص٢٢٣

أصحاب الحظوة والنفوذ في اسطنبول، وذلك لكي يحصل له على فرمان (قرار) بتعينه والياً على بغداد بدلاً من سعيد باشا، وبالفعل فقد استطاع (حالت أفندي) الحصول على ذلك الفرمان (القرار). ومن المفيد الإشارة إلى المساعدة الهامة والحيوية التي تلقاها (حالت أفندي) من شخص يهودي متنفذ في بغداد اسمه عزرا. وعزرا هذا له أخ مقيم في اسطنبول اسمه حسقيل تجمعه مع (حالت أفندي) علاقات صداقة وعمل تجاري، حيث استطاع عزرا اليهودي مغافلة الموظفين الذين يعملون في سك النقود في بغداد فكتب على بعض النقود اسم سعيد باشا بدلاً من الطغراء السلطانية (وهي كليشة عثمانية خاصة) ثم قام بإرسال تلك النقود التي تحمل اسم سعيد باشا إلى (حالت أفندي) فكانت تلك ذريعة قوية بيده لاقناع المسؤولين في اسطنبول بأن سعيد باشا يطبع النقود باسمه وليس باسم السلطان كما هو مفترض، وبذلك استطاع عزل سعيد باشا والحصول على قرار سلطاني بتعيين داوود باشا والياً[1] ، وعلى أثر صدور ذلك القرار تحرك داوود بقواته مع من تبعه من الأكراد متجهاً نحو بغداد... وأراد سعيد باشا الانصياع والتسليم وعدم المقاومة إلا أن عشيقه الشاب حمادي آغا منعه من ذلك وشجعه على الصمود والعصيان، فنشبت المعركة في عام ١٨١٧م (أي قبل دخول الجنرال الإنكليزي مود واحتلال بغداد بمائة عام) وكانت بغداد تغلي بالتذمر والنقمة، كما حصل هيجان وتمرد في الأحياء بسبب ضيق الأحوال المعاشية وارتفاع الأسعار، وكثر السلب والنهب والسرقات، فلجأ الوالي سعيد واتباعه إلى القلعة وتحصنوا بها وشاعت الفوضى واستمر دوي المدافع وأصوات البنادق وهوسات العشائر وأناشيد الانكشاريين وجرح عشيق الوالي فانشغل به كل الانشغال في إحدى غرف القلعة لا يفارقه أبداً غير مهتم بما يحصل في الخارج.

في شباط ١٨١٧م دخل داوود باشا بغداد فاستقبله الأهالي استقبالاً حافلاً.، وراح أتباعه يبحثون عن الوالي سعيد باشا فوجدوه لائذاً في حضن أمه نابي خانم وهي زوجة سليمان باشا الكبير. ويصف ستيفن لونكريك مقتل سعيد باشا فيقول: «بينما كانت الأم تعانق ابنها وتفديه.. وهي تصرخ متضرعة طالبة الرحمة ... أنزلت ضربة قدّوم حرب (بلطة) بالفريسة فبقي بيد الأم الثكلى الجسد وحده مجرداً

---

١ ـ المصدر السابق، ص٢٢٥.

عن الرأس))[1] ويستدل من هذا النص أن رأس سعيد باشا قد تدحرج على الأرض بضربة فأس حادة بينما بقي جسده في حضن والدته المفجوعة

التصفيات الدموية تطحن العائلة الحاكمة:

ولكي يتوضح للقارئ حجم الفاجعة التي حلت بالعائلة الحاكمة في بغداد في أوائل القرن التاسع عشر خلال هذه الحادثة نوضح الروابط العائلية بين الأفراد الذين نكبوا فيها بعد أن نكل بعضهم ببعض:

سليمان باشا الكبير: الوالي المعروف وهو زوج نابي خانم ووالد سعيد باشا.

سعيد باشا: والي بغداد الذي انهزم أمام جيش داوود باشا وقتل في حضن والدته نابي خانم.

نابي خانم: هى زوجة سليمان باشا الكبير وأم الوالي سعيد باشا الذي قتل في حضنها.

داوود باشا: هو زوج أخت سعيد باشا أي أنه زوج ابنة نابى خانم التى اعترضت بشدة على تعيينه قائداً للجيش مما اضطر سعيد باشا لعزله وداوود هو الوالي الجديد الذي دخل جيشه بغداد وقتل الوالي القديم سعيد باشا وهو في حضن والدته، إضافة إلى ذلك فإن داوود كان في أول حياته مملوكاً اختطف من أهله في جورجيا وبيع في بغداد عدة مرات حتى انتهى إلى بيت سليمان باشا الكبير الذي احتضنه وربّاه في بيته وعندما كبر زوّجه ابنته التى هى أخت سعيد باشا الذي أصبح والياً والذي قتله داوود بالبلطة.. لقد مرّ وقت كان جميع هؤلاء الأشخاص الذين قتلوا بعضهم بعضا يعيشون في بيت واحد هو بيت سليمان باشا الكبير. إنها المطحنة الدموية التى طحنت العائلة الحاكمة ومزقت لحم أفرادها فوق أرض العراق. فلم تشفع لأي منهم أية علاقات من القرابة والعشرة والحياة المشتركة في بيت واحد.

---

١ ـ ستيفن لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص٢٨٧

الفتن والاضطرابات تتواصل

استتب الأمر لداوود باشا في ولاية بغداد منذ دخولها عام ١٨١٧م إلا أن عهده قد شهد فتناً واضطرابات ومشكلات لاحصر لها منذ السنة الأولى لحكمه، وكانت أولى المشاكل هي مشكلة التمردات المتواصلة التي كانت تقوم بها العشائر العراقية في جميع المناطق تقريباً وقد استغلت تلك العشائر النزاعات الدموية بين الولاة المماليك واعتبرتها فرصة ذهبية لتعزيز مواقعها والسيطرة على القوافل وفرض الأتاوات والقيام بأعمال الغزو.

كذلك تصاعد الموقف والنزاع مع إيران وذلك بعد تصاعد الصراع بين القادة الأكراد واستنجاد بعضهم بإيران ضد خصومهم من الأطراف الكردية الأخرى كالنزاع الذي حصل بين أمراء آل بابان. وفي عام ١٨١٨م تقدمت عشيرة بدوية من بغداد تسمى (الصقور) فوصلت إلى منطقة المسيب وأخذت تعبث بالأمن وتقطع الطرق فوجه داوود باشا حملة عسكرية ضدها بقيادة يحيى آغا ودارت المعركة فانتصرت العشيرة على جيش الحكومة وكان انتصارها مبررا لعصيانات وتمردات قامت بها العشائر الأخرى. ففي الشمال تمرد شيخ شمر وفي الجنوب تمردت عشائر عفج وجليحه وآل فتلة. وصارت عشيرة الظفير تقطع الطرق وتهدد زوار مدينة النجف وكربلاء مما اضطر داوود للمباشرة بعمليات قمع واسعة في الشمال والوسط والجنوب[1]

تعزيز النفوذ البريطاني:

غير أن التطور الأهم هو تعزز النفوذ البريطاني على نطاق واسع وفرض السطوة البريطانية في التدخل التدريجي في شؤون العراق من خلال النشاط الاستثنائي المنظم الذي قام به أحد الموظفين البريطانيين الذي كان برتبة قنصل وهو المستر ريج، وقد حصل نزاع شديد بين داوود باشا والقنصل البريطاني، وكان داوود باشا قد أعلن في عام ١٨٢٠م مضاعفة الرسوم المفروضة على الصادرات والواردات البريطانية فاحتج المستر ريج على ذلك مدعياً أن لبريطانيا

---

١ ـ د. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج١ ، مصدر سابق، ص٢٣٦.

حقوقاً خاصة أقرتها لها اسطنبول وكان جواب داوود باشا بأنه لا يقبل بأي حق أوروبي في بغداد مما دفع المستر ريج أن يصدر أمره إلى نائبه في البصرة بمنع السفن القادمة من الهند الدخول إلى ميناء البصرة كما أمره بمنع السفن الداخلة من الخروج[1] ويبدو من خلال تلك المعلومات أن المستر ريج وهو ممثل بريطانيا - الدولة العظمى في ذلك الوقت قد فرض الحصار على العراق في تلك الأزمة بينه وبين والي بغداد داوود باشا قبل مغادرته العراق عام ١٨٢١م إلى شيراز. وقد خلفه في عمل القنصلية في بغداد الكابتن تيلر الذي كان على وفاق مع داوود باشا فساد الصفاء والود بينهما.

((وفي عام ١٨٢٣م عقدت اتفاقية مع داوود باشا نظمت العلاقة بشكل تفصيلي، وضمنت لبريطانيا النفوذ الأول في العراق. ونصت على تعهد والي بغداد بالالتزام بنصوص الامتيازات الأجنبية كما هي محددة في المعاهدات العثمانية والفرمانات السلطانية قديمها وحديثها))[2]

وفي عام ١٨٢٠ انتشر وباء الكوليرا في البصرة قادماً من بعض مدن الخليج مثل بندر عباس وبوشهر وكان انتشاره واسعاً في البصرة حتى ((كاد أن يفني أهل البصرة))[3]، ثم انتشر إلى المدن العراقية الواحد بعد الأخرى. وخلال حكم داوود باشا زحف الجيش الإيراني نحو بغداد لاحتلالها بسبب سوء معاملة الزوار الإيرانيين في العراق والتجأ بعض القادة الأكراد إلى إيران، وخلال تقدم الإيرانيين في كركوك قاموا بإعدام عدد من الفلاحين التركمان الذين لم يرق لهم أن يخضعوا لحاكم إيراني[4] ، وعند اقتراب الجيش الإيراني من بغداد، وكان على وشك دخولها ، انتشرت الكوليرا فيها ثم انتشرت في صفوف الجيش الإيراني حتى أصيب به قائد الجيش الإيراني الزاحف، وهو حاكم إيران في ذلك الوقت، ويدعى الشاهزادة، مما اضطره لطلب الصلح، وما أن عاد إلى مقره في كرمنشاه حتى مات وعمت الأفراح في مدينة بغداد بنبأ موت شاهزاده بينما كان الموت يطحن في ذات الوقت أبناءها الذين يتساقطون بالآلاف بمرض الكوليرا المهلك.

---

١ ـ المصدر السابق، ص٢٤٢.

٢ ـ مجموعة باحثين، العراق في التاريخ، مصدر سابق، ص٦١٨.

٣ ـ د. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج١، ص٢٤٤.

٤ ـ ستيفن لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص٢٩٤.

ولعل الأفراح المقنّعة التي عمت بغداد عند وفاة الأمام الخميني بعد انتهاء الحرب العراقية الإيرانية هي الصورة المأساوية المكررة المشحونة بالشماتة البغيضة التي تجعل من الموت مناسبة للفرح...

واشترى داوود باشا ـ بينما البلاد على تلك الحال ـ مصنعاً للبنادق من أوروبا كما أسس مصانع للمنسوجات لتلبية حاجات الجيش من الملابس.

إن شراء مثل ذلك المصنع للبنادق في تلك الظروف التعيسة التي كان يمر بها العراق ربما كان إحدى المفارقات المحزنة في الحياة العراقية إذ ليس من الصعب القول أن بلاداً تجتاحها الأمراض والأوبئة الفتاكة وتغرق في أوحال الفيضانات المتكررة وتعاني كل ذلك الخراب والدمار والقتل والتخلف ليست بحاجة ضرورية إلى معمل لأدوات القتل والموت والخراب، غير أن بوصلة الموت والعنف في العراق تبقى دائماً هي وحدها التي لا تتوقف عن العمل والدوران، ويسجل تاريخ الوالي داوود باشا أحداثاً كثيرة من الصراعات العسكرية الدموية مع العشائر العراقية في الجنوب والوسط والشمال لا يتسع المجال لاستعراضها، وكان من أبرزها المعركة التي حدثت عام ١٨٢٠ بين قوات داوود وبين عشائر الدليم بالتحالف مع زوبع والجميلة والبوعيسى حيث مزقت القوة الحكومية جموعهم وقتلت الكثيرين منهم ومات غرقاً أكثر، الذين ألقوا بأنفسهم في نهر الفرات أثناء هزيمتهم، واستولت الحملة العسكرية على أموالهم ومواشيهم وسبت عيالهم وذراريهم[١] ولعل مايهم بحثنا في العنف الدموي عن عهد داوود باشا هو ماذكره السائح البريطاني جورج كيبل في مذكراته عن المجتمع البغدادي وعن شخصية داوود باشا بقوله: بأن عدد الضحايا الذين اغتيلوا أو أعدموا في عهد داوود باشا إشباعا لطموحه أو طمعه أو رغباته قد بلغ ألفاً وخمسمائة إنسان على الأقل[٢]

ولعل سؤالاً حائراً يدور في الخاطر هنا: لماذا تتكتم المناهج التعليمية والتربوية في العراق على هذه الأحداث المفجعة وغيرها وتخفيها عن الأجيال المتعاقبة في

---

١ ـ د. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج١ ، ص٢٤٠.

٢ ـ المصدر السابق، ص٢٥٣.

الوقت الذي تحرص على تعداد مناقب ومآثر أولئك الحكام في الفترة المظلمة وتمجد إنجازاتهم وفضائلهم الوهمية؟...

مذبحة الانكشاريين وتعميم إبادتهم في جميع الولايات:

في عام ١٨٢٦ أقدم السلطان العثماني محمود الثاني على إبادة الانكشاريين في العاصمة اسطنبول بعد أن أعلنوا الثورة والتمرد على السلطان وتقدمت جموعهم نحو السراي فتصدى لهم القائد الذي اختاره السلطان محمود لتأديبهم واسمه إبراهيم ويلقب (قره جهنم) ومعناه جهنم السوداء فأمطر حشود الانكشاريين بقصف مدفعي مركز وكثيف حتى جعلهم داخل جهنم حقيقة من نار المدفعية، وعلى اثر ذلك اصدر السلطان فرماناً (قراراً) سلطانياً بإبادة الانكشاريين في الولايات جميعاً وهذا يشمل العراق وعندما وصل القرار إلى بغداد تقاعس داوود عن تنفيذه واكتفى بتجميع الانكشاريين وتوجيه النصيحة لهم بإطاعة السلطان، وكان ذلك من الأسباب التي خلقت القطيعة بين داوود والسلطان محمود.

التكتيك العراقي الساذج: داوود يقتل مبعوث السلطان

في صيف عام ١٨٣٠ أرسل السلطان محمود إلى بغداد شخصاً يثق به اسمه (صادق أفندي) وخوّله مهمة التخلص من داود باشا بأية وسيلة، وعرف داوود بنوايا صادق أفندي ومهمته فأرسل مجموعة من أتباعه ليلاً إلى دار صادق أفندي وبينهم عريف ضخم الجثة قوي البنية اسمه خالد آغا فأيقظوا صادق أفندي من نومه وطلبوا منه أن يردد الشهادة قبل أن يلقى ربه فانهار وبدأ يتوسل إليهم وارتمى على أقدامهم إلا أن ذلك لم ينفعه في شيء فقد أطبق العريف الضخم على حنجرته فخنقه بعقدة حمّالة السيف[1] وقضى عليه.

وفي اليوم التالي أعلنت السلطة في بغداد أن مبعوث السلطان قد أصيب بمرض (الهواء الأصفر) أي الكوليرا وأنه يعالج في دار الضيافة، وصار داوود باشا يرسل كل يوم طبيباً يتظاهر بالتوجه لمداواة صادق أفندي وجيء بشخص

---

١ ـ ستيفن لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص٣١٧

يشبهه فألبس ملابس صادق أفندي وطافوا به شوارع بغداد ليبعدوا إشاعة وفاته... وبإمكان القارئ أن يتبيّن كم هو سطحي وساذج ذلك التكتيك العراقي الذي نفذ لإخفاء مقتل رسول السلطان ولسنا بحاجة لتذكير القارئ بمقتل رسول كسرى إلى أحد ملوك المناذرة في العراق - الذي أوردناه في مكان آخر من هذا الكتاب - واستخدامه ذات التكتيك الساذج لإخفاء مقتله..

ومن الأعمال التي قام بها داوود باشا استقدامه لضابط فرنسي اسمه المسيو ديفو من أجل الإشراف على تدريب الجيش وتعليمه النظم العسكرية الحديثة، والمسيو ديفو كان أحد ضباط نابليون وقد ترك فرنسا بعد سقوط نابليون، ويذكر الدكتور علي الوردي وصفاً شخصياً لهذا الضابط على لسان أحد الذين شاهدوه حيث يقول كان: ((رجلاً فارع الطول نحيف القوام في الستين من عمره.. يعلو شفته العليا شاربان أبيضان كثيفان وعلى عينيه حاجبان كثيفان أيضاً. إن بزته تشعرك بأنه عسكري فرنسي حق، وأزرار سترته مزينة بالتاج الإمبراطوري والحروف الأولى من اسم نابليون ويتدلى من ثقب الزر صليب لويس المرغوب، وسراويله التركية الواسعة تدل على السلك العسكري التركي الذي يخدم فيه الآن))[1] لقد نشط المسيو ديفو في تكثير عدد الجيش العراقي وفي تدريبه على الأسلحة الحديثة وهذا سبّبَ استياءاً وغضباً لدى المستر تيلر القنصل البريطاني حيث لم يرض أن يرى ضابطاً فرنسياً يتولى هذه المهمة في العراق وكان يرى أن يتولاها ضابط بريطاني[2] ولم يكن المسيو ديفو هو الموظف الفرنسي البارز الذي خدم في عهد المماليك في العراق فقد كان الطبيب الخاص للوالي سليمان باشا الكبير هو أيضاً فرنسي نال شهرة واسعة[3]

الطاعون والفيضان والجيش العثماني يدخلون بغداد في وقت واحد:

خلال الثلث الأول من القرن التاسع عشر وهي الفترة الحرجة من الاضطرابات والفتن والتصفيات الدموية الجارية بين الولاة والحكام انتشر في

---

١ - د.علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج١ ، ص٢٤٨ نقلاً عن ريجارد كوك (بغداد مدينة السلام) ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد.

٢ - المصدر السابق، ص٢٤٩

٣ - ستيفن لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، مصدر سابق، ص٣٠٥

بغداد وباء الطاعون وبالتحديد كان ذلك في آذار. ورغم تكرر حدوث الطاعون في بغداد في فترات سابقة إلا أن انتشاره هذه المرة كان كاسحاً ومدمراً وفظيعاً حتى أن الدكتور علي الوردي وصفه بقوله: ((يمكن القول أن هذا الطاعون كان أفظع وباء حل بالعراق عبر تاريخه الطويل))[1].

وهكذا لم يعد العنف الدموي هو وحده مبعث الموت وسببه في العراق بل انضمت إليه الكوارث الطبيعية والأوبئة الفتاكة المتكررة على نطاق واسع. إن الحالة المأساوية المحزنة التي كانت عليها بغداد والتي سنتعرض لها بشيء من التفصيل هي النموذج المكرر تقريباً لحالة المدن العراقية البائسة الأخرى بل العراق بأكمله في النصف الأول من القرن التاسع عشر، لذلك فإن مقتضيات الواجب الاجتماعي والثقافي والوطني والإنساني تقتضي من جميع القادة والسياسيين والمفكرين والمثقفين العراقيين ضرورة الإطلاع الواسع والتفصيلي على وقائع تلك الحالة والإحاطة العلمية والواعية بظروفها والتعرف على جوانب وأبعاد تلك الأوضاع المخزية التي كانت عليها بلادهم قبل ١٧٠ مائة وسبعين سنة لا أكثر. إنها الحالة الأدعى للوقفة الوجدانية لمن أراد التفكر والتبصر بماضي بلاده ومصيرها ومستقبل شعبها، لأن فيها درساً وموعظة لكل مخلص أراد أن يحفظ مستقبلاً كريماً آمناً ومستقراً وحضارياً للعراق.

لذلك فإننا سنعمد إلى استعراض تلك الظروف السيئة بشيء من التفصيل نظراً لما تحتوي عليه من إثارة وغرابة، وسنبدأ بذلك من النص المطوّل الذي اخترناه من كتاب الباحث الأجنبي ستيفن لونكريك، (أربعة قرون في تاريخ العراق الحديث)، والذي ينقل لنا وصفاً دقيقاً وحياً للطاعون المرعب الذي اجتاح بغداد في آذار عام ١٨٣١ بعد أن أصاب كركوك والسليمانية وكردستان. وقبل أن نبدأ بإيراد النص نجد من المفيد أن نذكر بأن السلطات الرسمية في ذلك الوقت ممثلة بالوالي نفسه قد طلبت من المقيمية البريطانية وضع تعليمات لتنفيذ الحجر الصحي والتقيد به إلا أن الفتوى الرجعية المتخلفة من بعض رجال الدين الأغبياء قد حرّمت تطبيق ذلك واعتبرته كفراً وزندقة فحالت دون اتخاذ أي تدبير صحي وقائي يمكن أن يمنع حصول الكارثة أو يعرقل من

---

١ ـ د.علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ، ج١ ، ص٢٦٩

وقوعها الصاعق، فتراجعت السلطات أمام تلك الفتوى الغبية واستمر وصول القوافل القادمة إلى بغداد من مناطق الإصابة الموبوءة بالطاعون فحصلت الكارثة. يقول النص، وننقله كما ورد: «وكان أول حدوث الإصابات في البيوت القذرة من محلات اليهود وفي أوائل نيسان (١٨٣١) حاول الكثيرون الفرار من المدينة ولكن إلى أين؟ فقد استولت القبائل على الطرق كافة وكانت السفن النهرية قليلة ومكتظة وقد تسرب الطاعون إليها وقد بلغت الإصابات أشدها منذ اليوم الرابع من نيسان فبات الناس يموتون بمعدل مائة وخمسين في اليوم الواحد وبادر النصارى والأوروبيون القليلون إذ ذاك في بغداد لتحصين مساكنهم والحجر عليها منعاً للاختلاط بكل ما لهم من شدة. أما الباشا ((الوالي)) وأهل بيته فقد حاولوا الفرار من وجه الطاعون غير أنهم لم يستطيعوا ترك ثروتهم المكدسة ولا حملها معهم ثم اختل النظام بأجمعه وانتشر اللصوص فلم يردعهم رادع وبعد ذلك وافت أنباء تقدم العدو واقترابه من المدينة يوماً بعد يوم... وتجمع أخبار هذه الكارثة كلها على التفصيلات الواردة عن تفشيه وسيره المفزع فقد تبدلت الحال بين الناس من عدم المبالاة إلى الذهول والذعر، ومن الكآبة الصاخبة إلى صمت الموت والقنوط، ومات على هذا المنوال حتى اليوم العاشر من نيسان سبعة آلاف من الناس خلال خمسة عشر يوماً ثم هلك في اليوم الحادي عشر ألف ومائتان ومنذ هذا اليوم إلى اليوم السابع والعشرين كان عدد الميتين في كل يوم بين ألف وخمسمائة إلى ثلاثة آلاف. ولم يشف مريض واحد من كل عشرين مصاباً. وكان الطعام لا يوجد إلا في الندرة، ولم يشتغل السقاؤون فركدت حياة المدينة بأسرها ولم يفكر أحد في غير الموت والموتى. وعلى هذا توقفت أعمال الحكومة جمعاء لأن الموت هاجم الموظفين وأفراد الجيش وخدم الديوان فقضى عليهم كقضائه على سائر الناس، فأصبح الباشا حائراً وليس بأحد يأخذ بأوامره، وكان قد طلب أن يأتوا إليه بالسفن فلم تحضر سفينة واحدة. وخابت مساعي الأحياء في دفن الموتى أمام سيل الموت الجارف حتى ظل الأموات مكدسة أشلاؤهم في الشوارع والأزقة وهام الأطفال والعجزة على وجوههم من غير هدى وهم جائعون لا قبل لهم بشيء. وقد كثرت الجرائم والسرقات في هذا العهد الرهيب حتى قضى الموت على الجاني والبريء معاً.

وإذ ذاك ظهر للعيان خطر جديد ومنبع فزع حديث في الحادي والعشرين من نيسان فقد أخذت دجلة في الزيادة فتعالى مستوى مائها كثيراً عن المعتاد وأحاطت المياه ببغداد فمنعت ألوف الناس من الفرار، وحالت دون وصول الطعام إلى المدينة من الخارج وبقي فيضان الماء يزداد بوصة فبوصة فبلغ أعالي السداد وكانت مهملة وامتلأت السراديب ولم يبق بين بغداد والغرق سوى قدم واحد من السدة المتداعية. في ليلة اليوم السادس والعشرين انهار قسم من المسنّاة الواقعة في الجهة الشمالية من المدينة وقسم من القلعة ففاض الماء وتساقط على إثر ذلك من الدور ألفان في ظرف بضع ساعات فاستحال السراي وسبعة آلاف من الدور في ضمن أربع وعشرين ساعة أنقاضاً متراكمة دفن فيها في قبر مشترك المرضى والأموات والقليل من الأحياء الباقين. وشوهدت خيل الباشا الأصائل هائمة في الأزقة وأصبحت أهراؤه الواسعة الملآى بالطعام مفتوحة على مصاريعها، وبعد يومين أخذ الماء بالانخفاض وقل مقياسه وفي نهاية الأسبوع الأول من مايس زال خطر الطاعون والماء معاً على أن الكثيرين من السكان بقوا في عداد المرضى ولم يزل ثقيلاً عليهم عبء الجثث الملقاة في الأزقة تلعب بها الكلاب في أوحال ماء الفيضان ثم رفعت جثث الموتى شيئاً فشيئاً فدفن قسم منها وألقي القسم الآخر في النهر وجمعت الحيوانات الشاردة وبيع شيء من الطعام وتعالت أصوات المؤذنين في الجوامع الباقية ودب دبيب المواصلات قليلاً في الأسواق المهدم أكثرها، المسروقة كلها. إلا أن كثيراً من المهن انقرض مع من مات من القليلين البارعين فيها»[1] كذلك فإن الدكتور علي الوردي يذكر بعض المقاطع من مشاهدات يومية واقعية كتبها أحد المبشرين الإنكليز واسمه غروفز وكان أثناء الطاعون يقيم في بغداد حيث يقول: «وذكر غروفز أن الموت أصبح مألوفاً عند الناس بحيث كانوا يدفنون أقرب الناس إليهم من غير اكتراث ظاهر ثم وصل الحال أخيراً إلى أن الناس أخذوا يتساقطون في الطرقات فلا يدفنهم أحد فتأتي الكلاب تنهش أجسادهم وربما كان بعضهم أثناء ذلك لا يزال يعالج سكرات الموت وكان أشد المناظر إيلاماً وجود المئات من الأطفال

---

١ - ستيفن لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، مصدر سابق، ص٣١٨-٣١٩-٣٢٠-٣٢١

الصغار في الطرقات وهم يتصارخون بعد أن ماتت أمهاتهم فيختلط صراخهم بزمجرة الكلاب التي تنهش جثث الموتى))[1]

وبعد ذلك بأسابيع كان الجيش العثماني بقيادة الوالي الجديد علي رضا قد وصل من الموصل عبر الزاب فطوق بغداد وشدد الحصار عليها فجرت معارك بينه وبين الأهالي المتبقين في بغداد ومعهم جنود الوالي داوود باشا الذين لا يتجاوز عددهم الخمسمائة فاستطاع دحرهم ودخول المدينة...

ليس بأساً على أي إنسان عراقي أو غير عراقي بعد أن يقرأ هذين النصين أن يجد نفسه غارقاً في مشاعر الخجل والخيبة والخزي والحيرة والقنوط وتلفه أحاسيس مزدوجة من الضياع والكآبة المريرة ويجد في نفسه الحاجة للانفراد بذاته بعض الوقت ليستجمع أنفاسه وكيانه ووجدانه المشتت.

إن القرب الزمني لتلك الأحداث من عصرنا الحاضر تلقي على الواعين من أبناء العراق بثقل وجداني خاص من المسؤولية وترتب بعض الواجبات الاجتماعية والوطنية والإنسانية التي يمكن أن يمتد تنفيذها إلى أيامنا الحاضرة لتحدد سُلمّاً جديداً من الأولويات والاهتمامات والأهداف والشعارات التي يتوجب على هذا الجيل، شعباً وحكاماً، الالتزام بها والتمسك بتطبيقها والنهوض بتنفيذها، مختلفة ربما كل الاختلاف عما يردده البعض من شعارات رنانة دون وعي أو تبصّر أو إدراك لحقيقة واقعه وماضيه. وبمعنى أوضح نقول أن بلاد الرافدين منذ أوائل القرن العشرين لا تسير بالاتجاه الموصل لعصر الحضارة الحديثة على نحو منهجي راسخ لأن البنية التحتية بقيت مفككة منخورة متخلفة بينما ينشغل القادة والمتعلمون والسياسيون من أبناء المدن في هذه البلاد خلال ما يقرب من قرن من الزمان في التحضير لانقلابات دموية سياسية وعسكرية لا طائل تحتها، وانصرف معظم السياسيين ـ بقصد أو دون قصد ـ لخدمة المنهج التصفوي لدكتاتورية العقيدة الواحدة، وذلك في الإعداد لمناورات ومؤامرات تصفوية ثأرية انتقامية ضد بعضهم البعض، لذا فإن محصلة الجهد الواقعي الموجه لخدمة البناء الحضاري والمدني في العراق وتطوير البنية التحتية في نهاية الأمر تكاد تكون صفراً.

---

١ ـ د.علي الوردي، لمحات من تاريخ العراق الحديث، ج١ ، مصدر سابق، ص٢٧٢

إن صورة المدن العراقية الحاضرة مازالت حتى اليوم بائسة تعيسة ومتخلفة وإذا استثنينا ثلاثة أو أربعة مدن عراقية دأبت الحكومات العراقية المتعاقبة خلال العهود الماضية على تلميعها طوال الوقت فإن بقية المدن العراقية مازالت حتى اليوم رغم موارد النفط الهائلة تغرق في أوحال البؤس ومظاهر الفقر والتخلف المريع والافتقاد لكل الحاجات الأساسية الضرورية والخدمات الحضارية في القرن المعاصر. أما الإنسان الساكن في هذه المدن فلم يبذل أحدٌ الجهد الكافي لتطويره بالشكل المطلوب لكي يكون عصرياً وحضارياً ، إنه يكاد يعود للتمسك بقيم المجتمع المنقرض بعد الفجيعة التي قادته إليها شعارات القادة السياسيين الخياليين والأحزاب ذات الأهداف الوهمية المعلقة بالهواء والمقطوعة الجذور عن الأرض. ولعل من المفيد أن نوضح لماذا سلطنا الضوء بهذا الشكل المجسم على هذا الواقع المرعب لأحوال العراق في القرن الماضي؟

إن الهدف من ذلك هو التذكير والتبصرة والعبرة. ولكي لا يلوذ أي منّا، نحن أبناء الجيل المعاصر في هذه البلاد، بالنسيان واللامسؤولية أو بالهروب من الحقيقة المرة التي يعرضها ويكشفها تاريخنا الاجتماعي والسياسي بمآسيه المفجعة، ولكي نجعل من تلك المأساة المخجلة المخزية المؤلمة صدمة عنيفة تعيد الوعي السليم لهذا الجيل المقطوع عن ماضيه والمأخوذ بالشعارات الكبيرة الرنانة الدخيلة، الجيل المشبع بروح الغرور والاستعلاء والتكبر والعجرفة الفارغة، نقول إن الذين تكدست جثثهم وتعفنت في الشوارع والطرقات وأكلتها الكلاب وديست بالعربات مع أوحال الفيضان في بغداد أو الذين سحلت جثثهم وألقيت في دجلة للتخلص من عفونتها أولئك هم الأجداد الذين لا يفصلهم عنا أكثر من ثلاثة أو أربعة آباء. إنهم الأجداد الأقربون الذين يفترض أن نذكرهم بأسمائهم الشخصية ونفخر بهم ونمجد ذكراهم، فلا يحق لأحد في هذا الجيل أن يخجل منهم أو يتناساهم إنهم مازالوا يرقدون في أطراف الزمن الذي نعيش فيه اليوم... لقد وصلتنا من الناجين منهم حتى الأربعينات من هذا القرن أطراف من أحاديثهم وحكاياتهم وشكواهم عن الأسى واللوعة والمهانة التي انسحقوا تحتها وعاشوها وعانوا منها وشاهدوها في تلك الأيام، إنها النواقيس التي يجب أن لا يهدأ صوتها ورنينها في آذان أحدٍ من جيلنا الحاضر لكي نأخذ منها العبرة والموعظة الخالدة لنختار طريقاً سليماً وصحيحاً

نحو الاستقرار والأمان والسلام الاجتماعي بعيداً عن الخراب والعدوان والدمار والمآسي والكوارث والصدمات المتواصلة لكي يستريح الناس في هذه البلاد العريقة ويركنوا للإخاء والسلام بعد مسيرتهم المضنية لخمسة آلاف سنة في دروب العنف الدموي والموت القسري والصراعات والمآسي الإنسانية.

وإذا عدنا لاستعراض أحداث تلك الفترة التاريخية فإننا سنجد أن الطاعون والفيضان والجيش العثماني قد دخلوا إلى بغداد في وقت واحد. وكان من نتيجة ذلك أن انخفض عدد سكانها سنة ١٨٣٤م من مائة وخمسين ألفا (١٥٠٠٠٠) إلى خمسين ألفاً (٥٠٠٠٠)[١] وهذا يدل أن ثلثي سكان المدينة بالتمام قد ماتوا خلال تلك المأساة في ذلك العام.

أما باقي أهل العراق فإن الموت يحيط بهم من كل جانب رغم تعدد أسبابه ودواعيه، ولا يفوتنا أن نذكر هنا بأن الطاعون قد عاد ليجتاح بغداد بعد ذلك مرتين خلال ثلاثة أعوام.

الصراع الدموي بين علي رضا باشا وداوود باشا:

لقد أحدث إقدام داوود باشا على قتل صادق أفندي - مبعوث السلطان - دوياً صاعقاً في اسطنبول فقرر السلطان توجيه حملة عسكرية ضد داوود باشا وكلف علي رضا والي حلب بقيادتها. توجه علي رضا بجيشه إلى الموصل وأرسل طلائع من هذا الجيش إلى بغداد بقيادة شخص اسمه قاسم باشا العمري ومعه شيخ شمّر وأحد شيوخ عقيل واقترب قاسم من بغداد فأرسل مبعوثين من قبله إلى علماء بغداد ووجهائها يحرضهم ضد داوود ويدعوهم لإطاعة السلطان. اضطرب الوضع في بغداد وتفرق أتباع داوود سريعاً ولم يبق معه سوى خمسين شخصاً فاختفى في أحد البيوت. فدخل قاسم باشا مع أحد أتباعه إلى بغداد واستقبله السكان بمختلف طبقاتهم وأدخلوه السراي محفوفاً بمظاهر الأبهة والإجلال والعزة وظن أن الأمر انتهى في بغداد فأرسل إلى علي رضا باشا الموجود في الموصل يدعوه للقدوم إلى بغداد ليتولى الحكم فيها.

---

١ - د. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ، ج٢ ، مصدر سابق، ص٨٥ نقلاً عن جيمس بيلي فريزر.

غير أن تحولاً مفاجئاً قد حصل في موقف الجماهير في بغداد سريعاً حيث انقلب سكان بغداد ضد قاسم باشا العمري وزحفوا بأعداد غفيرة نحو السراي يريدون مواجهة قاسم باشا، وكانت تلك الجماهير مؤلفة من المماليك والأهالي وعدد كبير من عشيرة عقيل فاستطاعوا السيطرة على مخزن للسلاح وراحوا يضربون السراي بالقنابل والرصاص فحدث اضطراب داخل السراي فانقلب الذين كانوا مع قاسم باشا العمري وعمدوا إلى نهب الأموال والخزائن ثم أشعلوا النار بالسراي وهربوا بالمنهوبات ثم نزلوا إلى النهر فعبروه سباحة وغرق بعضهم خلال العبور فدخلت الجماهير الغاضبة في ١٨٣١/٦/١٣ إلى السراي فدمرته ونهبت كل الموجودات النفيسة فيه وشوهدت النقود وأدوات الذهب والفضة والتحف النادرة مطروحة للبيع في الأزقة في الأيام التالية

أما قاسم باشا العمري فقد أخذه قائد الجماهير المهاجمة واسمه أحمد آغا التفنكجي إلى بئر قريبة وألقاه فيها[١]وقيل أن داوود باشا أعدمه[٢] ، ومرة أخرى نجد أنفسنا مجبرين وسط مشاعر الحيرة للعودة إلى الحديث عن صفة التبدل السريع في المزاج لدى الناس في العراق. لقد أورد الباحث ستيفن لونكريك أن سبب هذا التغيير الحاد والسريع في موقف الأهالي في بغداد من قاسم باشا هو ((العنف الخالي من الحكمة الذي أبداه قاسم.. وسوء سلوك أحلافه الشمريين العقيل))[٣] ، غير أن ذلك السبب لا يبدو كافياً لإحداث مثل هذا التبدل الحاسم والمصيري في موقف الناس في بغداد بعد بضعة أيام من استقبالهم لقاسم باشا.. ذلك الاستقبال البهيج الحافل بمظاهر الفرح والتأييد والإجلال. إن السبب الذي يورده الباحث لونكريك لا يمكنه أن ينفي شكوك الباحث المتتبع أو يبعد تفكيره عن الأسباب والمعاني المتعلقة بالجانب السلوكي والنفسي (السايكولوجي) للفرد العراقي ونزوعه الفطري في هذا المسلك خصوصا إذا وضع في الاعتبار الأرضية التاريخية الغنية بالشواهد والأمثلة والدلائل والأحداث المماثلة التي يحفل بها التاريخ العراقي منذ قرون عديدة. وعلى إثر تلك التطورات في بغداد فقد أسرع علي رضا باشا بصفته الوالي الجديد بالتوجه نحو بغداد ودخولها كما ذكرنا آنفا

---

١ ـ المصدر السابق، ص٢٧٨

٢ ـ ستيفن لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، مصدر سابق، ص٣٢٣، الهامش.

٣ ـ المصدر السابق، ص٣٢٣.

في تموز عام ١٨٣١م وقد حكم علي رضا باشا كلاً من بغداد والبصرة وكركوك إحدى عشرة سنة وكانت أبرز الأحداث ذات الصلة بالعنف الدموي في عهده هي الصراع مع العشائر العراقية ومذبحة المماليك الكبرى.

مذبحة المماليك الكبرى في العراق:

بعد أن دخل الوالي علي رضا باشا مدينة بغداد تظاهر بالرغبة في المصالحة والرضا عن المماليك وعين بعضهم في مناصب عالية غير أنه كان يعد كميناً لإبادتهم في وقت لاحق، فقد دعاهم في أحد الأيام إلى اجتماع عام في السراي ومعهم بعض أعيان بغداد والمتنفذين فيها، تحت حجة إبلاغهم بالفرمان السلطاني الذي وصله من اسطنبول، وقد وزع قبل موعد الحفل أعداداً من الجنود الألبان على أسطح وشرفات وأروقة السراي، وبعد تناول القهوة نهض شخص اسمه (علي آغا) وطلب من الجنود أن يقتل كل منهم من كان بقربه من المماليك وبدأ هو بالتنفيذ فقتل بسيفه المملوك الذي كان يقف بجانبه، ونظراً للسرعة التي تم بها تنفيذ تلك المذبحة فإن المماليك لم يستطيعوا سحب سيوفهم من أغمادها والدفاع عن أنفسهم فماتوا جميعاً في وقت واحد[1]

ونتيجة الفوضى الدموية التي حصلت خلال تنفيذ المجزرة فقد قتل عدد من مؤيدي الوالي علي رضا ممن انضموا إليه وأيدوه قبل دخوله إلى بغداد وكانوا يأملون من ذلك بالحصول على الأمان والحماية في العهد الجديد لكن ذلك لم يشفع لهم في شيءٍ وسط تلك المعمعة الدموية المجنونة بعد أن تصاعد صوت العنف الدموي عالياً في أرجاء السراي ببغداد فتوسدوا الأرض جثثاً هامدة

وكان الأمر الأخطر بعد انتهاء المجزرةَ هو صدور الأوامر بقتل جميع المماليك أينما وجدوا، وبذلك فتحت الدولة على المستوى الرسمي جميع الأبواب أمام انبعاث موجة مرعبة من العنف الدموي والقتل على الشبهة في كل مكان من العراق بعد أن تُرك للعامة والجنود تنفيذ ذلك الأمر الدموي الصادر من السراي.

---

١ ـ د. علي الوردي، الوردي ـ لمحات اجتماعية ج١ ، مصدر سابق، ص٢٨٠ ، نقلاً عن جيمس بيلي فريزر وستيفن لونكريك، ص٣٣٠.

كان ذلك في عام ١٨٣١م ولعل من المحزن أن يتكرر ما يشبه ذلك الأمر في العراق بعد حوالي ١٣٢ سنة أي في عام ١٩٦٣م عندما صدر بيان رسمي من السلطات الحاكمة يحمل الرقم ١٣ عُمم بواسطة الإذاعة ووسائل الإعلام الأخرى يطلب من الشعب في العراق إبادة (الشيوعيين العملاء) وهي التسمية التي ذكرها البيان في ذلك اليوم.

وفيما يخص امتداد مذبحة المماليك يذكر الدكتور علي الوردي رواية منقولة عن شاهد عيان كيف جرى مقتل ابن سليمان الكبير المدعو صالح بيك وهو من وجهاء المماليك الذين لم يحضروا تلك المأدبة الدموية فيقول: «أسرع إليه جمع من الجنود بينما كان راكباً حصانه وانهالوا عليه ضرباً وطعناً فنطق بعبارة آمنت با لله وبالشهادتين ثم خرَّ إلى الأرض صريعاً فتقدموا منه وحزّوا رأسه ثم تركوا جثته عارية في أحد الأزقة لا يسترها شيء»[1] ربما كانت تلك هي المكافأة التي نالها والده سليمان باشا الكبير بعد خدماته الطويلة في بلاد مسكونة بالدم والعنف والموت والقتل العشوائي

بعد انتهاء المجزرة صدرت الأوامر أيضاً بمصادرة أموال المماليك وثرواتهم وأملاكهم وأرسلت اسطنبول شخصاً خبيراً بالأمور المالية والحسابات اسمه عارف أفندي الدفتري وراح المنافقون من جماعة الوالي يطاردون أقارب المماليك وعائلاتهم ونسائهم ويعذبونهم لكي يقروا بالأملاك والثروات وأماكن الكنوز المدفونة، وضربوا بالفلقة حتى النساء وكووا أجسادهنَّ بالحديد المحمى، وجمعت حصيلة ذلك كله وبيعت بالمزاد وأرسلت المبالغ للسلطان العثماني

إن هذه الأسطر لا بد وأن تذكّر كل عراقي بالمحنة التي وقع بها أتباع ورجال العهد الملكي في العراق عندما سيقوا إلى المحاكم العسكرية بعد سقوط النظام الملكي في ١٤ تموز ١٩٥٨ ليحاسبوا عن أدق التفاصيل في حياتهم السابقة ويتعرضوا لأنواع الإهانات والإذلال ومصادرة الأملاك والأموال

---

١ ـ المصدر السابق، ص٢٨١، نقلاً عن سليمان فائق.

الفصل السابع

أحداث العنف الدموي في القرن التاسع عشر

- **ـ صراع الحكومة مع العشائر العراقية:**

العشائر تحاصر العاصمة

- **ـ انفجار الصراع الدموي داخل بغداد**

القتال والنهب والحرائق في العاصمة ـ قصف مقاهي الكرخ والأحياء المدنية بالمدفعية

- **ـ مذبحة نجيب باشا في كربلاء ١٨٤٢م**

أربعة وعشرون ألف قتيل ضحايا المجزرة

- **ـ معاهدة أرضروم الثانية بين ايران والدولة العثمانية**

المعاهدة وضعت الأساس للحرب العراقية الايرانية

- **ـ الكوليرا والاضطرابات المسلحة تعم العراق عام ١٨٤٦م:**
- **ـ اضطرابات بغداد عام ١٨٦٩م**

مظاهرات مسلحة ـ صدامات دموية ـ عصيان مدني مسلح.

- **ـ عصيان عشيرة شمر**

إعدام الشيخ عبد الكريم الصفوك في الموصل.

- **ـ ثلاثة عناوين للقرن التاسع عشر**

الفساد والفوضى والمجاعة

- **ـ تفجير قصور نبوخذنصر بالديناميت**
- **ـ العنف الدموي يجتاح مناطق اليزيديين**

صراع الحكومة مع العشائر العراقية:

بعد انتصار الوالي الجديد علي رضا باشا على الوالي القديم داوود باشا وجد نفسه بعد فترة قصيرة مضطراً للدخول في صراع مرير مع بعض العشائر العراقية ذات النفوذ مثل عشيرة عنزة وشمّر وعقيل، وفي عام ١٨٣٢م اضطر الوالي للاستعانة بعشيرة عنزة لقتال عشيرة شمر التي كانت تطوّق العاصمة برجالها، فأسرعت عشيرة عنزة نحو بغداد لمساعدة الوالي وهي تطمع بغنائم كبيرة ومكافآت كريمة من الوالي وصادف أن انسحبت عشيرة شمر من بغداد دون قتال فبقيت عشيرة عنزة قرب بغداد بانتظار مكافأة الوالي التي لم تصل فتوترت العلاقة بين الوالي وبين تلك العشيرة فاضطر الوالي أن يستعين بعشيرة شمر العدوة السابقة لمواجهة عشيرة عنزة فعادت عشيرة شمر وهدفها الانتقام فنشبت معركة في عام ١٨٣٤ قرب بغداد كان النصر فيها لعشيرة عنزة التي سيطرت على القرى والطرق خارج بغداد فانتشرت الفوضى وفقد الأمن وتحولت المنطقة إلى ساحة للنهب والسلب والقتل والسرقات وبقيت بغداد أقرب إلى حالة الحصار فلا يستطيع أحد أن يبتعد عن السور كثيراً دون أن يتعرض للسلب.

انفجار الصراع الدموي في بغداد:

بعد انتصار عشيرة عنزة وانتشار الفوضى انفجر صراع دموي داخل المدينة بين رجال عشيرة عقيل وجنود الوالي وتجمع رجال عشيرة عقيل في مقاهي الكرخ قرب الجسر وصاروا يطلقون النار على الرصافة فنصب جنود الوالي مدافعهم على الشاطئ وقصفوا مقاهي الكرخ المحتشدة بالناس ثم طلب الوالي من المقيم البريطاني أن يعيره اليخت الخاص بالسفارة ليستخدمه في الهجوم على تجمع

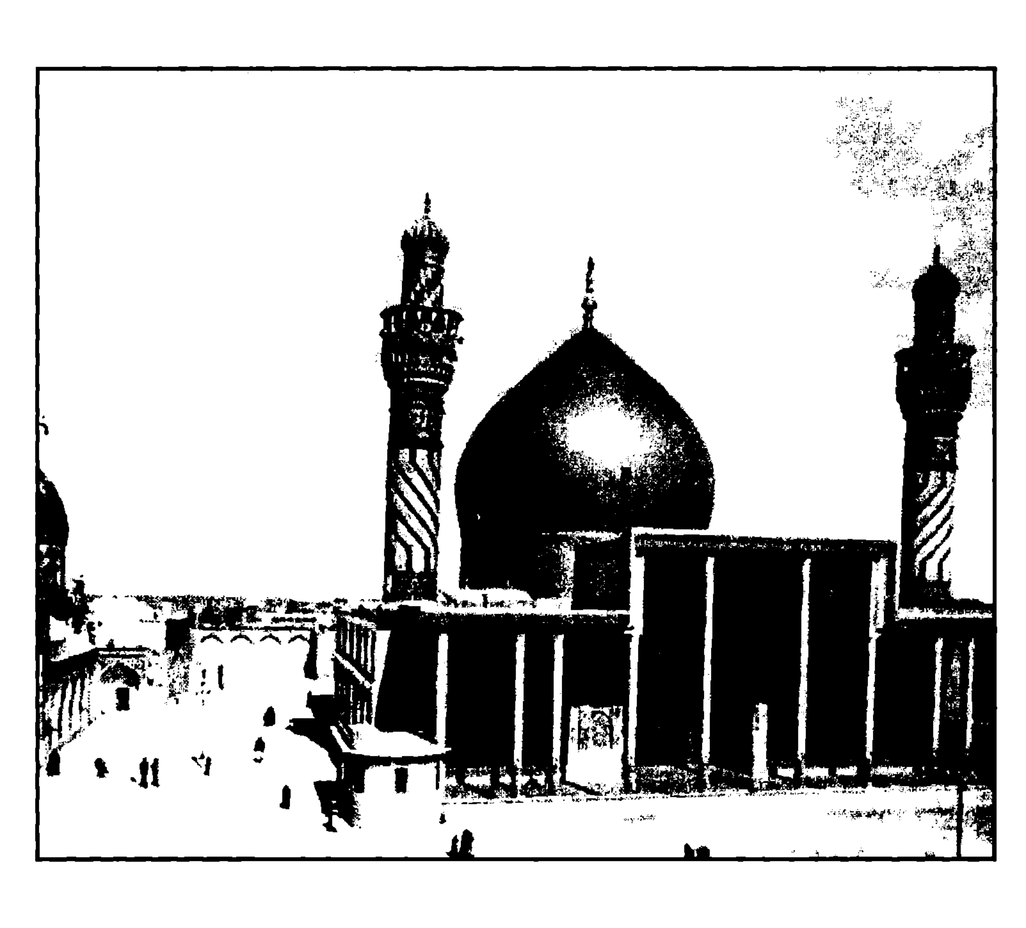
عشيرة عقيل في الكرخ فاستجاب المقيم البريطاني وأعاره اليخت فعبر الجنود باليخت وهاجموا الكرخ فانهزم رجال عشيرة عقيل واستباح جنود الوالي أحياء الكرخ وأسواقها وأشعلوا فيها الحرائق ونهبوها. إن مظاهر الحرب الأهلية الطاحنة ومعالمها تبرز بوضوح في القتال الدموي المتواصل داخل العاصمة وخارجها.

مذبحة نجيب باشا في كربلاء ١٨٤٢م:

في عام ١٨٤٢م عين نجيب باشا والياً على بغداد وقد اظهر ميلاً إلى الإنكليز، وكانت أبرز أحداث العنف الدموي في عهده المذبحة الدموية الشرسة التي نفذها في كربلاء.

ومن المعلوم أن مراقد الأئمة والصحابة والأماكن المقدسة صارت في تلك العهود مناطق يلتجئ إليها الخارجون على القانون والمطلوبون للسلطات الحكومية من قطاع الطرق واللصوص والشقاة، مستفيدين من حرمتها وتحاشي السلطات الحكومية القيام بالأعمال البوليسية فيها وابتعادها عن التدخل في شؤونها وكذلك كانت مدينة كربلاء مُبتلية بزمرة من الأشقياء لا يستطيع أحد في المدينة أن يعصي لهم أمراً فأصدر الوالي نجيب باشا إنذاراً لرؤساء الشقاة طالباً منهم الخضوع ونزع السلاح خلال شهر، ولما لم يستجب أحد لإنذاره وجه إلى كربلاء قوة عسكرية تصحبها المدافع وحاصرت البلدة ثلاثة وعشرين يوماً.

في ١٣ كانون الأول ١٨٤٢م فتحت المدفعية نيرانها على كربلاء وصادف ذلك اليوم هو اليوم الثاني من عيد الأضحى عند المسلمين فهدمت المدفعية ثغرة في سور المدينة وبعد معركة دموية دخلت القوات التركية إلى بلدة كربلاء وبدأت عمليات واسعة من التقتيل والنهب فاستبيحت المدينة وقد وقع أكثر الضحايا في تلك المجزرة حول ضريح العباس (أحد المراقد المقدسة في المدينة ـ انظر شكل رقم :١٤) حيث التجأ أعداد كبيرة من السكان طلباً للنجاة والأمان إلى داخل الصحن (باحة المسجد) وأغلقوا الأبواب ورفضوا التسليم فخلعت القوات الحكومية أحد الأبواب وهجمت على الملتجئين داخل



(شكل رقم: ١٤) ضريح الإمام العباس في كربلاء

في المذبحة التي نفذها الوالي التركي نجيب باشا في كربلاء عام ١٨٤٢ والتي قيل إن عدد القتلى فيها قد بلغ أكثر من عشرين ألف قتيل، التجأ أكثر الناس للاحتماء بضريح الإمام العباس (البناء في الصورة أعلاه) غير أن القوات الحكومية أبادتهم جميعاً وقد تمّ فيما بعد إخراج /٣٠٠/ جثة من القبو (السرداب) الواقع تحت رواق هذا المبنى كان الناس قد التجئوا فيه طلباً للنجاة من المذبحة

الضريح وباشرت التقتيل فيهم، وقد وجد فيما بعد في السرداب (القبو) الذي يقع تحت رواق ضريح العباس ما يزيد على ثلاثمائة قتيل[1]

وقد اختلفت الروايات في تحديد عدد القتلى في هذه المذبحة حيث جعلت بعض الروايات أن العدد قد تجاوز الأربعة والعشرين ألف قتيل. ومهما يكن من أمر فإن مذبحة كربلاء هذه هي إحدى المحطات الكبيرة في تاريخ العنف الدموي في القرن التاسع عشر في العراق.

والغريب أن عدداً من الشعراء العراقيين ولعلهم من المرتزقة والانتهازيين قد مدحوا (كالعادة) الوالي نجيب باشا حاكم العراق على مذبحته تلك، وكان بينهم الشاعر عبد الغفار الأخرس.

معاهدة ارضروم الثانية ١٨٤٧م

وفي عام ١٨٤٧ وقعت معاهدة أرضروم الثانية بين الدولة العثمانية والدولة الإيرانية.. وربما وضعت تلك المعاهدة البذرة الأولى للمشاكل والخلافات على الحدود بين إيران والعراق على مدى السنين اللاحقة نظراً للتنازلات الآنية الكيفية التي تضمنتها بنودها، تلك الخلافات والمشاكل التي كان آخرها موجة العنف الدموي التي انفجرت بين البلدين عام ١٩٨٠م والتي سميت الحرب العراقية الإيرانية ودامت ثماني سنوات متواصلة قتل خلالها مئات الآلاف من البشر من كلا الطرفين.

ومن بنود تلك المعاهدة مايلي:

أن تتنازل الدولة العثمانية لإيران عن المحمرة وجزيرة عبادان مقابل تنازل إيران عن كل مدعياتها في منطقة السليمانية حيث تتعهد بعدم التدخل في شؤونها.

تقسيم منطقة زهاو إلى قسمين – يشمل القسم الشرقي كرند وقصر شيرين وضم إلى ايران، بينما يبقى القسم الغربي منه في حوزة الدولة العثمانية[2]

---

١ ـ المصدر السابق، ص ١٢١.

٢ ـ المصدر السابق، ص ١٢٨.

إن تسميات كالمحمرة وعبادان وزهاو وقصر شيرين وغيرها الواردة في اتفاقية أرضروم أعلاه قد تكررت كثيراً على مسامع العراقيين خلال ثمانية أعوام من الحرب الدموية الطاحنة التي انفجرت بين كل من إيران والعراق بسبب مناطق الحدود والاتفاقيات غير المدروسة وغير المتكافئة، وتلك مسؤولية الحكام الذين يتركون لأجيالهم القادمة مشاكل غير محلولة تكون أشبه بالألغام المدفونة القابلة للانفجار في أي وقت أو زمان.

الكوليرا والاضطرابات المسلحة تعم العراق عام ١٨٤٦م

انتشر وباء الكوليرا في بغداد فسادت موجة من الذعر والرعب بين الناس وهجر كثير من السكان المدينة مما تسبب في انتشار النهب والسلب واللصوصية التي هيأت مناخاً مناسباً لانتشار بعض أعمال العنف الدموي وقد مات بسبب ذلك الوباء أكثر من أربعة آلاف من سكان المدينة.. وبعد بضعة أشهر انتشر الوباء في البصرة وصار ينتقل إلى المدن الأخرى شمال البصرة حتى وصل الحلة ثم عاد وانتشر في بغداد مرة ثانية..

بعد عزل نجيب باشا تتابع على ولاية بغداد عدد من الولاة منهم نامق باشا ورشيد باشا وعمر باشا. وقد انتهج عمر باشا سياسة الشدة مع أهل العراق وفرض التجنيد الإجباري الذي سمي في حينه (عسكر نظام) فحدثت مشاكل كثيرة واضطرابات وتكررت أحداث الفوضى في كثير من الأماكن والمدن في العراق بسبب التجنيد الإجباري وهرب الناس و لم يلتزموا بأوامر السلطة بالدخول إلى الجيش مما أدى إلى وقوع اصطدامات مع عدد من العشائر وأهالي بعض المدن خصوصاً في الفرات الأوسط.

ولعل أبرز أعمال عمر باشا الدموية في العراق قيامه بإعدام عدد من أفراد قبيلة الهماوند في السليمانية.

بعد عمر باشا حدثت صراعات بين الولاة الذين جاءوا بعده وسلمت الولاية إلى نامق باشا مرة ثانية فنشب الصراع بينه وبين آل السعدون في منطقة المنتفق فأعلنت العشائر العصيان ونهبوا المواشي والسفن وقطعوا خطوط التلغراف فأرسلت الحكومة من العمارة باخرة فيها فوج من المشاة ومدافع صغيرة فصبت

قنابلها على العشائر ومزّقت تجمعاتهم ثم حدثت مصادمات بين العشائر والقوة الحكومية في الحلة (جنوب بغداد)، أما في البصرة فقد هاجمت عشيرة بني مالك القوات الحكومية مما اضطر القائمقام للاستعانة بالأهالي وتسليحهم لمقاومة العشائر ونجح في ذلك فقد استطاع أن يهزم العشائر بعد أن سقط منهم (٦٠٠) ستمئة قتيل.

اضطرابات بغداد عام ١٨٦٩م

عين مدحت باشا والياً على بغداد في عام ١٨٦٩م ، ورغم كثرة الكتب والبحوث العامة أو المدرسية التي تكيل المديح والإعجاب والثناء على الوالي مدحت باشا وإنجازاته إلا أننا في هذا الكتاب لا يسعنا أن نغفل الوقائع الدموية وأحداث العنف التي واجهها شعب العراق خلال فترة حكم هذا الوالي.

وقبل أن نبدأ باستعراض الأحداث المتعلقة بالعنف الدموي في عهده لا بد أن نبدي إعجابنا بإحدى المفارقات الطريفة التي أقدم عليها مدحت باشا في الأيام الأولى من ولايته وهي الواقعة التي يسوقها الدكتور علي الوردي نقلاً عن كتاب (عبرة وذكرى) لسليمان البستاني حيث يذكر أن مدحت باشا جمع أعضاء مجلس إدارة الولاية ((واقترح عليهم أن يكتبوا إلى الباب العالي استئذاناً بزيادة الضرائب فوافقه الأعضاء على اقتراحه وكتبوا بذلك محضراً ختموه بأختامهم وبعد أيام حين عاد المجلس للانعقاد عرض عليهم اقتراحاً مضاداً لاقتراحه الأول وهو أن يكتبوا إلى الباب العالي قراراً يذكرون فيه أنهم تسرعوا في قرارهم الأول وأنهم وجدوا الضرائب الحالية ثقيلة فلا يجوز زيادتها، وأسرع أعضاء المجلس فوافقوا على ما قال وختموا المحضر المطلوب بأختامهم. وهذا أمر كثير الحدوث لدى مجالس الإدارة في العراق أو هو بالأحرى العادة الجارية فيها حيث يسرع الأعضاء إلى الموافقة على كل مايرتأيه الرئيس حقاً أو باطلاً. وأراد مدحت باشا أن يلقنهم درساً في ذلك فأخرج المحضرين المتناقضين ومزقهما أمامهم))[1]

كانت أولى الأحداث المتسمة بالعنف خلال عهد مدحت باشا هي الاضطرابات التي حصلت في بغداد عام ١٨٦٩ بسبب فرض التجنيد الإجباري

---

١ ـ المصدر السابق، ص ٢٤٠.

حيث حمل الكثير من الأهالي في بغداد أسلحتهم وتحركوا في مظاهرة مسلحة تحدياً للسلطة وتوجه بعض المسلحين نحو الأسواق لنهب الدكاكين كما ساروا نحو محلات اليهود والنصارى من أجل العبث فيها. فأسرع مدحت باشا إلى توزيع السلاح على الجيش وأرسل قوة مسلحة إلى محلات اليهود والنصارى والأجانب لحمايتها وعالج الفوضى الحاصلة بكثير من الحزم والصرامة وألقي القبض ليلاً على المحرضين على ذلك التمرد المدني وساق النشطين منهم إلى سلك التجنيد وقدم الباقون إلى التحقيق والمحاكمة.

كذلك حدثت موجة من الاضطرابات في الفرات الأوسط عرفت (بواقعة الدغّارة) والدغّارة هو اسم المنطقة وكانت بسبب الضرائب حيث قام متصرف الحلة (مدينة تقع جنوب بغداد تضم في حدودها الإدارية آثار بابل القديمة) بضرب رئيس عشيرة عفك على وجهه فثارت عشيرته وطوقت القوة التركية ثم هاجمتها وقتلت المتصرف والضباط ومعظم الجنود و لم يبق من القوة التركية سوى القليل من الجنود الذين فروا على وجوههم.

وكانت العشائر قد طوقّت الديوانية (وهي مدينة جنوب مدينة الحلة المذكورة آنفاً) وقطعت أسلاك التلغراف ونهبت أرزاق القوات التركية المحاصرة في البلدة فقام الوالي بردم ترعة الدغّارة لقطع الماء عن أراضي العشائر المتمردة وحين هدأت الأمور ساق اثنين من رؤساء العشائر إلى الإعدام وشنقهم على جسر الديوانية وهما الشيخ دنان رئيس عشيرة عفك والشيخ بديوي رئيس عشيرة الدغّارة كما سجن عدداً آخر من المتنفذين منهم وأبعد الآخرين إلى جزر بحر إيجة[1]

عصيان عشيرة شمر

كذلك أعلنت عشيرة شمر العصيان ضد الحكومة حيث تمرد شيخها المدعو عبد الكريم الصفوك وأخذ يقطع الطرق وينهب القرى.. ويروى الدكتور على الوردي حكاية منقولة عن الباحثة آن بلنت «أن عبد الكريم كان يحب فتاة طائية متزوجة وهي على جانب كبير من الجمال، ولما أراد أن يأخذها عنوة قطّع

---

١ ـ المصدر السابق، ص ٢٤٤.

الزوج جسمها إرباً أمامه فكان ذلك سبباً في أن يصاب عبد الكريم بلوثة في عقله وصار منذ ذلك الحين يشن الغارات ويقطع الطرق»[1] وأعلن مدحت باشا مكافأة مقدارها عشرة آلاف قرش لمن يأتيه بعبد الكريم حياً ونصف هذا المبلغ لمن يأتيه به ميتاً وبعد معارك بين عشيرة شمر والجيش التركي هرب عبد الكريم مع ألفين من أتباعه إلى بادية الشام ثم توجهوا جنوباً وعندما صاروا في مناطق عشيرة المنتفق ألقى ناصر السعدون شيخ المنتفق القبض على عبد الكريم وهو جريح وسلمه إلى مدحت باشا فحاكمه وأصدر حكم الإعدام عليه وتم شنقه بالموصل. وفي عهده بنيت مدينة الناصرية بناها الشيخ ناصر السعدون بتشجيع مدحت باشا وانتهى حكم مدحت باشا في بغداد عام ١٨٧٢م عندما قدم استقالته للسلطان محمود نديم فقبلها على الفور.

لم يُقتل مدحت باشا في العراق بل سافر حياً إلا أن اللعنة العراقية بقطع الرأس وتصديره إلى الخارج قد لحقت مدحت باشا خارج العراق، بعد أن تقلبت به الأمور طويلاً بعد رحيله عن بغداد فقد تم قطع رأسه في الطائف بعد ذلك وأرسل إلى السلطان عبد الحميد في صندوق كان مكتوباً عليه «قطعة من الفن النادر لجلالته»[2]

ثلاثة عناوين للقرن التاسع عشر:

الفساد والفوضى والمجاعة

لم يكن الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ينطوي على أي حدث ذي أهمية في العراق فيما يتعلق بموضوع بحثنا في العنف الدموي، سوى أخبار الفساد والرشاوي واللصوصية وأعمال الفتن والاضطرابات المحلية والسرقات وقطع الطرق وانتقال بعض المسؤولين الأقزام من وظائفهم.

وفي المدن بدا أن تيار المحاباة والمديح المبالغ فيه والإطراء لعهد السلطان عبد الحميد وإضفاء الصفات العظيمة عليه هو الأمر الطاغي. أما الحرب التي نشبت

١ ـ المصدر السابق، ص ٢٥٦.

٢ ـ المصدر السابق، ص١٩

بين تركيا وروسيا عام ١٨٧٧ فقد سحقت عشرة آلاف جندي من أهل العراق كانوا قد سيقوا إلى الحرب في قفقاسيا فلم يرجع منهم سوى نفر قليل حيث هلك معظمهم من البرد والجوع[1].

وبعد ذلك بعام حصلت مجاعة وقحط شديد في العراق زادت من حالة البؤس وحَوَّلت المئات من أبناء القرى والمدن إلى متسولين جائعين اضطر الكثيرون منهم إلى أكل لحوم جثث الحيوانات الميتة، وكان يموت خمسة أشخاص من الجوع كل يوم في الموصل وثلاثين شخصاً في كركوك[2]. وصارت عصابات اللصوص وقطاع الطرق في الأرياف يهاجمون القرى ويستولون على كل ما يجدونه دون أن تستطيع السلطة تقديم أية نجدة للضحايا فهجر كثير من الناس قراهم[3] كما حدثت ثورة عشائرية بقيادة منصور باشا السعدون في عام ١٨٨١م بعد أن استطاع إقامة حلف بين عشيرته وعدد من العشائر العراقية الأخرى فجهزت السلطة جيشاً قوياً مزوداً بالمدافع - وهو السلاح المرعب للعشائر في ذلك الوقت - وتوجهت لقتالهم وانتهت المعركة بين الطرفين بتمزيق صفوف العشائر.. وبذلك انتهت قوة الإمارة السعدونية التي حكمت منطقة واسعة من العراق.

وتتحدث وقائع هذه الفترة أيضاً عن الفساد والرشاوي والسرقات في عهد الوالي سري باشا الذي عين في نهاية عام ١٨٩٠ حيث كتب القنصل الفرنسي في بغداد المسيو بونيون رسالة إلى حكومته في ٢٣ آذار ١٨٩١ قال فيها مانصه:

«إن التسيب في بغداد قد بلغ الأوج فالسرقات متصلة واعتقد أن مائتي حادثة قتل على الأقل قد وقعت منذ ثمانية أشهر في المدينة ولم يصدر أي حكم جدي في أي من هذه الجرائم. فان الحكام يبيعون أحكام تخليص المجرمين ويذكر الناس هنا أسماء قتلة ارتكبوا جرائم القتل في رابعة النهار ولكن أطلق سراحهم بحجة عدم وجود شهود. ولا أستطيع أن ارسم لمعاليكم صورة عما وصلت إليه

---

١ ـ المصدر السابق، ص٣٥.

٢ ـ المصدر السابق،

٣ ـ المصدر السابق، ص٣٥.

الحالة في هذا الإقليم منذ أن أصبح يدار من قبل الوالي الحالي. إن هذا الشخص المرتشي يبيع كل شيء لقاء المال إلى درجة لا يمكن تصورها. وإن الناس هنا ابتداءً من الوالي وانتهاءً بآخر فرد من أفراد الجندرمة يسرقون وينهبون وأن الفوضى خير من النظام الذي نعيش في ظله»[1]

تفجير قصور نبوخذ نصر بالديناميت:

غير أن حدثاً غريباً قد وقع في عام ١٨٨٥م في منطقة الحلة - (وهي المحافظة التي تضم داخل حدودها الإدارية آثار مدينة بابل الشهيرة كما أسلفنا) وهو ما يمكن أن يثير الغيظ والغضب في نفس كل عراقي بل في نفس كل إنسان مثقف ومتحضر في العالم، ويعطي فكرة عن مقدار التخلف والجهل والتردي الثقافي والعلمي الذي كان سائداً بين الناس في تلك الفترة. فقد جفت المياه في نهر الحلة وهو نهر صغير يتفرع من نهر الفرات ويسقي مدينة الحلة الواقعة جنوب بغداد (حيث توجد آثار بابل) وكان سبب جفاف هذا النهر قيام أحد الأثرياء الهنود بشق ترعة أجراها من نهر الفرات ليوصل الماء إلى مدينة النجف القريبة مما أدى إلى تحول ماء النهر إلى تلك الترعة على حساب نهر الحلة نتيجة التجريف الذي أحدثه سرعة جريان الماء في ذلك الاتجاه، ربما بسبب انحدار الأرض أو ما شابه... ونتيجة لنقص المياه في نهر الحلة فقد أخذ الأهالي يطالبون الدولة بإيجاد حل وإعادة منسوب المياه لهذا النهر كالسابق. واهتمت حكومة اسطنبول العثمانية بالأمر - لأن العراق مازال ولاية عثمانية - واستدعت من فرنسا مهندساً فرنسياً معروفاً هو المسيو شونديرفر الذي وصل مع مساعده إلى بغداد في عام ١٨٨٩م وأجرى دراسة لمجرى نهر الفرات في تلك المنطقة وأمر ببناء سدة على شكل جناحين مائلين ليعيد التوازن في مجرى مياه الفرات من أجل أن يعيد المياه إلى نهر الحلة. وقد حدثنا الشاعر المعروف مظفر النواب أن زوجة ذلك الثري الهندي هي إحدى قريبات والدته وهي التي تابعت تمويل المشروع بعد وفاة زوجها لذلك سميت تلك السدة بسدة الهندية

---

١ - المصدر السابق، ص٤٧

نسبة لهذه المرأة الهندية الأصل[1] ،وفي ٢٥ تشرين الأول عام ١٨٩٠ جرى الاحتفال بافتتاح السدة وحضر الوالي سري باشا وعدد من وجهاء البلاد[2] وثلة من المداحين الذين واصلوا كيل المدائح للدكتاتور السلطان عبد الحميد على هذا الإنجاز العظيم غير أن أحداً من أولئك لم يتنبه إلى الجريمة الكبيرة التي ارتكبت خلال إقامة هذه السدة التي اندثرت بعد فترة قصيرة وهي أن جميع الردميات من (الطابوق) وهي التسمية العراقية للآجر (قطع القرميد الكبيرة) التي بنيت وردمت بها تلك السدة قد اقتطعت من جدران وقصور نبوخذ نصر التاريخية في بابل، وكانت تلك الردميات من قطع الأحجار والقرميد تستخرج باستخدام الديناميت في تلك القصور البابلية القديمة...

إن المرء ليستشيط غضباً وهو يبحث أو يتذكر هذه الواقعة الإجرامية فهل يعقل أن تهدم بالديناميت قصور نبوخذ نصر المشيدة في حوالي الألف الثاني قبل الميلاد ليقام بأنقاضها سدة زراعية حقيرة سرعان ما اندثرت بعد فترة قصيرة؟...

لقد صدق المثل العربي القائل (يفعل الجاهل بنفسه ما يفعل العدو بعدوه) يقول المفكر الاجتماعي المعروف ابن خلدون في مقدمته التاريخية: أن هناك دائماً دلائل تشير ما إذا كانت الأمة مقبلة أم مدبرة... وهو يعني أن هناك دلائل تشير دائماً إن كانت الأمة سائرة نحو التقدم والتطور والارتقاء أم أنها سائرة نحو التدهور والتخلف والخراب... ولعل في هذا الحادث الذي هدمت فيه بالديناميت قصور نبوخذ نصر في بابل ما يشير بلا أدنى شك أن الأمة كانت تسير في طريق التخلف والتدهور والجهل والخراب.

ومن جانب آخر فلا بد لنا أن نحمّل جانباً كبيراً من المسؤولية - على الأقل المسؤولية في جانبها الأخلاقي والتاريخي والثقافي - على ذلك المهندس الفرنسي العجيب الذي لا نستطيع أن نتكهن بالدوافع التي جعلته يوافق على هذا العمل الشائن غير الحضاري، ويقبل بإقامة تلك السدة من أنقاض يستخرجها بالديناميت من مباني الآثار التاريخية لبابل العظيمة...

---

١ - سبق أن أشرنا في كتابنا (مظفر النواب حياته وشعره) أن عائلة الشاعر سبق لها أن جاءت من الهند.

٢ - د.علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج٣، مصدر سابق، ص٤٨

العنف الدموي يجتاح مناطق اليزيديين

نبذة مختصرة عن تاريخ اليزيديين - ديانتهم وطقوسهم:

على الرغم من أن أرض العراق تكاد تكون هي الموطن الرئيسي للطائفة اليزيدية في العالم إلا أن الكثيرين - كما يبدو لنا - لا يعرفون إلا القليل عن هذه الطائفة وعن تاريخها وتقاليدها وطقوسها الدينية على نحو دقيق وصحيح، وفي كثير من الأحيان تختلط في الذهن تلك المجموعة القليلة من المعلومات المشوشة عن اليزيدية واليزيديين حيث تتداخل فيها الحقائق التاريخية مع الخرافات الأسطورية مع الإشاعات المغرضة مع التهم المسيئة لهذه الطائفة بحيث لا يمكن حتى للمتتبع التثبت من حقيقة الأمور في هذا الشأن.

أما أسباب الغموض الذي يحيط بتاريخ اليزيديين وأخبارهم وتقاليدهم وطقوسهم الدينية، فهي كثيرة، ولسنا بصدد بحثها أو الدخول في تفاصيلها الآن. كما ولا يسعنا هنا أن نستعرض تاريخ هذه الطائفة وأصول نشأتها الدينية في هذه الإشارة العابرة والفرعية التي اقتضاها سير البحث في العنف الدموي وانعكاساته على سكان العراق...

غير أننا قد نستطيع التلميح ببعض السطور عن هذه الطائفة من خلال استعراض ما أصابهم من أحداث العنف الدموي في العراق في أواخر القرن التاسع عشر وما نالهم من قتل وتشريد واضطهاد.

((فاليزيديون طائفة تتركز في شمال العراق وتنتشر جماعاتها شمال سوريا وشرق الأناضول ويصعب معرفة عدد نفوسها الكلي. ويتميز الدين اليزيدي عن الأديان السماوية الثلاثة المعروفة بأن فيه الكثير من المعتقدات والعادات العريقة في القدم والتي ترجع إلى عهود تاريخية تعود جذورها إلى الألف الرابع قبل الميلاد.

لقد قام بعض الباحثين بدراسة أصل الدين اليزيدي واتفق معظمهم على أن اليزيدية فرقة انشقت عن الإسلام وتمادت في الزيغ والخروج على السنة والشريعة تعصباً ليزيد بن معاوية حتى قادها هذا التعصب إلى تأليهه، كما أجمع معظمهم على أن اليزيدية عبدة شيطان و لم يشذ عن هذا إلا قلة يسيرة ذهبت إلى أن عبادة الشيطان لا تقوم في الدين اليزيدي))[1].

---

١ - د. جورج حبيب، اليزيدية بقايا دين قديم، دار بترا، دمشق، ص٩

((إن معتقدات الدين اليزيدي وطقوسه يمكن أن تمثل أصدق تمثيل تفاعل الديانتين القديمتين السامية والهندية الأوروبية والتي ظلت محافظة على شكلها التقليدي هذا حتى مجيء الشيخ عدي إلى لالش))[1] و((الشيخ عدي (ويسميه اليزيديون الشيخ عادي ويلفظونه (شيخادي) هو الشيخ عدي بن مسافر الأموي قدم من بعلبك في لبنان إلى بغداد أواخر القرن الخامس الهجري (أوائل القرن الثاني عشر الميلادي تقريباً) وصحب كبار رجال التصوف... ثم ترك بغداد وراح يتجول في الصحاري والجبال حتى أتى الجبال الواقعة شمال شرق الموصل واستقر هناك حتى وفاته بعد أن اجتمع حوله أناس تلك المنطقة من بقايا الديانة البابلية الإيرانية التي تعتبر طاووس ملك وأيزيد أكبر شخصيتين إلهيتين))[2]

احراق القرى بأهلها وتهديم الأضرحة ونهب السناجق:

وعلى الرغم من أن تاريخ اليزيديين في العراق قد شهد في فترات سابقة عدداً من الأحداث الدموية التي اجتاحت قراهم ومناطق سكناهم قرب الموصل وسنجار كما حصل في عهد الملك الفارسي طهماسب عام ١٧٤٣م عندما تعرض اليزيديون إلى القتل والنهب بعد أن اكتسحت مناطقهم واستبيحت قراهم، غير أن الحدث الأبرز الذي قاد إلى تأجيج الاضطرابات والاصطدامات في مناطق اليزيديين هو إقدام الدولة العثمانية في العراق على تطبيق نظام التجنيد الإجباري حيث اختلف المسؤولون في الدولة في ذلك الوقت حول الموقف من اليزيديين: فهل هم مسلمون ليخضعوا لنظام التجنيد؟ أم غير مسلمين ليكونوا كاليهود والنصارى ليؤخذ منهم البدل النقدي. وعندما مال الرأي في الدولة بضرورة إخضاعهم للتجنيد الإجباري قدم رؤساؤهم في عام ١٨٧٢م عريضة إلى الحكومة يطلبون فيها استثناء اليزيدية من التجنيد مبررين ذلك بأن التجنيد يمنعهم من أداء الواجبات التي تفرضها عليهم ديانتهم كزيارة طاووس ملك الذي يمثل الشيطان في زعمهم ثلاث مرات كل سنة وزيارة مرقد الشيخ عادي مرة واحدة واحتفاظ كل فرد منهم في جيبه بشيء من تربة الشيخ عادي حيث يأكل قليلاً منها كل صباح. كما ذكروا في العريضة أن ديانتهم تحرم

---

١ ـ المصدر السابق، ص٦٢

٢ ـ د. جورج حبيب، اليزيدية بقايا دين قديم، مصدر سابق، ص٦٦

عليهم دخول المرحاض والحمام واستعمال اللباس ذي اللون الكحلي[1] وأكل السمك والقرع والبامية والفاصولية واللهانه (الملفوف) والخس، كما تحرم عليهم تعاليمهم سكنى الأماكن التي يزرع فيها الخس أو التي يلعن فيها الشيطان من فم أحد من الناس، فاليزيدي الذي يسمع لعن الشيطان يجب عليه أن يقتل من لعنه أو يقتل نفسه وإلا اصبح كافراً... فهذه الواجبات وغيرها تمنع اليزيدية من الدخول في سلك التجنيد ولهذا فهم يرجون من الحكومة إعفاءهم منه[2] وكان لتلك العريضة أثرها في المسؤولين في ذلك الزمان فوافقت الحكومة على إعفائهم من التجنيد وجعلتهم كاليهود يدفعون البدل النقدي عوضاً عن ذلك، واستمرت الحال على هذا النحو بضعة سنين، حتى انطلق بعض رجال الدين بعد ذلك ينادون بأن اليزيدية هم فرقة من الإسلام وقد انحرفوا عن الطريق الصحيح ويجب إعادتهم للإسلام بكل وسيلة وفرض التجنيد عليهم مثل باقي المسلمين. وعلى إثر ذلك أرسلت الحكومة إلى اليزيديين بعثات دينية لإرشادهم وهدايتهم فلم توفق في ذلك فلجأت إلى الشدة وأرسلت حملات تأديبية فحدثت من جراء ذلك فظائع من العنف والتنكيل انتهكت فيها الحرمات وسفكت الدماء وانتهبت الأموال..

وفي عام ١٨٩٢ أُسندت مهمة إرشاد اليزيديين إلى عمر لطفي باشا والي الموصل، فقرر هذا أخذهم بالحسنى فمن رفض منهم أرغمه بحد السيف...

وبدأ هذا الباشا تطبيق خطته على اليزيديين الذين يسكنون قرى الشيخان إلى الشرق من الموصل أولاً باعتبارهم أقل عنفاً وعناداً من اليزيديين في سنجار فأرسل إليهم يستدعيهم إليه فجاء منهم خلق كثير خشية وخوفاً منه وكان على رأسهم أمير الشيخان ميرزا بيك ومعهم كتيبتان من الجند وجوق موسيقي، فدهش اليزيديون لهذا الاستقبال الغريب فساروا والموسيقى تعزف أمامهم حتى وصلوا إلى دار الحكومة، وصعد الباشا وألقى فيهم كلمة بالمناسبة

---

١ ـ ورد في تفسير سبب تحريم اليزيديين لبس الثياب ذات اللون الكحلي: أنهم قد تعرضوا في فترة سابقة من تاريخهم إلى اضطهاد عنيف من قبل المجوس المانويين وأن لباس هؤلاء المجوس هي الثياب الزرقاء الكحلية...

٢ ـ د. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج٣ ، ص٥٢ وقد نقلها الدكتور الوردي عن كتاب عبد الرزاق الحسني (اليزيديون في حاضرهم وماضيهم).

ثم طلب منهم أن يلعنوا الشيطان فسكتوا جميعاً وكرر الأمر عليهم ثلاث مرات فلم ينطق باللعن منهم سوى الأمير ميرزا وأخيه الصغير واثنين من العامة، فأمر الباشا الجنود بضربهم فهجم عليهم الجنود يضربونهم ضرباً مبرحاً حتى مات منهم تحت الضرب ثلاثة وجرح عدد كبير حملوا إلى المستشفيات للمعالجة أما الذين لعنوا الشيطان فقربهم الباشا وأكرمهم، ويبدو أن الأمير ميرزا قد اقنع الباشا بأنه قد ترك تقديس الشيطان وسيحاول إقناع اليزيديين بذلك عند العودة إلى قراهم.. وأبرق الباشا إلى اسطنبول بأن عشرين ألفاً من اليزيديين قد اهتدوا بهمته وجهوده وطلب أوسمة للأمير ميرزا بك وأخوته ووصلت الأوسمة وسلمت لأصحابها...

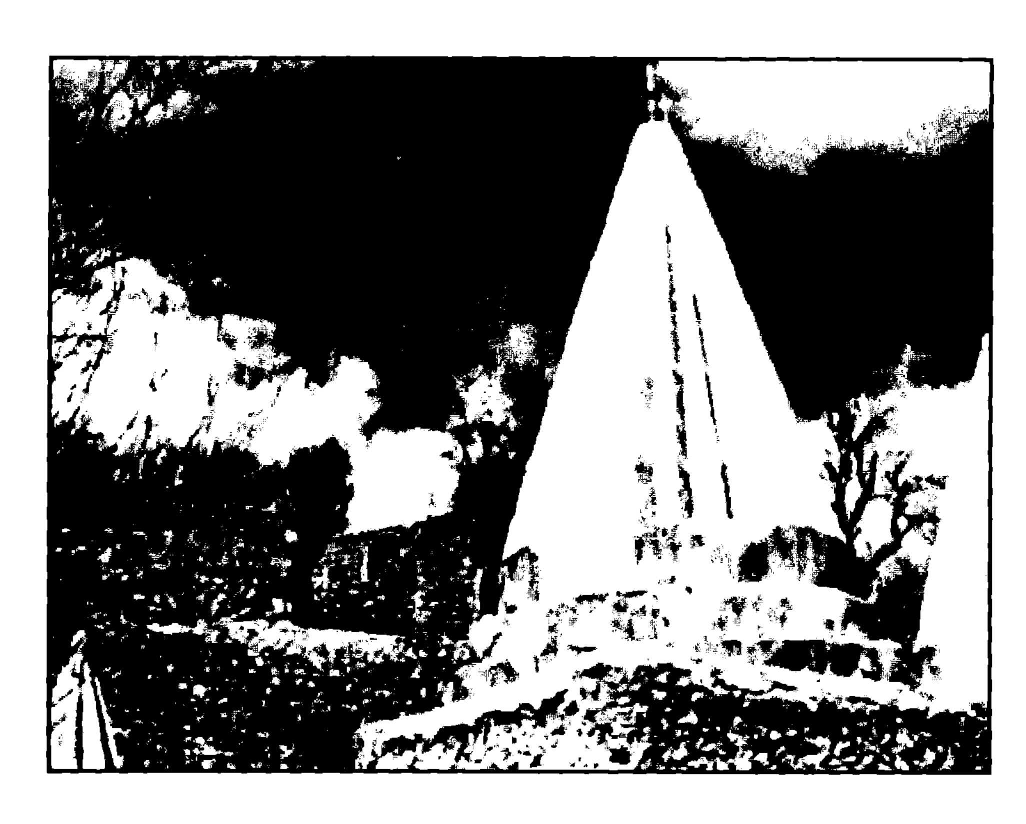
وأرسل الباشا إلى قرى الشيخان معلمين ليعلموهم القراءة وأصول الدين وعندما وصل المعلمون إلى هناك طردهم اليزيديون وهددوهم بالقتل إذا عادوا، ولما بلغ الباشا ذلك استشاط غضباً وأرسل كتيبة من الجند بقيادة ابنه إلى تلك القرى فنهبوها واستاقوا المواشي وسبوا النساء والأطفال وذبحوا من رجالها خلقاً كثيراً وأضرموا النار في أربعة من القرى فاحترقت بأهلها وماشيتها، كما نهبوا قصر الإمارة وهدموا قباب الأضرحة وفعلوا في مرقد الشيخ عادي من المنكرات ما يكل عن الوصف واستولوا على السناجق وهي «تماثيل سبعة ترمز إلى طاووس ملك يسمى واحدها سنجقاً ويتكون مما يشبه الشمعدان يقف فوقه طائر وبجانب ذلك مايشبه الكأس»[1]، كذلك استولوا على كل مايرمز على مقدساتهم وأرسلوها إلى بغداد حيث احتفظ بها في خزانة الجيش. (انظر شكل رقم:١٥)

وحين علم اليزيديون بما حل بإخوانهم في قرى شيخان أعلنوا العصيان فتوجهت حملة حكومية إليهم بقيادة عمر لطفي باشا لقتالهم وكانت الحملة مجهزة بالمدافع والقوات العسكرية الكبيرة واستمرت المعركة ثلاثة أيام كانت خسائر القوات الحكومية كبيرة[2]

---

١ ـ د. جورج حبيب، اليزيدية بقايا دين قديم، مصدر سابق، ص٩٠

٢ ـ هذه الفقرات الخاصة بوقائع العنف الدموي الموجه ضد اليزيديين نقلت مختصرة من كتاب الدكتور علي الوردي – لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث الجزء الثالث ابتداءً من ص٥١ من الكتاب/ كذلك استعنا بكتاب اليزيدية بقايا دين قديم، جورج حبيب، دار بترا، دمشق.



(شكل رقم: ١٥) مزار الشيخ عادي

وهو (عدي بن مسافر الأموي) وهو أكبر وأقدس المزارات عند الطائفة اليزيدية، ويذكر أن تقاليد اليزيديين تفرض على كل فرد منهم أن يحتفظ في جيبه بشيء من تربة الشيخ عادي. لقد تعرض هذا المزار وغيره من مزارات اليزيديين لأعمال العنف والاعتداء والتخريب في فترات مختلفة كان آخرها في نهاية القرن التاسع عشر

وهكذا نجد أن العنف الدموي في العراق قد لاحق جميع الناس من كل الملل والنحل والمذاهب والاتجاهات، وحتى سكان الجبال والمناطق النائية المعزولة الذين نأوا بأنفسهم واختاروا العزلة طلباً للسلامة فإنهم لم يسلموا من ذلك العنف.

إن اليزيديين قد اختاروا تلك المناطق النائية والمعزولة بالأساس هرباً من الاضطهاد والإبادة في مراحل تاريخية سابقة تعود إلى الفترات المتأخرة من العصر الأموي وانعزلوا هناك محافظين على تقاليدهم وشعائرهم، إلا أن العنف الدموي في العراق لم يتركهم بسلام وأمان بل تبعهم ودخل إلى بيوتهم وقراهم فأسال دماءهم وقتل رجالهم وأزهق أرواح الكثيرين منهم فاحترقت القرى بأهلها وسكانها وماتت الماشية وتشرد الناس ونهبت الممتلكات...!

- الفصل الثامن -

العنف الدموي في القرن العشرين

- **تأديب دموي في البصرة**
- **مذبحة الإيرانيين في كربلاء**
- **العراقيون يبكون السلطان عبد الحميد**
- **بريطانيا تحتل العراق**

احتلال البصرة ـ معركة الشعيبة ـ احتلال العمارة ـ سقوط الناصرية ـ معركة الكوت ـ العصيان في النجف ـ العصيان في كربلاء والحلة ـ سقوط السماوة ـ معركة سلمان باك ـ الانتقام الدموي في الحلة ـ العقوبات الدموية ضد الصرافين اليهود ـ القوات الإنكليزية تحاصر بغداد ـ انتشار الفوضى في بغداد ـ احتلال بغداد ـ المعارك شمال بغداد.

- **ثورة العشرين**
- **الملك فيصل الأول مات مسموماً**
- **انقلاب بكر صدقي والتصفيات الدموية**
- **نوري السعيد المتهم الاول بقتل الملك غازي الأول**
- **انقلاب ١٩٤١**
- **العنف الدموي يجتاح اليهود في بغداد**
- **إعدام قيادة الحزب الشيوعي**
- **ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨**
- **عنف السنوات المجنونة ١٩٥٨ـ ١٩٦٨**
- **انقلاب أبيض ومعارك دموية**

قد لا يكون من المبالغة أن نقول بأن القرن العشرين بعد الميلاد ربما كان البديل المكافئ لكل القرون الخمسين الماضية من تاريخ العراق بغزارة أحداثه الدموية وكثافتها وتزاحمها.

لقد تقاربت الأحداث الدموية وفعاليات العنف من بعضها البعض وازدحمت وتداخلت في كثافة مخيفة لتشكل ما يشبه المسلسل المتواصل من أعمال الرعب والعنف والفوضى والاضطراب وسفك الدماء. ولعل ما زاد من بروز قسوة تلك الأحداث وجسّد مأساويتها وشراستها هو الاختراعات الحديثة وما رافقها من تطور هائل وسريع في وسائل وأدوات الموت والقتل القادرة على إزهاق أعداد أكبر من الأرواح البشرية إضافة إلى تطور وسائل وأساليب التوثيق والتسجيل المكتوب والمرئي للوقائع والأحداث التاريخية.

وقد تضطرنا كثافة الأحداث وتزاحمها في هذا القرن الذي ربما سنكون من الشهود الذين سيراقبون غيابه النهائي ونحن نعيش الشوط الأخير منه، قد تضطرنا تلك الأحداث المتزاحمة للجوء إلى ما يشبه التعداد للأحداث البارزة فيه منعاً للإطالة المملة على القارئ ولأن الكثير من أحداثه مازال حياً وطرياً وقريب الوقوع مما لا يعطي الفرصة الكاملة لتحويلها إلى مادة تاريخية صالحة للبحث التاريخي.

لذلك كله سوف نلجأ إلى تسريع وتيرة عرض الأحداث وتكثيفها وعدم الغوص في تفاصيلها مع الإبقاء على الشكل المفهوم للأحداث بحيث يستطيع القارئ المتابعة دون أن يضيع في متاهات الأحداث المتشابكة وتداخلها.

وهذا ربما سيجد القارئ أن أحداث هذا القرن في العنف الدموي تمر سريعاً وكأنها محطات للتذكير والمعاينة، إذ أن كل حادث فيها يمكن أن يصلح موضوعاً لكتاب مستقل، وهذا ربما هو ما قد حدث فعلاً إذ ظهرت في السنين الأخيرة مجموعة كبيرة من الكتب التي عالجت وأرّخت وحللت أحداث العراق في العصر الحديث بتفاصيلٍ دقيقة كاملة كان بعضها بعيداً عن الانحياز وهو أمر أصبح يدعو للفخر حقا.

لقد سبق لنا أن أشرنا إلى صورة الأوضاع العامة التي كانت سائدة في العراق خلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وما كان يكتنف تلك السنوات من أوضاع ألقت بظلالها وهيمنتها الكاملة على مجريات الحياة في هذه البلاد.

وربما كانت السنوات العشر أو الخمس عشرة الأولى من القرن العشرين لا تختلف في شئ جوهري عن العقود الأخيرة من القرن السابق غير أن التطور الكبير والنوعي الذي غطى الأوضاع العامة في العراق بأكملها هو وقوع الحرب العالمية الأولى واحتلال بريطانيا للعراق وغروب شمس الأتراك العثمانيين عن العراق وزوال الحكم العثماني الذي سيطر على البلاد منذ بداية القرن السادس عشر. وربما كان هذا الحدث وحده يشكل تغييراً نوعياً غير معهود منذ قرون في وتيرة الأحداث التي كان يشهدها العراق، فالتغيير والتبيدل لم يشمل هذه المرة تنحية أحد الولاة واستبداله بآخر كما كان الأمر يجري منذ أكثر من ثلاثة قرون بل إن استبدالاً نهائياً قد جرى للوجود العثماني برمته في العراق ولأول مرة منذ دخول السلطان العثماني سليمان القانوني إلى بغداد عام ١٥٣٤ لم يعد العراق ولاية تابعة للعثمانيين.

غير أن من المفيد أن نمر مروراً سريعاً على بعض الأحداث والوقائع ذات الصلة بالعنف الدموي التي جرت في العراق قبل دخول الإنكليز واحتلاله.

تأديب دموي في البصرة:

في بداية القرن العشرين وفي السنوات الأولى منه على وجه التحديد كانت البصرة تعيش حالة من الفوضى وفقدان الأمن وكثرة السرقات وأعمال السطو،

وكان الشقاة واللصوص يصولون ويجولون فيها ولا أحد يستطيع ردعهم أو إيقاف نشاطهم «حتى ساد فيها قانون الغاب وأصبح هم الناس أن يحرسوا ممتلكاتهم بأنفسهم وأن يدافعوا عن حياتهم بسلاحهم كأنْ لم تكن حكومة وكأن لم يكن قانون».[1]

أما الأسباب التي كانت تؤدي إلى مثل تلك الفوضى والفلتان الأمني فهي «أن البصرة محاطة بمناطق يستطيع اللصوص والخارجون على القانون الالتجاء إليها بسهولة فالصحراء تقع في الغرب منها والحدود الإيرانية إلى الشرق عبر النهر منها كما يقع البحر إلى الجنوب والأهوار إلى الشمال. أضف إلى كل ذلك أن منطقة البصرة نفسها عبارة عن غابة هائلة من النخيل يمكن أن يختفي فيها اللصوص فلا ينالهم أحد»[2] ونتيجة لذلك الوضع السائد في تلك الأيام أرسلت الحكومة العثمانية في عام ١٩٠٤م إلى البصرة رجلاً عسكرياً شديداً وحازماً ليكون والياً هناك وهو فخري باشا الذي كان قائداً للجيوش العثمانية في العراق قبل ذلك الوقت فاتخذ مجموعة من الإجراءات التأديبية الصارمة بحق اللصوص والشقاة وقطاع الطرق، وقد أخذت تلك الإجراءات طابعاً دموياً تصفوياً عنيفاً حيث قام هذا الرجل في اليوم الثاني لوصوله بهجوم عسكري على مقرات اللصوص وأماكن تجمعهم في البصرة وفتح عليهم النار فقتل ستة وجرح خمسة ثم جمع المختارين وهددهم بالسجن إذا لم يقدموا له قوائم تفصيلية بأسماء اللصوص والشقاة في الأحياء، فقدموا له قائمة طويلة بأسمائهم فألقى القبض على أكثرهم وأودعوا السجن وقتل كل من حاول الفرار منهم، وعندما التجأ عدد منهم إلى مدينة المحمرة كتب إلى أميرها الشيخ خزعل راجياً إعادتهم فأعيدوا إلى البصرة مقيدين بالسلاسل، وبلغ عدد القتلى من اللصوص في تلك الحملة واحداً وعشرين فوضعت جثثهم داخل أكياس كبيرة من القنب (گواني) ألقيت في النهر فظلت عائمة فيه ترتفع مع المد وتنخفض بالجزر[3]

---

١ ـ د. علي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج٣، مصدر سابق، ص٦١ نقلاً عن مذكرات سليمان فيضي.

٢ ـ المصدر السابق، ص ٦١

٣ ـ المصدر السابق ، ص٦٤.

فهدأت الأحوال واطمأن الناس وراح أهل البصرة يدعون بالتوفيق للوالي الجديد الذي لقبوه (أبو الگواني)[1]

قد تبدو مثل هذه الحوادث اعتيادية ومألوفة إزاء ما يحفل به التاريخ العراقي من أعمال دموية في العنف خلال العشرات من القرون، إلا أن ما يشغل الاهتمام هنا هو أن السلطة الرسمية هي التي تقوم بالتنكيل بالموتى والتمثيل بجثث مواطنيها الذين أنزلت بهم عقوبة الموت عن تهم وجرائم قد لا تصل عقوبتها إلى الإعدام إذا طبقت فيها الشرائع والقوانين أصولاً.

إن أنهر البصرة كما يبدو موعودة بالجثث الآدمية الطافية فيها منذ قرون فقد طفت الجثث الآدمية والرؤوس البشرية المقطوعة في أنهر البصرة قبل ذلك، في ثورة الزنج، كما طفت فيها أيضاً جثث الجنود العراقيين في الثمانينات من القرن العشرين في الحرب الدموية الطاحنة بين العراق وإيران.

إن مسلسل العنف الدموي هو ذاته مازال يعرض في البصرة منذ ما يزيد على الألف عام ولا تتغير فيه سوى الأسماء والسنين والشعارات لقد تعددت الأسباب والموت واحد!

مذبحة الإيرانيين في كربلاء:

كانت الحكومة المحلية في كربلاء قد فرضت بعض الضرائب الخاصة على الإيرانيين المقيمين فيها، مما دفعهم لإعلان الاحتجاج على ذلك القرار، فتجمعوا قرب القنصلية البريطانية، وفرشوا البسط في الشارع، وعلقوا خياماً على الجدران تحميهم من وهج الشمس، واستمروا على ذلك خمسين يوماً وسدوا طرق المارة. حاول متصرف كربلاء السيد رشيد بك الزهاوي إقناعهم بالتفرق فأرسل بعض رجال الدين للتوسط معهم فلم يقتنعوا ووجه لهم ثلاثة إنذارات لكنهم لم يستجيبوا وبعد انتهاء مدة الإنذار الثالث في ١٠ تشرين الثاني ١٩٠٦ أحاط الجنود بالمعتصمين وفتحوا عليهم النار فسقط منهم (٧٠) سبعون قتيلا وعدد أكبر من الجرحى.

---

١ ـ الكواني هي كلمة عامية عراقية وهي جمع كونيّة وتعني الكيس الكبير المصنوع من القنب في الغالب.

وعلى إثر تلك الحادثة عزلت الحكومة والي بغداد المدعو مجيد بك.

العراقيون يبكون السلطان عبد الحميد

وخلال هذه الفترة جرى خلع السلطان العثماني الدموي عبد الحميد في عام ١٩٠٩، والأمر المستغرب أن رحيل هذا الحاكم المستبد قد ترك صدى واسعا ومؤثرا في العراق فقد حزن عليه العراقيون حزناً بالغاً حتى «أن أكثر المصلين في المساجد بكوا عندما ورد في خطبة الجمعة لأول مرة اسم السلطان الجديد محمد الخامس»[1]، وفي الحلة عندما أذيع الخبر أخذ الناس يبكون بكاءاً مراً، وفي اليوم التالي نفذت نسخ الجرائد كلها لأن الناس كانوا يتابعون تفاصيل الخبر. ولعل الناس في العراق خلافاً لكل شعوب الولايات العثمانية قد انفردوا بمثل هذا الحزن العميق والمشاعر الطاغية من التأثر والبكاء تجاه السلطان الدكتاتور عبد الحميد، وربما لم يبك شعب من الشعوب رحيل السلطان عبد الحميد عن الحكم كما بكاه شعب العراق وهذا أمر محيِّر حقاً ويستعصي على الفهم إلا أنه في نفس الوقت قد يوحي بأن لدى شعب العراق ميلاً فطرياً لتقديس واحترام الحاكم القوي والإعجاب به والانصياع لحكمه وأوامره وتوجيهاته.

وفي تلك السنين بدأت الانهيارات العسكرية الكبرى تتوالى على كافة الجبهات العسكرية لتعلن بلا أدنى شك تفكك وتداعي كيان الإمبراطورية العثمانية، وكانت أخبار الاندحارات والخسائر المفجعة في الجبهات المختلفة التي توالت طيلة تلك الفترة على مسامع المواطنين في الدولة العثمانية بمثابة المقدمة التي تنبئ عن الانهيار المتوقع في العراق.

وقبل أن نبدأ بالحديث عن المعارك الضارية التي جرت بين الإنكليز والعثمانيين خلال غزو الإنكليز للعراق يكون من المفيد الإشارة إلى أحداث الفتنة المشوبة بالعنف في الفرات الأوسط التي وقعت عام ١٩١١ بعد عزل الوالي ناظم باشا الذي كان صارماً وشديداً واستطاع أن يمنع في عهده الاضطرابات والفوضى غير أنه بعد عزله وتعيين الوالي جمال باشا عادت العشائر للتمرد وأعمال العنف، فقد عاد الشيخ عليوي الرخيص للتحرك في منطقة الشامية وأبي

---

١ ـ المصدر السابق، ص١٩٦

صخير بعد أن كان هارباً في عهد ناظم باشا وقام بمهاجمة عشيرة الغزالات فوقعت معارك شديدة، وقام مزهر الفرعون بمحاصرة قرية اللهيبات القريبة من الحيرة فأحرق دورها ونهب أموالها ثم توجه إلى الحيرة فأحرق جزءاً من سوقها ونهب الحوانيت والدور فيه وازهق أرواحاً بريئة كثيرة[1]

خلال الصراع الذي جرى في العراق بين الدولة التركية وبريطانيا في أوائل القرن العشرين وبالذات في الحرب العالمية الأولى بعد أن دخلت تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا، ساد بين الناس في العراق رأي سياسي انتشر في جميع الأوساط على نطاق واسع ثم تحول إلى ما يشبه الشعور أو الرأي العام في البلاد مفاده أن على العراقيين أن يقفوا إلى جانب الأتراك، إخوانهم في الدين، وأن يدافعوا عن الدولة العثمانية المسلمة ضد الإنكليز الكفرة. وقد ساد هذا الرأي أو الموقف لدى أكثر أهل البلاد سواء منهم سكان المدن أو العشائر أو المثقفين السياسيين أو عامة الناس من كافة المذاهب، وقد ساعد على تعميم هذا الاجتهاد ونشره ما قام به رجال الدين وخطباء الجوامع من تحريض وتوجيه بهذا المعنى، لذلك كان موقف شعب العراق في هذا الموضوع منحازاً بوضوح إلى جانب الأتراك ضد الإنكليز وهذا ما يمكن أن يفسر مواقف الأفراد العراقيين من ضباط وموظفين ووجهاء وشيوخ العشائر والمسؤولين ورجال الدين وغيرهم في الاصطفاف إلى جانب القوات التركية ظاهرياً على الأقل، رغم وجود بعض الأشخاص الذين كان لديهم رأي آخر مختلف يسعى للتخلص من كلا الطرفين: الأتراك والإنكليز وعدم تأييد أي منهما. لكن الرأي الذي بدا طاغياً ومعروفاً هو الانحياز إلى جانب الأتراك باعتبارهم إخوان العراقيين بالدين. ورغم وجود هذا الموقف المتعارف عليه فقد جرت وقائع وأحداث كثيرة ومكررة في مضمونها ومدلولها على عكس هذا الاتجاه وهي لكثرتها تستدعي الوقفة والبحث والنظر والتحليل لأنها تعطي مؤشرات واضحة عن منهج سلوكي وأخلاقي يتعلق بالشعب العراقي وتُعطي صورة عن تقلب في المزاج وتغيير في المواقف وعدم الثبات في الرأي. كما تدل في بعض وجوهها على تشبع الشعب العراقي بروح البداوة ذات النزوع نحو النهب والسلب والعصيان والفوضى. ففي كل مدينة عراقية تقدم نحوها الجيش الإنكليزي

---

١ ـ المصدر السابق، ص١٦٨

وقبل الوصول إليها وقبل انسحاب السلطة العثمانية أو اندحارها يقوم الناس بالانقلاب السريع ضد الأتراك (إخوانهم في الدين) والذين يفترض أن يكونوا حلفاءهم فيبدأون بالنهب والسلب ومهاجمة دوائر الدولة والمسؤولين ودور الموظفين ومخازن الدولة ويكسرونها ثم ينهبون ما فيها من الأغذية والمعدات و لم يسلم شئ من مرافق الدولة من النهب والتخريب حتى المدارس، في الوقت الذي كان القرار السائد بين الناس ـ الديني والسياسي هو الوقوف إلى جانب الدولة العثمانية ضد المحتل الكافر.. إنها كانت ظاهرة غريبة تكشف بعمق ووضوح طبيعة التقلب في مزاج الفرد العراقي. ولتأكيد هذه الظاهرة بالوقائع والدلائل سوف نذكر باختصار ما حدث في كل مدينة عراقية تقدمت نحوها القوات الإنكليزية لاحتلالها منذ عام ١٩١٤ وما بعدها لنرى ماذا جرى وماذا حصل فيها من مواقف وحوادث وتصرفات قام بها الأهالي والشعب في تلك الظروف والساعات الحرجة والتي تدخل ضمن إطار أحداث العنف الدموي في البلاد.

بريطانيا تحتل العراق:

ـ احتلال البصرة

بعد دخول تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا عام ١٩١٤ قررت بريطانيا احتلال البصرة وكانت تسعى في بادئ الأمر الى حماية مصافي النفط وأنابيبه في عبادان (ميناء نفط إيراني يقع على ضفة شط العرب الشرقية). وقد بدأ هجوم الأسطول البريطاني أولاً على قلعة الفاو وتم احتلال الفاو بسهولة وسقط عدد قليل من الضحايا، وقرب موقع السنية على شط العرب، قرب عبادان، قام الأتراك بالهجوم على القوة البريطانية بوحدة عسكرية قوامها (٤٠٠) أربعمائة جندي فتكبدوا ثمانين قتيلاً وانسحبت القوة التركية شمالاً إلى سيحان على شط العرب.

وفي ١٧ تشرين الثاني حدثت معركة كوت الزين على شط العرب وكانت معركة ضارية حيث حشد فيها الأتراك أربع آلاف وخمسمائة جندي، وتم القضاء على القوة التركية بالكامل حيث وقعت بين قتيل وجريح أما الذين بقوا أحياءاً في المواقع فقد تم أسرهم. وقد كان لهذه المعركة أثر فاصل في سقوط البصرة بيد الإنكليز بعد ذلك، فقرر الأتراك الانسحاب، وتم إخلاء البصرة في ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٤

وعلى إثر ذلك وقبل وصول القوات البريطانية التي ما زالت محمولة فوق سفن الأسطول في شط العرب حدثت الفوضى في البصرة وهجم أبناء العشائر على مخازن الجمرك ودوائر الحكومة فنهبوها وأشعلوا النار فيها وأصبحت المدينة كلها في خطر، وبدأت أعمال النهب والسلب والحرائق بالتوسع مما اضطر بعض الوجهاء والأهالي في البصرة إبلاغ القوات البريطانية ضرورة الإسراع بالقدوم إلى المدينة لإيقاف عمليات النهب والحرائق فتحرك مركبان بحريان من القوة الإنكليزية على وجه السرعة فوصلا البصرة وكان دخان الحرائق يتصاعد من أنحاء مختلفة من المدينة وعمليات النهب متواصلة، فأطلق المركبان بعض القنابل للإرهاب فكان لذلك أثره الفعال في إيقاف النهب والسطو. لقد نهب الناس وأحرقوا مرافق الدولة التي قالوا أنهم سيدافعون عنها ويقفون إلى جانبها.

بعد ذلك وصلت القوات البريطانية واحتلت المدينة ورفعت العلم البريطاني فوق مبنى السراي في البصرة وتحدث السر برسي كوكس مستشار قائد الحملة إلى أهالي البصرة بأنهم يحاربون الأتراك وهم لا يضمرون شيئاً عدائياً ضد أهل البصرة ووعدهم بالحرية والعدالة.

ثم تقدم الإنكليز إلى القرنة شمال البصرة وهناك حاولت القوات التركية في القرنة استمالة العشائر الساكنة في تلك المنطقة فاستدعى الضابط التركي عثمان مظهر بك رؤساء العشائر وخطب فيهم وحمّسهم ووزع عليهم الأموال والسلاح فوعدوه خيراً وبدأوا بالهوسات الحماسية تأييداً للأتراك، غير أنهم انقلبوا ضدهم فور وصول الإنكليز وصاروا يطلقون النار على القوات التركية المنسحبة بنفس البنادق التي استلموها من الأتراك. وقد استسلمت القوة التركية للإنكليز بعد أن تم تطويقها وقطع طرق العودة عليها خلال انسحابها إلى الشمال.

معركة الشعيبة

وفي الشعيبة (إلى الغرب من البصرة قرب مدينة الزبير الصحراوية) حدثت معركة ضارية بين القوات البريطانية والتركية وكان القتال في هذه المعركة شرساً للغاية استخدم فيه السلاح الأبيض وقد انتحر القائد التركي في خيمته. وتم احتلال الشعيبة. وقد خسر الإنكليز في تلك المعركة (١٢٠٠) ألفاً ومائتي جندي بين قتيل وجريح ، أما الأتراك فكانت خسائرهم ضعف هذا العدد وقد سيق

(٧٠٠) سبعمائة أسير إلى البصرة. وتشير أخبار معركة الشعيبة إلى الدور الهام الذي قام به الشيخ ابراهيم وهو من وجهاء وشيوخ الزبير في نقل المعلومات إلى الإنكليز عن القوات العثمانية حيث تحول مجلسه الذي يرتاده الكثيرون من أهالي البصرة والزبير إلى مركز للاستخبارات البريطانية[١] ، أما العشائر العراقية التي شاركت في معركة الشعيبة إلى جانب الأتراك فقد انقلبت على الأتراك عندما ظهرت أول بادرة على انتصار الإنكليز فهجمت على حلفائها الأتراك «وانثالت عليهم نهباً وقتلاً»[٢].

ـ احتلال العمارة

تابع الجيش البريطاني القوات التركية المنسحبة من البصرة في نهر دجلة وكانت القرى الواقعة على جانبي النهر ترفع الأعلام البيضاء وتعلن الولاء للإنكليز بعد علمها بالانهيار العام الذي أصاب القوات التركية وكان من الطبيعي أن ينقسم العراقيون في المناطق التي تقع تحت السيطرة البريطانية إلى مؤيدين ومعارضين غير أن منطق البريطانيين ولهجتهم وخطابهم للناس كان مقنعاً في كثير من الأحيان خصوصاً عندما كانوا يؤكدون أنهم لا يصادرون أموال الناس في القرى وإذا احتاجوا لشيء فيشترونه بالمال نقداً، وانهم ليسوا أعداء للعراقيين.

كان القائد التركي في العمارة حليم بك قد قرر أن يستسلم للإنكليز دون مقاومة وكان ذلك في حزيران ١٩١٥ وجرت خلال ذلك حوادث مخزية للاستسلام التركي الخنوع لطلائع القوات البريطانية في العمارة لا مجال للدخول في تفاصيلها[٣] وكما هي العادة فقد شاع النهب والسلب في العمارة قبل دخول القوات البريطانية المدينة حيث بدأ سكان العمارة ينهبون بيوت الضباط الأتراك ودوائر الحكومة والمستشفيات ومستودعات الأطعمة، وعندما وصل زورقان بريطانيان من طليعة القوة البريطانية إلى العمارة أطلقت النار على بعض

---

١ ـ المصدر السابق، ص١٥٠.

٢ ـ المصدر السابق، ص ١٨١.

٣ ـ د. علي الوردي ـ لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج٤، مصدر سابق، ص١٦٦.

الأفراد الذين كانوا منهمكين في السلب والنهب فقتلت عدداً منهم وهرب الباقون وهم يدوسون بعضهم بعضاً.

وكان مجموع الأسرى الأتراك في العمارة يقرب من الألفين، ويتوضح من هذا العرض أن النهب والسلب ومهاجمة مراكز السلطة العثمانية قد باشر به العراقيون قبل وصول القوات البريطانية أيضاً مثلما حصل في البصرة. وهناك قصة تروى في العمارة عن هرب ضابطين عراقيين كانا في صفوف القوات التركية غادرا وحدتهما والتجآ إلى أحد البيوت في المدينة وقد تبين أن صاحبة الدار يهودية فأدخلتهما وساعدتهما على تغيير ثيابهما العسكرية وعندما خرجا من الدار قررا الاستسلام للقوات البريطانية التي وصلت إلى العمارة...

ـ سقوط الناصرية

أما في الناصرية فقد حدث قتال ومقاومة عنيفة، وكانت الخسائر تقارب الألفين بين قتيل وجريح مع ألف أسير من القوات التركية أما الإنكليز فكانت خسائرهم خمسمائة قتيل وجريح وقد أفلت القسم الأكبر من القوات التركية من الأسر وتوجهت نحو الكوت[1] وبذلك سقطت الناصرية بيد الإنكليز.

ـ معركة الكوت

حدثت معركة في منطقة السن قرب الكوت بين القوات البريطانية والتركية وقد خسر الأتراك (١٧٠٠) ألفاً وسبعمائة قتيل وجريح و(١١٠٠) ألفاً ومئة أسير أما الإنكليز فقد خسروا (١٢٠٠) ألفاً ومئتي قتيل وجريح.

وبغض النظر عن الأسباب والدواعي فإن نزيف الدم لم يتوقف فوق أرض العراق. إن هذه المنطقة التي سال فيها كل هذا الدم وازهقت فيها كل هذه الأرواح هي ذاتها أو قريبا منها مارس الحجاج بن يوسف الثقفي لعبته الدموية في الموت المتواصل الذي نفذه ضد أهل العراق في أول القرن الثامن الميلادي.

ـ العصيان في النجف

بعد تكاثر عدد الفارين من الجيش وانتشار الأخبار الخاصة بالهزائم التي لحقت بالجيش التركي والتقدم المتواصل الذي تحرزه القوات الإنكليزية فقد بدأت تظهر

---

١ ـ المصدر السابق، ص١٧٠.

بوادر العصيانات المدنية ضد السلطات الحكومية التركية في المدن ومن ذلك ظهور العصيان في النجف في ٢٢ أيار عام ١٩١٥ وقد اضطر آمر القوة التركية في المدينة ومعه القائمقام وبقية الموظفين الاستسلام أمام حركة العصيان المتعاظمة في المدينة وقد تم تسفيرهم إلى خارج النجف وأصبح الوضع ملائماً لانتشار الفوضى. ((فانتهز الغوغاء الفرصة فانثالوا على دار البلدية ودور الموظفين ومختلف دوائر الحكومة فانتهبوها ومزقوا سجلاتها ثم أضرموا النار فيها، وكانت المدرسة التي شيدها القائمقام من جملة ما انتهبوه واحرقوه وأتلفوا آلات البرق كما انثالت العشائر على أعمدة البرق الممتدة إلى الكوفة وأبو صخير فاقتلعوها.))[١]

ـ العصيان في كربلاء والحلة

بدأ العصيان في مدينة كربلاء بتاريخ ٢٧ حزيران ١٩١٥ بهجوم قام به المجندون الفارون من الجندية مع بعض الأهالي على دار الحكومة وقد استسلم الجنود المكلفون بحراستها وعددهم أربعون جندياً ((وعندها انثال الغوغاء على دار البلدية ودائرة البريد والبرق والمدارس الرسمية وغيرها فانتهبوها وأضرموا النار فيها ثم أخرجوا السجناء كما انتهبوا المستشفى الحسيني))[٢] وحدث في اليوم الثاني أن اختلف زعماء العصيان فيما بينهم على اقتسام المنهوبات ((فجرى بينهم قتال في الحرم الحسيني وسقط منهم عدد من القتلى والجرحى))[٣]

وفي الحلة حدث عصيان مشابه حيث نشبت معركة بين العشائر والقوات التركية الموجودة في المدينة وقد سقط حوالي مائة شخص بين قتيل وجريح في تلك الفوضى.

ـ سقوط السماوة

في مدينة السماوة اتفق جميع الأهالي مع القائمقام عبد العزيز القصاب ـ ويبدو أنه كان محبوباً لدى أهل السماوة ـ على الوقوف صفاً واحداً للدفاع عن مدينة السماوة ضد الإنكليز وبعد منتصف الليلة التي اتفقوا فيها على المقاومة جاء قائد الدرك ليخبر القائمقام بأن جنوده قد هربوا كلهم ولم يبق معه سوى اثنين

---

١ ـ المصدر السابق، ص١٩٠.

٢ ـ المصدر السابق، ص١٩٣.

٣ ـ المصدر السابق، ص١٩٣. .

هم من أقاربه، وقبل الفجر شاهد القائمقام جمهوراً غفيراً من أهل السماوة يتجهون نحو مخزن الإعاشة العسكري الواقع على النهر فحطموا بابه ونهبوا ما فيه من أطعمة مختلفة ثم توجهوا إلى سراي الحكومة ودور الموظفين لنهبها.

لقد انقلب أهل السماوة وصاروا ينهبون ويدمرون مرافق الدولة التي قرروا الدفاع عنها في الليلة السابقة..

وفي اليوم التالي صادف أن دخلت البلدة سرية من الخيّالة الأتراك يبلغ عددهم مائة وثمانون جندياً وهم لا يعلمون بالتغيير الذي حدث في موقف السكان «فلما توسطوا السوق الكبير هجم عليهم أهل البلدة وسلبوا منهم خيولهم وأجهزتهم وخرج هؤلاء من البلدة عراة ليس عليهم سوى خرق بالية»[1] كذلك حصلت في الكوفة فتنة في كانون الأول ١٩١٥ ودامت فيها الفوضى والاضطرابات مدة عشرين يوماً.

«إن تضاؤل السلطة الحكومية في مجتمع عشائري كالمجتمع العراقي لابد أن يؤدي إلى استفحال الفوضى ونشوب المعارك بين العصبيات المختلفة التي يتكون منها المجتمع وهذا هو ما حدث فعلاً في الفرات الأوسط أثناء فترة العصيان»[2] ألا يجد القارئ أن هذا الكلام الذي يورده الدكتور على الوردي في النص أعلاه قد انطبق في بعض وجوهه على الاضطرابات التي تصاعدت في جنوب العراق في عام ١٩٩١ والتي سميت فيما بعد بالانتفاضة، بعد قيام جيوش الحلفاء بضرب العراق وتضاؤل بل تفكك السلطة الحكومية المحلية في محافظات الجنوب وبعض محافظات الشمال؟ لقد نقل المشاركون في إحداث تلك الانتفاضة روايات فظيعة ومفجعة عن حجم الفوضى والفلتان والنهب وتدمير المؤسسات الرسمية الذي جرى خلال تلك الأيام.

ولعل هذا الأمر ممكن الحدوث والتكرر في أي يوم تتضاءل فيه السلطة المركزية للدولة في العراق بغض النظر عن نوع الحكم القائم أو هويته أو اتجاهه السياسي.

---

١ - المصدر السابق، ص٢٠٢

٢ - المصدر السابق، ص٢٠٧

ـ معركة سلمان باك

حدثت هذه المعركة بين الجيش العثماني والجيش الإنكليزي بتاريخ ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٥ في منطقة سلمان باك جنوب بغداد وهذه المنطقة سميت بهذا الاسم نسبة إلى سلمان الفارسي أحد صحابة الرسول محمد (ص) المدفون فيها وتقع في هذه المنطقة آثار (المدائن) وتسمى طيسفون أيضاً وهي عاصمة الملك كسرى أنوشروان خلال حكم الإمبراطورية الفارسية للعراق في القرن السادس الميلادي. (انظر شكل رقم: ١٦)

وقد استطاع الجيش العثماني في هذه المعركة الصمود بصلابة وتحقيق الانتصار على الجيش الإنكليزي وقد عانى الأتراك قبل ذلك سلسلة طويلة من الهزائم التي امتدت من البصرة وحتى هذا الموقع الذي يبعد ٢٠ ميلاً جنوب بغداد.

كان القتال في هذه المعركة ضارياً وطاحناً فكان أشبه بالمذبحة الرهيبة اشتبك فيها جنود الفريقين يداً بيد وشوهدت جثث القتلى من البريطانيين والهنود مختلطة بجثث الأتراك وكانت نسبة القتلى من الضباط عالية، ولعل من المفيد التذكير بأن هذا الموقع قد شهد الهجوم العسكري الناجح الذي قام به المسلمون في معارك فتح العراق عام ٦٣٤م بقيادة سعد بن أبي وقاص ضد الإمبراطورية الفارسية حيث استطاع المسلمون في هذا الهجوم احتلال (المدائن) عاصمة الإمبراطورية الفارسية.

ونعود للحديث عن معركة سلمان باك حيث «جاءت الليلة التالية فكانت ليلة ليلاء أطبق على الجميع فيها أسىً فلقد جمع الجرحى ووضعوا في عربات لا نوابض لعجلاتها تجرها البغال وكانت تتعالى منهم الصرخات من جراء سيرها على الأرض الوعرة فتبعث الرعب في قلوب زملائهم الباقين وكثير منهم كان يعاني من ظمأ دام طوال اليوم وكان برد الليل ينفذ إلى عظامهم فيثير ألماً على ألم»[1] تراجعت القوات البريطانية إلى الكوت بعد الاندحار الذي واجهته في معركة سلمان باك. وفي الكوت استطاعت القوات التركية أن تحاصر القوات الإنكليزية حصاراً تاماً دام خمسة أشهر تخللها أحداث عديدة ومتواصلة من

---

١ ـ المصدر السابق، ص٢٢٥

الأعمال ذات الصلة بالعنف والقسوة والعذاب والجوع والأسى فكانت إحدى المحطات الكبرى في تاريخ العنف الدموي والقسوة.

لقد مات عدد كبير من البشر من كلا الجانبين الإنكليز والأتراك، أما أهل مدينة الكوت من العراقيين فقد عانوا صنوفاً من العذاب والعوز والحاجة والجوع فأكلوا كل شئ، إضافة إلى القتل المتواصل الذي تعرضوا له خلال عمليات المقاومة والقنص المتبادل بين الجيشين العثماني والبريطاني. كما قتل تحت قصف المدافع وسقوط القنابل فوق الدور السكنية عدد غير قليل من الأهالي.

وفي نهاية الحصار استسلمت القوات البريطانية إلى القوات التركية وكان عددها (١٣٠٠٠) ثلاثة عشر ألف ضابط وجندي منهم حوالي ثلاثة آلاف إنكليزي والباقون من الهنود وقد نقل الضباط الأسرى بوسائل النقل المتوفرة.

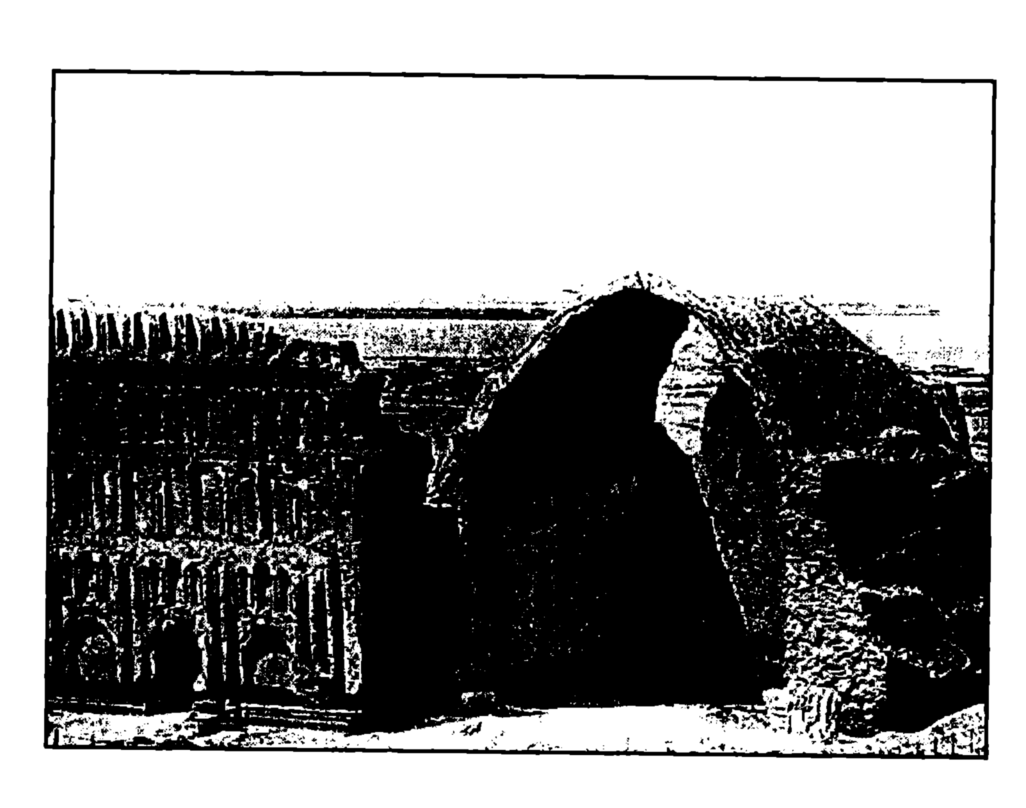
أما الأسرى من الجنود فقد سيقوا إلى اسطنبول مشياً على الأقدام ومات عدد غير قليل منهم في الطرق. وقد لقي قائد الحملة البريطانية في الكوت الجنرال طونزند احتراماً وتقديراً خاصاً من قبل الأتراك. (اظر شكل رقم: ١٧)

وقد أقدم الأتراك بعد استسلام الحامية الإنكليزية على إعدام عدد من العراقيين من أهل الكوت الذين تعاونوا مع الإنكليز وساعدوهم في إيصال المؤن والأخبار خلال الحصار وكان بين الذين أعدموا تاجر يهودي اسمه (ساسون) حيث شنقه الأتراك بعد أن حاصروه في إحدى الدور في الكوت واعتقلوه، كذلك شنقوا رئيس بلدة الكوت وابنه وابن أخته وبعد أن قطعوا اليد اليمنى من كل واحد منهم بالساطور قبل أن يشنقوهم على شاطئ النهر. كما ألقوا القبض علي مائتين وخمسين شخصاً آخرين ساقوهم إلى السراي بتهم مختلفة ثم قتلوهم رمياً بالرصاص[1]

وكان من نتائج انتصار الأتراك على الحامية البريطانية في الكوت أن بدأ الشعراء العراقيون بنظم القصائد في مدح الأتراك وذم الإنكليز وكان من بينهم الشاعر جميل صدقي الزهاوي الذي انقلب بعد ذلك ليمدح الإنكليز بقوة ويذم الأتراك بعد احتلال بغداد.

---

١ ـ المصدر السابق، ص٢٧٩.



(شكل رقم: ١٦) بقايا قصر الملك كسرى في مدينة طيسفون (المدائن)

[٤٠ كم جنوب بغداد] وتبدو في الصورة قاعة العرش الكبرى للملك كسرى أنوشروان، وقد احتلت الجيوش الإسلامية هذه المدينة عام /٦٣٤/ ميلادية بقيادة سعد بن أبي وقاص. وتقع هذه الآثار في المنطقة التي تسمى اليوم سلمان باك وقد حدثت بالقرب من هذه المنطقة معركة ضارية عام ١٩١٥ بين القوات العثمانية والبريطانية وكانت لعنفها وضراوتها أشبه بالمذبحة الكبيرة حيث تكدست فيها جثث القتلى من الجيشين المتحاربين فوق بعضها وكان النصر النهائي فيها للعثمانيين فتراجع الإنكليز إلى الكوت



(شكل رقم: ١٧)

بعد أن أحكمت الجيوش التركية عام ١٩١٦ الحصار على الحامية الإنكليزية في الكوت مدة خمسة أشهر استسلمت الحامية فتم أسر /١٣٠٠٠/ ثلاثة عشر ألفاً من القوات الإنكليزية بمن فيهم قائد القوات الإنكليزية الجنرال طاوزند الذي يبدو في الصورة جالساً (في الوسط) أسيراً بيد القائد التركي خليل باشا (من اليمين)

(شكل رقم: ١٨)

في الصورة أسرى أتراك لدى الجيش الإنكليزي في الكوت أيضاً عام ١٩١٦ تمّ نقلهم إلى الهند

ـ الانتقام الدموي في الحلة:

بعد هذا الانتصار في الكوت أخذ المسؤولون الأتراك يشددون قبضتهم على الأهالي ويصعدون من أساليب التنكيل والمعاملة القاسية تجاه الأهالي في المدن وكان من نتيجة هذا المنهج المتشدد انفجار أحداث دامية في مدينة الحلة، وكانت بداية تلك الأحداث إن قائمقام الحلة المدعو مصطفى بك المميز كان يعامل أهل مدينة الحلة معاملة خشنة للغاية ويتبّع معهم أسلوب التحقير والإهانات والتهديد لأبسط الأسباب وصادف أن حدثت مشاجرة عنيفة بين هذا القائمقام وبين أحد الوجهاء في المدينة وهو المدعو الحاج علي الشيخ حسن الذي أرسل في اليوم التالي بعض أتباعه المسلحين فاخرجوا القائمقام من داره وساقوه مشياً في شوارع المدينة أمام الناس ثم أركبوه إحدى العربات وأجبروه على مغادرة المدينة حالاً إلى بغداد، وفي بغداد أبلغ القائمقام الحكومة العثمانية بما جرى له والإهانة التي تعرض لها فصدرت الأوامر في ٦ تشرين الثاني ١٩١٦ بتوجيه قوة عسكرية إلى الحلة لتأديب المدينة وكانت القوة العسكرية البرية مجهزة بأسلحة كثيرة ومدافع ويرافقها في النهر زورق حربي مدعوم بفصيل من المشاة على ظهر زوارق صغيرة، قامت هذه القوة باحتلال المدينة وطلبت من السكان مغادرة منازلهم لأنهم سيقومون بتهديم ثلاث محلات من المدينة بالمدفعية.. ثم أخذت المدافع تطلق قذائفها على المحلات الثلاث طيلة ساعتين بعد ذلك هجمت القوات على منازل تلك الأحياء وفتحوا أبوابها بالمعاول والمجارف والقنابل اليدوية. ثم ألقي القبض على (١٢٧) مائة وسبعة وعشرين شخصاً من سكان المدينة تم شنقهم جميعاً، وكان الشنق يجري على دفعات في كل يوم بمجموعة منهم وكان من بين الذين شنقوا الحاج على الشيخ حسن وأخوه المدعو وهيب، أما أخوه الثاني محمد سعيد فقد هرب إلى مدينة الديوانية والتجأ عند المتصرف الذي كانت تجمعه به صداقه فأبرق المتصرف إلى قائد القوة التركية في الحلة يسأل ماذا يمكن أن يتصرف مع هذا الشخص فأجابه قائد الحملة: اشنقه حالاً.. فشنقه المتصرف في الثكنة العسكرية.

لقد « بلغ عدد القتلى من أهل الحلة الذين قتلوا أثناء القتال والمطاردة ألفاً وخمسمائة بينما كانت خسائر الجنود خمسة وثلاثين بين قتيل وجريح»[1].

ـ العقوبات الدموية ضد الصرافين اليهود

كان من الأعمال التي قامت بها السلطات التركية في عام ١٩١٦ هو إصدارها للعملة الورقية لتحل محل العملة الذهبية والفضية التي كانت متداولة وسميت العملة الورقية في ذلك الوقت (النوط) وقد أصدرت الحكومة كميات كبيرة من تلك العملة الورقية لسد النفقات العسكرية في جبهات القتال المختلفة وقد قابل الناس تلك العملة بالريبة والتشكك مما دفع السلطات الحكومية لفرضها على الناس بصورة قسرية وأدى هذا إلى هبوطها وانهيار قيمتها في الأسواق مما دعى السلطات الحكومية لإنزال العقوبات بعدد من الناس الذين كانوا يمتنعون عن التعاطي بها وفي مقدمة أولئك بعض الصرافين. وقد نال اليهود قسطاً كبيراً من تلك العقوبات والإجراءات القاسية لأن معظم الصرافين في بغداد كانوا من اليهود « وقد اتهمتهم الحكومة بأنهم كانوا السبب في هبوط النوط فألقت القبض على عدد منهم وألقت بهم في السجون. يقول يوسف غنيمة في ذلك ما نصه: قبضت الحكومة قبيل احتلال بغداد على عدد من اليهود ونكلت بهم سراً تنكيلاً شنيعاً وجدعت أنوفهم وقطعت آذانهم وسملت عيونهم ووضعتهم في أكياس وألقتهم في دجلة»[2]

ـ القوات الإنكليزية تحاصر بغداد

باشر الإنكليز حملة جديدة لتعويض اندحارهم وخسارتهم في جبهة الكوت وكانت تلك الحملة بقيادة الجنرال مود الذي أثنى الجميع فيما بعد على صفاته ومؤهلاته العسكرية الاستثنائية وقد وفر الإنكليز كل ما يستلزم لتنفيذ هدفهم في دحر القوات التركية والتوجه إلى بغداد لاحتلالها وقد تم ذلك بالفعل حيث سحقت القوة التركية في الكوت وتم تكبيدها خسائر هائلة بالأرواح مما أدى إلى استسلام قسم كبير منها وانسحاب القسم الآخر شمالاً نحو بغداد.(انظر شكل رقم: ١٨)

---

١ ـ المصدر السابق، ص٣٠٩

٢ ـ المصدر السابق، ص٣٠١

واصلت القوات البريطانية تقدمها نحو بغداد وفي ١٠ آذار عام ١٩١٧ كانت قد طوقت بغداد من الغرب والشرق ووصلت إلى مشارفها فقررت القوات التركية الانسحاب من المدينة وتركها، وعلى أثر ذلك حدثت الفوضى والارتباكات في كل مكان من المدينة وحصل ما يشبه الزحف العام نحو محطة القطار في الكاظمية لترك المدينة والتوجه شمالاً وعندما قاربت الساعة منتصف الليل من ذلك اليوم دوّت الانفجارات في سماء بغداد وأنارت المدينة حيث أخذ الأتراك ينسفون مخازن الذخيرة في جميع الأماكن والثكنات والمنشآت العسكرية في المدينة كما نسفوا جميع المنشآت المدنية والعسكرية التي يمكن أن يستفيد منها الإنكليز، وكان من بين الأماكن التي نسفت في تلك الليلة باب الطلسم «وهو من أبواب بغداد القديمة ويعد من كنوزها الأثرية وقد هز نسفه مدينة بغداد هزا عنيفاً»[1] وذلك لوجود مخزن للذخيرة فيه وفرّ كثير من الجنود الأتراك في أزقة المدينة وشوارعها وسط الظلام الحالك هائمين على وجوههم.

- انتشار الفوضى في بغداد

وقام السجناء بكسر السجون والانطلاق إلى الأسواق والخانات ومحلات اليهود والنصارى يكسرون أقفالها ويعيثون فيها نهباً وتخريباً. وانضم إليهم قسم من الأهالي فتوسع نطاق النهب والسرقات والفوضى وشبت الحرائق في عدد من المخازن والخانات والأسواق واستمر النهب طيلة الليل، وهوجمت دور الحكومة ونهبت محتوياتها وبعثرت الأوراق الحكومية والإضبارات وحطمت الأبواب والشبابيك ونهبت دكاكين القرطاسية والكتب في سوق السراي وهو من الأسواق القديمة المتخصصة ببيع الكتب والقرطاسية في بغداد.

وتواصل النهب والسلب في صباح اليوم التالي في أكثر إحياء المدينة وصادف أن مرت قافلة من الجمال المحملة في منطقة الكاظمية وهي متجهة شمالاً للالتحاق بالقوات التركية المنسحبة من بغداد فهجم عليها الأهالي ونهبوها وطرحوا الجمال على الأرض وباشروا بتقطيع لحومها بخناجرهم وسكاكينهم... وقيل ان بعض الناس كانوا يقطعون لحم الجمال قبل ذبحها....!

---

١ - المصدر السابق، ص٣٢٨

لقد انقلب أهل بغداد كما حصل في جميع المدن العراقية انقلاباً سريعاً وحاداً ضد الأتراك (إخوانهم في الدين كما كانت تتحدث البيانات والخطب الرنانة والقصائد التي كان يطلقها رجال الدين والسياسيون والشعراء والوجهاء في المناسبات).

وخلال هذه الحقبة برزت صور عديدة ونماذج مختلفة من السلوك المتقلب لدى العديد من الأشخاص بينهم الشعراء والأدباء والسياسيون والوجهاء ورؤساء العشائر حتى إن البعض من هؤلاء انقلب في موقفه أكثر من مرة حسب ما كانت تتطلبه الأحداث والمؤشرات السياسية والتوقعات المنتظرة التي كانت مبنية في كثير من الأحيان على الظنون والتخمينات حيث إن تلك الفترة الزمنية كانت تشهد انقلاباً حاسماً في ميزان القوى السياسية والعسكرية الحاكمة في العراق، إذ كانت تلك الأيام تشهد غروب شمس الإمبراطورية العثمانية التي دامت عدة قرون وانتهاء سيطرتها المرعبة على العراق وبداية الاحتلال العسكري الإنكليزي للعراق. لذلك فقد كان هناك تغيير على كل صعيد في البلاد.

وكما حصل في البصرة عندما طلب الأهالي من القوات البريطانية الإسراع في احتلال المدينة لإنقاذها من عمليات النهب والسلب والحرائق وأعمال العنف حصل الأمر ذاته في بغداد حيث كان في استقبال طلائع القوات البريطانية التي دخلت بغداد من جهة الباب الشرقي بقيادة الجنرال طومسون عدد من الشخصيات منهم القنصل الأمريكي والقنصل الإيراني وحاخام اليهود وعدد من التجار والأعيان من أهل بغداد وهم يحملون عريضة يطلبون فيها الإسراع باحتلال بغداد لإنقاذها من الفوضى وعبث الغوغاء، وشكوا إليه فداحة الخسائر التي أصابتهم في الساعات التي مضت قبل وصول الإنكليز المدينة.

ـ احتلال بغداد:

وعلى أثر ذلك وبعد رفع العلم البريطاني فوق برج الساعة في ساحة القشلة قرب الجسر القديم على دجلة، (انظر شكلي رقم: ١٩، ٢٠) صار الجنود يتجولون في الشوارع والأسواق لمطاردة اللصوص والنهابين وردعهم بإطلاق الرصاص مما أدى إلى انتشار الرعب بين اللصوص الذين تركوا المنهوبات في الشوارع ولاذوا بالفرار وصار بإمكان أصحاب الممتلكات المنهوبة استرجاع



(شكل رقم: ١٩) ساعة القشلة في بغداد

وقد نصبت في عام ١٨٦٩ ويقع البرج الذي يحملها على نهر دجلة قرب الجسر القديم في بغداد وفي عام ١٩١٧ رفع العلم البريطاني لأول مرة في بغداد فوق هذه الساعة بعد دخول القوات البريطانية بقيادة الجنرال مود وما يزال ذلك العلم محفوظاً في كنيسة كاونتربري في لندن



(شكل رقم: ٢٠) الجسر الخشبي القديم في بغداد عام ١٩١٦

وكان يتألف من صف طويل من الزوارق الكبيرة الطافية المربوطة بعضها إلى جنب بعض، ويقع الجسر بالقرب من أهم المراكز الإدارية الحكومية حيث توجد قلعة بغداد والسراي والعدلية ووزارة الدفاع الحالية، وبالقرب من هذا الجسر جرت أهم الأحداث الدموية القاسية المتعلقة بالصراع على السلطة في تاريخ بغداد خصوصاً في الفترة العثمانية. وقد أنشىء بدلاً عنه جسر حديث ثابت سمي هو الآخر الجسر القديم الذي وقعت فوقه المذبحة الدموية عام ١٩٤٨ والتي سميت انتفاضة الجسر ١٩٤٨

بعض ما نهب منهم وهذا الجو ساعد على انتشار موجة من الوشايات المغرضة والتبليغات الكيدية الحاقدة بين الناس وإيصالها إلى السلطات والمسؤولين لتصفية الخلافات والأحقاد الشخصية الدفينة السابقة بينهم.

وبعد أن دخل الجنرال مود قائد القوات البريطانية إلى بغداد صدر البيان البريطاني الشهير بتاريخ ١٩ آذار ١٩١٧ والذي أذيع باسم الجنرال مود، وقد احتوى البيان الكثير من عبارات التودد والمديح للعرب. وقد سادت في العراق موجة من التقرب والإشادة بالجنرال مود وإضفاء الصفات العجائبية على شخصيته وانبرى الكتاب والشعراء الذين كانوا يشتمون الإنكليز بالامس في تمجيد الإنكليز وذم العهد التركي.

غير أن الحادث المثير في تلك الفترة الحرجة هو وفاة الجنرال مود بصورة مفاجئة بعد تناوله كأساً من الحليب الملوث مما أدى إلى إصابته بالكوليرا الحادة فتوفي بعد أربعة أيام في بغداد وكانت وفاته بتاريخ ١٨ تشرين الثاني عام ١٩١٧ وقد انتشرت بعد موته موجة من الإشاعات والاتهامات حول وفاته وبدأ التشكيك والتقولات بين العراقيين بأنه مات مسموماً وإن هناك مؤامرة نفذت لقتله وهي العادة العراقية المألوفة في كل زمان.

وأسرع الشعراء والخطباء في نظم القصائد وكتابة المقالات في تأبين الجنرال مود وذكر صفاته وشمائله الممتازة. «وقال أحدهم في وصف مود أنه بحر الجود والمكرمات وإن عين الفخار فاضت لفجيعته دماً وتبدد شمل العلا بعدما كان منتظماً»[1].

وقد أقيم للجنرال مود تمثال في جانب الكرخ أمام دار المندوب السامي وأزيح الستار عنه في٤ كانون الأول من عام ١٩٢٣ وبخصوص هذا التمثال هناك ظاهرة غريبة من المناسب أن نذكرها هنا:

ففي صباح يوم ثورة ١٤ تموز من عام ١٩٥٨ أي بعد خمس وثلاثين سنة من إزاحة الستار عن التمثال توجهت جماهير غفيرة من أهالي بغداد نحو تمثال مود وشدوا به الحبال وطرحوه أرضاً ثم سحبوه وألقوه في نهر دجلة وهم

---

١ ـ المصدر السابق، ص٣٨٧ نقلاً عن جريدة (العرب) في عددها الصادر في ٨ كانون الأول ١٩١٧

غاضبون. أن من ينظر إلى تلك المظاهرة من العراقيين الغاضبين في ذلك اليوم وهم يحطمون التمثال يظن أن هذا التمثال قد أقامته السلطات البريطانية بالقوة ضد رغبة العراقيين ورغماً عن إرادتهم جميعاً في تلك الظروف حتى إذا قامت الثورة كان من حقهم الثأر من ذلك الموقف والانتقام من التمثال وصاحبه، ولعل هذا ما يظنه ويعتقده الكثير من العراقيين حتى الآن بينما حقيقة الأمر غير ذلك تماماً. حيث تشكلت لجنة تطوعية من العراقيين لإقامة التمثال فجمعت الأموال ونفذت العمل.. ولتوضيح حقيقة ما جرى ننقل النص الحرفي التالي من كتاب الدكتور على الوردي ـ لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث حيث يقول:
«وفي الساعة الثالثة والنصف من عصر يوم الجمعة ٣٠ تشرين الثاني ١٩١٧ اجتمع رهط كبير من وجهاء بغداد في دار الحاكم العسكري من أجل التبرع لإنشاء أثر في بغداد يخلد ذكرى (مود) فيها، وذكرت جريدة (العرب) في هذه المناسبة تقول: إن البغداديين إنما فعلوا ذلك لما عهدوا في الفقيد من مودة لهم وعطف عليهم.

وتألفت لجنة لجمع التبرعات مؤلفة من الذوات التالية أسماؤهم: عبد القادر الخضيري ، سيد جعفر سيد هاشم، لطيف عبود، اسكندر عزيز عيساوي، ابراهيم حييم عقيرب، كريكدر اسكندر، يهودا زلوف. وأخذت جريدة (العرب) تنشر في أعداد متتابعة قوائم بأسماء المتبرعين ومبالغ تبرعهم والملاحظ أن القوائم تضمنت عدداً من (الأصناف) أي ذوي الحرف المحلية ـ كالخفافين ـ والحدادين ـ والنجارين ـ والخياطين ـ والساعاتية ـ والحلاقين ـ والبزازين ـ والعلوجيه ـ والقصابين ـ والندافين وقندرجية الشورجة وأهل الكلاوات...وقد أقيم أخيراً تمثال (مود) في جانب الكرخ أمام دار المندوب السامي وجرت حفلة إزاحة الستار عنه في ٤ كانون الأول ١٩٢٣ ومن الطريف أن نذكر أن الشاعر معروف الرصافي كان يصدر آنذاك جريدة اسمها (الأمل) وقد جاء في هذه الجريدة تعليق على الحفلة نقتطف منه ما يلي:

للجنرال (مود) ميزتان ترفعانه إلى مصاف أكابر رجال التاريخ وهاتان الميزتان قل من اتصف بهما من عظماء التاريخ وأبطاله ويظهر أن البطون البريطانية أكثر من غيرها تتحف العالم من حين لآخر بمثل هؤلاء الأفراد الذين تزدان بهم صحائف المجد البريطاني.

دلل الرصافي بهذا على أنه لا يختلف في سلوكه المتقلب عن الزهاوي أو غيره من أدباء ووجهاء ذلك الزمان!))[1]

ويدل هذا النص بوضوح على أن أهل بغداد هم الذين تبرعوا لإقامة التمثال المذكور دون إكراه أو ضغط ولم يصنع التمثال بأمر عسكري أو حكومي من سلطة الاحتلال، ورغم التبدل في الظروف والأحوال والأسباب والمبررات ورغم التغيير في الزمان والمواقف ما بين تلك الأيام ويوم الثورة... إلخ فإن التنافر بين موقف العراقيين في المرة الأولى عندما بنوا التمثال وبينه في المرة الثانية عندما هدموه بحماس هستيري فيه من التناقض ما يمكن أن يوحي ببعض ملامح التقلب في الشخصية العراقية ذات النزوع نحو المبالغة في المواقف المتباينة.

ـ المعارك شمال بغداد

بعد سقوط بغداد جرت معارك حربية أخرى على أرض العراق بين الإنكليز والأتراك سقط فيها عدد غير قليل من الضحايا من كلا الجانبين وسالت فيها دماء غزيرة، فبعد ثلاثة أيام من سقوط بغداد جرت معركة بين الطرفين في منطقة (المشاهدة) شمال بغداد. وفي جبهة ديالى (شمال شرق بغداد) كانت الأوامر قد صدرت للفيلق الثالث عشر التركي للانسحاب من إيران لإنقاذ جبهة العراق المنهارة فعاد هذا الفيلق مسرعاً، وقد اصطدم بالقوات الإنكليزية التي أرسلها الجنرال (مود) لمواجهته وتكبد الإنكليز خلال الاصطدام بهذا الفيلق خسائر كبيرة تقدر بألف ومئتين بين قتيل وجريح لكن الفيلق التركي نجح في مواصلة سيره للاتصال بالفيلق التركي الثامن عشر.

ومن الأحداث الغريبة التي جرت خلال ذلك أن الفيلق التركي القادم من إيران عندما وصل إلى نهر الوند في منطقة خانقين لم يكن هناك جسر على هذا النهر فأمر قائد الفيلق جنوده باقتلاع أبواب البيوت في مدينة خانقين ليصنع منها جسراً وقد اقتلعت أبواب منازل خانقين فعلاً وتم للفيلق عبور النهر.[2]

---

١ ـ المصدر السابق، ص٣٧٨

٢ ـ المصدر السابق، ص٣٨١.

إن الدمار والخراب يمكن أن يأخذ أشكالاً فريدة وعجائبية في بلاد العراق المغمورة على الدوام بطوفان من العنف المتواصل، لقد بقيت منازل مدينة خانقين بلا أبواب ليعبر الفيلق التركي العتيد إلى الضفة الأخرى من نهر الوند.

وفي الرمادي خسر الأتراك (١٥٠) مائة وخمسين جندياً في القتال بينهم وبين الإنكليز بينما خسر الإنكليز (٢٥٠) مئتين وخمسين جندياً يضاف إليهم أكثر من ثلاثمائة جندي سقطوا من شدة الحر.

وفي معركة الرمادي الثانية بلغ عدد الأتراك الذين استسلموا للقوات الإنكليزية (٣٤٠٠) ثلاثة آلاف وأربعمائة جندي و(١٤٥) ومائة وخمسة وأربعين ضابطاً. وقد تمكن بعض الضباط والجنود من الجيش التركي الهروب وعبور النهر سباحة للخلاص بأنفسهم إلا أن عشائر الدليم في الجانب الآخر، وهي عشائر حليفة لهم، قد نهبت ثيابهم وجردتهم من ملابسهم عند وصولهم الطرف الآخر من النهر فوصلوا إلى هيت وهم شبه عرايا[1]

وفي نيسان عام١٩١٧ احتلت القوات الروسية مدينة خانقين بعد انسحاب القوات التركية منها وكان معظم القوات الروسية هناك تتألف من الخيالة القوزاق القساة وقد عانى الأهالي في خانقين من تصرفاتهم الشيء الكثير حيث كانوا ينهبون أموال الناس وحاجياتهم ويجبرون الأهالي على قبول النقود الروسية الورقية هابطة الثمن، وتذكر الروايات أنهم قتلوا سبعة من اليهود مع رجلين من المسلمين لأنهم رفضوا تصريف العملة الروسية الورقية، فأرسل أهل خانقين العرائض إلى الإنكليز في بغداد يطلبون منهم إنقاذهم..[2]

غير أن القوات الروسية سرعان ما أصابها الضعف وشاعت في صفوفها الفوضى الكاملة وتفكك انضباطها بعد وصول أخبار الثورة الروسية البلشفية في مدينة بطرسبورغ (لينينغراد فيما بعد).

وفي الموصل حدثت مجاعة محزنة في عام ١٩١٨ ومات كثير من الناس في الشوارع بسبب الجوع، وتناقلت أخبار تلك الفترة حوادث متفرقة عن مواطنين

---

١ ـ المصدر السابق، ص ٢٨٧

٢ ـ المصدر السابق، ص٣٨٩

كانوا يقومون بأكل لحوم البشر والأطفال ويبيعونها للناس.وقد سيق شخص اسمه عبود هو وزوجته إلى المحكمة بتهمة ذبح الأطفال وأكل لحومهم واعترف هو وزوجته أمام المحكمة بعملهم هذا واستطاعت الشرطة بعد ذلك أن تكتشف في داخل منزلهما مائة جمجمة لأطفال قتلوا داخل المنزل وبيع لحمهم مطبوخاً إلى الناس وكانا يبيعان ذلك اللحم في دكان تابع لهما. وقد حكم على الزوج والزوجة بالإعدام وتم شنقهما في ميدان باب الطوب في الموصل. وقد قامت أمهات بعض الأطفال القتلى بالاعتداء على جثة المشنوقين وهي معلقة انتقاماً لأولادهن القتلى[1]

وفي الجانب العسكري توالت الهزائم والانهيارات في الجيش التركي في جبهة الفرات وهيت وحمرين وتكريت والشرقاط والموصل وكركوك وسقط عشرات الآلاف من الأسرى الأتراك بيد الإنكليز ونقل أكثرهم إلى الهند.

لقد بلغ مجموع خسائر الإنكليز في العراق نحو (١٠٠,٠٠٠) مائة ألف رجل بين قتيل وجريح، ولعل هذا الرقم الكبير يمكن أن يفسر لنا مقدار الاهتمام والإصرار لدى الإنكليز على متابعة تطورات الوضع الداخلي في العراق في السنين اللاحقة خصوصاً بعد اكتشاف النفط في هذه البلاد إذ لا يعقل أن يترك الإنكليز العراق بعد كل هذه الخسائر على ضوء أهميته الاستراتيجية والاقتصادية..

وعلى العموم يمكن القول أن أكثرية السكان في العراق ربما استبشروا بزوال السلطة التركية التي مارست ضدهم أعمالاً شنيعة من الظلم والقهر والقتل والاستعباد والعنف الدموي الشرس اللامحدود، فكان من الطبيعي أن يظهر السكان تأييدهم للعهد الجديد الذي علقوا عليه الكثير من الآمال خصوصاً وأن بيان القوات الإنكليزية التي احتلت العراق قد تضمن وعوداً براقة بالتحرر والعدالة والصداقة المتكافئة، وربما كان اليهود في مقدمة الذين فرحوا بالاحتلال الإنكليزي الذي أنهى السلطة العثمانية التي عاملتهم بقسوة وروح استعلائية. ((فقد كان عددهم في بغداد يومذاك خمسين ألفا وخرج معظمهم يهتفون للجنود ويصفقون لهم.. وهم الذين

---

١ ـ المصدر السابق، ص٣٩٣

أطلقوا على الإنكليز الكنية التي عرفوا بها في بغداد (أبو ناجي) ولعل اليهود عنوا بهذه الكنية أن الإنكليز أنجوهم من ظلم الأتراك»[1].

على أن ذلك لا يدل أن جميع العراقيين قد رحبوا بالاحتلال وأيدوه فهناك مجاميع كان لديها وجهة نظر سياسية تدعو لرفض الإنكليز والأتراك في وقت واحد إضافة إلى الناس الذين كرهوا الإنكليز ووقفوا ضدهم بسبب ما كان لديهم من نفوذ ومصلحة ومنزلة رفيعة وامتيازات أو وظائف في عهد الأتراك فقدوها تماما عند سقوط العهد العثماني.

لقد أطلنا الحديث عن مرحلة الصراع العسكري الذي نشب بين الجيوش الإنكليزية والتركية وتوسعنا قليلاً في نقل أخبار الاحتلال البريطاني للعراق غير أن اهتمامنا بذلك كان بسبب علاقة تلك الأحداث بأعمال القتل والموت والخراب والدمار التي هي أحد أشكال العنف الدموي من جهة ومن جهة أخرى فإن تلك الأحداث قد كشفت بوضوح بعض صفات وملامح المجتمع العراقي في السلوك والتكوين الشخصي حيث تجسدت خلال تلك الأحداث ظاهرة التقلب في المواقف لدى الفرد العراقي كما لاحظنا ذلك في الوقائع العديدة التي جرت خصوصاً في الظروف المضطربة والصعبة والحاسمة.

إن الفجيعة في تلك الأعمال والتصرفات الكثيرة التي أظهرها المجتمع العراقي بأفراده وهيئاته الاجتماعية العامة والتي ترافقت بالسلب والنهب والقتل والتقلب في المواقف لا تكمن في مقدار وحجم التخريب والدمار والخسارات المادية والمعنوية والهدر بالأرواح البشرية بقدر ما يكمن في حقيقة البعد الأخلاقي والسلوكي الغريب على القيم العربية والإسلامية الذي كشفت عنها تلك الأحداث في أوساط واسعة من الشعب في العراق والتي كانت تتصرف خلال تلك الظروف بنزوع غريزي طاغ نحو النهب والسلب والقتل والفتن والعصيان والغدر والانقلاب على العهود وعدم الالتزام بالمواثيق تلك الصفات التي ربما لاحظناها وشخصنا وجودها لدى الناس في هذه البلاد في الأحداث التي جرت في القرون المختلفة من التاريخ منذ ما قبل الإسلام.

---

١ ـ المصدر السابق، ص٣٤٥.

ومن المؤسف في هذا المجال أن عدداً من المواقف والوقائع التي حصلت في فترة الاحتلال تشير إلى أن كلا الطرفين المتحاربين في العراق - الإنكليز والأتـراك ـ قد توصلوا إلى قناعات سيئة لكنهـا متشابهة في الحكم على الفرد العراقي وطبائعه السلوكية التي وصفت بالغدر والخيانة والتقلب السريع بين الولاء والعداء، ورغبته في النهب والسلب والعصيان والتمرد على الأوامر والخطط. وهناك حوادث عديدة وكثيرة جداً لا مجال لذكرها والتوسع بها هنا - فردية وجماعية - جرت خلال أعوام الصراع العسكري التي امتدت في العراق بصورة خاصة بين أعوام ١٩١٤ و١٩١٨ إضافة إلى ذلك كله فقد بدت مدن العراق جميعها تقريباً في تلك الفترة مسارح مأساوية لأعمال النهب والسلب والحرائق والتخريب المتعمد للمرافق العامة والتي شكلت السبب في الهدر المفجع للأرواح وفي سيل الدماء الذي لا ينقطع.

وإذا أردنا مواصلة البحث في أحداث العنف الدموي في القرن العشرين في العراق فسنجد لزوماً أن نعيد التذكير بأن كثرة الأحداث المتصلة بهذا الموضوع ستجعلنا مضطرين أن لا نتوقف عند كل الأحداث المترافقة بالعنف الدموي - منعاً للإطالة والملل.

ثورة العشرين:

من الأحداث البارزة ذات العلاقة بالعنف الدموي في هذا القرن في العراق هي (ثورة العشرين) وهي الثورة ذات الطابع الأهلي الشعبي العشائري التي عمت فعالياتها ونشاطاتها كافة مناطق العراق تقريباً، وقد سميت بثورة العشرين لأنها حدثت في عام ١٩٢٠، وما زال الشعب العراقي يعتبر تلك الثورة وأحداثها من مآثره الوطنية الكبرى وقد حدثت نتيجة خيبة الأمل الكبيرة التي أصيب بها الشعب العراقي بسبب عدم تحقيق الوعود الإيجابية التي قطعتها بريطانيا لشعب العراق، وكنتيجة أيضاً للمعاملة القاسية التي مارسها بالتدريج الموظفون الإنكليز الذين كان معظمهم من العسكريين تجاه أبناء الشعب العراقي وأحداث هذه الثورة تضم وقائع كثيرة مشبعة بالعنف والقسوة الدموية.

ورغم ارتباط أكثر أحداثها بموضوع العنف الدموي إلا أننا لا نستطيع الإحاطة بها بأي شكل من الأشكال لأنها وحدها تحتاج إلى كتاب مستقل، ولذلك سنكتفي فقط بالإشارة إلى علاقة أحداثها بالعنف الدموي في تاريخ

العراق الحديث وهناك مؤلفات مستقلة فيها شروح مفصلة عن هذه الثورة وأحداثها وتحركات قادتها ودوافع قيامها والنتائج التي حصلت فيما بعد والنهايات التي انتهت إليها.

الملك فيصل الأول مات مسموماً:

وفي أوائل الثلاثينات من هذا القرن يبرز حادث وفاة الملك فيصل الأول وما أحاطت به من شكوك قوية وجدية كحادثة مرتبطة بمناخ الدسائس والاغتيالات والمناورات السياسية والعنف.

توفي الملك فيصل الأول في ٨ أيلول عام ١٩٣٣ في مدينة برن بسويسرا وكانت وفاته مفاجئة وغير متوقعة ((وقال طبيبه الدكتور كوشر: لم يكن هناك أي شئ يدعو إلى احتمال هذه الوفاة المفاجئة))[١] ودارت الشكوك حول امرأة هندية جميلة ربما وضعت له السم في فنجان للشاي. (انظر شكل رقم: ٢١)

وعلى الرغم من أن التقارير الطبية الرسمية أشارت إلى أن موت فيصل كان بسبب تصلب الشرايين، إلا أن تقرير المفوضية البريطانية في Berne الذي أرسل إلى وزارة الخارجية البريطانية بعد أسبوع من وفاة الملك فيصل قد شكك بالتقارير الطبية الصادرة في بيرن وقدم التقرير شواهد وأدلة تقول أن فيصلاً قد قتل مسموماً ونقتطع هنا جزءاً من ذلك التقرير ((إن سبب الوفاة كما أخبرناكم يعود إلى تصلب الشرايين رغم الحقيقة القائلة بأن تقارير الأطباء كانت قد أشارت قبل يومين من وفاته بأنه لا يوجد أي شئ خطير في القلب و لم يجر فحص كافٍ للجثة (لمعرفة أسباب الوفاة) بل أن جثته قد حنطت بسرعة مريبة وأن المرأة التي كانت معه قد اختفت كما يقال في اليوم التالي للوفاة. كل هذه الظواهر البارزة أقنعت الليدي Paget التي تقوم الآن باستيضاحات أخرى بأن فيصل لم يمت موتاً طبيعياً))[٢]. وهناك شكوك أشارت إلى دور نوري السعيد في قضية موت الملك فيصل الأول بهذا الشكل الغامض حيث: ((هناك احتمالان

---

١ ـ عبد الرحمن البزاز ـ العراق من الاحتلال إلى الاستقلال، ط٤، دار البراق، ١٩٩٧، ص١٦٧.

٢ ـ د. محمد مظفر الأدهمي ـ الملك فيصل الأول ـ دراسة وثائقية في حياته السياسية وظروف مماته الغامضة ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ ١٩٩١ بغداد ـ ص ١١٢

حول دور نوري السعيد في عملية (قتل) فيصل الأول هو أن نوري السعيد قد قرر شخصياً التخلص من فيصل وأغلب الاعتقاد أن نوري السعيد قد قرر التخلص من فيصل بعلم السلطات البريطانية)) [1]

انقلاب بكر صدقي والتصفيات الدموية

على أن الحادث الذي لم يخل من العنف وإراقة الدماء خلال فترة الثلاثينات هو الانقلاب العسكري الذي حصل في العراق في ٢٩ تشرين أول عام ١٩٣٦ وهو الانقلاب الذي قاده الفريق بكر صدقي مع مجموعة من الضباط وكان يتلخص بوضع خطة عسكرية لتطويق بغداد والاستيلاء عليها لإسقاط الحكومة المدنية التي كان يرأسها السيد ياسين الهاشمي وإقامة حكومة بديلة يرضى عنها الجيش. ورغم خدمات بكر صدقي لوزارة الهاشمي ((إلا أنه بدأ يضجر منها وقد صرح بسخطه للملك غازي ونقل له تذمر قادة الجيش منها ووصل به التذمر أنه قرر الاستقالة من الجيش)) [2] لم يوافق وزير الدفاع السيد جعفر العسكري أحد مؤسسي الجيش العراقي ـ أن يقوم الجيش بالانقلاب، فقرر الذهاب لبكر صدقي لاقناعه بالتراجع، إلا أن بكر صدقي كان قد أصدر أمراً بقتله فقتل حال وصوله.

ويذكر الشاعر أحمد الصافي النجفي بأن الشاعر العراقي الشهير محمد مهدي الجواهري قد مدح بكر صدقي بقصيدة شبهه فيها بموسوليني إعجاباً بقوته حيث يقول:

كيفما صورتها فَلْتكُن أنا عن تصويرةِ الناس غنى

فيك لولا أمة جاهلة شبهٌ يدنيك من موسولنى [3]

وبعد حصول الانقلاب سقطت وزارة الهاشمي وتم تشكيل وزارة جديدة برئاسة حكمت سليمان المؤيدة للانقلاب، ولم يدم الوضع طويلاً فقد حدثت خلافات وتناحرات بين الكتل السياسية والعسكرية وساد التذمر في الجيش،

---

١ ـ المصدر السابق ص١٣١

٢ ـ سليم الحسني ـ رؤساء العراق ١٩٢٠ ـ ١٩٥٨ ـ دار الحكمة ١٩٩٢ ص٢٧٩

٣ ـ في حديث شخصي مع الكاتب ذكر المرحوم الشاعر أحمد الصافي النجفي تلك الأبيات من القصيدة للتدليل على أن الجواهري كان من مؤيدي الفاشية في ذلك الوقت قبل أن يتحول إلى اليسار.

وهرب من البلاد عدد من الشخصيات المعروفة بينهم طه الهاشمي رئيس الأركان المعزول ورشيد عالي الكيلاني فأقدم فريق من الضباط الذين فقدوا مراكزهم على اغتيال قائد الانقلاب بكر صدقي برصاصة في مؤخرة رأسه ومعه آمر القوة الجوية في مطار الموصل بتاريخ ١١ آب ١٩٣٧ وكان يستعد للطيران إلى تركيا في زيارة رسمية، وكانت أوامر اغتيال بكر صدقي قد صدرت من مجموعة الضباط القوميين داخل الجيش والذين كانوا تحت قيادة العقيد صلاح الدين الصباغ. وعندما أرادت حكومة السيد حكمت سليمان التحقيق بالحادث واعتقال منفذي الاغتيال حدث عصيان في الحامية العسكرية في الموصل التي كانت تحت قيادة اللواء أمين العمري.

نوري السعيد المتهم الاول بقتل الملك غازي الأول

كذلك لابد من الإشارة ضمن أحداث العنف في القرن العشرين إلى حادثة مقتل الملك غازي الأول ابن الملك فيصل الأول وظروفها الغامضة وهي عبارة عن مأساة دموية مفجعة دارت حولها الكثير من الشكوك والريب حيث مازال أكثر العراقيين من كبار السن مقتنعين بأن الملك غازي قد اغتيل بمؤامرة سياسية مدبرة. وكانت الوفاة قد نتجت عن حادث سير مروع بتاريخ ١٩٣٩/٤/٣ عندما اصطدمت سيارة الملك غازي الذي كان يقودها بمفرده بعمود للنور على طريق خارجي في ضواحي بغداد فانكسر العمود وسقط فوق رأس الملك «مما أدى إلى كسر الجمجمة وانتشار الشظايا العظمية والمخ»[1] (انظر شكل رقم:٢٢)

وقد توتر الوضع في البلاد إثر مقتل الملك وسادت الشكوك حول وجود عمل مدبر استهدف قتل الملك وقد أشارت أصابع الاتهام مرة أخرى إلى نوري السعيد (رئيس الوزراء في ذلك الحين) الذي اضطر بسبب الجو المتوتر أن يحضر مراسيم دفن الملك غازي بواسطة زورق نهري عبر به نهر دجلة من الجهة المقابلة مباشرة إلى المقبرة الملكية القريبة من نهر دجلة تحاشياً لظهوره بين الناس في موكب التشييع الذي سادت فيه المشاعر المتوترة والأعصاب المشدودة ـ وقام الوزير رستم حيدر

---

١ ـ د. محمد حسين الزبيدي ـ الملك غازي ومرافقوه ـ ١٩٨٩ بغداد ص٢٠٣ ، وردت هذه الجملة نصاً في تقرير حاكم تحقيق الكرخ المؤرخ ١٩٣٩/٤/٤ في الكشف الذي أجراه عن الحادث.



(شكل رقم: ٢١) الملك فيصل الأول

أول ملك يحكم العراق بعد رحيل العثمانيين، تركت وفاته المفاجئة وغير المتوقعة عام ١٩٣٣ مدينة برن بسويسرا والسرعة المريبة التي جرى فيها تحنيط جثته شكوكاً عن احتمال موته مسموماً وأشارت أصابع الاتهام إلى دور نوري السعيد في قضية موته



(شكل رقم: ٢٢) الملك غازي يحمل ابنه الملك فيصل الثاني

كلاهما قتل في العـراق، فقد قتل الأب داخل سيارته في حادث سير غامض عام ١٩٣٩ في ضـواحي بغداد، بينما قـتل الابن رمـياً بالرصاص داخل القصر الملكي ببغداد صباح الثورة العراقية في ١٤ تموز عام ١٩٥٨

مقام نوري السعيد في تقبل مراسيم التعزية من السفراء وكبار المشيعين والمعزين. وفي مدينة الموصل كان تأثر الأهالي لموت الملك غازي شديداً فهجموا على دار القنصلية البريطانية وقتلوا القنصل الإنكليزي (مونك ميسون) تعبيراً عن انتقامهم من الإنكليز الذين دبروا ـ حسب اعتقاد العامة ـ أمر اغتيال الملك غازي.

انقلاب ١٩٤١

وفي عام ١٩٤١ حصل انقلاب عسكري قام به العقيد صلاح الدين الصباغ ومجموعته العسكرية ضد حكومة طه الهاشمي وتم تشكيل حكومة أطلق عليها (حكومة الدفاع الوطني)[١] برئاسة رشيد عالي الكيلاني فهرب ولي العهد الأمير عبد الإله والتجأ إلى إحدى الوحدات العسكرية الموالية في محافظة الديوانية وأظهر رئيس الوزراء رشيد الكيلاني ميلاً لمغازلة دول المحور مما أغاظ الإنكليز.

وفي ٢ مايس من عام ١٩٤١ اندلعت الحرب بين القوات العراقية والبريطانية داخل العراق واستطاع العراقيون في البداية تدمير عدد كبير من الطائرات البريطانية التي هاجمت القوات العراقية في تلال الحبانية وجرت معارك في منطقة الفلّوجه إلا أن القوات البريطانية قد استقدمت تعزيزات كثيرة من مصر والهند وتم تدمير القوة الجوية العراقية مما جعل القوات العراقية البرية تدفع خسائر فادحة خلال المعارك والمناوشات التي دامت ٣٠ يوماً والتي سميت بحركة مايس ١٩٤١

العنف الدموي يجتاح اليهود في بغداد:

وبعد اندحار الجيش العراقي حصل اضطراب وفوضى عامة في البلاد مما فتح المجال لقيام عمليات واسعة من النهب والسلب والاعتداء في المدن وقد نال اليهود في بغداد قسطاً كبيراً من أعمال العنف حيث قامت مجموعات ساخطة من أهالي بغداد وخصوصاً العسكريين الذين كانوا يشعرون بالمرارة نتيجة الاندحار أمام القوات البريطانية بمهاجمة وفود التهنئة التي كانت تزور القصر الملكي لتهنئة ولي العهد الذي عاد بقوة الإنكليز بعد أن كان هارباً وصادف وقوع تلك الأحداث في يوم عيد الطائفة اليهودية وامتدت مناوشات العنف «لتشمل كافة أحياء بغداد

١ ـ وليد الأعظمي، انتفاضة رشيد عالي الكيلاني، المكتبة الوطنية، بغداد، ١٩٨٧، ص٤٧.

فوقعت حوادث السلب والنهب وإطلاق النار في الشوارع واستمرت حتى الليل وتدهور الموقف بشكل أكبر في اليوم التالي واستناداً إلى المصادر اليهودية بلغ عدد القتلى اليهود حوالي ١٢٠ يهودياً وإصابة حوالي ٧٠٠ آخرين، أما المصادر العراقية فتقدر عدد الإصابات من الجانبين بـ ١١٠ قتلى و٢٤٠ جرحى من المسلمين واليهود. واعترضت الوكالة اليهودية في فلسطين بشدة وطالبت السفير البريطاني في العراق السير كنيهان بمعاقبة المسؤولين عن هذه المجازر والسماح لليهود العراقيين بمغادرة العراق إلى فلسطين، و لم تبدأ موجة الهجرة اليهودية من العراق إلا في سنة ١٩٥٠ بعدما سمحت الحكومة العراقية بمغادرة العراقيين للبلاد»[1] ولعل الناس في العراق قد تعارفوا على تسمية تلك الأحداث من السلب باسم (فرهود بغداد)، وكلمة فرهود باللغة العراقية الدارجة تعني النهب.

وقد جرت تحقيقات واسعة في هذه الحوادث وعوقب عدد من ضباط الشرطة واتخذت إجراءات لمنع تدهور الموقف وتجدد أعمال العنف الدموي.

إعدام قادة انقلاب ١٩٤١

وقد انتهت أحداث الانقلاب الذي سمي فيما بعد بانتفاضة مايس ١٩٤١ بالقبض على قادته العسكريين وإعدامهم جميعاً فتم إعدام العقيد فهمي سعيد والعقيد محمود سلمان ويونس السبعاوي في سنة ١٩٤٢ ونفذ حكم الإعدام بالعقيد الركن كامل شبيب في سنة ١٩٤٤ بينما ألقي القبض على العقيد صلاح الدين الصباغ بعد هروبه إلى تركيا وتم تسليمه للعراق وإعدامه في بغداد عام ١٩٤٥ أما رشيد عالي الكيلاني فقد هرب إلى تركيا ثم إلى ألمانيا وبعد سقوط برلين بيد الحلفاء توجه إلى السعودية طالباً اللجوء السياسي هناك وكان لابد لهذه الأحداث الدامية أن تؤجج الكراهية ضد نظام العائلة الهاشمية التي حكمت العراق منذ عهد الاستقلال.

وربما كانت هذه الأحداث الدامية والإعدامات في صفوف الضباط هي السبب في ظهور النزعة الدموية البالغة العنف في الثورة العسكرية التي قامت في عام ١٩٥٨ ضد الملكية وأطاحت بنظام العائلة الهاشمية بأكمله في العراق.

---

١ - المصدر السابق، ص١٢٧.

مذبحة الجسر ١٩٤٨

ومن الأحداث الدموية البارزة في القرن العشرين في العراق المجزرة التي حصلت في كانون الثاني ١٩٤٨ في بغداد عند الجسر القديم والتي سميت فيما بعد بوثبة ١٩٤٨ وكانت أحداث تلك الواقعة قبل أن تتطور إلى مذبحة عبارة عن مظاهرات احتجاج سلمية ضد المعاهدة العراقية الإنكليزية التي وقعت في لندن وسميت معاهدة بورتسموث وهي أقرب ما تكون لمعاهدة عام ١٩٣٠ الموقعة أساساً بين العراق وإنكلترا. وكانت السلطات الحكومية قد أعطت إلى رجال الشرطة في بغداد تعليمات مشددة بضرورة تشتيت المظاهرات وتفريقها وإطلاق النار عليها إذا لزم الأمر.

وبدأت حشود من الطلبة وعامة الناس من الجياع والبائسين بالتجمع في منطقة الرصافة قرب المستشفى الملكي في شرق بغداد كما تجمهرت مجاميع أخرى حاشدة في منطقة الكرخ غرب بغداد من الجهة الأخرى من نهر دجلة الذي يشطر المدينة إلى نصفين.

وكان أول صدام جرى بين الشرطة والمتظاهرين قرب المستشفى الملكي فسقط من المتظاهرين أربعة قتلى إلا أنهم أضرموا النار في عربة مدرعة وأجبروا رجال الشرطة على الانسحاب إلى بعض الشوارع الخلفية، وواصلت المظاهرة الحاشدة سيرها حتى ساحة الأمين القريبة من الجسر القديم الواقع في نهاية سوق السراي بينما اندفعت الجماهير المتجمعة في الكرخ قرب النهاية الأخرى من هذا الجسر متجهة في سيرها وهي تنوي عبور الجسر للانضمام إلى مظاهرات الجانب الشرقي من المدينة (الرصافة) « ولكن ما إن وصلت صفوفهم الأمامية بالكاد إلى الضفة الغربية حتى فوجئت بنيران لا رحمة فيها أطلقت عليهم من فصيل عربات مدرعة سارع من أسواق السراي والتحفيّات وقتل العديد من المتظاهرين على الفور أو جرحوا وعاد الآخرون أدراجهم محاولين الاستيلاء على الضفة المقابلة ولكنهم وُجهوا بنيران الرشاشات تصليهم من سطح خان في ساحة السويدي وكان نزف الجماهير مريعاً وتناثرت الجثث في كل مكان وكان بعضها معلقاً على سور الجسر وسقط بعضها الآخر تحت الجسر وجرفه التيار..

وكان مازال لمزيد من الدم أن يتدفق و لم تعد السيطرة ممكنة على المتظاهرين الذين أوقفوا في ساحة الأمين ، وتراجعت قوة الشرطة التي احتوتهم وانسحبت عدواً باتجاه الجسر وكان بانتظارهم هناك الفصيل الذي تعامل مع حشود الكرخ ودمرها بعرباته المدرعة ورشاشاته، وتقدم المتظاهرون الذين بدوا مصرين على عبور الجسر بالرغم من الخسائر... ولكن بعد دقائق انهمر سيل من طلقات الرصاص و لم يتمكن أحد من عبور الجسر سالماً إلا فتاة في الخامسة عشرة من عمرها تدعى عدوية الفلكي أما رفاقها الأربعة الذين كانوا بجانبها وآخرون وراءهم فقد سقطوا وتوقف إطلاق النار و لم يَعدِ الجسر الآن إلا صدى تمتمات الألم وصرخات الحزن»[1].

«لا يمكن تحديد عدد الذين سقطوا ذلك اليوم، وقد دفنت جثث كثيرة من دون تسجيل أسماء أصحابها وألقي بعضها الآخر في دجلة ويقدر إجمالي عدد القتلى والجرحى ذلك اليوم بما يتراوح بين ثلاثمائة وأربعمائة»[2].

وبقيت ذكرى ذلك اليوم الدامي بأحداثه المأساوية إحدى المحطات البارزة في النضال الوطني لشعب العراق ضد المعاهدات الأجنبية غير المتكافئة.

وهناك أغنية قديمة حزينة من المقامات العراقية[3] للمغني العراقي الشهير المرحوم محمد القبّنجي يذكر فيها واقعة الجسر بكلمات وألحان حزينة كإحدى الذكريات المؤلمة التي حفرها الزمان في ذاكرة الأجيال الماضية..

ولابد لنا من وقفة قصيرة إزاء هذه المجزرة الدموية لنقول:

أليس غريباً أن يجري مثل هذا العمل الوحشي المشبع بالدموية والاستهتار بالأرواح البشرية في الوقت الذي كان يوجد في العراق دستور ومجلس أمة ومجلس أعيان ووزارة ووزراء وسلطة قضائية وملك يصون الدستور ويحمي

---

١ ـ حنا بطاطو، العراق ـ الكتاب الثاني ـ الحزب الشيوعي، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٩٢، ص٢١٤.

٢ ـ المصدر السابق،، ص ٢١٥.

٣ ـ المقامات العراقية ـ نوع خاص من الغناء التراثي ـ يشتهر في العراق ويرجع تاريخه إلى العصور العباسية وهو مازال يغني حتى الآن ويعتبر الأساس في الطبقات الصوتية في الغناء العربي.

الحريات الأساسية إلى آخر الكلام الذي كان يدل في ظاهرة على وجود نظام ديمقراطي برلماني؟

ثم ماذا بقي في ذهن المواطن وقناعته عن حقيقة الدستور ومجلس النواب ومجلس الأعيان والحقوق الوطنية والمدنية للمواطن وعن حقيقة النظام بأكمله بعد هذه المجزرة؟

صحيح أن الوزارة قد سقطت بعد هذه المذبحة ولكن ذلك لم يكن كافياً لأن مثل هذه الواقعة كانت كافية لمحاكمة النظام بأكمله ولم يكن بيد الشعب أية وسيلة أخرى لفرض ما هو ضروري ولازم لأن ممثلي الشعب في البرلمان لم يكونوا مع الشعب في ذلك الوقت بل كانوا مع اللعبة البرلمانية التي يديرون فصولها التافهة فيما بينهم بأسوأ أساليب التآمر والصفقات الرخيصة والتنازلات المتبادلة فيما بينهم، أنهم بذلك كانوا لا يسيئون للديمقراطية في البلاد ويستهينون بمبادئها وأصولها فحسب بل كانوا يعبّدون الطريق بإصرار أمام الثورات الانقلابية الدموية التي التجأ إليها الشعب وأيّدها ودعمها ثأراً لتلك التصرفات التي استهانت بحياة الشعب والجماهير

إن المظالم والأحداث التي يُفتقد فيها العدل وتغتصب فيها الحقوق تبقى دائماً مشروعات خطيرة للانتقام الدموي الصارم في الأيام اللاحقة. وهذا ما حصل تماماً في السنين التي أعقبت تلك الأحداث الدموية في انتفاضة عام ١٩٤٨

فقد سحق الجيش في عام ١٩٥٨م (أي بعد مرور عشر سوات على أحداث الجسر الدامية) النظام بأكمله وتحول المسؤولون بما فيهم النواب والأعيان والوزراء إلى فئران مرعوبة تفتش عن مأوى يحميها من غضبة الناس الذين اندفعوا بالملايين إلى الشوارع بغضب هستيري لا يعرف الرحمة.

إننا نجد بأن هذا الموضوع بحاجة إلى نقاش أعمق وأوسع لأنه يتعلق بمجموعة من الأسئلة التي ربما مازال بعضها قائماً حتى اليوم، ويحتاج إلى جواب من ذلك على سبيل المثال:

هل يمكن تطبيق الديمقراطية في مجتمع عشائري متخلف تسود فيه الأمية والقبلية؟

وهل يمكن تطبيق الديمقراطية في بلاد لا يؤمن المواطن فيها بالديمقراطية لأنه لم يعرفها و لم يتعلم عنها شيئاً؟ و لم يتدرب على تقاليدها.

ثم كيف يمكن حماية النظام الديمقراطي والبرلماني من غضب الجيش الذي لا يعرف متى و كيف ولماذا هو غاضب؟

ثم كيف يمكن حماية القضاء في بلاد يعمل فيها حتى المثقفون والخريجون على تجاوز القانون ومخالفة بنوده وابتكار الوسائل والحيل للإفلات من الواجبات التي يفرضها القانون ويطالب بتطبيقها؟.

ومن أعمال العنف الدموي في القرن العشرين في العراق حادثتان حدثتا في عام ١٩٥٣ وقعت إحداهما داخل سجن الكوت وحصلت الثانية داخل سجن قلعة بغداد. فقد بدأت الحادثة الأولى عندما أبلغ آمر سجن الكوت جميع السجناء السياسيين بأنهم سينقلون إلى مكان آخر وعليهم أن يستعدوا لذلك دون أن يبلغهم الجهة التي سينقلون إليها مما دفعهم للاعتقاد بأنهم سيرسلون إلى السجن الصحراوي المقيت المسمى سجن نقرة السلمان الواقع في عمق البادية الغربية القريبة من الحدود مع السعودية وهو سجن ذو سمعة سيئة يتداول العراقيون اسمه في أحاديثهم كأحد الصور الشنيعة للظلم في التاريخ الحديث.

لذلك رفض السجناء التحرك وأغلقوا أجنحة السجن على أنفسهم وحولوا كل ما وقعت عليه أيديهم من القوارير ومواسير المياه وأدوات المطبخ والآجر الذي اقتلعوه من الممرات إلى سلاح يدافعون به عن أنفسهم وسارعت الشرطة لاتخاذ مواقع لها على الأسطح المطلة على السجن وكذلك في فناء السجن والشوارع المجاورة، وبدأ رجال الشرطة استخدام قنابل الغاز المسيل للدموع أولا ولكن دون جدوى ثم وجهوا خراطيم المياه إلى أجنحة السجناء فأغرقوها بالمياه وأخيراً اندفع رجال الشرطة يضربون السجناء بالهراوات وأعقاب البنادق ثم فتحوا النار عليهم فقتل سبعة من السجناء وجرح (٨١) واحد وثمانون سجيناً مات أحدهم لاحقا في المستشفى وأصيب أربعة وسبعون شرطياً بإصابات مختلفة.

أما الحادثة الثانية التي جرت في سجن قلعة بغداد بعد شهر واحد فهي مشابهة للأولى ((فعندما توقف إطلاق النار كان هناك ثمانية قتلى من السجناء و٩٤ جريحا من أصل مجموع قدره ١٢١ سجينا وأصيب ١٢شرطيا))[1].

إعدام قيادة الحزب الشيوعي

وخلال الأشهر الأخيرة من عام ١٩٤٨ بدأت الشرطة السرية في بغداد تكثيف عمليات التعذيب والتحقيق الشرس مع أعضاء الحزب الشيوعي بسبب النشاطات المتصاعدة للحزب في تلك الفترة والتي كانت في الأساس تدار وتقاد من بعض القياديين البارزين القابعين في السجن منذ فترة طويلة والذين استطاعوا تنظيم شبكة متقنة من الاتصال والمراسلة السرية مع اتباعهم في خارج السجن و لم تكن السلطات على علم بكل ذلك حتى انهار تحت التعذيب أحد الشيوعيين البارزين وهو عبد الوهاب عبد الرزاق الذي تحول إلى مخبر وأفشى للسلطات الأمنية بمعلومات عن المقر السري للحزب في بغداد وحين مداهمته اعتقل فيه شخصان هما مالك سيف ومعه يهودا صدّيق أحد البارزين في قيادة الحزب الشيوعي الذي بقي ثمانية وعشرين يوماً وهو يتعرض إلى مختلف أنواع التعذيب لأن المخابرات كانت تعتقد أن يهودا صديق هو المسؤول الأول في الحزب.

ولكنه اعترف أخيراً بأن المسؤول الأول للحزب هو مالك سيف وحين التحقيق مع مالك انهار انهياراً مدمراً و ((وضع نفسه تحت تصرف السلطات وراح يدمر اتباعه)) فاكتشفت السلطة المئات من خلايا الطلاب والعمال الشيوعيين وصودرت[2] أكوام من المراسلات بالشيفرة وحُطمت الخلايا المعاد تشكيلها حديثاً واكتشفت المطبعة السرية للحزب لكن الأهم في كل ذلك أنه تم الكشف عن الدور الخطير الذي كان يقوم به أعضاء القيادة الثلاثة الفعليين الذين كانوا يقبعون داخل السجن منذ فترة غير قصيرة فتم إعادة محاكمتهم من جديد أمام محاكم عسكرية شبه ميدانية حيث حكم على كل من سكرتير الحزب فهد والعضوين الآخرين في المكتب السياسي وهما زكي بسيم وحسين الشبيبي بالإعدام شنقا

---

١ - المصدر السابق، ص٣٦٠.

٢ - المصدر السابق، ص٢٢٦.

حتى الموت بتهمة قيادة الحزب من داخل السجن، ونفذت أحكام الإعدام في ١٥ شباط ١٩٤٩م وشنق الثلاثة في ساحات مختلفة من مدينة بغداد وبقيت جثثهم معلقة ساعات طويلة لكي يتلقى الناس في بغداد الإنذار المطلوب فهمه..

لقد تصاعدت عقوبة السجناء العراقيين السياسيين الثلاثة فهد وزكي بسيم وحسين الشبيبي من السجن إلى الإعدام وهم قابعون داخل سجنهم وتم إعدامهم فعلاً وهذا هو ديدن عراقي معروف منذ القدم نفذ في مراحل مختلفة من التاريخ، من المفيد أن نذكّر القارئ بأننا قد أشرنا إلى هذه الظاهرة خلال استعراضنا لتاريخ المناذرة في القرن السادس الميلادي والمصير الذي تلقاه عدي بن زيد السجين الذي أعدمه الملك النعمان بن المنذر بينما كان يقضي عقوبة بالسجن...

ثورة ١٤ تموز١٩٥٨:

وبعد ما يقرب من عشر سنوات من هذه الأحداث أي في عام ١٩٥٨، كما أشرنا سابقاً، حدثت الثورة التي تفجرت ضد النظام الملكي في العراق والتي نفذ خلالها حجم هائل من العنف الدموي والقسوة البالغة حيث احتلت وحدات من الجيش العراقي العاصمة بغداد بقيادة عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف ومجموعة من الضباط. إن الحادث الأكثر دموية في هذه الثورة هو المذبحة التي حصلت داخل القصر الملكي المسمى قصر الرحاب حيث كان يوجد الملك فيصل الثاني وولي العهد الأمير عبد الإله والحاشية الملكية من النساء والمرافقين، لقد حاصرت القصر وحدة عسكرية صغيرة من الجيش صباح ١٤ تموز ١٩٥٨ وطلبت من المشرفين على حراسة القصر التسليم وبعد التداول مع الملك وولي العهد وافق الجميع على الاستسلام وعدم المقاومة وعندما خرجوا من باب القصر وهم يحملون القرآن والرايات البيض انهمر عليهم الرصاص فقتلوا جميعاً ثم نقلت جثة الملك والأمير عبد الإله بسيارة إلى الطب العدلي وفي الطريق انزل المتظاهرون المتحمسون للثورة جثة ولي العهد من السيارة وربطوا بها الحبال وراحوا يسحلونها في الشوارع ويقطعون أجزاءاً منها ويعلقونها في أكثر من مكان من العاصمة بينما واصلت السيارة نقل جثة الملك الشاب إلى الطب العدلي ثم إلى

مستشفى الرشيد العسكري حيث دفن في حفرة قرب المستشفى. أما جثة الأمير عبد الإله فقد انتهى بها المطاف بعد أن سحلت مسافات طويلة في الشوارع والأحياء بتعليقها على عمود للكهرباء مقابل باب وزارة الدفاع في الجانب الشرقي من بغداد (الرصافة) ثم بعد ذلك أنزلت وأحرقت وألقي ما تبقى منها في نهر دجلة. (انظر شكلي رقم: ٢٣، ٢٤)

ومن المصادفات الغريبة أن قائد الثورة الزعيم عبد الكريم قاسم هو الآخر أعدم وألقيت جثته في نهر دجلة كذلك بعد خمس سنوات من قيام هذه الثورة.

لعل القارئ استطاع أن يتابع في فصول هذا الكتاب كم هو عدد الأشخاص الذين ألقيت جثثهم في نهر دجلة بعد موتهم. إذ لا نظن أن بلاداً كالعراق ومدينة مثل بغداد قد ألقت في النهر الذي يجري فيها بشراً من أبنائها القتلى والموتى من حكام وقادة وسياسيين وثوار وعصاة وفلاسفة وشعراء وضحايا للأوبئة مثلما حدث في العراق وبغداد، وما نظن أن نهراً في العالم قد استخدم في التاريخ كمقبرة للبشر يدفن فيها من أريد التنكيل بهم كما استخدم نهرا دجلة والفرات في العراق...

بعد انتشار خبر انتصار الثورة ومقتل الملك وولي العهد سرت موجة هستيرية من الاندفاع والفرح والحماس الطاغي لدى الجماهير في الشارع ببغداد والمدن الأخرى، فقتل عدد من الناس كان بعضهم من الأجانب المتواجدين في العراق بسبب العمل والعقود مع الشركات كما قتل رئيس وزراء الأردن وأعضاء الوفد الحكومي الأردني الذين كانوا في زيارة رسمية لبغداد في ذلك اليوم ونتيجة الاندفاع والحماس الطاغي كان الناس الغاضبون في الشارع ببغداد يسحلون في بعض الأحيان جثة شخص لا يعرفون من هو كما حصل عندما سحلت جثة الطباخ التركي الذي صادف وجوده في القصر.

أما رئيس الوزراء السيد نوري السعيد فقد اختفى في أحد البيوت في بغداد ليحتمي بها.. وعندما حاول بعد ذلك الانتقال من مكان اختفائه إلى السفارة البريطانية لكي يحتمي بها اكتُشِفَ أمره فهاجمته الجماهير في الشارع وقتلته

وربطت بجثته الحبال وراحت تسحله في الشوارع والأحياء حتى تلاشت الجثة سحقاً بالأقدام وإطارات السيارات.

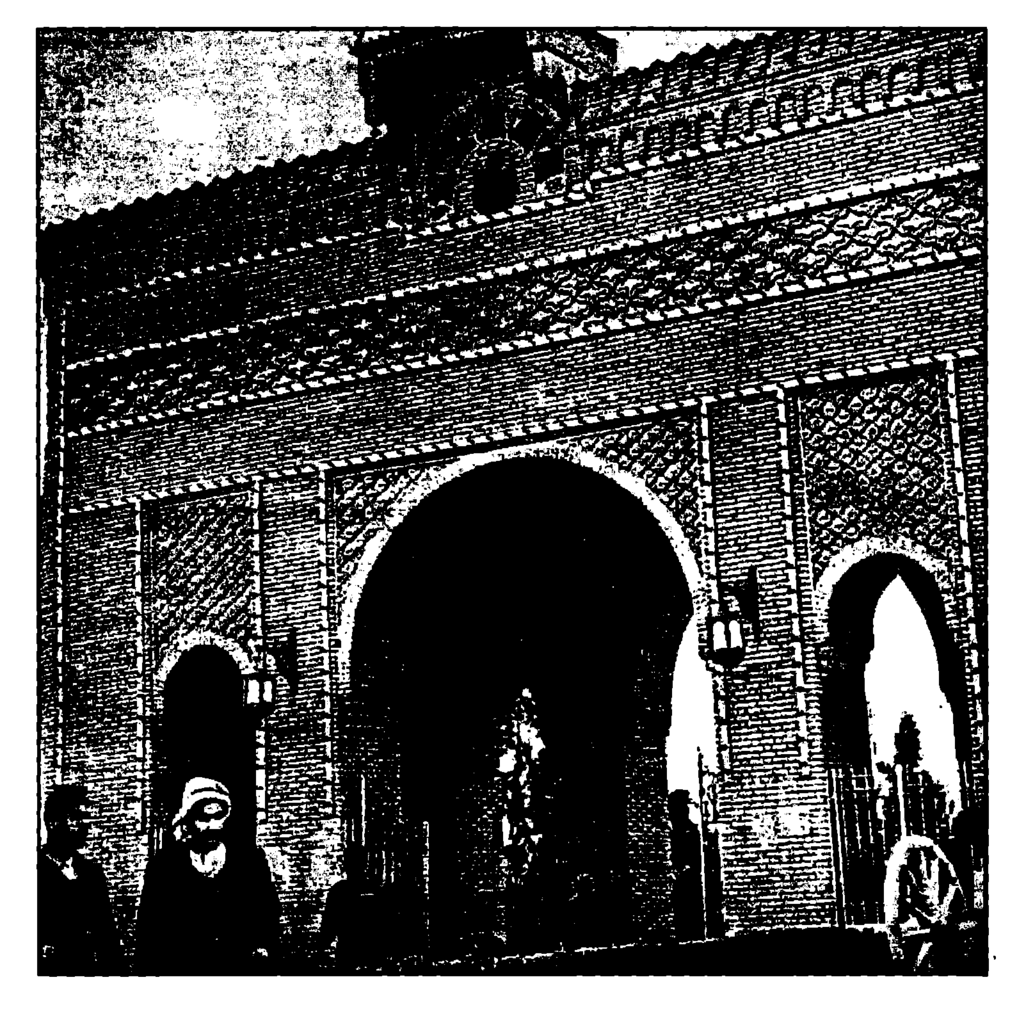
ويسجل الدكتور فالح حنظل أحد ضباط الحرس الملكي الذي شهد عن قرب الأحداث المأساوية للعائلة الملكية في ١٤ تموز ١٩٥٨ انطباعاته بعد فترة من الزمن في كتاب أصدره عن هذه الثورة وأسرار مقتل العائلة المالكة فيقول في بعض صفحاته ما يلي:

« وكان لتشغيل طاحون الموت في العراق صبيحة يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ على الشكل الذي تم فيه تشغيل هذا الطاحون أنْ التهم طاحون الموت لا المغامرين الطامحين في الحكم والسيطرة والنفوذ وحسب.. وإنما التهم أبناء الشعب العراقي من أقصاه إلى أدناه وشهد العراق مجازر رهيبة لم يعهدها تاريخه بكل ما حمل هذا التاريخ من مآسي القتل والفوضى ففي الموصل وكركوك (عام ١٩٥٩) حدثت مجازر دموية يندى لها الجبين الإنساني خزياً وعاراً وسفكت دماء المواطنين وسالت أنهاراً وصار سحل الناس لبعضهم عادة مستحبة وعلق الأموات من النساء والرجال دون تمييز على أعمدة الكهرباء...

ويجئ دور الثوار أنفسهم ويبدأ طاحون الموت يلتهم الواحد بعد الآخر فيلتهم أول ما يلتهم الزعيم عبد الكريم قاسم بطل ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨

ففي ٩ شباط ١٩٦٣ يقاد الزعيم وبطانته إلى مبنى الإذاعة في بغداد فيقتلهم زملاؤهم ويوارى عبد الكريم قاسم التراب في إحدى المزارع القريبة من بغداد سراً إلا أن حارس المزرعة قد اكتشف أن عدداً من الكلاب قد نبشت حفرة وراحت تنهش جثة إنسان وتأكل من لحمها. وذهل الحارس عندما تعرف على جثة عبد الكريم قاسم نفسه (حاكم العراق) فأخبر الفلاحين في القرية المجاورة الذين سرعان ما اختطفوا الجثة المنهوشة من الكلاب وأخفوها في تابوت لكي تدفن. (انظر شكلي رقم: ٢٥، ٢٦)

واكتشفت المخابرات أمر التابوت وفتح ثانية وألقي ببقية الجثة في نهر دجلة حيث ابتلعتها الأسماك.



(شكل رقم: ٢٣) المدخل الرئيسي لوزارة الدفاع العراقية

وخلف هذه البوابة التاريخية الجميلة تقع مباني وزارة الدفاع وهي الامتداد الطبيعي لموقع السراي وقلعة بغداد القديمة التي دارت فيها وحولها العديد من أحداث الصراعات الدموية في تاريخ بغداد خلال العصور المختلفة للسيطرة على الحكم



(شكل رقم: ٢٤) القصر الملكي في بغداد المسمى (قصر الرحاب)

وهو يحترق بعد قصفه بالمدفعية صباح ١٤ تموز ١٩٥٨ وقد قتل بداخله جميع أفراد العائلة الملكية بما فيهم النساء والحاشية وقد سمي القصر بعد ذلك قصر النهاية. وقد أصبح الاسم الجديد يثير الرعب والفزع في نفوس العراقيين بعد أن تحول إلى مسلخ بشري لتعذيب السياسيين وانتزاع الاعترافات منهم بعد أن صار مقراً لهيئات التحقيق التابعة للأمن السري



(شكل رقم: ٢٥) من اليمين الأمير عبد الإله ولي العهد في العراق
وبجانبه الملك فيصل الثاني

وهما باللباس الرسمي، قتل الاثنان رمياً بالرصاص في القصر الملكي ببغداد في تموز ١٩٥٨ بينما سجلت الجماهير في بغداد جثة ولي العهد ومزقتها في شوارع المدينة



(شكل رقم: ٢٦)
عبد الكريم قاسم

وتدور الدنيا دورة أخرى فيحترق العقيد عبد السلام محمد عارف الزعيم المنفذ للثورة بطائرة هليكوبتر (ما بين القرنة والبصرة في جنوب العراق) ويحترق معه كل من العقيد عبد اللطيف الدراجي والملازم أول عبد الله مجيد.

وفي فترة مصرع زعيمي ثورة ١٤ تموز يسحل النقيب جواد حميد الصايغ في الموصل ويعدم أبو الضباط الأحرار العقيد رفعت الحاج سري رمياً بالرصاص ويلقى النقيب فاضل مهدي البياتي والنقيب عباس الدجيلي المصير ذاته، وينتحر النقيب (العقيد) عبد الستار سبع العبوسي في البصرة في ظروف غامضة وتأكل الثورة أبناءها الواحد تلو الآخر»[1]، والضابط الأخير عبد الستار سبع العبوسي هو الذي أطلق النار على القصر الملكي وتسبب في مقتل أفراد العائلة المالكة. لكنه بقي بعد ذلك يعيش عقدة ذنب مستعصية كما يبدو أودت به إلى الانتحار في نهاية الأمر.

وعلى الرغم من الفارق الكبير في الزمان والمكان والظروف والدوافع والأسباب إلا أن تشابهاً واضحاً يمكن أن يلاحظه القارئ بين ظروف هذه الثورة وظروف الثورة الفرنسية في ١٤ تموز ١٧٨٩م خصوصاً في حجم العنف الدموي الذي رافق تنفيذها والمصير المأساوي الذي لاحق حياة أبطالها ومنفذيها بعد انتصار الثورة إضافة إلى التشابه في تاريخ تنفيذها حيث وقعت كلتاهما في يوم ١٤ تموز من العام ومازال كل من العراق وفرنسا يحتفلون بهذا اليوم ١٤تموز من كل عام بانتصار الثورة في كل منهما وهو عطلة رسمية في كلا البلدين.

عنف السنوات المجنونة ١٩٥٨- ١٩٦٨

بعد انتصار ثورة ١٩٥٨ ساد في عموم العراق جو من المنازعات السياسية والاضطرابات والاغتيالات والصدامات الدموية بين الأحزاب والكتل السياسية وسادت الفوضى وتدهورت سلطة الدولة في حماية القانون والمواطن ونسي الجميع ميثاق الجبهة الوطنية والتحالف الوطني والشعارات الأخرى التي كانوا يطالبون بتحقيقها خلال العهد الملكي، وبدأت أعمال العنف الدموي تتصاعد على نطاق واسع في كردستان بين الجيش العراقي والاكراد بقيادة الملا مصطفى البارزاني،

---

١ ـ د. فالح حنظل ـ أسرار مقتل العائلة المالكة في العراق ١٤ تموز ١٩٥٨، مصدر سابق، ص١٣٧-١٣٨

وجرى تحت شعار الدفاع عن الثورة وحماية الوطن سلسلة طويلة من أعمال الفوضى والعنف الدموي والبطش والتنكيل ونصّب العديد من الغوغاء والجهلة والأميين في الكثير من مدن العراق أنفسهم قضاةً وحكاماً وحاكمين ومنفذين لعقوبات كيفية وميدانية كانوا يصدرونها ضد مواطنين من أبناء البلاد في المدن والقرى لأسباب تتعلق بخلافات شخصية أو سياسية أو ثارات عائلية أو مشكلات مالية واجتماعية عالقة.. وفي الأخير تبلور النزاع عن تيارين سياسيين رئيسين هما التيار الشيوعي المدعوم من السلطة الرسمية التي كان يرأسها عبد الكريم قاسم الضابط غير الشيوعي مع عدد من الضباط الشيوعيين المحيطين به

يقابل ذلك التيار القومي الذي فقد مناصريه وأعوانه من المسؤولين والضباط في السلطة الجديدة بالتدريج بعد تصفيتهم وإبعادهم بحجج ومبررات مختلفة خصوصاً بعد تنحية وسجن العقيد عبد السلام عارف الضابط القومي والشريك الرئيسي في تنفيذ الثورة كما تم إعدام بعض الضباط القوميين الذين شاركوا في الثورة بتهم التآمر لأنهم عارضوا النهج الشيوعي مثل العقيد رفعت الحاج سري والعميد ناظم الطبقجلي كما تعرض التيار القومي إلى موجة من الإرهاب والتنكيل بعد فشل التمرد العسكري الذي قام به العقيد عبد الوهاب الشواف في الموصل حيث جرت مذبحة كبيرة في تلك المدينة عام ١٩٥٩. ونتيجة للإحباط الذي واجهه التيار القومي جرت محاولة جريئة نفذها بعض القوميين لاغتيال عبد الكريم قاسم إلا أنه لم يقتل بل جرح رغم سيل جارف من الرصاص أطلق على سيارته غير المصفحة ونتيجة لذلك سرت مظاهر من الفوضى وتجاوزات القانون وأجبر الناس على تأييد شعارات الحزب الشيوعي. ونفذت في إطار الإرهاب العقائدي مئات بل آلاف الحوادث والتصرفات التي يصعب الخوض في تفاصيلها أو الإحاطة بها وهي ما تعارف الناس فيما بعد على تسميتها بالمد الشيوعي. وجرت خلال ذلك المد الشيوعي عدد من المظالم والقسوة والعنف لم تكن ضرورية أو اضطرارية.

وإذا استثنينا الجيل الأول من الشيوعيين الذين نفذوا الثورة الشيوعية في روسيا عام ١٩١٧ بأساليب العنف الثوري فإن الشيوعيين العراقيين ربما يأتون في مقدمة الفئات والأحزاب في العالم التي تمسكت بشعارات العنف الدموي وطبقتها بقسوة وهمجية وشراسة متناهية في النصف الثاني من القرن العشرين فكانت شعاراتهم

التي تطالب بالإعدام والموت والسحل بالحبال والتهديد بالقتل تتردد على الدوام في أرجاء البلاد على مدى أكثر من أربع سنوات منذ انتصار الثورة في ١٩٥٨

إن كل تلك الأحداث وما تخللها من مظالم قاسية قد شكلت بالتدريج الخزّان المتعاظم من الحقد والكراهية التي لا تعرف الرحمة ضد الشيوعيين واتباعهم وضد كل من ساهم أو شارك في تلك الأحداث خصوصاً إذا تذكرنا البعد الريفي والبدوي للمجتمع العراقي المتمسك بتقاليد الثأر والانتقام، حتى إذا جاءت ساعة الانقلاب الجديد الذي أطاح بسلطة عبد الكريم قاسم وأتباعه لم يكن لصوت الرحمة أو الرأفة أو الشفقة أو التسامح مكان أو موضع، فلعلع صوت الانتقام الدموي عالياً كما في كل أحداث التاريخ العراقي في كل العصور، ليكتب إحدى الصفحات المرعبة من العنف في تاريخ العراق الحديث حيث سيق عبد الكريم قاسم ـ حاكم العراق ـ وأركان حكمه إلى دار الإذاعة بعد مقاومة ضارية داخل وزارة الدفاع وحين طلب الاستسلام بشرط الحفاظ على حياته نقلته إحدى المدرعات إلى مبنى الإذاعة وقيل أنه خلال عبور المدرعة فوق الجسر ببغداد طلب من السائق التوقف في منتصف الجسر وعندما وقفت المدرعة أخرج رأسه منها وألقى نظرة بعيدة على مستوى ضفاف نهر دجلة الذي كان يسير بهدوء حزين ثم سرح نظره في الجهة المقابلة وتنهد ثم تمتم ببعض الكلمات وطلب من سائق المدرعة أن يواصل السير.. لقد كانت تلك هي النظرات الأخيرة على عاصمة حكمه فقد أعدم بالرصاص بعد أقل من ساعتين.

وفي وسط ذلك الجو من الاندفاع الانتقامي لدى اتباع السلطة الجديدة وإصرار الشيوعيين على المقاومة بالسلاح والعنف صدر البيان الدموي رقم ١٣ الذي أذيع رسمياً من الإذاعة والذي طلب من الشعب إبادة (الشيوعيين العملاء) كما أسماهم البيان في ذلك اليوم. أن ذلك البيان ربما سيبقى أحد الخروقات الشنيعة للقانون وحقوق الإنسان في تاريخ العراق لأنه أباح على نحو رسمي ممارسة القتل الكيفي بين الناس في كل مكان من العراق.

وهكذا فقد انشغلت البلاد جميعاً الشعب والحكام على مدى أكثر من خمس سنوات منذ ١٩٥٨ انشغالاً كاملاً بموضوع الانقلابات والتآمر السياسي

والعسكري للسيطرة على الحكم واستلام السلطة وانقسم السياسيون والعسكريون وفئات الشعب المختلفة إلى فريقين:

انشغل الفريق الأول، ومنهم عبد الكريم قاسم وأركان حكمه على الدوام في الحفاظ على السلطة الفئوية والدفاع عنها ومحاولة حمايتها من السقوط والحذر والتنبه والاستنفار واليقظة المتواصلة مما يبيّته الآخرون.

بينما انشغل الفريق الثاني في التخطيط للانقضاض على الحكم وابتكار التكتيكات اللازمة ورسم الخطط الجهنمية لإسقاط السلطة القائمة.

لذلك انصرفت البلاد بالكامل تقريباً لهذا الأمر فجرى تراجع وتسيّب على كافة الأصعدة المتعلقة بالعمران وتوقفت مسيرة التقدم المدني والحضاري بالوتيرة المطلوبة فخسرت البلاد في أعمال العنف المتبادل دماً غالياً من أبنائها وزمناً ثميناً من عمرها دون طائل...وعلى العموم وكما ذكرنا في مكان آخر من هذا الكتاب فقد دفع الشيوعيون فاتورة باهضة الثمن بدون مقابل.

وإذا كان مقياس الربح والخسارة لا يتم ولا يجرى في العراق وفق المقاييس المنطقية المعروفة والمتداولة في العالم فإن ما جرى للشيوعيين في تلك الفترة هو الدليل العملي على صحة هذا المنطق الغريب وانطباقه على العراقيين. فلم يكن الشيوعيون مضطرين لتحمل تلك النتائج الدموية المرعبة أو دفع تلك الخسارات الباهضة من أرواح قادتهم ومنتسبيهم عن أعمال وممارسات لم يستفيدوا بالنتيجة منها شيئاً إلا إذا استثنينا الهتافات والمظاهرات والتصفيق شبه المتواصل في الشوارع. فلا هم سيطروا على الحكم بالكامل وتحملوا تبعات حكم يحمل اسمهم ويسير وفق نظريتهم ونهجهم السياسي ولاهم حافظوا على العلاقة السلمية التضامنية مع الأطراف والأحزاب الوطنية الأخرى، وربما كان الأجدى والأربح لهم وللعراق لو ساروا في طريق السلم الاجتماعي في البلاد خصوصاً وأنهم كانوا يحتفظون بسمعة جيدة بل ممتازة هيأتها لهم سنين النضال والتضحيات في العهد الملكي ضد الأحلاف والمعاهدات والتدخل الأجنبي.

وربما إزاء هذا الأمر غير المفهوم نعود للقول إن البوصلة العراقية تقود أصحابها دائماً للسير نحو آفاق العنف الدموي دون إرادة منهم في كثير من

الأحيان وفي أحيان أخرى يسير العراقي نحو العنف بدافع قهري استحواذي متسلط لا إرادة له فيه.

وعلى مدى عام كامل ـ منذ إعدام عبد الكريم قاسم ـ لم يكن للسلطة الجديدة بكل أجهزتها من عمل حقيقي يومي سوى مطاردة وإبادة وسحق تنظيمات الحزب الشيوعي ومرتكزاته فحفلت تلك الفترة بإعمال وممارسات غاية في القسوة والإبادة الدموية جرى أكثرها في السر ودون ضجة دولية...

وعندما قارب الوضع السياسي في العراق أن يستقر لصالح الحاكم الجديد عبد السلام عارف قتل هذا الحاكم في حادث دموي إثر سقوط طائرته في عاصفة رملية في البصرة بتاريخ١٣/٤/١٩٦٦ وقتل جميع من كانوا معه من الوفد الحكومي المرافق. وقد تناثرت جثثهم على مساحة كبيرة بينما تفحمت بعض الجثث بفعل الحريق الذي شب في الطائرة أثناء سقوطها ومنها جثة الرئيس عبد السلام عارف التي تفحمت هي الأخرى كما ذكر في حينه.

وإذا كان يصح القول عن وجود الترابط السايكولوجي بين النكتة وبين قائلها فإن النكتة التي انتشرت وذاعت في عموم العراق ورددها أكثر العراقيين فور مقتل الرئيس عبد السلام عارف واحتراق جثته تدل على نفسيّة مفعمة بالتشفي واللؤم والحقد والشماتة، إذ تقول النكتة وهي على هيئة (حزّورة) باللهجة العراقية: (شنو شنو طار لحم نزل فحم)(١) ومعناها ما هو الشيء الذي عندما طار كان لحما وعندما نزل كان فحما... والمقصود به طبعا الرئيس عبد السلام الذي سقطت جثته محترقة متفحمة. أليس في تلك النكتة اللئيمة وسط تلك المأساة المفجعة ما يشير إلى منهج سايكولوجي لهذا الشعب الذي عايش العنف خمسة آلاف سنة؟؟

ولعل الكثيرين ممن كانوا يهتفون في الشوارع لموكب عبد السلام عارف (احنا جنودك يا سلام) قد رددوا تلك النكتة الشامتة بعواطف متحجرة ومشاعر مات فيها الحنان والرحمة.

وكما هي العادة العراقية السائدة فقد انتشرت الشكوك حول حادث سقوط طائرة الرئيس ومقتله واحتمال وجود مؤامرة على حياته وبقي الهمس والتلميحات الغامضة تدور في أوساط كثيرة من الناس حول حقيقة الحادث ويذكر الصحفي فيصل حسون في الكتاب الذي ألفه حول حقيقة مقتل عبد السلام عارف وكان

(١) [illegible]

مع الوفد الذي زار البصرة مع الرئيس لكنه لم يكن في طائرته بل في طائرة أخرى بأنه كان يتحاشى الركوب مع الرئيس عبد السلام في طائرة واحدة لأن لديه إحساساً بأن هذا الرجل مستهدف، وقد طالب في هذا الكتاب بضرورة كشف جريمة مصرع عبد السلام عارف حيث يقول: ((ليس الحديث عن مصرع عبد السلام محاولة للكشف عن معالم جريمة غامضة كان ثمنها حياة بضعة رجال، وإنما هو مدخل الى أحد الخيوط التي نسجت منها مؤامرة تعرضت فيها أمة بأكملها لمأساة رهيبة))[1]

وبعد مقتل رئيس الجمهورية عبد السلام عارف عُيِّن أخوه عبد الرحمن عارف ليس بسبب قدراته وإمكانياته الذاتية ومميزاته الشخصية بل إكراماً لنضال وجهود أخيه الراحل وكان هذا الرجل شخصاً بسيطاً وضعيفاً وضائعاً، وفيه شئ من صفات الماء النقي الذي يوصف بأنه بلا لون أو طعم أو رائحة... أما الجهة التي عينته رئيساً للعراق فهي لجنة من الضباط المتنافسين ذوي الرتب الكبيرة لا تملك أية صفة دستورية في البلاد. وقد أزيح الرئيس عبد الرحمن عارف عن الحكم في عام ١٩٦٨ بانقلاب أبيض قاده السيد أحمد حسن البكر الذي حرص كما أقسم في بداية الأمر أن يبقى الحكم غير دموي، وبذلك تم تسفير الرئيس المعزول عبد الرحمن عارف إلى خارج العراق بالطائرة، ولأول مرة ربما منذ بضعة قرون يبقى الحاكم العراقي حياً يرزق بعد عزله عن الحكم وهي حالة نادرة وفريدة إذ جرت العادة في أكثر الأحيان ومنذ عهد السومريين أن يذهب الحاكم العراقي المعزول إلى القبر وليس إلى البيت عندما تتم الإطاحة به.

انقلاب أبيض ومعارك دموية

على الرغم من تعهد الرئيس أحمد حسن البكر بإبقاء حكمه بعيداً عن الدماء إلا أنه لم يستطع الإيفاء بذلك التعهد فانساق النظام بعد ذلك بقدمين ثابتتين للسير وراء البوصلة العراقية التي تؤشر وتقود إلى العنف الدموي في كل العهود والقرون. ولم يستطع أحد لا في داخل النظام ولا في خارجه كبح جماح هذا النزوع.

---

١ ـ فيصل حسون ـ مصرع المشير الركن عبد السلام عارف هل كان نتيجة مؤامرة؟ أم من صنع القضاء والقدر ـ دار الحكمة ـ لندن ١٩٩٥ ص٨٦

وكما في عهود الولاة الذين تولوا حكم العراق في القرن السابع عشر والثامن عشر ـ كما رأينا في فصول هذا الكتاب ـ فقد وجد النظام نفسه وسط حروب وصراعات وأزمات لا تتوقف ولا تنقطع في الداخل والخارج فدخل تباعاً في حروب ضد اليمين واليسار والشيوعيين والأحزاب الدينية والكتل السياسية المعارضة والشيعة والسنة والأكراد والآشوريين والعشائر العراقية والجواسيس والماسونيين والشقاوات والتجار والرأسماليين والقطاع الخاص والقطاع العام والأجنحة المتذمرة في الحزب الحاكم والمهربين وتجار السلاح والمخدرات، ودخل كذلك في معارك ضد الإيرانيين في عهد الشاه وعهد الخميني وضد الأتراك والمصريين والسوريين والكويتيين والخليجيين والليبيين والأمريكان والإنكليز والأوربيين والأمم المتحدة ومجلس الأمن وشبكات السلاح الدولية وإلى آخره من المعارك التي لم تهدأ و لم تتوقف منذ ثلاثين سنة.

وإذا أردنا أن نغض النظر عن الجرأة الفائقة التي سار فيها النظام في العراق منذ ١٩٦٨ في بناء النهضة الصناعية ونقل التكنولوجيا المتطورة إلى البلاد، فإن الهاجس الأمني الذي سيطر على تفكير المسؤولين على نحو متواصل قد عزز على الدوام الإجراءات البوليسية الاستثنائية لحماية السلطة من السقوط..

إضافة إلى ذلك فإن التورط في حروب خارجية طاحنة وطويلة الأمد في أكثر من اتجاه قد جعلت تاريخ النظام منذ١٩٦٨ يبدو مصبوغاً بالصبغة الحربية ومحاطاً على الدوام بفعاليات العنف ذات الطبيعة الدموية فضاعت وتبعثرت كل الجهود الكبيرة التي بذلها النظام ذاته بصورة حازمة من أجل التطوير الصناعي والبناء المدني.

وإذا أردنا أن لا ندخل في تعداد أعمال العنف الدموي وتفاصيلها منذ عام ١٩٦٨، والتي ربما تحتاج الى بحث طويل مستقل، فإن بامكاننا أن نشير الى الحربين الطاحنتين:

- الحرب العراقية الايرانية
- وحرب احتلال الكويت

وهما الحدثان الأكثر دموية في التاريخ العراقي بسبب الحجم الهائل من الخسائر البشرية والمادية. والأكثر تمثيلاً لمسيرة العنف الدموي التي بدأنا برصد احداثها منذ الألف الثالث قبل الميلاد.

وعلى العموم، فقد أصبح بامكاننا القول، بعد هذا الاستعراض العام لأحداث العنف الدموي في القرن العشرين، أن مئات الآلاف من العراقيين ، إن لم نقل الملايين منهم، قد سحقوا أو رضخوا أو خضعوا للعنف القهري بأشكاله ومستوياته المختلفة ، ابتداءً من الإهانة الشخصية وحتى القتل والموت القسري، خلال عقود القرن العشرين المنصرمة.

ومازال الأحياء من الأجيال العراقية المتعاقبة الذين عاشوا في عهود سياسية مختلفة في هذا القرن، يتوارثون الأحاديث والذكريات الحزينة عن الآلام النفسية والجسدية والإضطهاد والتعاسة التي عانوها بسبب ما تعرضوا له من العنف القهري الذي سلطته عليهم الأنظمة السياسية المتعاقبة.

أما العراقيون الذين ماتوا تحت ضربات العنف، فإن أحاديث الناس والبلاغات والصحف السياسية القديمة، وربما بعض الأقارب والاصدقاء والمحبين قد سجلوا ورددوا ورووا الحكايات الحزينة لأولئك الضحايا المغدورين.

إن هذه الدوامة من العنف والدم والمعاناة والآلام التي لانهاية لها، هي ما يتوجب على أهل العراق التبصر فيها وإيقاف سريانها المدمر.

الفصل التاسع

انعكاسات العنف الدموي على طبيعة المجتمع العراقي

- ١ - ظاهرة التقلب والعنف في مزاج الفرد العراقي
- ٢ - الظهور المتكرر لدكتاتورية العقيدة الواحدة في العراق
- ٣ - نشوء ظاهرة السحل والتمثيل بالموتى وقسوة التنكيل بالخصوم
- ٤ - كثرة عدد الحكام العراقيين الذين ماتوا قتلاً في التاريخ العراقي
- ٥ - الاضطهاد الانتقامي للمفكرين وقادة المذاهب الكبرى
- ٦ - ظاهرة زوال المدن العراقية وموتها السريع (انتحار المدن)
- ٧ - التدمير المفجع للآثار والثروات والتراث الحضاري والفني والثقافي في العراق.
- ٨ - تطبّع المجتمع العراقي بالجدية والتذمر والحزن الدائم

كان من نتائج منهج العنف الدموي وتطبيقه شبه المتواصل في العراق منذ عصور ما قبل التاريخ وحتى اليوم أن برزت وتبلورت عدة ظواهر سلبية استثنائية عامة تركت آثارها وانعكاساتها بوضوح على طبيعة المجتمع العراقي واصبحت جزءاً من تاريخه ومكوناته وملامحه العامة ، وهي تحمل من الغرابة والخصوصية ما يدفع للظن أنها قلما تكررت في تاريخ المجتمعات في العالم. وقد استطعنا أن نرصد ونشخص بعض تلك الظواهر السلبية التي وجدناها تلازم المجتمع العراقي وترافقه وتلتصق بتاريخه وبواقعه. ومن بين تلك الظواهر مايلي:

١ ـ ظاهرة التقلب والعنف في مزاج الفرد العراقي.

٢ ـ الظهور المتكرر لدكتاتورية العقيدة الواحدة في العراق.

٣ ـ نشوء عادة السحل والتمثيل بالموتى وقسوة التنكيل بالخصوم.

٤ ـ كثرة عدد الحكام العراقيين الذين ماتوا قتلاً في التاريخ العراقي.

٥ ـ الاضطهاد الانتقامي للمفكرين وقادة المذاهب الكبرى.

٦ ـ ظاهرة زوال المدن العراقية وموتها السريع (انتحار المدن).

٧ ـ التدمير المفجع للآثار والثروات والتراث الحضاري والفني والثقافي في العراق.

٨ ـ تطبّع المجتمع العراقي بالجدية والتذمر والحزن الدائم.

وسوف نسعى ان نبحث بشيء من التفصيل المعزز بالامثلة والشواهد المستمدة من التاريخ العراقي كل واحدة من تلك الظواهر والكشف عن أبعادها وتأثيرها وتطورها التاريخي بما يسمح به المجال في محاولة لتوضيح حجم الانعكاسات التي تركتها هذه الظواهر في المجتمع العراقي.

غير أنه من المناسب أن نشير هنا الى أن العنف الدموي الذي طبّق في الواقع العراقي بصوره وأشكاله الفائقة القسوة والبالغة الشراسة والاتساع قد تحول بمرور الزمن ليكون سبباً ونتيجة في ذات الوقتِ حيث أصبحت مقدماته تتداخل بنتائجه، فشيوع منهج العنف الدموي مثلاً هو الذي ساعد وشجع على نشوء أعتى الانظمة الدكتاتورية الدموية المرتكزة على مبدأ سيادة العقيدة الواحدة في التاريخ العراقي ، وهذه الانظمة بدورها قد عززت واشاعت ونشرت على نطاق واسع العنف الدموي والظلم والقهر وطبقته في المجتمع بالقوة القهرية، ولعل هذا ينطبق أيضاً على طبيعة الظواهر الاخرى التي نحن بصدد بحثها ورصدها والتعرض لها في هذا الفصل.

١ ـ ظاهرة التقلب والعنف في مزاج الفرد العراقي

أ / في الوقائع

قد لايسمح سير البحث وكثافة الاحداث وتواصلها في هذا الكتاب بالتوسع كثيرا في مناقشة ظاهرة العنف والتقلب الحاد في مزاج الشعب العراقي، أفرادا أو جماعات، هذه الظاهرة التي تؤكدها احداث تاريخية عديدة متتالية تتشابه وتتماثل بمقدماتها ووقائعها ونتائجها بل وتتكرر في عدد كبير من احداث التاريخ العراقي في مراحل مختلفة متباعدة في الوقت الذي لايجمعها أي رابط سببي أو زماني أو موضوعي.

ان مايثير الدهشة والاستغراب ان قاسما مشتركا يكاد يوحد تلك الاحداث في عنوان مشترك واحد هو ما يمكن ان نطلق عليه ظاهرة العنف والتقلب في المزاج العراقي سواء على الصعيد الفردي أو الجماعي

غير أن الاقرار بوجود هذه الظاهرة السلوكية ويتطلب الاستشهاد بعدد كاف من الاثباتات والوقائع والدلائل المؤدية الى هذا المفهوم وبالذات من الاحداث التي جرت في فترات متباينة من التاريخ العراقي، والتي تركت ذات النتائج الكارثية على العراق وأهله سواء في المجال العسكري أو السياسي أو الاجتماعي بغض النظر عن الفوارق الكبيرة في مستوى الاشخاص والاطراف وظروف الوقائع وزمانها ودوافعها.

ومن هذا المنطلق فاننا سوف نسوق عددا من الامثلة التاريخية الدالة على هذه المعاني ففي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد نجد أن ظروف قيام الامبراطورية الاكدية التي اسسها الملك شاروكين (سرجون) لايمكن ان تبقى بعيدة عن مفهوم التقلب والغدر وهو السلوك الذي اتبعه هذا الملك الاكدي على سيده قبل تمكنه

من انشاء هذه الامبراطورية فقد انقلب شاروكين (سرجون الاكدي) على الملك اورزبابا الذي سبق له ان تبنّاه ورباه طفلا صغيرا واعتنى به وجعله ولده وقربه منه، وكانت ام سرجون قد ولدته سفاحا (غير شرعي) ووضعته في صندوق من القصب ورمته في نهر الفرات فالتقطه احد الخدم في القصر وقدمه للملك الذي فرح به واحتضنه لكنه بعد ذلك خلع الملك من العرش وتربع هو عليه.

كما ان صفة الغدر والتحول المفاجئ في الموقف والولاء هي التي تشكل الوصف الملائم للانقلاب السياسي الذي قام به اورناموعلى سيده الملك اتوخينجال السومري في عصر سلالة اوروك في اواخر الالف الثالث قبل الميلاد حوالي (٢١١٦ق. م) بعد ان عينه الملك حاكماً عسكرياً من قبله للاشراف على مدينة أور فتمرد على سيده وانتزع الحكم منه.

كذلك لايمكن ان يخرج عن هذا العنوان ماحصل للملك زمري ليم ملك ماري عام ١٧٥٩ قبل الميلاد على يد الملك حمورابي الذي كان صديقه الشخصي وحليفه السياسي حيث هاجمه حمورابي فجأة بجيشه واحتل مملكة ماري وهدم اسوارها أما الملك زمري ليم ملك ماري وصديق حمورابي الذي فاجأه التبدل في مزاج حليفه فلا يعرف عن مصيره شيء... غير إن التاريخ يشير بصورة أكيدة إن هذا التحول في موقف حمورابي ومزاجه تجاه مملكة ماري قد حصل بعد أن انتهى حمورابي من القضاء على خصومه في بلاد بابل وسيطرته العسكرية على المنطقة كلها...

كذلك يمكن الاستشهاد بحادث الاغتيال الذي نفذه نابونيدس بطريق الغدر ضد سيده الملك لاباشي مردوك ملك بابل عام ٥٦٠ قبل الميلاد حيث كان نابونيدس طفلاً صغيراً جاءت به أمه إلى بلاط بابل طالبة الرحمة والحماية بعد سقوط المدن الآشورية وتدميرها. فقام الملك مردوك بالعطف على الطفل واحتضانه، ولما كبر انقلب على الملك وقتله...

وفي الاطار ذاته يمكن أن ندرج مقتل عدد من الملوك والأباطرة العراقيين نتيجة الغدر والخيانة بسبب مواقف العنف والعصيان والتمرد والتبدل في مزاج الحاشية والأتباع والأقرباء.. من ذلك مقتل الملك يخدون ليم ملك ماري عام ١٨١٠ قبل الميلاد على يد الخدم في قصره وسقوط الملك الآشوري توكولتي نينورتا الأول قتيلا

بيد ابنه وولي عهده.. ثم الملك شاروكين الثاني الذي اغتاله أحد جنوده عام ٧٠٥ قبل الميلاد.. ثم مقتل الملك الآشوري الشهير سنحاريب في عـام ٦٨١ قبـل الميلاد عندما اغتاله أحد أولاده وهو مستغرق في صلاته..

كذلك يمكن الاستشهاد بالأحداث الكثيرة مـن الغـدر والاغتيـالات الخيانيـة والتبدل المزاجي المفاجيء في صفوف الحكام والرعية التي ازدحم بها تاريخ المنـاذرة من ملوك الحيرة كما مر ذلك في فصل سابق من هذا الكتاب...

إضافة إلى ذلك، ما حدث في معركة صفين والانقسام السريع والعميق والحاد في صفوف جيش أهل العراق بقيادة الإمام علي بن أبـي طـالـب وتفرقـه إلى كتـل وشيع متنافرة متصادمة متناقضة استحال معهـا ايجاد الحد الأدنـى لوحـدة الصـف والموقف داخل هذا الجيش وما أعقب ذلـك مـن خـذلان وعصيـان وتمـرد واجهـه الامام علي في موقف كان فيه أهل العراق قاب قوسين أو أدنى من النصـر النهـائي على جيش معاوية في صفين كذلك موقف التخاذل والعصيان وعدم الطاعـة الـذي واجهه الامام الحسن بن علي بن أبي طالب وتفرق أتباعه وجماعته من أهل الكوفـة بعد أن نـاصروه ووقفـوا إلى جانبـه بـادىء الأمـر وشـجعوه علـى الثـورة والمطالبة بالخلافة مما اضطره للتنـازل بعـد ذلـك عـن مطالبـه السياسية والاعتكـاف بسـبب الفشل والخيبة.

ثم الأحداث التي سبقت واقعة كربلاء والتـأييد التعبـوي والعسـكري الواسـع الذي حظي به في بادىء الأمر ابن عم الحسين، مسلم بن عقيـل والـترحيب الكبـير الذي لقيه من العراقيين ثم انقلابهم السريع والمفاجيء ضـده وارتدادهـم عنـه وعـن نصرته وتفرقهم من حوله ومـا تبـع ذلـك مـن مطاردتـه وقتلـه وصلـب جسـده في الكوفة بعد ذلك ثم النتائج المعروفة التي انتهت إليها واقعة كربـلاء ومقتـل الحسـين بن علي بن أبي طالب عند وصوله إلى العراق

كما يمكننا الاشارة في هذا المجـال إلى مقتـل مصعـب بـن الزبـير وقطـع رأسـه وإرساله إلى عبد الملـك بعـد تخاذل أصحابـه العراقيـين وتفرقهـم عنـه في المواجهـة العسكرية التي حصلت بينه وبين جيش عبد الملك بن مروان.. ممـا دفـع أخـاه عبـد الله بن الزبير في أحدى خطبه العامة في الحجاز لاتهام أهل العراق صراحة بالخيانـة

وبيع مصعب وخذلانه والتي سبق أن اوردنا مقاطع منهـا في مكـان آخـر مـن هـذا الكتاب

كذلك موقف العراقيين في ثورة عبد الرحمن بن الاشعث في العراق واندفاعهم الشديد في تصعيد الموقف الى حد الانفجار وعدم قبولهم بأي عرض سلمي رضائي رغم وجود ذلك العرض السلمي المغري وما نتج عنه من تفـرق وتشتت وانقسـام قاد الى النهاية الدموية المدمرة المعروفة في بمجزرة دير الجماجم والاندحار الكبير امـام الجيش الاموي بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي ومقتـل قـائد الثـورة عبـد الرحمـن الاشعث واعدام اتباعه وانصاره جميعا.

ثم انقلاب أهل الكوفة وتراجعهم عن تـأييد زيـد بـن علـي بـن الحسـين بعـد تأييدهم له والتفافهم حوله وتشجيعهم لـه للقيـام بـالثورة ضـد الحكـم الامـوي ثـم تفرقهم سريعاً عنه بعد اعلانه الثورة وبعـد احتـدام الصـراع العسـكري مـع جيـش يوسف بن عمر والي الامويـين علـى العـراق ممـا أدى الى مقتـل زيـد وقطـع رأسـه وارساله الى هشام بن عبد الملك في دمشق...

وكذلك الاحداث الدموية المتزاحمـة في الغـدر والعقـوق والعصيـان والتخـاذل والتبدل السريع في المزاج وخيانة العهـود والتصفيـات الجسـدية وسمـل العيـون الـتي يزدحم بها التاريخ العباسي منذ الخليفة أبي العبـاس السـفاح وأبـي جعفـر المنصـور وحتى سقوط بغداد اضافة الى الاحـداث المماثلـة الـتي جـرت خـلال القـرون الـتي حكم فيها التتار والجلائريون والصفويـون والعثمـانيون وتقلـب النـاس في مواقفهـم وتأييدهم للحاكم القوي والمنتصر. ومن امثلـة المواقـف في التقلـب والغـدر خيانـة محمد بن بكر صوباشي لوالده الذي ائتمنه في الدفاع عـن قلعة بغداد واتفاقـه مـع الجيش الفارسي الذي كان يطوق بغداد وفتح ابـواب القلعـة لهـم ليـلا ممـا أدى الى سقوط بغداد ومقتل الآلاف واعدام والـده بكـر صوباشـي بعـد تعذيـب وحشـي. كذلك الحادثة الاخرى التي اقدم فيها ببغداد اقرباء واخوة الحـاكم ذو الفقـار علـى اغتياله طمعا بالوعود التي اعطاها لهم الشاه الصفوي طهماسب الذي كـان يطـوق بجيشه مدينة بغداد ويحاصر ذو الفقار واخوته واتباعه وجيشـه وجميـع أهـل بغـداد، كمـا وينـدرج تحـت هـذا العنـوان وضمـن هـذا المفهـوم تلـك التغيـيرات السـريعة والمفاجئة والصادمة التي حصلـت بـين اتبـاع والى بغـداد سـليمان باشـا الصغـير في

العهد العثماني، فبعد ان انتصر هذا الوالي على الجيش المعادي الذي كان يقوده خصمه المدعو حالت افندي في عام ١٨١٠، وجد نفسه فجأة في صباح اليوم الثاني وقد تفرق جيشه واتباعه من أهل العراق و لم يبق معه سوى ثلاثين رجلا فاتجه بهم نحو نهر ديالى وهناك اغتالوه وارسلوا رأسه الى حالت افندي قائد الجيش المندحر الذي سلخه وارسله الى اسطنبول كذلك ماحصل بين أتباع والى بغداد عبد الله أغا التتونجي الذي قاد حملة عسكرية كبيرة مجهزة بالمدافع والمعدات الكثيرة للقضاء على خصمه سعيد بك ابن سليمان باشا الكبير الذي هرب للجنوب والتجأ الى شيخ المنتفك في منطقه سوق الشيوخ التابعة لولاية البصرة آنذاك ، وبعد الانتصار التام الذي حققه جيش عبد الله اغا التتونجي وتشتيته قوة العشائر هناك إثر ضربها بالمدفعية حدثت المفاجأة غير المتوقعة، فقد انقلب العراقيون من أصحاب الوالي المنتصر فجأة وانحازوا الى جانب عدوه المهزوم سعيد بك بحجة أنهم تذكروا والد سعيد بك ونعمته عليهم فكانت النتيجة مقتل الوالي المنتصر عبد الله اغا التتونجي وقطع رأسه، هو وقائد جيشه المدعو طاهر أغا، والسبب في ذلك هو التبدل والانقلاب في موقف اتباعه وأعوانه. وقد ألقى القتلة رأس الوالي التتونجي ورأس قائد جيشه طاهر اغا بين أقدام سعيد بك الذي كان منهزما وهاربا في منطقة سوق الشيوخ

كذلك يمكننا الاستشهاد بالتحول الغريب والمفاجئ في موقف الناس والاهالي في بغداد من قاسم باشا العمري الذي ارسله من الموصل والى بغداد الجديد على رضا باشا لاستلام ولاية بغداد من الوالي المخلوع داوود باشا وقد تحرك قاسم باشا على رأس قوة عسكرية وحين وصل الى بغداد اسقبله سكان العاصمة استقبالا حافلا واحاطوه بمظاهر الابهة والاجلال والترحيب ، أما الوالي المخلوع داوود باشا فقد اختفى في احد الدور «واعتقد قاسم باشا ان كل شئ قد انتهى، وان بغداد اصبحت موالية له، فارسل رسالة الى علي رضا في الموصل يدعوه للمجئ الى بغداد سريعا لكي يتولى مقاليد الحكم»[1] ، وفي صباح يوم ١٣ حزيران ١٨٣١ عندما كان قاسم باشا العمري داخل السراي في قلعة بغداد سمع ضوضاء شديدة في الخارج ، وتبين بعد قليل ان جماهير غفيرة من اهالي بغداد تحيط بالسراي وتهاجمه

١ - د. علي الوردي - لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث - ج١، مصدر سابق، ص ٢٧٧

من كل جانب واستطاعوا السيطرة على مخزن السلاح ونهبوه وصاروا يمطرون السراي بالرصاص والقنابل لقد انقلب اهل بغداد على قاسم باشا العمري فجأة بعد ذلك الاستقبال الفخم والتكريم الفائق له قبل أيام قليلة وما لبثت الجماهير أن دخلت السراي ناهبة، مدمرة كل شئ أما القوات المكلفة بالدفاع عن السراي وحماية قاسم والبالغ عددها اكثر من ثلاثة آلاف رجل فقد اشترك معظمهم بنهب خزائن السراي وموجوداته، وعبروا نهر دجلة سباحة حيث غرق الكثير منهم. أما قاسم باشا العمري فقد تخلى عنه حتى حرسه الخاص، فاقتاده احد المهاجمين واسمه أحمد أغا التفنكجي الى بئر قريبة وألقاه فيها[1] وبذلك فإن قاسم باشا العمري ـ حسب هذه الراوية ـ لايملك قبراً في بغداد بالمعنى المعروف ويعلق الدكتور على الوردي على هذه الحادثة بقوله: «الواقع ان هذا التحول في سلوك الجماهير البغدادية أمر عجيب يلفت النظر، فهم قد انقلبوا بين عشية وضحاها من موقف الطاعة لأمر السلطان الى موقف العصيان عليه»[2] وقد يكون من المحزن ان نذكر بأن المكان الذي حدثت فيه معركة السراي هذه واحداثها الغادرة عام ١٨٣١ حيث قتل فيها قاسم باشا يقع قريباً جداً، إن لم يكن هو ذاته، من الموقع الذي حدثت فيه معركة وزارة الدفاع في شباط عام ١٩٦٣ حيث استسلم عبد الكريم قاسم، حاكم العراق بعد مقاومة ضارية ضد المهاجمين، وقد اعدم بعد استسلامه رمياً بالرصاص في مبنى الاذاعة العراقية ودفن في بغداد ثم أخرجوا جثته في اليوم الثاني وألقوها في نهر ديالى القريب من بغداد[3] حيث استقرت في قاع النهر بعد ان ربطوها باثقال كثيرة. وبذلك فان عبد الكريم قاسم ـ الذي حكم العراق اكثر من أربع سنوات ـ لايملك هو الاخر قبراً في بغداد، بالمعنى المعروف

ولم يقتصر وجود هذه الظاهرة في سلوك العنف والتقلب الحاد السريع في المزاج على السياسيين بل شمل الادباء والشعراء ورجال الدين والعشائر وعامة الناس. وتبرز هذه الظاهرة السلبية الملفتة للانتباه بشكل واضح وسافر وجلي عندما

---

١ ـ المصدر السابق، ص ٢٧٨

٢ ـ المصدر السابق، ص ٢٧٨.

٣ ـ احمد فوزي ـ أين الحقيقة في مصرع عبد الكريم قاسم ـ مطبعة الديواني ـ بغداد، ص٣٢.

تدخل البلاد في منعطفات حادة من الاحداث التاريخية الكبيرة او عندما يتعرض الحكم والنظام السياسي بصورة خاصة الى تبدلات جوهرية في مرتكزاته وعناصره وعقيدته السائدة...

وهناك حادثة اخرى تتعلق بمصير العائلة المالكة في العراق من نسل الملك حسين في الحجاز يمكن ادراجها في هذا الاطار من الوقائع والادلة ذات الصلة بمميزات الشخصية العراقية وملامحها السلوكية ، ففي عام ١٩٢١ طلب عدد من رجال الثورة العراقية الفارين من العراق وهم لاجئون عند الشريف حسين وفي ضيافته في مكة أن يرسل ابنه فيصلا ليكون ملكا على العراق، وكان هؤلاء من القادة والوجهاء والسياسيين البارزين في المجتمع العراقي بينهم جعفر ابو التمن وعلى البزركان ومحمود رامز وشاكر القرغولي واسماعيل كنه وعبد الرزاق الهاشمي ونور الياسري وهادي المقوطر وعلوان الياسري ومحسن ابو طبيخ ومرزوق العواد وغيرهم، ويبدو أن الملك حسين كان حذراً من العراقيين ولايطمئن لهم ويخشى ارسال نجله فيصل الاول الى العراق خوفاً من الغدر به وبذريته هناك من بعده، ولكنه وافق بعد تردد وبعد أن أعطاه الوفد العراقي بعض العهود الشفهية. لنقرأ ماذا حصل في هذا اللقاء في النص التالي من كتاب الدكتور علي الوردي (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث): ((وصل فيصل الى مكة في ٢٥ نيسان (١٩٢١) وكانت البرقيات يوم ذاك قد بدأت ترد تباعا من العراق الى الملك حسين، يروي على البزركان انه كان ذات ليلة في مجلس الملك حسين على سطح قصره في مكة فمد الملك يده تحت فراشه وأخرج ورقة قال أنها برقية من أهل العراق وناولها الى البزركان قائلاً خذها ياشيخ وأقرأها وكان هذا نص البرقية: ((نرجو ارسال نجلكم الملك فيصل الى العراق ليكون ملكاً دستورياً، منتظرين تشريفه)) وكانت موقّعة من قبل محمد مهدي الصدر ونوري السعيد وحمدي الباجحي ومحيي الدين السهروردي وبهجت زينل، وسأل الملك حسين عن هوية أصحاب البرقية، فأجابه البزركان بمدحهم. وسأل الملك مرة أخرى: ((إن العراقيين طالبوا بالأمير عبد الله في باديء الأمر ليكون ملكاً دستورياً عليهم فما الذي دعاهم إلى تغيير وجهة نظرهم؟))، فأجابه البزركان بأنهم طلبوا عبد الله حين كان الملك فيصل ملكاً في سوريا وهم يطلبون الآن فيصل لأنه بلا شغل . فقال الملك: ((ولكني أخشى يا شيخ أن يعامل أهل العراق فيصل كما عاملوا جده الحسين (ع)

من قبل)). فأجابه البازركان قائلاً: ((سيدي، لقد تغير الزمن وان أهل العراق ليسوا كأسلافهم في زمن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام فهم الآن يقومون باكرام الضيف وبخدمة ملكهم)). وعند هذا ضرب الملك كفا بكف وصاح بلهجته الحجازية: ((ياعيال نادوا فيصل))[1].

هذا ما حصل بين الملك حسين وبين الوفد العراقي،في مكة، وفي الحقيقة لم يكن الشريف حسين مخطئا في ظنونه وتخوفه على سلامة نجله وذريته في العراق، فقد حصل اكثر مما كان يخشاه ويتوقعه، فقد أبيد نسله في العراق ابادة كاملة حيث قتلوا تباعا.. فبعد وفاة فيصل الاول في ظروف تحيطها الشكوك والدسائس، قتل ابنه الملك غازي الاول في بغداد في حادث غامض تدور حوله الشبهات الشديدة والكثيرة، واعتبر حادثا مدبراً. أما الملك فيصل الثاني ابن الملك غازي وحفيد الملك فيصل الاول فقد قتل رميا بالرصاص هو وجميع افراد العائلة بما فيهم النساء والطباخين والحاشية داخل قصرهم في بغداد بتاريخ ١٤ تموز عام ١٩٥٨

وفي القرن العشرين برزت هذه الظاهرة الى العيان بشكل سافر في الاحداث التي رافقت سقوط طبقة الحكام العثمانيين واستبدالهم بحكام جدد بعد احتلال الانكليز للعراق وسقوط بغداد بيدهم عام ١٩١٧ ، وانسحاب الاتراك من العراق، حيث برزت الى السطح شواهد وامثلة لمواقف مخجلة من التبدل والتقلب في آراء وقناعات كثير من الناس والشخصيات العراقية المعروفة، بينهم الشعراء والادباء والمثقفين ورجال الدين والصحفيين، اضافة الى السياسيين والقادة والوجهاء والمتنفذين

فالشاعر جميل صدقي الزهاوي ـ علي سبيل المثال، وهو شخصية عراقية بارزة، اضافة لكونه شاعرا ـ كان قبل سقوط بغدا د اتحاديا (من جماعة الاتحاد والترقي الموالية للعثمانين) متحمسا في مدح الاتراك والحكم العثماني والاشادة بهم وكان عضواً في (مجلس المبعوثين) وكانت آخر قصائده في مدح انور باشا القائد التركي في ذم الانكليز قبيل دخولهم بغداد بفترة وجيزة، تحول فجأة الى النقيض

---

١ ـ د. علي الوردي، لمحات الجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج١ ، مصدر سابق، ص ٧٩ نقلنا النص كما ورد حرفيا بما فيه من اخطاء نحوية .

من ذلك، وصار يمدح الانكليز باندفاع ويسميهم أهل الحق والعدل الذين انقذوا الشعب العراقي[1] ويمكن الاستشهاد بعدد آخر من الاسماء والشخصيات العراقية التي تنتمي لشرائح مختلفة من المجتمع العراقي ممن سلكوا ذلك السلوك المتقلب على نحو مافعله الزهاوي

لقد استعصى ذلك السلوك على الفهم لدى الاجانب الذين رافقوا الحملة الانكليزية من الموظفين والمستشارين الذين كانوا مضطرين بحكم عملهم أو مسؤولياتهم للاحتكاك والتعامل مع شرائح من المجتمع العراقي خلال تلك الايام، حتى ان ذلك السلوك المتذبذب والمتقلب قد سبب الحيرة والاستغراب لدى الدبلوماسية الانكليزية ـ المس بل، التي اصبحت لها علاقات مباشرة وواسعة مع اكثر شخصيات المجتمع العراقي المعروفة في ذلك الوقت ـ وقد دفعها استغرابها من ذلك للحديث مع الملك فيصل الاول عن هذا النوع من السلوك واسبابه لدى العراقيين مبدية تعجبها واستغرابها من هذه الظاهرة. فكان جواب الملك فيصل لها: « ان هذا السلوك ليس عجيباً، بل هو مألوف لدى اكثر الناس، حتى أنا، لأنهم رزحوا تحت وطأة الفاتحين المستعبدين طيلة ستمائة سنة، فاضطروا الى اتخاذ خلق المكر لكي يعيشوا ، ولو أنهم عاشوا كالأوربيين، في ظل الحرية زمناً كافياً، لتعلموا مثلهم على اخلاق الاحرار»[2]

ولم تخدع هذه الظاهرة القادة الافراد في التاريخ العراقي فحسب، أو تقودهم الى القرارات الخاطئة والمواقف المميتة بل خدعت حتى القيادات السياسية ذات الصفة الجماعية المدعومة بتيار شعبي جماهيري واسع ودفعتها للوقوع في اخطاء مصيرية مدمرة...

ان من تسنى له التعرف على وضع الجماهير في الشارع العراقي في اعوام ١٩٥٩ـ ١٩٦٠ـ ١٩٦١ـ والاطلاع على مدى اندفاع الناس في العراق وحماستهم وتأييدهم البالغ للمبادئ والشعارات الشيوعية والماركسية واليسارية وترديدهم لها

---

١ ـ لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث د. على الوردي ج٤ ، مصدر سابق، ص ٣٧٣.

٢ ـ المصدر السابق، ص٣٧٥

والمناداة بتطبيقها في جميع المظاهرات والمسيرات الجماهيرية الضخمة التي كانت تجوب المدن العراقية من اقصاها الى اقصاها في عشرات من المناسبات المفتعلة من كل سنة، فانه سوف يظن بلا شك ان غالبية الشعب العراقي المطلقة هم من الشيوعيين الملتزمين بالشيوعية أو المؤمنين بالنظرية الماركسية غير أن المسيرة الشعبية التي سارت في شوارع بغداد بعد مرور شهر واحد لا أكثر على سقوط نظام عبد الكريم قاسم في شباط عام ١٩٦٣ والتي بلغ عدد المشاركين فيها مايقرب من مليون انسان عراقي قد خرجت لتحية القيادة السياسية والعسكرية التي سحقت الشيوعيين ومزقت صفوفهم واوصالهم شرتمزيق ..

وكما حصل للشيوعيين في العراق، فقد حصلت للاطراف السياسية العراقية الاخرى صدمات وفواجع ومفاجئات نتيجة تبدل المزاج العراقي وانقلاب مواقف الناس والجماهير والشارع في العراق وتحولهم السريع الى الضد والنقيض خلال فترة وجيزة

ولعل انماط السلوك والتصرفات التي يمكن ان تصادفنا ونشاهدها أو نرصدها في الحياة المعاصرة في المسلك الشخصي لعدد كبير جداً من العراقيين سواء في داخل العراق أو المهجر من مواقف تتسم بالتذبذب والنفاق والازدواجية والاندفاع المبالغ فيه في المدح ثم التحول السريع الى الذم وبالعكس، كذلك التسرع في استخدام العنف والقوة تجاه الآخرين أو التهديد بهما والميل العشوائي اللامسؤول لكيل التهم الاعتباطية، واصدار الاحكام العدائية القاسية والتنكر للعهود والانقلاب على مبادئ الصداقة وعدم الاستقرار النفسي في علاقات الاخاء والمحبة وشيوع روح التنافر والفرقة والانشقاق بين أي تجمع من العراقيين في أي مكان من العالم على جميع المستويات، وتعاطي النميمة والغيبة والوشاية وتنظيم الدسائس العدائية ضد الآخرين، ماهي سوى انعكاس لتلك الظاهرة السلوكية السيئة من التقلب الانفعالي الحاد في المزاج النفسي عند الانسان في العراق حتى اننا لو أردنا العودة الى اسلوب المذهب الكلاسيكي القديم في تقسيم الامزجة البشرية الذي كان سائدا قبل نشوء علم النفس الحديث لوجدنا ان الربط المشترك بين وصف المزاج الدموي والمزاج الصفراوي هو الوصف الانسب والاكثر انطباقا على الانماط السلوكية التي ذكرناها آنفا في سلوك الفرد العراقي، حيث يوصف صاحب المزاج الدموي وفق ذلك

التقسيم بسرعة التبدل وقابلية التغيير والتحرر من تحمل الاعباء بينما يوصف صاحب المزاج الصفراوي بسرعة الرد الانفعالي وحدة العاطفة في استجابات المرء[1]

ان مجموع تلك الصفات التي اشرنا اليها ربما شكلت الاساس المشترك لهذه الظاهرة التاريخية القديمة التي حاولنا رصدها ووصفها وتشخيصها في سلوك شعب الرافدين منذ عهود ماقبل التاريخ وحتى اليوم

(ب) في الاسباب والدوافع

لعل الامر الهام في هذا الموضوع الشائك لايكمن في تشخيص ظاهرة العنف والتقلب والانفعال العاطفي الحاد في المزاج العراقي، وسوق الامثلة العديدة والشواهد الدالة والمؤكدة على ذلك والمستمدة من التاريخ العراقي، بل يكمن في البحث الموضوعي عن اسباب هذه الظاهرة النفسية ودوافعها وعوامل نشوئها وتكونها خصوصا وأنها ظاهرة سلبية مازالت تبرز وتتواصل في الواقع العراقي وتقف في كثير من الاحيان وراء مجموعة التصرفات والمواقف والمشاكل والاخفاقات الكارثية ـ الفردية والجماعية ـ الناتجة عن هذا النمط السلوكي المتصف بالتسرع الانفعالي والحدة والانقلاب في العواطف والمزاج

وفي هذا المجال يمكننا أن نسوق عدداً من الاسباب والدوافع التي نعتقد أنها اسهمت ومازالت تسهم في تحديد ملامح الشخصية العراقية، وما تتميز به من خصوصية سلوكية. ولعلنا نستطيع ان نجمل تلك الاسباب والعوامل بما يلي:

(١) الغزوات والاحتلالات الخارجية

قبل ان يتعرض العراق الى غزوات الشعوب والاقوام الخارجية في نهايات الالف الرابع قبل الميلاد ساد بين المدن والحضارات والدول (المدينة ــ الدولة) التي قامت في ربوع وادي الرافدين شكل غريب من العلاقة المتبادلة بين تلك المدن هو

---

١ ـ د. اسعد رؤوف ومراجعة عبد الله عبد الدايم، موسوعة علم النفس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص ٢٧٨- ٢٧٩

أقرب الى صيغة الابادة العدوانية حيث تصف البحوث التاريخية التي تتحدث عن تلك المراحل بأن العلاقة بين المدن والحضارات الاولى في وادي الرافدين كانت تقوم على مبدأ ابتلاع الواحدة للاخرى أو ازالتها والحلول محلها، ولعلنا نستطيع ان نتخيل حجم الخوف والرعب والقلق والدمار والخسائر البشرية التي يسببها بين الناس زوال مدينتهم من الوجود بكل مؤسساتها ونظامها السياسي ودياناتها وآلهتها ومرافقها الاقتصادية لتلحق بمدنية اخرى او ليقام بديل سياسي وديني واقتصادي عنها. ان هذا النوع من الصراع الشبيه بالصراع المصيري من أجل البقاء لم يكن عابراً في تاريخ وادي الرافدين، بل استمر قرونا عديدة قبل ان تبدأ المرحلة الاخرى الاكثر سوءاً وشراسة وتخريباً وهي مرحلة الغزوات الخارجية التي قامت بها الاقوام والقبائل المتوحشة والمتخلفة والاقل حضارة ومدنية في المنطقة، وزحفها للسيطرة على العراق وخيراته، وما نتج عنها أيضاً من خراب ودمار واسع النطاق شمل العديد من المدن والممالك التي كانت مزدهرة في وادي الرافدين. ومنذ تلك القرون السحيقة في القدم في الالف الثالث قبل الميلاد وحتى الاحتلال الانكليزي للعراق عام ١٩١٧ بعد الميلاد، أي في مدة زمنية تقرب من خمسة آلاف سنة، دارت فوق أرض العراق، دون توقف، طاحونة الحروب والغزوات والاحتلال والمذابح والهدم والتخريب وسفك الدماء.

ان مثل هذا التاريخ المشحون بالاحداث الدموية لايمكن الا ان ينعكس على البنية النفسية والسلوكية للانسان من خلال التراكم التدريجي للمؤثرات التي تولدها حالة القهر والظلم والخوف والاستعباد التي تعرض لها البشر في وادي الرافدين

٢ ـ الأطماع والنهب المتواصل لثروات العراق

لقد تعرضت بلاد وادي الرافدين إلى حجم كبير من الأطماع التي رافقت الغزوات العسكرية أو كانت سبباً لها، والتي استهدفت نهب ثرواتها الموصوفة منذ القدم بالثراء والخصب والخيرات، وقد سبب ذلك التدخل الخارجي ضغطاً نفسياً شديداً على سكان البلاد، حيث عرفت بلاد الرافدين بميزات فريدة في مقدمتها توافر المواد الضرورية الاستراتيجية للنمو والتطور الحضاري في المراحل المبكرة من الحضارة الإنسانية كالمياه والخصب والغلال وظهور الاختراعات المبكرة

الأولى في تاريخ البشرية والاكتشافات المبكرة الهامة لبعض المعادن والثروات الطبيعية والمعدنية والتي كانت كلها محط أنظار وأطماع الشعوب والأقوام والقبائل والأمم الأخرى المحيطة بوادي الرافدين أو حتى البعيدة عنه.

لقد دفع العراق وهو يتعرض للأطماع الخارجية وزحوف الجيوش الأجنبية والأقوام الغازية القادمة من كل صوب والطامعة بثرواته وخيراته ثمناً باهضاً من ثروته وأمنه واستقراره السياسي والاقتصادي، كما دفع خسائر هائلة من دماء أبنائه ورقابهم وأرواحهم واستقرارهم النفسي، وقد سحق تحت وطأة تلك الزحوف والأطماع مئات الآلاف بل الملايين من أبنائه على مدى قرون عديدة متواصلة، كما نهبت وخربت ودمرت، على نحو متعمد، ولمرات متكررة في التاريخ، جميع الكنوز النادرة والتحف الفريدة والثروات الحيوية والموجودات الثمينة التي كانت تحويها بل وتغص بها مدن العراق ومرافقه الدينية والاقتصادية والحضارية.

إن عملية الهدر الهائل في أموال العراق وثرواته وكنوزه، التي بدأت منذ مئات السنين، قد تمت وتتم على مرآى ومسمع العراقيين في الأجيال العديدة المتعاقبة التي لاحول لها تحت ظروف القهر والقوة الأجنبية الدخيلة والمذابح الجماعية المتواصلة، غير أن ذلك كله لم يكن ينفذ ويطبق دون أن يترك في نفوس تلك الأجيال من العراقيين جروحاً وبصمات من الحزن والألم والأسى والحسرة والقنوط والكبت المقرون بالانفعالات الشرسة والميل الخفي نحو الانتقام والثأر ومجموعة من الانفعالات النفسية العميقة الأثر... إن مثل هذه المشاعر الانفعالية الجماعية شبه المتواصلة وما ينعكس عنها من مظاهر سلوكية قد لا تطفو على سطح الأحداث آنياً، ولا تبدو ظاهرة للعيان سريعاً، وعلى نحو مباشر، غير أنها تترسّب دون شك في أعماق اللاوعي لدى الفرد العراقي لتنعكس بعد ذلك بصورة غير مباشرة في السلوك اليومي للإنسان في العراق، معبرة عن نفسها بأشكال مختلفة من التصرفات والسلوك العصبي الحاد الذي تتوارثه الأجيال العراقية المتعاقبة عبر عشرات بل ومئات السنين.

إن بلاداً تتعرض لكل هذا النهب والسحق الهمجي والأطماع الشرسة وتتواصل فيها أعمال التخريب اللامسؤول وسفك الدماء والكوارث بالشكل

والحجم الذي رأيناه في العراق لا يمكن أن تبقى فيها الحالة النفسية والسلوكية لأبنائه سليمة وصحية وبعيدة عن التخريب بأي حال من الأحوال.

٣ـ المناخ والطقس والطبيعة الجغرافية:

وهذه العوامل يمكن الإشارة إليها كأسباب مؤثرة ــ ولو ببطء تدريجي غير مباشر ـ في هذا البعد النفسي (السيكولوجي) في تكوين الشخصية العراقية، قياساً إلى ظروف حضارية أخرى كالحضارة المصرية التي نشأت في ظروف جغرافية وزمانية مماثلة، «إن سطح الأرض في العراق أقل تجانساً في تركيبه من سطح الأرض في مصر، والعراق أكثر تعرضاً وانفتاحاً للخارج مما هي الحال عليه في مصر، فإن وادي النيل يكاد أن يكون معزولاً من جميع جوانبه، أما العراق فبلاد مفتوحة للخارج من جميع جوانبه»[١]

كما أن جريان نهر دجلة والفرات في أراض شديدة الانحدار أدى لوجود تعرجات شديدة كثيرة مما أدى بدوره لحصول تغيرات جوهرية خطيرة وتبدلات دائمة في مجرى النهرين خلال جميع مراحل التاريخ، وهذا الأمر قد خلق نتائج مزعجة وتغيرات حادة وآثاراً واضحة وعميقة في تشكل المدن والحضارات في الوادي الخصيب المحيط بهذين النهرين.

لقد غيّر كل من نهري دجلة والفرات داخل العراق مجراه ومواقع سريانه مرات عديدة، وفي أماكن ومواضع كثيرة، مبتعداً في كثير من الأحيان عن عدد من المدن التي كانت تقبع هادئة مطمئنة مستقرة وتعيش حياة مزدهرة ومتطورة على إحدى ضفافه، فيتركها بعيدة يابسة في الأرض القاحلة الصحراوية لتضمر وتموت ويطويها النسيان بالتدريج. وإذا قدر لبعض تلك المدن البقاء على قيد الحياة بعد ابتعاد النهر عنها، فإن مجموع الأعمال والحرف والمهن والنشاطات الحياتية والاقتصادية المرتبطة والمتلازمة مع وجود النهر ومساره لابد لها أن تضمحل وتموت أو تتغير بصورة حتمية. وعند ذلك لابد لأعداد كبيرة من البشر الذين كانوا يتعاطون تلك الأعمال ويعملون بتلك الحرف والمهن والنشاطات أن يفقدوا

---

١ ـ د. فيليب حتي، خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى،ج١، مصدر سابق، ص٢٨.

أعمالهم ومصادر أرزاقهم ويُغيروا أسلوب عيشهم ويتحولوا إلى مهن ونشاطات أخرى، وهذا يعني انقلاباً كاملاً في أسلوب حياتهم وطريقة عيشهم ومهنتهم ومهاراتهم وتجاربهم العقلية في فترة زمنية قصيرة نسبياً.

ومن غير المعقول أن يُغفل تأثير ذلك الانقلاب الكبير في حياة أولئك السكان وانعكاسه على أوضاعهم النفسية والعاطفية وما يمكن أن ينتج عنه من ضيق وانزعاج ونفور وقلق وتشتت وتوتر في أمزجة الناس وهزات عنيفة في النفوس والعواطف والنزعات، وإذا ما عرفنا حجم التغييرات والتحولات التي حصلت في مجرى نهري دجلة والفرات، وعدد المدن التي تحول عنها هذان النهران، يصبح بإمكاننا تقدير أهمية هذا العامل ودوره التاريخي في التأثير على البنية النفسية والسلوكية للإنسان في العراق.

وبالإضافة إلى النتائج الخطيرة التي تركها تحول مجرى النهر وابتعاده عن بعض المدن الواقعة على ضفافه، فهناك عامل طبيعي آخر لا يقل أهمية وخطورة وهو اضطراب الدورات المناخية السنوية وعدم انتظامها ووقوع المفاجئات الغريبة والخطيرة والحادة التي لا يمكن التكهن بها أو حسابها والناتجة بالأساس من عدة عوامل من بينها عدم التجانس في طبيعة أرض العراق من الشمال إلى الجنوب من جهة والتباين الكبير بين طبيعة منابع دجلة والفرات، وبين طبيعة الأراضي داخل العراق من جهة اخرى، إضافة إلى الروافد التي تصب في نهر دجلة بصورة خاصة والتي تنبع من مواقع وعرة للغاية وغريبة عن طبيعة أرض العراق عموماً وما يمكن أن تضيفه من مفاجآت غير محسوبة

إن عدم انتظام ظاهرة الفيضان السنوية، سواء في مواعيدها أو شدتها أو حجمها في تلك الأزمان، وكذلك نضوب الماء وشحته صيفاً، يؤدي في أغلب الأحيان إلى وقوع أضرار جسيمة في إنتاج القوت والمحاصيل المعيشية إضافة إلى الكوارث الطبيعية والجائحات الرهيبة المهلكة.

إن هذا العامل ، بكل إضافاته وتوابعه، يعمل بمرور السنين ودون هوادة على رفع وتيرة الاضطراب والقلق والتوتر النفسي لدى الإنسان العراقي من سكان وادي الرافدين كما يطبع سلوكه بطابع الصرامة والجدية والتوتر والعنف والحدة والخوف من المستقبل.

وعلى ضوء ذلك يمكننا القول أن الانقلابات الاقتصادية والاجتماعية التي نفذها كل من نهري دجلة والفرات في الواقع العراقي قد سبقت بقرون عديدة الانقلابات السياسية والعسكرية التي واظب على تنفيذها بعد ذلك الملوك والأباطرة والساسة والعسكريون في هذه البلاد.. وكل ذلك لابد وأن يكون قد خلّف آثاره العميقة في الحياة النفسية لسكان وادي الرافدين.

٤ـ المنهج الدموي لدكتاتوريات العقيدة الواحدة:

لقد تميّز وادي الرافدين بشيوع منهج فلسفي يحمل بعض الخصوصية في المعتقدات الدينية، وقد تجسّد ذلك بوجود نماذج متعددة مختلفة متصارعة من الآلهة ذات الرغبات والإرادات المتناقضة والمتنافرة بحكم تمثيلها ـ وفق المعتقدات القديمة ـ للثنائية المتناقضة في الكون من جهة مثل الخير والشر ـ النور والظلام ـ الحب والكره ـ الجمال والقبح الخ) إضافة لتمثيلها للثنائية والتناقض القلق في الطبيعة وفي الظروف المناخية للعراق، تلك الآلهة المدعومة في أغلب الأحيان ـ وفق ما أفرزه وصاغه الفكر العراقي القديم نظرياً ـ بقوى جسدية وسماوية خارقة يمكنها تحقيق وفرض تلك الرغبات بقوة الإرغام القهرية.

((إن الرجل في المجتمع السومري البابلي كان يشعر أمام الآلهة المتقلبة الأهواء، أنه عاجز مستضعف، ولذا كان يميل إلى التشاؤم في نظرته الفلسفية إلى الحياة))[1]

إن ذلك المنهج الفلسفي للأديان والآلهة المتعددة الذي طبق قروناً عديدة في مجتمعات وادي الرافدين، إضافة إلى التطبيق القسري الدموي لدكتاتورية العقيدة الواحدة[2] في هذه البلاد على مدى أكثر من خمسة آلاف سنة، والذي اقتضى تطويع المجتمع العراقي بكل الوسائل القهرية العنيفة وإرغامه على الخضوع للمناهج الدكتاتورية في الحكم، لابد وأن يترك تأثيره السلبي على البنية النفسية والسلوكية للإنسان العراقي، وليس مستغرباً أن تمتد انعكاساتها السلبية حتى العصر الحاضر.

٥ ـ الخوف من المستقبل:

إن الاضطرابات والانقلابات السياسية والغزوات العسكرية المتواصلة التي اتسمت في الغالب بالعنف الفائق والقسوة والمنهج الدموي وما رافقها من مجازر

---

١ ـ المصدر السابق، ص٢٨.

٢ ـ هناك بحث مستقل حول هذا الموضوع بين فصول هذا الكتاب.

ومذابح وأحداث ومفاجئات غريبة ومدمرة قد جعلت المستقبل في نظر الفرد العراقي غامضاً ومخيفاً ومحاطاً بالظنون والهواجس، فهو يخشاه ولا يمكنه الاطمئنان إليه ولا التكهن بشأنه، لأن المستقبل ـ وفق ما أفرزته التجارب العملية المتكررة في الواقع العراقي ـ يمكن أن يخفي في ثناياه كل ما هو عجيب وغريب ومأساوي وغير معقول مما لا يمكن حسابه أو الإحاطة به. وهذا الإحساس بحد ذاته يشكل ضغطاً نفسياً ثقيلاً وتوترا عصبياً يساهم في بلورة حالة القلق والشك والخوف والتشاؤم والحذر والتصعيد الدائم لوتيرة الظن التشككي بالآخرين وكرههم وتدفع للنزوع نحو درء الخطر والشر الوهمي الداهم المفترض بمجموعة من التصرفات الشريرة ذات الطبيعة العدوانية المنطلقة من اللاوعي والتي تبدو للآخرين غريبة ولا مبرر لها ومقطوعة الصلة بظروفها المحيطة.

هذه كلها لابد وأن تساهم في تكوين الطباع والسجايا المتسمة بالقلق والتقلب والعنف والتسرع لدى الفرد العراقي.

٦ ـ انتشار الجهل والأمية

على الرغم من التقدم الذي أحرزه شعب وادي الرافدين في مضمار الحضارة خلال قرون سحيقة من تاريخ البشرية، إلا أن الانهيار المحزن الذي أصاب الحضارة العربية الإسلامية بسقوط بغداد عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م. على يد التتار وما تبع ذلك من قرون طويلة من الحروب والخراب والتخلف والمذابح والكوارث الطبيعية قد ترك في العراق تخلفاً كبيراً أدى إلى انتشار الجهل والأمية والتخلف الثقافي والعلمي والاقتصادي خصوصاً في الفترة المظلمة التي دامت عدة قرون متواصلة وامتدت حتى بدايات القرن العشرين، لذلك فإن انتشار الجهل والأمية والتردي العلمي والثقافي المترافق بانتشار وسيادة الأفكار المتخلفة والخرافات والمعتقدات البدائية قد شكل المناخ المناسب والطبيعي لظهور وتنامي الطباع البدائية والغريزية والعواطف السطحية الفجة لدى المواطن العراقي وهي تترافق أحياناً بالعادات والمشاعر والتقاليد البدائية والقَبلية المنقرضة من العنجهية الكاذبة وردات الفعل السطحية المباشرة في ممارسة العنف والتمرد والعصيان إضافة إلى عقدة الاضطهاد والقهر التي عانى منها الإنسان في العراق قروناً طويلة مما جعلها تنعكس في سلوكه وميوله وتصرفاته ومزاجه الشخصي.

٧ ـ التعويض والتعويض الزائد

إذا أردنا الالتجاء إلى علم النفس في التفتيش عن الدوافع القهرية التي تقف وراء بعض مظاهر السلوك للفرد العراقي وتوجه تصرفاته النابعة من اللاشعور في موضوع بحثنا هذا، فبإمكاننا السير في التحليل الذي يفترض أن القرون العديدة من القهر والعنف الدموي والخوف والبطش والموت الجماعي القسري المفروض على الإنسان العراقي بالقوة القاهرة قد جعلت من هذا الإنسان، بفعل التراكم المتواصل للقهر والرعب المحيط به، شخصاً خائفاً ومرعوباً في داخله، لكنه وبنتيجة وعيه لهذه الحقيقة السلبية المكبوتة في ذاته والمرفوضة في المجتمع فإنه يحاول التظاهر بغير ذلك والقيام بسلوك مناقض لهذه الصفات غير المستحبة لديه وذلك بممارسة سلوك العنف والتهور والنفور والعصيان والتمرد والنزوع لاستخدام القوة والتطبع بالسلوك المتسم بالعدوانية وذلك تعويضاً عن معاناته الداخلية المريرة وإرضاءاً لذاته وللمجتمع الذي حوله وهو ما يسمى في علم النفس مبدأ التعويض والتعويض الزائد حيث يعرِّف التعويض في علم النفس بأنه « إخفاء الصفة غير المستحبة تحت ستار صفة مستحبة والإفراط في تضخيمها »[1] ، أما التعويض الزائد فيعرَّف بأنه «رد الفعل الذي يتجاوز الحد اللازم يصدر عن الفرد بغية إفساح المجال أمام نزعة في نفسه لكي تتخذ وجهة معينة بمعرفة منه أو محاولة من جانب المرء للتعويض عن عيب أو نقص معروف لديه حيث تتقرر هذه المحاولة أحياناً بفعل اللاشعور أو الفعل الباطن.»

«ويسمي البعض حالات التعويض التلقائية التي يأتيها البعض كتصرفات انعكاسية نتيجة ما يستشعرونه من خوف لسبب أو لآخر بأنه تعويض ذاتي ومثاله أن يحس الشخص بنقص اجتماعي فيسلك السلوك المتناقض غير المنتظر ممن يشكو هذا النقص، كأن يبذّر الفقير ويتصرف كالأغنياء أو يظهر الجاهل بمظهر العالم ويتخذ له هيئة العلماء وسمتهم ويكثر من التردد على مجالسهم والتحدث عنهم ويصدر هذا السلوك بشكل تلقائي غير متعمد»[2]

---

١ ـ د.أسعد رزوق، موسوعة علم النفس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، مصدر سابق، بيروت، ص٨٠.

٢ ـ د. عبد المنعم الحفني، موسوعة الطب النفسي ـ المجلد الأول، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٣٨٣.

وهكذا يمكن أن يندرج تحت أعراض هذه الحالة التي يسميها الطب النفسي (التعويض الذاتي) عدد من التصرفات السلوكية التي يقوم بها الأشخاص الذين نصادفهم أو نعايشهم في حياتنا اليومية والتي تبدو أمامنا غريبة وغامضة وربما تافهة وسطحية في غاياتها وأهدافها، كأن يكثر بعض الأشخاص العاجزين جنسياً مثلاً من سرد الأحاديث والرويات والقصص الغرامية التي تدور كلها حول مغامراتهم النسائية المتواصلة، أو عندما يكثر الأشخاص المعروفون بخوفهم وحذرهم وعدم جرأتهم من التحدث عن روايات وأحداث وهمية مبالغ فيها تدور حول بطولات جريئة ونادرة قاموا بها وكانوا هم أبطالها وشخصياتها الشجاعة، أو تلك الروايات التي يتداولها الأشخاص البخلاء عن مآثرهم في الكرم البالغ والهبات الثمينة التي قدموها دون مقابل الخ.

واستناداً إلى هذا التحليل، وهذا الوصف الذي يحدده علم النفس، والطب النفسي لما يسمى (بالتعويض الذاتي) وما يمكن أن ينتج عنه من ظواهر سلوكية مختلفة أصبح بإمكاننا أن نجد تفسيراً منطقياً وواقعياً لعدد من الصفات والميزات المسلكية والأخلاقية الجيدة والحميدة وربما الرائعة التي تظهر في سلوك الفرد العراقي وتبرز في معالم وملامح الشخصية العراقية؛ كما أصبح بإمكاننا أن نضع أيدينا على التفسير العلمي الواقعي الكفيل بحل الإشكالية المعقدة والذي يواجهنا كثيراً في الحياة العملية، ويبدو واضحاً أمامنا في سلوك الكثيرين من أفراد المجتمع العراقي، فإلى جانب الصفات السلبية العامة والتاريخية التي تتميز بها الشخصية العراقية، كالعنف، والقسوة، والتقلب، والمزاج الحاد، والتسرع في رد الفعل المباشر على الأحداث دون تبصر أو رويّة، والمبالغة في العناد والكره واللجاجة في العداء حين يقع الخلاف والخصام مع الآخرين؛ إلى جانب ذلك كله نجد في ذات الشخصية ملامح متعددة لصفات وميزات مسلكية وأخلاقية جيدة وحميدة كالشهامة والنخوة والكرم الفائق الذي يصل حد التبذير، وكذلك السعي الدؤوب لدى الفرد العراقي لتقليد وممارسة أرقى أساليب الحياة العصرية المتطورة واستخدام أحدث المبتكرات مهما كانت غالية ومكلفة الثمن، إضافة الى التفرد في النبوغ والإبداع في المجال العلمي أو التخصصي، كذلك صفة الجرأة الفردية وركوب المخاطر دون تقدير لحساب الربح والخسارة والتي تبدو كصفة من صفات الشجاعة الشخصية، إضافة الى صفة التسامح والصفح والعفو السريع عند

الصلح وبلا حدود أو حساب ودون مقابل... الخ. إن مجموع تلك الصفات التي ربما تثير الدهشة والاستغراب الممزوج بالإعجاب والإحترام لدى الآخرين بهذه الشخصية الإشكالية ماهي إلا شكل من أشكال التعويض الذاتي التلقائي الذي لجأت إليه الشخصية العراقية في سلوكها كتصرفات انعكاسية لصفات أخرى سلبية، لكن تلك الصفات الانعكاسية قد أصبحت بمرور السنين والقرون وكأنها صفات ثابتة مستقلة قائمة بذاتها منقطعة الجذور عن أصولها السلبية ومنفصلة عن الحقائق الأصلية البديلة التي أفرزتها.

ولعل في هذا حلاً للسر المحيّر في وجود ظاهرة التناقض والتضاد الحاد في صفات الشخصية العراقية الذي يصل إلى حد التنافر أو الإستقطاب المتعاكس داخل الشخصية الواحدة في ذات الوقت.

٨ ـ صراع البداوة والحضارة

إن التبرير الذي يورده الدكتور علي الوردي في كتابه (دراسة في طبيعة المجتمع العراقي) وربط معاناة الشعب العراقي بوجود التناقض بين عوامل الحضارة وعوامل البداوة وما يمكن أن ينتج عنهما من ازدواج في تكوين الشخصية العراقية هو عامل آخر إضافي لا يمكن إغفاله في أية دراسة تتعلق بطبائع الشعب والفرد في العراق فهو (الدكتور الوردي) يجد أن الشعب العراقي واقع بين نظامين متناقضين من القيم الاجتماعية، قيم البداوة الآتية من الصحراء المجاورة وقيم الحضارة المنبعثة من تراثه الحضاري القديم[١]، لذلك فهو يصف الشعب العراقي ((بأنه شعب حائر قد انفتح أمامه طريقان متعاكسان ومضطر للسير فيهما في آن واحد))[٢]

٩ ـ العوامل البيولوجية والفسيولوجية

إن إدراج تأثير العوامل البيولوجية والفسيولوجية وانعكاساتها غير المباشرة على تحديد دوافع السلوك ،وبالتالي انعكاساتها على تحديد ملامح الشخصية ومميزاتها هو أمر يتطلب سلسلة طويلة ومعقدة من الدراسات العلمية المقارنة والاختبارات المعقدة، حيث أن اعتماد مثل هذه العوامل يفترض أن مياه العراق

١ـ د. علي الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، مطبعة العاني، بغداد، ص ١٢.

٢ ـ المصدر السابق.

ومنتجاته النباتية والحيوانية وبالتالي طقسه وهواؤه يمكن أن تحتوي في تركيبها الخليوي تشكيلة من العناصر والمعادن والمواد الكيماوية بنسب وكميات استثنائية أو شاذة تختلف عما هو موجود في بلدان العالم بحيث تؤثر وتنعكس في التركيب البنيوي لجسم الإنسان في العراق دون غيره وتعطيه خصوصية تميزه عن سواه وهذا بدوره ينعكس على معايير الدوافع السلوكية والتركيب النفسي وإلى إعطائه تلك الخصوصية في السلوك والتصرفات والملامح الشخصية التي نتحدث عنها ونسعى لدراستها. ولعل مثل هذا التفسير ربما يقود بشكل أو آخر للحديث عن نظرية الأجناس في علم الانثروبولوجيا التي نادى بها بعض المفكرين والفلاسفة في أواخر القرن الماضي والتي أدينت وأبطلت بعد أن عارضتها نظريات علم النفس الحديث.

إن من يريد اعتماد العامل البايلوجي والفسيولوجي بين أسباب تكوين الشخصية العراقية فعليه أن يثبت أن ماء العراق ولحومه وقمحه وخضرواته وفاكهته وغيرها من محاصيله المعاشية تتضمن عدداً استثنائياً من العناصر والمعادن والمواد الكيماوية بنسب تختلف عما هو موجود في منتجات بقية بلدان العالم الأخرى بحيث يخلق دخول واشتراك هذه النسب الاستثنائية في تركيب خلايا جسم الإنسان العراقي مجموعة من المحرضات البنيوية التي تجعل منه شخصاً يحمل عدداً من الدوافع والميول السلوكية الخاصة والاستثنائية التي تشكل بعد ذلك ملامح شخصيته الاجتماعية المتميزة كأن تجعل منه شخصاً ـ على سبيل المثال ـ حاد الطبع سريع الغضب يميل للقسوة والبطش وسفك الدماء الخ أو على العكس يمكن أن تجعل منه شخصاً مسالماً هادئ الطباع لا يميل للعدوان ولا يمارس القسوة أو الشر

إننا نعتقد أن البرهنة على مثل هذا الموضوع و إثباته بالدليل العلمي على نطاق المجتمع بأكمله هو أمر في غاية الصعوبة مهما كرس في سبيله من جهد ودراسات تفصيلية، لذلك فنحن لا نميل للاعتقاد بهذا العامل وحيوية دوره في تشكيل دوافع السلوك وملامح الشخصية العراقية المتميزة...

إن أهمية وخطورة ظاهرة العنف والتقلب في المزاج العراقي تكمن في انعكاساتها التطبيقية وتأثيراتها المباشرة على السلوك اليومي للشعب العراقي في الحاضر والمستقبل وما يمكن أن يتمخض عن ذلك من أفعال ونتائج ومفاجئات غريبة وربما كارثية على المستوى السياسي والعسكري والاجتماعي والاقتصادي،

لذلك فإن دراسة هذه الظواهر في سلوك الشعب العراقي وإخضاعها للبحث العلمي المنهجي المتخصص والإحاطة بها من جوانبها التاريخية والنفسية والمادية من الواجبات الوطنية والسياسية والاجتماعية الضرورية والملحة التي يمكن أن تلقى على كاهل العلماء والباحثين المتخصصين من العرب والعراقيين خصوصاً في المرحلة الحاضرة. إن مثل هذه الدراسة الضرورية تتطلب بحثاً موضوعياً موثقاً ومتخصصاً، ولعل الصفحات السابقة وما تضمنته من نقاط مختصرة يمكن أن تشكل، مع غيرها، بعض العناوين الضرورية في أية دراسة يمكن أن تخصص لبحث هذا الموضوع الشائك...

٢ ـ الظهور المتكرر لدكتاتورية العقيدة الواحدة في العراق

حدثت في التاريخ العراقي موجات متعاقبة من الإرهاب الفكري العقائدي، منذ العهود السومرية وإلى نهاية هذا القرن ـ القرن العشرين من الألف الثاني بعد الميلاد ـ وقد أخذت تلك الموجات من الإرهاب الفكري أشكالا وتسميات ومناهج مختلفة، كما نفذت بأساليب متباينة، وإذا استعرضنا تاريخ العنف الدموي في العراق بشكل عام، منذ تلك العصور وحتى اليوم، نستطيع بيسر وسهولة أن نكتشف ونتعرف على تلك الموجات من العنف الدموي المرتكز على الإرهاب العقائدي المنفذ في تاريخ العراق، ونميزها بوضوح تام.

إن استعراض التاريخ الدموي للإرهاب العقائدي يعطينا ـ بالإضافة إلى الموعظة التاريخية ـ فكرة واضحة عن الحجم الهائل من الخراب والدمار والخسائر البشرية والاجتماعية والسياسية والحضارية التي خلّفها ذلك النوع من الإرهاب الذي نفذ في المجتمع العراقي بقوة السلاح وقوة السلطة القهرية الغاشمة على مدى قرون عديدة من التاريخ، رغم الاختلاف والتباين في التسميات والعناوين والأهداف والغايات المعلنة في كل مرحلة من المراحل.

ولعل مثل تلك الخسارات والنتائج المؤلمة هو مايدعونا هنا للتوسع قليلاً في هذا الموضوع الحيوي الذي مازال ـ كما نعتقد ـ ينعكس ويتكرر ويلامس حياتنا المعاصرة على نحو مباشر، ويؤثر في وقائع الحياة السياسية الحاضرة في العراق، ويصاحب المعاناة اليومية التي يشكو منها المواطن العراقي المعاصر دون أن يعرف جذورها وامتداداتها التاريخية.

ولكي نكون أكثر تحديداً ووضوحاً لمعالم هذا الموضوع الشائك نقول: إن ما نريد بحثه، والخوض فيه، هو تاريخ الإرهاب الفكري المستند في التطبيق على دكتاتورية العقيدة الواحدة أو حكم الفئة الواحدة والرأي الواحد واستعراض النتائج

المستخلصة، والتطبيقية لهذا الشعار الفئوي المدمر في التاريخ العراقي منذ عصور فجر السلالات وحتى اليوم...

إن المنهج الإرهابي في إقامة نظام العقيدة الواحدة، وتطبيق دكتاتورية الفئة الواحدة أو الرأي الواحد على المجتمع بالقوة الغاشمة، وبالذات قوة العنف الدموي قد تكرر كثيراً في التاريخ العراقي، وقد اكتسب تسميات وعناوين وأشكالاً مختلفة خلال تلك الموجات الإرهابية المتعاقبة من التطبيق القهري الإلزامي لهذا الشعار.

ولعل المقصود بالموجة الإرهابية في حديثنا هنا ليس هو ما تقوم به الدولة أو السلطات الحكومية ورجالها من الشرطة والجيش والمؤسسات الرسمية في العصور المختلفة من أعمال يومية اعتيادية ذات طابع قسري أو إلزامي ضد رعاياها ومواطنيها لتثبيت سلطتها ونشر سيادتها وقوانينها النافذة رغم ما يتخلل هذا المفهوم أيضاً من مظالم يومية فردية كثيرة بل المقصود بالموجة الإرهابية هو تعميم الدولة أو السلطة أو الحاكم للنشاط الإرهابي الدموي على نحو رسمي لإجبار الناس والرعية دون استثناء على الاقتناع والموافقة والتسليم بعقيدة واحدة أو رأي ومفهوم واحد في المجتمع بحيث يصبح ذلك النشاط هو الصفة الغالبة على حركة المجتمع عموماً في فترة من فترات التاريخ.

كما ولابد من التوضيح بأن استعراضنا لدكتاتوريات العقيدة الواحدة بأحداثها ومآسيها الدموية، لا يشمل ولا يتضمن تاريخ الدكتاتوريات الظالمة الأخرى المتعاقبة، التي قامت على التسلط الفردي والعسكري الخالي من البعد العقائدي في العراق.

وقد يبدو مستغرباً أن يكون تطبيق دكتاتورية العقيدة الواحدة قد بدأ في مراحل سحيقة في القدم في التاريخ العراقي. إلا أننا نعزو ظهور هذا النوع من الدكتاتوريات (دكتاتورية العقيدة الواحدة) وتكرر تطبيقه في وادي الرافدين إلى شيوع منهج العنف الدموي بصورة مبالغ فيها وبوتيرة متواصلة في مسيرة الحياة العراقية منذ عصور فجر السلالات.

ففي العصور التي كان فيها الحاكم يدّعي الألوهية ويتصرف على اعتباره هو الإله، أو تلك العصور التي كانت تسود فيها النظرية القائلة بأن الحاكم هو ظل الله على الأرض، وأنه الوسيط الذي ينفذ حكم الإله وإرادته ورغباته وأوامره في كافة

الأعمال التي يقوم بها أو يطلبها من الشعب،.. في تلك العصور كانت العقيدة الواحدة للحاكم وآرائه وأحكامه وأفكاره هي المنهج المفروض والمطبق بالقوة والدكتاتورية على سكان البلاد. وإن هذه الدكتاتورية قد اكتسبت قدسيتها وقوتها التنفيذية من خلال تمثيلها للآلهة ورغباتها، التي يتوجب على البشر الإيمان بها وطاعتها وتنفيذ أوامرها، لذلك فإن نجاح الحاكم في الحصول على طاعة الرعية وإجبارهم على الالتزام بأوامره تأتي بطريقة احتيالية يقوم بها الحاكم ذاته، من خلال خلطه المتعمد بين رغباته ورغبات الآلهة وآرائها، باعتباره يحكم نيابة عنها.

لذا فدكتاتورية العقيدة الواحدة كانت في العصور السومرية والأكادية والبابلية والآشورية تأخذ قوتها التنفيذية من خلال ذلك اللبوس الإلهي الذي كانت تحتمي وراءه باسم الآلهة، أما القوة المادية التي تطبّق وتنفذ رأي الآله وخططها ورغباتها في الواقع العملي وتجبر المدن والشعوب والبلدان والآلاف من البشر للخضوع لها والتسليم بها وإطاعتها فهي الجيوش المنظمة والقوة العسكرية المادية الملموسة والمستعدة أكثر من غيرها لتنفيذ أهدافها وخططها وإرادتها بقوة السلاح والتدمير والعنف الدموي والتي يقوم الحاكم أساساً بأعدادها وتجهيزها لخدمة أهدافه وإرادته..

وهذا ما حصل كثيراً في صراع المدن العراقية مع بعضها البعض، والحروب المتواصلة بينها، حيث كانت تلك الحروب المدمرة التي تنشر الخراب والضحايا والموت في المدن إنما تجري باسم الآلهة وتمثل غضبها ورغباتها وإرادتها والتي هي في حقيقة الأمر إرادة الحكام ورغباتهم. وهكذا حوَّل الإنسان جميع الحروب والمعارك الدموية التي خطط لها وقادها ومارسها إلى معارك كأنها تجري بين الآلهة وبذلك أوجد التبرير الأخلاقي والنفسي والعقائدي لممارسة دكتاتورية العقيدة الواحدة التي هي عقيدة الحاكم وقناعاته الشخصية التي يسعى لإجبار الناس على التسليم بها والخضوع لها وتعميمها على الدولة والشعب والمجتمع بأكمله.

إن الجيوش المسلحة والمجهزة بالقوة التدميرية الواسعة والمزودة بوسائل التخريب والإبادة التي اجتاحت المدن والبلدان وقتلت أهلها وشردت سكانها وهجرت الأعداد الهائلة من البشر في كل الاتجاهات كانت تمثل الأذرع الهمجية للإمبراطوريات التي نشأت في وادي الرافدين وحاولت في كثير من الأحيان أن

تعطي تلك الأفعال والممارسات الدكتاتورية تفسيراً عقائدياً وأن تبرر ذلك على أنه تنفيذ لإرادة الآلهة ورغباتها وإذا ماعرفنا أن اليهود الذين عاصروا الإمبراطورية الآشورية والبابلية كانوا يحملون ديانة خاصة ذات عقيدة تختلف عن العقائد والديانات التي كانت سائدة في عهود تلك الإمبراطوريات ذات الجيوش القوية في وادي الرافدين، أدركنا أن الاضطهاد الذي تعرض له اليهود والتهجير القسري الجماعي الذي لحق بالآلاف منهم بعد نقلهم إلى وادي الرافدين واستخدامهم هناك في أعمال السخرة ومنعهم من ممارسة شعائرهم الدينية في حوالي الألف السادس قبل الميلاد، هي أحد الأشكال التطبيقية لدكتاتورية العقيدة الواحدة وأنظمتها التي قامت في العراق، إضافة إلى الأسباب السياسية والاقتصادية والعسكرية المباشرة التي تحاول أن تسوقها وتعددها لنا الكتب والمصادر التاريخية التي تدوّن تاريخ الحروب والزحوف العسكرية المتتالية التي شنتها الإمبراطوريات المتعاقبة في هذه البلاد ضد الأمم والدول والمدن في المنطقة والتي انتهت بسقوط بابل واحتلالها على يد الفرس عام ٥٣٩ قبل الميلاد.

يقول المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي «إن التسامح الديني والسياسي الذي اتبعه الأباطرة الفرس حمل شعوب سوريا على تقبل الحكم الفارسي، وهم الذين قاوموا بعنف محتليهم الآشوريين أولاً ثم المحتلين البابليين. لقد كان الفرس في أعين الفينيقيين والسامريين واليهود محررين»[١]

أما بعد الفتح الإسلامي للعراق ودخول هذه البلاد تحت راية الإسلام فإن تطبيق دكتاتورية العقيدة الواحدة في المجتمع قد أخذ شكلاً فئوياً مختلفاً ضمن إطار الدين الواحد الشامل الذي ساد المجتمع بأكمله.. حيث أن الإسلام وانطلاقاً من تعاليمه وشريعته الأساسية لم يعتمد أو يقر أو يشجع المنهج الدكتاتوري لفرض العقيدة الواحدة، لأنه لم يعتمد مبدأ الإرغام والفرض والقهر أو الإكراه في نشر سلطته وقبول تعاليمه الدينية وشريعته، وربما كانت الآية القرآنية العظيمة ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ من أبرز وأوضح النصوص التي تؤكد هذه المعاني، فقد ترك الدخول في الدين مرتبطاً بالاقتناع الذاتي والإيمان الطوعي الفردي.. وأكثر من ذلك فقد سمح لمن أراد أو رغب بعدم الدخول في الإسلام

---

١ ـ ارنولد توينبي، تاريخ البشرية، ج١، ترجمة د. نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ص١٨٨.

وعدم الالتزام به وبشريعته البقاء على دينه ومعتقداته وآرائه، مع تنفيذ بعض الالتزامات التي تفرضها مسؤولية الحماية والأمان والعيش المشترك في ظل النظام الجديد للدولة الإسلامية حتى بعد الفتح وخضوع البلاد للدين الجديد وهو الإسلام.

لذلك فإن الصيغة التطبيقية لدكتاتورية العقيدة الواحدة في ظل الحكم الإسلامي قد أخذت طابعاً - فئوياً انشقاقياً - خصوصاً في الفترة الأموية التي أعقبت حكم الخلفاء الراشدين.

ففي العصر الأموي، كانت موجة الإرهاب والتنكيل والمطاردة والتصفيات الدموية التي مارسها الأمويون في العراق على نطاق واسع ضد العلويين، وهم أتباع الإمام علي بن أبي طالب وشيعته وأولاده من بعده، قد أخذت طابعاً فئوياً.. إذ أن الأمويين هم مسلمون لكنهم فئة من المسلمين كانت تضطهد العلويين الذين هم فئة من المسلمين أيضاً لكن الدولة الأموية كانت تسعى لإرغامهم على الاقتناع بواسطة القوة والإكراه والقهر للانصياع لرأي الأمويين واجتهادهم في مسائل الحكم والخلافة وإلا فيتم سحقهم وإبادتهم. وقد شكل نشاطهم وسعيهم في اضطهاد العلويين موجة من العنف الأموي الدموي دامت حوالي قرن من الزمان تقريباً تعرض خلالها الآلاف من الناس في العراق للقتل والمطاردة والإبادة والخوف والرعب والتنكيل والإذلال والقسوة المتناهية، بما فيهم القراء والصحابة والأتقياء بسبب رأيهم أو قناعتهم أو ميلهم لتأييد الخليفة علي بن أبي طالب [الخليفة الرابع وابن عم الرسول محمد (ص)] أو أحد أبنائه من بعده، فكان هذا الرأي أو الميل أو القناعة هي التهمة القاتلة والمدمرة التي أوجبت العقاب والحرمان والتنكيل والإبعاد عن المناصب في الدولة الأموية حيث لم يعاقب أولئك بتهمة الخروج على الإسلام أو محاربته أو التمرد عليه بل بسبب موقف فئوي فرضته ظروف الانشقاق في الصف الإسلامي ذاته.

ثم حدثت الموجة الثانية من دكتاتورية العقيدة الواحدة ذات البعد الفئوي عندما نجح العباسيون في إسقاط الدولة الأموية وشنوا موجتهم الدموية الفئوية التصفوية الواسعة - وبالطبع فالعباسيون مسلمون لكنهم فئة من الإسلام وليسوا كل الإسلام - وقد استهدفت تلك الموجة الدموية إبادة الأمويين وهم فئة مسلمة

أيضاً وإبادة جميع من كان يدين برأيهم أو الولاء لهم أو كان قريباً منهم أو له صلة بهم.. فحدث إرهاب وتصفيات مرعبة في هذا الإطار وسقط الآلاف من القتلى بينهم المذنب والبريء واستحال على أكثر الذين شملتهم تلك الموجة الإرهابية الدموية العقائدية إيجاد الملجأ الآمن أو نيل الأمان والسلامة، فقتل أكثرهم، لأن القتل في ظل دكتاتورية العقيدة الواحدة هو قتل على الهوية، وليس عقوبة قضائية عن جرم جنائي محدد، لذلك فلا سبيل فيها لإثبات البراءة أو الخلاص أو النجاة.. وكانت التهمة القاتلة آنذاك هي - الأموية والولاء للأمويين - أما مَنْ سَلِمَ من القتل منهم بعد موجة الانتقام العباسية فقد عاش حياة ذليلة مهينة وهامشية..

وفي بداية العصر العباسي الأول - وضمن إطار الحكم العباسي ذاته - حدثت الموجة الإرهابية التصفوية الفئوية الأخرى التي قادها الخليفة المهدي وبعض الخلفاء العباسيين من بعده والتي نفذت تحت شعار - محاربة الزندقة والزنادقة - التي كانت تعني في أكثر الأحيان الإيمان بالأفكار المجوسية.

وكان الذين مارسوا تلك الموجة الإرهابية الفئوية هم عباسيون، ولكنهم فئة من العباسيين، وقد نتج عن تلك الموجة انتشار الإرهاب والرعب والخوف وسقط المئات من الضحايا والأبرياء في المجتمع وكثرت الإعدامات المتسرعة المعتمدة على الدسائس والتهم الظنية والوشايات وجرى قطع الرؤوس على الشك، وكانت التهمة القاتلة في تلك المرحلة هي (الزندقة) حقاً أو باطلاً حيث كان القتل والإعدام يتم على الشبهة..

ومن الأمثلة على التسرع في إنزال العقوبات الدموية على الظن في تلك الموجة الإرهابية العقائدية تنفيذ الإعدام بالشاعر المعروف بشار بن برد بتهمة الزندقة حيث أعدمه الخليفة المهدي، ثم بكى عليه، بعد أن تبين له بعد ذلك بطلان التهمة وعدم صحتها. ثم حدثت موجة إرهابية فئوية أخرى في العصر العباسي في العراق قام بها ونفذها بعض الخلفاء العباسيين إثر تكشف الخلاف بين العباسيين والعلويين من بني هاشم، وقد سقط نتيجة ذلك عدد غير قليل من العلويين والموالين لهم ممن تعرضوا بسبب تلك الحملة الإرهابية الفئوية إلى الاغتيالات الظالمة والتصفيات الجسدية والغدر والدسائس، وجاهد بعضهم لإثبات براءته دون جدوى، فسحقتهم

عجلات تلك الموجة الدموية وكانت التهمة المدمرة في تلك المرحلة هي الولاء لبني هاشم أما النجاة والسلامة فكانت لا تستحصل للإنسان إلا إذا استظل بشعار العقيدة الواحدة السائدة المعادية لبني هاشم.

ومن الأمثلة الصارخة في الإصرار على تنفيذ تلك الموجة من الإرهاب العقائدي إقدام الخليفة المتوكل على إعدام الأديب والعالم اللغوي يعقوب ابن السكيت، وكان مدرساً لأولاده يعلمهم اللغة والبلاغة، وذلك بقطع لسانه من الحنجرة بعد أن تبين له موالاته لبني هاشم ورفضه شتم الخليفة علي بن أبي طالب. ثم حدثت الموجة الإرهابية العقائدية الأخرى في العراق في عهد المأمون والتي ارتكزت على طرح شعار خلق القرآن، وكان وراء هذه الموجة من دكتاتورية العقيدة الواحدة فرقة المعتزلة - وهم مسلمون لكنهم فئة في الإسلام - وقد نفذ تلك الموجه الدموية علناً بعض الخلفاء العباسيين الذين آمنوا بآراء تلك الفرقة الإسلامية ونفذوا خططها مثل المأمون والمعتصم والواثق. وكان من نتائجها انتشار الرعب بين الناس وسقوط الضحايا من المسلمين الذين رفضوا القول بفكرة خلق القرآن خصوصاً القرّاء والمفكرين والمثقفين من أتباع الفرق الإسلامية الأخرى، التي تعتقد أن القرآن ليس مخلوقاً بل هو كلام الله. وكانت التهمة القاتلة في أيام تنفيذ دكتاتورية تلك العقيدة هي - عدم الإيمان بخلق القرآن - وقد سادت تلك الدكتاتورية فترة طويلة نسبياً بسبب توالي عدد من الخلفاء المؤمنين بهذا الرأي.

ومن أمثلة تنفيذ دكتاتورية شعار خلق القرآن بحق المسلمين ماجرى لأحمد بن نصر الخزاعي وكان راوية من رواة الحديث النبوي فقد أحضره الخليفة الواثق من بغداد إلى سامراء مقيداً بالأغلال وسأله: هل القرآن مخلوق؟

فأجاب: ليس بمخلوق.

فقال الواثق: تكذب.

فقال نصر الخزاعي: بل أنت تكذب.

فأمر الواثق بإحضار النطع (وهي آلة لتنفيذ الإعدام) فأجلسه عليه وهو مقيّد: فضرب عنقه وأمر بإرسال رأسه إلى بغداد ليعلّق ويصلب هناك، أما جثته فصلبت

في مدينة سامراء. وهناك العشرات من الأمثلة المأساوية المماثلة التي تعج بها كتب التراث والتاريخ. لقد كان على هذا المسلم الراوية للحديث النبوي وهو يعيش في دولة الإسلام لكي يحفظ حياته وينقذ رقبته ويسلم من الموت أن يلغي قناعته ورأيه الخاص ويجيب بأن القرآن مخلوق وهو الرأي الذي يريده الحاكم وأتباعه، وإلا فالموت بانتظاره وهذا ما حصل، فقد قطع رأسه رغم تديّنه وتقواه وروايته للأحاديث النبوية لرسول المسلمين.

لقد كان واحداً من العديد من الضحايا الذين سقطوا تحت عجلات دكتاتورية العقيدة الواحدة في تلك الموجة. كذلك كان الإمام أحمد بن حنبل - مؤسس المذهب الحنبلي - من بين الذين سجنوا وعذبوا وضربوا وأهينوا بسبب رفضه القول بخلق القرآن أو الموافقة على هذا الشعار الذي فرضته الدولة رسمياً. ومن الأمثلة الصارخة لهذه الموجة الدموية ما قام به الخليفة الواثق أيضاً في فرض تلك النظرية على الناس وإجبار الرعية على الإيمان بها فبعد أن تم الاتفاق بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية على تبادل الأسرى بينهما، أرسل الواثق بعض الأشخاص من قبله إلى المكان المتفق عليه لتبادل الأسرى على حدود الروم، وأمرهم أن يمتحنوا الأسرى المسلمين « فمن قال أن القرآن مخلوق فودي به ومن أبى ذلك ترك في أيدي الروم»[1] ، أي من أجاب منهم بأن القرآن مخلوق تم استبداله ومن رفض هذه الفكرة ترك أسيراً عند الروم.

إن هذا التصرف الذي قام به الخليفة الواثق - حاكم العراق - هو شكل من أشكال المبالغة الصارخة في تنفيذ وتطبيق دكتاتورية العقيدة الواحدة فليس للمسلم أو المجاهد الأسير في أرض الروم أي حق أو اعتبار أو أهمية لدى الخليفة الواثق، إذا كان لايؤمن ولا يردد الشعار العقائدي والسياسي للدولة وهو (الايمان بخلق القرآن) فالخليفة لايفكر حتى بمبادلته أو فك أسره من أيدي الروم، إذا كان لايدين بوجهة نظر الحكومة والحاكم، ولا يوافق على المقولة الرسمية المعممة داخل الدولة في مسألة فرعية اجتهادية ثانوية من مسائل النقاش الجدلي الفكري والفقهي ضمن عقيدة الإسلام. لقد وصل التشبث بتطبيق وتنفيذ دكتاتورية العقيدة الواحدة

---

١ - تاريخ الطبري، ج٩، دار التراث، بيروت، ص١٤٢.

والرأي الواحد إلى هذا المستوى اللامعقول من السلوك السياسي القهري الشائن المنفذ بقوة الدولة والمتعارض حتى مع ما يفرضه الإسلام من حقوق للإنسان المسلم. أما الخليفة المعتصم، فقد قتل في سبيل تنفيذ هذا الشعار خلقاً من العلماء[1]

ولعل بإمكاننا القول، أن تلك العقوبات الدموية الصارمة التي نفذت بقسوة واندفاع وشمولية ورافقت الشعارات السياسية ذات الصبغة العقائدية التي نادت بها الحكومات الإسلامية منذ العصر الأموي لم تكن غير انعكاس لحرب عقائدية خفية كانت تجري بين الفرق الإسلامية الفكرية المتصارعة سراً، فالحرب ضد العلويين ومطاردتهم في العصر الأموي ثم الحرب ضد الأمويين وإبادتهم على يد العباسيين ثم حرب العباسيين ضد الهاشميين (وهم من آل الرسول محمد)، ثم الحملة الدموية ضد ما سمي بالزنادقة، ثم الحملة الدموية لتطبيق شعار خلق القرآن في العصر العباسي الوسيط، ثم الثورات العديدة التي كانت أكثرها تحمل أبعاداً وشعارات فكرية عقائدية كثورة الزنج وثورة القرامطة هذه وغيرها ربما لم تكن سوى الوجه الظاهر للحرب العقائدية التي كانت تشنها الفرق الإسلامية ضد بعضها البعض في الخفاء كالخوارج والشيعة والمعتزلة والمرجئه والزيدية والقدرية والجبرية وغيرها بعد أن نقل اتباع ومريدو تلك الفرق الإسلامية الصراع الفكري والعقائدي بينهم من منابر النقاش والجدل وحلقات البحث والمناظرة والإقناع والتبشير السلمي الحر إلى التآمر السياسي والمكائد الدموية الانقلابية فاستطاعوا تحت عناوين مختلفة وحجج فلسفية ودينية سوق خصومهم تباعاً إلى ساحات الإعدام ومطاردتهم بحملات دموية منظمة بقوة الدولة والتنكيل بهم بتهم وفتاوى كانوا يقنعون بها الخلفاء والقادة والقضاة ضد بعضهم البعض حيثما سنحت الفرصة، وبذلك وضعوا الأساس التنفيذي لتطبيق دكتاتورية العقيدة الواحدة والإرهاب المرتكز على طاعة الرأي الواحد. فسقط في تلك الحملات الإرهابية التي نفذت على شكل موجات دموية حماسية متتابعة على مدى أكثر من ستة قرون متواصلة عدد كبير من القادة والسياسيين والمفكرين والقضاة ورواة الحديث والأدباء والشعراء والفلاسفة.

---

١ ـ المصدر السابق، ص٣٣٥.

بعد ذلك وفي مرحلة متأخرة من التاريخ العراقي حدثت موجات متعاقبة من الإرهاب الفكري التي أخذت طابع المجازر الجماعية ونعني بذلك الصراعات الدموية ذات البعد الطائفي متمثلة في المجازر المتبادلة بين السنة والشيعة - وهما فئتان مسلمتان - وكان ظهور ذلك النوع من الإرهاب قد جاء بعد سقوط بغداد تحديداً في عام ١٢٥٨م وانهيار الدولة العباسية كسلطة مركزية وتحول العراق إلى ساحة للصراع بين الإمبراطوريتين الإيرانية والعثمانية.

فتارة كان يتم إبادة السنة في بغداد في عمليات قتل جماعي بسبب الهوية المذهبية، فينتشر الرعب والخوف والإرهاب ويسقط عشرات الآلاف من الناس الأبرياء، وتكون التهمة التي تقود إلى الموت هي الانتماء إلى المذهب السني. وتارة يتم إبادة الشيعة والتنكيل بهم بعمليات إرهاب وقتل جماعي ومجازر دموية مماثلة وفي كل مرة لا يجد أتباع الطائفة المعرضة للسحق والقتل أية طريقة للنجاة لأن الدولة الفئوية - السنية تارة والشيعية تارة أخرى - هي التي كانت تقوم رسمياً بممارسة الارهاب الجماعي وإدارة المجازر الدموية وتنفيذ موجات الإرهاب ضد المواطنين... وقد نفذت تلك المجازر الطائفية بالتبادل والتناوب والتعاقب في العراق أكثر من أربعة قرون من الزمان سقط بسببها مئات الألوف من الضحايا البشرية من أهل العراق...

وفي القرن التاسع عشر وبالذات عام ١٨٣١م حدثت الموجة الدموية الإرهابية المعروفة في العراق لإبادة المماليك بعد أن قررت الدولة العثمانية إبادتهم في جميع الولايات حيث جرت المذبحة التي دبرت وأديرت ضدهم خلال حضورهم الاجتماع العام الكبير الذي دعاهم إليه الوالي التركي في مبنى السراي ببغداد، فتم قتلهم جميعاً وبصورة مفاجئة في ذلك الاجتماع على يد الجنود الألبان الذين وزعهم الوالي على أسطح وشرفات وأروقة مبنى السراي. وقد استطاع الجنود قتل جميع المماليك في ذلك الاجتماع الكبير بسرعة خاطفة لم تسمح لهم حتى بسحب سيوفهم للدفاع عن أنفسهم. ثم صدرت الأوامر والتعليمات الرسمية بعد ذلك بقتل وإبادة المماليك حيثما وجدوا في عموم العراق[1]، فقتل من وقع منهم بأيدي الجنود والعامة في المدن والشوارع، ولم تكن هناك فرصة لأحدهم بالنجاة لأن القتل كان

---

١ - د. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج١ ، مصدر سابق، ص٢٨١.

يتم على الهوية وليس بسبب جرم جنائي محدد. فلقد قررت الدولة إبادة هذا النوع من البشر ونعني بهم - المماليك- تنفيذا لرأي أو اجتهاد أو اعتقاد أقره وآمن به الحاكم في ذلك الوقت، وبذلك فلا نجاة لمملوك في العراق من هذا القدر النازل بالمماليك المفروض بدكتاتورية الرأي الواحد أو الاجتهاد والعقيدة الواحدة.

أما في العصر الحديث وبالتحديد منذ بداية القرن العشرين وحتى اليوم فقد شهد العراق موجتين كبيرتين من موجات العنف والإرهاب الفئوي الجماعي يمكن تصنيفهما ضمن موجات العنف الهادفة لإقامة دكتاتورية العقيدة الواحدة وذلك بغض النظر عن حيثيات ومبررات الدعاوى التي طرحتها كل موجة لتفسير موقفها الدكتاتوري وتبرير سلوكها الدموي حيث ارتكزت كل منهما على مبدأ فرض الرأي الواحد وإقامة شعار العقيدة الواحدة مستخدمة في تنفيذ ذلك سلطة الدولة وقوتها المادية القاهرة.

الموجة الأولى:

وظهرت في أواخر الخمسينات من القرن العشرين بين أعوام ١٩٥٨-١٩٦٣ بعد سقوط النظام الملكي وتصفية أتباعه بفترة قصيرة وهي مايسميها البعض (المد الشيوعي) وكان وراء هذه الموجة فئة من اليساريين حيث تعرض للإرهاب والسجن والمطاردة والتعذيب والضرب والإهانة الآلاف من الناس في عموم محافظات العراق وكانت التهمة الظنية المدمرة والقاتلة هي تهمة الرجعية والقومية والناصرية والعفلقية (نسبة للمفكر البعثي ميشيل عفلق) والإقطاعية والعداء للثورة والزعيم.. وهي مجموعة من الألفاظ المختلفة لكنها كانت تعني بمجموعها في ذلك الحين تهمة واحدة كانت تلصق بكل الذين خالفوا أو عادوا النظرية الشيوعية آنذاك أو ناهضوا تيارها وآراءها وتنظيمها.

إن المواطن العراقي الذي كان يسوقه حظه العاثر في تلك الأيام للوقوع صدفة بيد الجماهير الغاضبة المشحونة بالشعارات العدائية الهجومية التي كانت تجوب الشوارع في العراق على الدوام تقريباً وهي تردد الشعار الدموي (إعدم إعدم جيش وشعب يحميك من كل خائن..) وهو شعار موجه لرئيس النظام، الزعيم عبد الكريم قاسم، فإن هذا المواطن كان يتعرض للقتل الفوري ثم السحل على الأرض وتقطيع الأوصال إذا اشتبه به أحد المتظاهرين خلال المظاهرة، التي

تفتش بين الناس عن المتآمرين الوهميين والرجعيين وأيتام الاستعمار وأعداء الشعب وأعداء الزعيم والانتهازيين والمترددين والعفلقيين والذيليين والقوميين والناصريين وأيتام العهد الملكي.. إلى آخره من سلسلة الألفاظ والتهم القاتلة التي كانت سائدة خلال تلك الموجة الدموية.

وهكذا فقد سادت موجة من الخوف والرعب الشامل عموم البلاد وكان على الأفراد الذين يختلفون مع الشيوعيين أو يناهضون العقيدة الشيوعية ممن كانوا يخشون على حياتهم ويريدون النجاة بأنفسهم أن يقوموا بعدد من التصرفات كإرسال برقيات التأييد ذات المضمون اليساري لرئيس الدولة وللنقابات والمنظمات والمؤتمرات ذات النشاط شبه الدائم في البلاد لتذاع في راديو بغداد الذي كان يواظب طيلة السنة على قراءة مثل تلك البرقيات، ثم نشرها في الصحف المحلية.. كذلك لجوءهم إلى حمل جريدة الحزب الشيوعي اليومية المسماة (اتحاد الشعب) في ذلك الوقت للتظاهر بتأييد الشيوعية، العقيدة الواحدة المسموح بها مع إبقاء اسم الجريدة بارزاً مقروءاً عند حملها باليد أو في أحد الجيوب الظاهرة في الثياب، إضافة إلى المشاركة في المظاهرات والمسيرات المتواصلة التي كانت تجوب الشوارع لتشتم أعداء الشعب والمتآمرين وتهددهم بالموت والإعدام والسحل بالحبال وتهتف للزعيم الأوحد الذي هو عبد الكريم قاسم وهو ضابط غير شيوعي وللمحكمة العسكرية العليا وتطالبها بالمزيد من أحكام الإعدام والموت وعلى العموم فقد كان أمام المواطن العراقي كي يدفع الأذى عن نفسه أن يجد الأسلوب المناسب لإعلان ولائه للعقيدة السائدة.

وعلى الرغم من أن الشيوعيين العراقيين لم يستفيدوا كثيراً من تلك الموجة الجماهيرية الموالية التي أظهرها الشارع العراقي نحوهم ولم يحققوا لصالحهم مكاسب سياسية فعلية ذات أهمية جدية تذكر غير المظاهرات والهتافات الحماسية التي كان يرددها المتظاهرون في المدن العراقية على نطاق واسع، إلا أنهم بالمقابل قد تحملوا على نحو بالغ الخطورة وزر تلك المرحلة بأخطائها ونواقصها المرعبة فدفعوا ثمناً دموياً باهظاً جداً نتيجة لذلك.

وكما في كل القرون والعصور التي ارتفع فيها شعار دكتاتورية العقيدة الواحدة والرأي الواحد في العراق فقد اندفع مع تلك الموجة، بالإضافة إلى

صحابها المبدئيين، مئات الآلاف من المتملقين والانتهازيين والخائفين والكذابين والمنتفعين الذين سرعان ما انقلبوا شر منقلب وبالغوا في إظهار العداء والحقد والكراهية والإساءة للشيوعيين عندما مالت الريح عكس اتجاهها الأول...

الموجة الثانية:

وهي موجة ثأرية دموية فئوية ذات طابع قومي جاءت في أعقاب الموجة الأولى وكنتيجة من نتائجها أو للرد عليها، وبدأ تنفيذها بإسقاط نظام الزعيم عبد الكريم قاسم وإعدامه هو وأنصاره بمجزرة بالغة القسوة والشراسة انتهت بانتصار القوميين، وقد استهدفت تلك الموجة في بادئ الأمر سحق تيار الحركة الشيوعية وتنظيمها فنفذت خلال ذلك عمليات واسعة من التصفيات الدموية الرهيبة من القتل والإعدام ضد أعضاء وأتباع ومناصري الحركة الشيوعية في العراق وسقط بسببها المئات من الأبرياء وسادت موجة شديدة من الإرهاب الفئوي وكانت التهمة القاتلة المدمرة هي الانتماء للشيوعية أو الولاء لها وتأييدها.

وخلال الصراع الدموي الرهيب الذي جرى في عملية إسقاط نظام عبد الكريم قاسم ونتيجة للمقاومة المسلحة التي أبداها رسمياً الشيوعيون وأنصارهم للدفاع عن النظام ورئيسه، الذي لم يكن شيوعياً، فقد صدر البيان الدموي المرعب المشهور الذي يحمل الرقم ١٣ وأذيع من الإذاعة الرسمية للدولة في شباط عام ١٩٦٣ والذي طلب من الشعب والجيش (إبادة الشيوعيين العملاء) كما سماهم البيان في ذلك الوقت، ولعل صدور هذا البيان بحد ذاته يشكل واحدا من أخطر الأحداث فظاعة في السلوك الدموي لدكتاتوريات العقيدة الواحدة في التاريخ العراقي.

لقد وجدنا خلال إعدادنا للبحوث المتعلقة بهذا الكتاب (تاريخ العنف الدموي في العراق) أن بياناً مشابهاً لهذا البيان قد صدر في العراق عام ١٨٣١م في العهد العثماني كما أسلفنا بعد المجزرة الدموية التي أبيد فيها المماليك في العراق، حيث صدر الأمر بإبادة جميع المماليك حيث ما وجدوا في ذلك الوقت..

إن أخطر مافي هذا النوع من البيانات أنها تمنح الإجازة القانونية للقتل على الهوية في عموم المجتمع.

لقد مضى وقت طويل خلال الخمسينات والستينات من هذا القرن كان فيه العراقيون يخوضون نقاشات سياسية شرسة وحادة ومتحمسة في كل مكان تنتهي

في أكثر الأحيان بالصراخ والشتائم والعراك وكيل التهم المتبادلة لبعضهم البعض بين أنصار هذه الموجة الإرهابية العقائدية أو تلك، وكل فريق يرى أحداث تلك الموجة التي يؤيدها أياما مضيئة سعيدة من النصر والعز والإشراق والفخار بينما يراها أنصار الطرف الآخر أياماً دموية مرعبة سوداء مخزية من الإرهاب والدكتاتورية... وكلما مرت السنين وبعدت أحداث تلك الفترة من الإرهاب العقائدي كلما هدأ الجدل والنقاش الصاخب بين الناس حول مواضيع الخلاف التي سادت في تلك الحقبة الدموية، وربما يقل سنة بعد أخرى عدد العراقيين الأحياء الذين عاصروا وعاشوا تلك الأحداث المؤلمة التي تدخل بالتدريج في ضمير التاريخ...

إن المنهج العراقي في تطبيق دكتاتورية العقيدة الواحدة كان من أيام السومريين يسعى دائما وفي كل الأزمنة والعصور إلى امتلاك القوة المادية المتمثلة بسلطة الدولة لتنفيذ برنامجه والقضاء على أعدائه ومعارضيه وفرض عقيدته الواحدة بالقوة والعنف الدموي والإكراه..

ولعل النظام السياسي القائم في العراق، والذي يعتمد نظرية العقيدة الواحدة رغم الانقطاع وعدم التواصل الزمني، هو الوريث التاريخي لتلك الموجة الثانية التي حدثت في النصف الثاني من القرن العشرين رغم التبدل والتغيير الذي حصل في الشعارات السياسية والعقائدية الموضوعة قيد التنفيذ في البلاد.

والآن ورغم هذا التاريخ الطويل والتعيس لهذا الشعار الإرهابي الدموي - شعار دكتاتورية العقيدة الواحدة أو الفئة الواحدة وتطبيقاته العملية العدوانية الزاخرة بالآلام والمآسي والضحايا والخسائر البشرية الهائلة، ورغم ماخلفه من تدهور في المسيرة الحضارية والمدنية والثقافية لبلاد الرافدين خصوصاً في القرون الخمسة الماضية، نقول بالرغم من هذا التاريخ الدموي التعيس وهذه النتائج المأساوية المؤلمة فإن حجم العبرة والاتعاظ في الواقع العملي ليس كافياً حتى الآن ولا يدل على إدراك ووعي حقيقي مناسب أو شمولي لدى الشعب والسياسيين والمفكرين في المجتمع العراقي المعاصر للنتائج الخطيرة المستخلصة من تطبيق هذا المنهج الفئوي السيء الصيت كما لم يتم حتى الآن - كما نعتقد - اكتشاف حجم المخاطر المنتظرة في المستقبل من استمرار شيوع هذا المنهج الدموي المدمر، واستمرار تطبيقه في الحياة العملية ودليلنا على ذلك انعدام الفعاليات الفكرية

والثقافية والسياسية الجدية العميقة التي تدين وتكشف وتخطّئ بروح حيادية كل أشكال التطبيقات العملية لهذا المنهج من الإرهاب الفئوي أو تجسم أبعاده البغيضة والمأساوية والمخزية، وتعرض للشعب بشكل منهجي المخاطر الجسيمة المنتظرة في المستقبل إذا استمر شيوع هذا المنهج في الحياة السياسية والاجتماعية في البلاد.

وقد لا نكون متشائمين كثيراً إذا قلنا أن عدداً من السياسيين وأطرافاً متعددة من القوى الاجتماعية والحزبية العراقية مازالت تحلم حتى هذه اللحظة بالسير في ذات الطريق الدموي وتطبيق ذات الشعارات الفئوية ببعدها الدكتاتوري، وهي لا تتردد عن إقامة دكتاتورية العقيدة الواحدة في العراق من جديد وبتسمية جديدة عندما تلوح أمامها أول فرصة سانحة للسيطرة على السلطة السياسية والانفراد بالحكم وامتلاك القوة المادية في المجتمع في يوم من الأيام، معتقدةً أن ذلك هو باب النجاة والخير للعراق، وأنها منزهة عن المظالم، تماماً كما كان يعتقد كل الذين مارسوا هذا المنهج الدكتاتوري الفئوي في هذه البلاد منذ فجر التاريخ وحتى اليوم...

لذلك يبدو أن الوضع السياسي والاجتماعي والنفسي في بلاد الرافدين مازال يتطلب وعي هذه الحقيقة بروح حيادية واقعية بناءة ليس ببعدها النظري والسياسي فحسب بل ببعدها الواقعي والتاريخي والاجتماعي لكي لا تدخل البلاد مرة أخرى في دورة جديدة من دورات العنف الفئوي المتلازمة حتماً مع دكتاتورية العقيدة الواحدة التي تأخذ في كل مرة أسماءً وأشكالاً وتبريرات جديدة... ولكي لا يبقى العراقيون حائرين في تفسير تلك الظواهر العلنية لدورات العنف والدكتاتورية النازلة فوق رؤوسهم كالقدر الحتمي ولكي لا يتواصل الدوران داخل الحلقة المفرغة ذاتها.

ومن جانب آخر فلا بد أن يكون واضحاً أن الدعوة للتوقف عن ممارسة ذلك النوع من دكتاتورية العقيدة الواحدة لا يعني إنكار مبدأ التطور والصراع الجدلي في المجتمع والاختلافات والاجتهادات الذي هو من طبيعة الحياة واستمرارها.

إننا نعني تحديداً إلغاء ذلك المنهج الإرهابي الدكتاتوري الذي تمارسه العقائد والفئات المختلفة في فرض وجودها السياسي ورأيها على المجتمع بقوة السلاح، وتقوم بسحق الآخرين وإلغاء وجودهم نظرياً وواقعياً بوسائل الإرغام القهري.

٣ ـ نشوء عادة السحل والتمثيل بالموتى وقسوة التنكيل بالخصوم:

إذا أردنا أن ننظر إلى أحداث العنف الدموي من منظار الفعل ورد الفعل في سلوك الإنسان فإن العنف المتولد والناشئ من عنف دموي سابق مرتكز على الظلم والجبروت يكون في الغالب أعتى وأقسى وأكثر مرارة وشراسة وهمجية وجبروتا ولعل هذا المبدأ ونعني به التصعيد بين الفعل ورد الفعل هو الذي طبق ونفذ على نحو متتابع ومتواصل في التاريخ العراقي مما أوصل وسائل تطبيق العنف إلى أعلى درجات الانتقام الهمجي وأشاع الأساليب الشرسة من العنف الاستثنائي الفائق القسوة والصرامة وحوّل مثل هذا السلوك الشائن بالتدريج إلى ما يشبه العادة الشائعة بين الناس في العراق حتى يكاد يكون جزءً من الملامح العامة لشخصية المجتمع العراقي وهو أمر مؤسف ومحزن لأن الضحية البريئة الوحيدة فيه هو الإنسان العراقي الذي لا قدرة له على مقاومة أو منع هذه الموجات العاتية من العنف الدموي الشرس المدعومة والمنفذة بوسائل القهر المادية الهائلة التي تمتلكها الدولة ويتحكم بتحريكها وتوجيهها وتطبيقها الحكام المتسلطون في جميع العصور.

ومن هنا كان نشوء وظهور عادة سحل الموتى في العراق كشكل من أشكال الانتقام الإجرامي المتصاعد، وهي الظاهرة التي يمكن اعتبارها التتويج الأكثر سوءاً وشراسة لأساليب العنف والانتقام الدموي المتصاعد. والسحل هو جر جثة الإنسان القتيل أو الميت على الأرض بعد ربطها بالحبال أو ما أشبه ذلك، وهو الشكل المشدد في الفعل الجنائي لأنه يعني الاعتداء على جثة الإنسان بعد الموت، وهو عمل يتسم بالقسوة والوحشية البالغة. ويدل على الإصرار على مواصلة التنكيل بجثة الإنسان بعد الموت بفعل الحقد والكراهية المتناهية.

غير أنه ليس من الضروري أن يكون السحل في كل الأحوال من أجل غاية جرمية جنائية بدافع الإيذاء، إذ قد يحصل ذلك في الواقع لأمور تقتضيها الضرورات الإنسانية كما هو الحال في أوقات الحروب والكوارث الطبيعية عندما تتكدس وتكثر جثث الموتى على نطاق واسع يتعذر إمكانية دفنها بالطرق الأصولية المتعارف عليها حيث يتم ربط الجثث وجرها بواسطة الحيوانات أو العربات للتخلص منها أما بالحرق أو بالدفن الجماعي في حفر أو قبور جماعية كبيرة أو إلقائها بالبحر أو النهر، وهذا ما حصل في بغداد أكثر من مرة في تاريخها كان أخرها في عام ١٨٣١ عندما تكدست جثث الموتى في الطرقات بعد انتشار الطاعون وعَجزَ الأحياء المتبقون على قيد الحياة عن إنجاز عملية دفن الموتى نظراً لكثرة الجثث المتكدسة وسط أوحال الفيضان في الطرقات والأزقة والبيوت، فقد كانت الجثث في بغداد تربط بالحبال من القدمين وتسحل إلى النهر بواسطة الحيوانات وقد ألقي في نهر دجلة الآلاف من الجثث بهذه الطريقة تخلصاً منها، حتى قيل أن بعض الجثث كانت تتقطع وتتفسخ خلال سحلها بسبب تعفنها واهترائها...

أما السحل كعمل انتقامي ينفذ في أعقاب جريمة القتل والذي هو فعل جنائي فهو ما نريد التحدث عنه هنا فهذا العمل يتصف دائماً بالقسوة والهمجية واللاإنسانية ولا تبرره أية شرائع دينية أو دنيوية وهو ينفذ في الغالب لدوافع سياسية ثأرية انتقامية تترافق بنشاطات فائقة من العنف الدموي الشائع...

على أنه ليس باستطاعتنا الادعاء والحكم بأن السحل هو ظاهرة عراقية غير موجودة في بلدان العالم الأخرى لأن ذلك يحتاج إلى متابعة واسعة ومقارنة شاملة لكل حوادث السحل في التاريخ كي نتوصل لمثل هذا الحكم. ولكي نعطي فكرة عامة وسريعة عن تاريخ هذه العادة وتطبيقها في الواقع العراقي فإننا سنحاول أن نستعرض بعض الأحداث والوقائع التاريخية القديمة التي جرت فيها عمليات السحل لأشخاص معروفين في ظروف معينة خلال التاريخ العراقي. تلك الوقائع التي استطعنا التقاطها خلال التحضير لبحوث هذا الكتاب حتى أصبح بإمكاننا حصر عدد من أحداث السحل التي يمكن إدراجها كما يلي:

١ ـ سحل الملك شهربراز في المدائن (عام ٦٣٠م.):

وهو أحد قادة الفرس الحاكمين في العراق وقد نصب نفسه ملكاً بعد قتله الملك الصغير أردشير بن شيرويه بعد وفاة كسرى. وقد بقي ملكاً مدة أربعين يوماً ثم ثار عليه الفرس وقتلوه في العاصمة ، المدائن (٤٠ كيلومتر جنوب شرق بغداد)، ثم سحلوه وملّكوا عليهم بوران بنت كسرى[١]

٢ ـ سحل يوسف بن عمر والي العراق أيام الأمويين:

كان والياً علي العراق واختلف مع الخليفة هشام بن عبد الملك في دمشق فهرب وتخفى بلباس النساء وانتقل إلى جنوب سوريا وقاده مصيره التعيس إلى دمشق فلحقته لعنة السحل العراقية فاعتقل وقتل وسحل في الشام.

٣ ـ سحل الأمويين في شوارع البصرة بعد انتصار العباسيين:

وقد جرى ذلك على يد سليمان بن علي عم العباس السفاح في البصرة ضد الأمويين فقد نكّل بهم تنكيلاً فظيعاً فقتل ما استطاع منهم ((وسحلهم على الطريق))[٢]

٤ ـ سحل الخليفة الأمين بعد مقتله عام ٨١٣م:

لقد ورد في كتاب (تاريخ الخلفاء) للسيوطي حول مقتل الخليفة محمد الأمين النص التالي: ((ثم ذبحوه من قفاه وذهبوا برأسه إلى طاهر فنصبها على حائط بستان ونودي هذا رأس المخلوع محمد وجُرَّت جثته بحبل ثم بعث طاهر بالرأس والبرد والقضيب والمصلى وهو من سعف مبطن إلى المأمون))[٣] وكان ذلك في عام ٨١٣م.

٥ ـ سحل أحمد أغا في بغداد عام ١٨٠٢:

بعد وفاة سليمان باشا الكبير عام ١٨٠٢م حدثت فتنة واضطرابات كبيرة في بغداد نتيجة الصراع بين الورثة على خلافته وقد انحصر الخلاف

---

١ ـ أحمد عادل كمال، سقوط المدائن ونهاية الدولة الساسانية، دار النفائس، بيروت، ص٣١١.

٢ ـ د. إبراهيم أيوب، التاريخ العباسي السياسي والحضاري، الشركة العالمية للكتاب، ص٢٩.

٣ ـ تاريخ السيوطي، ص٣٠٠.

بين علي رضا ومؤيديه وأحمد أغا وجماعته وكان أحمد أغا قائداً للإنكشارية في العاصمة وبعد معارك شوارع طاحنه وصراع دموي في العاصمة انتصر علي رضا وهرب أحمد أغا، واختبأ بأحد الدور ببغداد وأعلن علي رضا باشا جائزة مقدارها ألف ليرة ذهباً لمن يجده أو يدل عليه، غير أن أحد أتباعه اعترف ودلّ على البيت الذي يختبئ فيه، وهو في حي ببغداد يسمى إلى اليوم (رأس القرية)، فاعتقلوه وقادوه ((حافي الأرجل مكشوف الرأس بهيئة الموت وأمامه ووراءه خلق لا تعداد لهم ولما وصلوا به إلى السراية أمام علي باشا... قام وضربه بيده بالغدّارة ضربتان وأمر بتقطيعه، فسحبوه من السراية إلى وسط الميدان وكل يضربه ضربه بالسيوف والخناجر...))[1]

ولعلنا نستطيع أن نحدد على وجه التقريب المنطقة التي سحل فيها هذا المسؤول العراقي قبل (تقطيعه!!) حسب أوامر الوالي الجديد فهي تقع بين السراي القديم ((المحاكم ومديرية الشرطة العامة)) وبين ساحة الميدان حيث يوجد موقف باصات الركاب قرب محكمة الشعب.

٦ ـ سحل ناصيف أغا في بغداد عام ١٨٠٨:

بعد أن استولى سليمان باشا الصغير على ولاية بغداد إثر مقتل الوالي علي رضا حدث تمرد مدني قاده السيد ناصيف أغا من وجهاء بغداد المتنفذين وزحفت المظاهرات نحو السراي مطالبين بتنصيب ناصيف أغا والياً على بغداد فهاجمهم الجند والأهالي وفرقوهم فعبر السيد ناصيف أغا ومجموعة من أتباعه إلى جانب الكرخ يحرّض الأهالي هناك ((فلم يتبعه الناس بل حملوا عليه وقتلوه ثم شدوا في رجله حبلاً وسحلوه في الأزقة وعبروا به إلى جانب الرصافة والناس يتفرجون عليه))[2].

٧ ـ سحل الأمير عبد الإله ونوري السعيد في بغداد عام ١٩٥٨م:

بعد أن قتل الملك فيصل الثاني والأمير عبد الإله وباقي أفراد العائلة الملكية داخل حديقة قصر الرحاب (القصر الملكي) نتيجة إطلاق الرصاص

---

١ ـ لمحات احتماعية من تاريخ العراق الحديث ج١، مصدر سابق،ص٢٠١.

٢ ـ المصدر السابق، ص٢٠٧.

من الجنود المحيطين بالقصر في صباح ١٤ تموز ١٩٥٨ وخلال نقل الجثث إلى الطب العدلي بسيارة، هجمت جماهير بغداد وانتزعت بعض الجثث ومن بينها جثة الأمير عبد الإله وألقتها على الأرض وشدت الحبال بها وراحت تسحلها في الطرقات، أما نوري سعيد (رئيس الوزراء) فقد سحلت جثته في اليوم الثالث حيث بقي مختبئاً في أحد البيوت ببغداد قبل اكتشافه وإلقاء القبض عليه فقتل في الحال وديست جثته بالأقدام وسحلت بالحبال في جميع شوارع وأحياء بغداد حتى تلاشت تقريباً كما سحل خلال تلك الأحداث الدموية الغاضبة بعض الأشخاص ممن لا علاقة لهم بالسياسة مثل الطباخ التركي الذي صادف وجوده في القصر وقت الحصار فقد قتل وسحلت جثته وألقيت أمام باب معسكر الوشاش وصب عليها الوقود (بانزين) وأشعلت فيها النار[1].

((وشمل القتل والسحل وتمزيق الجثث بعض الأجانب والأوروبيين الذين قدموا إلى بغداد للتجارة أو الاستشارة كموظفين في الحكومة أو لدى الشركات))[2]

ويذكر الدكتور فالح حنظل في كتابه (أسرار مقتل العائلة المالكة في العراق) أن بقايا جثة الأمير عبد الإله قد أحرق وألقي في نهر دجلة[3] لذلك فلا قبر للأمير عبد الإله في أرض العراق.

إن المكان الذي ألقيت فيه أشلاء جثة الأمير عبد الإله (ولي العهد الملكي) في نهر دجلة بعد حرقها ليس هو بالتأكيد المكان الذي ألقيت به في ذات النهر جثة الزعيم عبد الكريم قاسم قائد الانقلاب الذي أسقط الملكية وقتل الأمير عبد الإله والعائلة المالكة غير أن ما يجمعهما هو أن كليهما لا يملك قبراً في العراق بعد أن غاصت أشلاؤهما في نهر دجلة.. ولو تسنى لهذا النهر أن ينطق بأسماء الذين ألقيت جثثهم ورمادهم فيه لنطق بأسماء الآلاف

---

١ ـ د. فالح حنظل، أسرار مقتل العائلة المالكة في العراق – ١٤ تموز ١٩٥٨،ص١٢٨/دار النشر غير مذكورة.

٢ ـ المصدر السابق، ص١٢٧-١٣١.

٣ ـ المصدر السابق،

من العراقيين وعشرات الحكام والقادة والمفكرين والشعراء الذين أنزلت جثثهم أو رمادهم وأشلاؤهم فغاصوا فيه إلى الأبد...

٨ ـ أحداث السحل في الموصل وكركوك والبصرة في أعوام ١٩٥٩-١٩٦٠:

خلال الأحداث الدموية التي جرت في الموصل عام ١٩٥٩ حصلت بعض الجرائم التي مورس فيها السحل والتمثيل بالجثث على نحو شنيع كذلك حصلت وقائع من السحل الفردي في البصرة وكركوك والديوانية لا يتسع المجال لوصفها والدخول في تفاصيلها، وسوف نقتصر في الحديث عن واقعة واحدة بين عشرات من الحوادث حصلت في الموصل يمكن أن تكون نموذجاً للأحداث الأخرى المشابهة من القتل والسحل والتمثيل بالميت في تلك الفترة الدموية المجنونة.

ففي تاريخ ١٩٥٩/٣/٩ خرج المحامي أمجد المفتي والأستاذ عمر الشعار، من أهالي الموصل، بسيارة متوجهين إلى قرية تلكيف القريبة من الموصل لشراء بعض الحاجيات لأن الحوانيت في الموصل كانت مغلقة بسبب الاضطرابات ((وحال وصولهما إلى قصبة تلكيف تصدى لهما أحد الشيوعيين قرب مركز الشرطة وصاح عليهما: هذا بعثي. فهربا بسيارتهما واتجها نحو مركز الشرطة وطلبا الحماية بعد تسليم نفسيهما إلى مأمور المركز، وانتشر الخبر في تلكيف، فحضر عدد كبير من الشيوعيين المسلحين إلى المركز وأحرقوا سيارة المحامي أمجد وطلبوا تسليم اللاجئين فامتنع المسؤولون في المركز من تسليمهما، وسيطلّع القارئ مستقبلاً كيف تم تسفير اللاجئين إلى الموصل بحراسة أربع أفراد من الشرطة بسيارة وكيف تصدى الشيوعيون للسيارة وأنزلا المجني عليهما من السيارة بالقوة وأطلقوا عليهما الرصاص فقتلا ومثّل بجثتيهما ثم سكب عليهما النفط وتم حرقهما. وبعدئذ جيء بـ (مدحلة) سارت فوق جثتيهما إمعاناً في التمثيل وتضليلاً للتحقيق...))[1]

---

١ ـ العميد المتقاعد خليل إبراهيم حسن، الصراع بين عبد الكريم قاسم والشيوعيين، دار الحرية للطباعة،بغداد، ١٩٨٩،ص٢٩٩.

ويتبين من هذا النص أن المدحلة قد سحقت الجثتين سحقاً إمعاناً في التمثيل بالجثث. وقد عرضت هذه القضية فيما بعد أمام المجلس العرفي العسكري الأول في بغداد بتاريخ ١٩٦١/١/١٧م، وهي مسجلة رسمياً مع إفادات الشهود والمرافعات والأحكام. ويبدو أن مفهوم السحل والفاظه الكريهة بدأ يدخل في الأدب الإعلامي والصحفي في تلك الفترة، فقد كتبت جريدة الحزب الشيوعي (اتحاد الشعب) بتاريخ ١٩٥٩/٣/١١ عن مجزرة الموصل تقول: «وانتفض الجنود في كل مكان، أدرك الجنود الطيبون أن واجبهم المقدس يقضي بالدفاع عن الجمهورية فلم يجدوا سبيلاً لهذا الدفاع إلا إخماد أنفاس المتآمرين فصفوا الحساب معهم، وكان السحل مصيرهم»[1] وإذا أردنا العودة لمفهوم الفعل ورد الفعل أو الفعل العدائي والرد الانتقامي المضاد فليس هناك من يستطيع أن يتخيل شكل وحجم الانتقام الذي يمكن أن يقوم به أقرباء وأصدقاء وأهل هؤلاء الضحايا المغدورين الذين أهينت جثثهم بهذا الشكل البشع ساعة تحين لهم الفرصة المناسبة للثأر والانتقام!!.

ولعل هذا الشكل من الاعتداءات والأعمال الإجرامية القاسية التي انتشرت في البلاد في تلك الفترة هو السبب في بروز الموجة الانتقامية الشرسة ضد الشيوعيين بعد سقوط عبد الكريم قاسم لتأخذ شكل إعصار دموي مرعب مزّق لحم الشيوعيين في كل مكان من العراق. وعلى هذا المنوال من التدهور والتردي المريع بين الفعل السيء ورد الفعل الأسوأ جرى التصعيد التدريجي المجنون لمنهج العنف الدموي على مر الأيام وتعززت أساليب التنكيل الهمجي في أحداث العراق منذ أيام السومريين وحتى العصر الحاضر. أما الجانب الآخر من الموضوع وهو القسوة الظالمة والشراسة المتناهية التي نفذت وتنفذ ضد الخصوم في وادي الرافدين دون أن تترافق بالسحل فأمثلتها وشواهدها عديدة وكثيرة تكاد لا تحصى سواء منها ماجرى بين المتخاصمين لأسباب شخصية أو قبلية أو عائلية أو تلك التي أدارتها الدولة لأسباب سياسية عامة. ويصعب جداً استعراض مثل تلك

---

١ ـ المصدر السابق،ص٢٩٦.

الأحداث لكثرتها وتنوعها، وسنحاول هنا تعداد بعض نماذج تلك الأحداث دون الدخول بتفاصيلها منعاً للإطالة والملل.

لقد كانت أقدم الأحداث في مسلسل التنكيل القاسي بالخصوم في التاريخ العراقي هي قيام الملك الأكادي شاروكين (سرجون الأكدي) بأسر الملك الظالم لوكال زكيزي ملك مدينة لكش وأخذه مقيداً بالأغلال ووضعه في قفص أمام معبد إنليل في مدينة نيبور ليتفرج الناس عليه وكان ذلك بحدود عام ٢٣٤٠ قبل الميلاد، هذا إذا استثنينا حروب التنكيل المدمرة التي نشبت على نطاق واسع بين الآلهة المتصارعة في وادي الرافدين والتي كانت في حقيقة الأمر تمثل الصراع بين حكام المدن والدول في ذلك الوقت.

ومنذ ذلك التاريخ وحتى اليوم يتواصل عرض الأحداث ذات الصلة بالقسوة والمبالغة في التنكيل ومعاقبة الخصوم، ففي الفترة الأموية انتشرت عادة قطع رؤوس الخصوم السياسيين في العراق وتصديرها إلى الخارج كما مرّ في أحد فصول الكتاب، ثم ظهرت عادة حرق جثة الخصم القتيل وتذرية رماده في الهواء أو في ماء النهر بعد قطع رأسه والطواف به في بعض المدن ليراه الناس هناك. وقد طبق هذا المنهج في عدد كبير من الخصوم. ومن أحداثه الشهيرة إحراق جثة زيد بن علي بن الحسين في العصر الأموي وذرّ رماده في نهر الفرات قرب الكوفة، وكذلك إحراق جثة المفكر الصوفي الحلاج في بغداد وذرّ رماده في نهر دجلة، وإحراق جثة جعفر البرمكي خلال نكبة البرامكة في عهد الرشيد ببغداد وإلقاء رماده في نهر دجلة بعد تقطيع جسده إلى ثلاثة قطع، وكذلك حرق جثة الأمير عبد الإله عام ١٩٥٨ في بغداد وإلقاء الرماد والأجزاء المتفحمة من الجثة في دجلة. وهناك أمثلة عديدة أخرى تجاوزناها منعاً للإطالة.

أما الاغتيالات بالسم وسمل العيون فإن التاريخ العباسي يعج بمثل هذه الأحداث إلى حد التخمة.

أما أسلوب تقطيع جسد الخصم فهو منهج شاع بعد سقوط بغداد بيد المغول وحتى نهاية العصر العثماني تقريباً وهو أسلوب يحمل الكثير من القسوة والوحشية وقد أورد الكتاب ذكر الكثير من تلك الحوادث الدموية.

كذلك فإن هذه الفترة شهدت في ذات الوقت أسلوب سلخ فروة الرأس وحشوها بالتبن والقش بعد قتل الخصم وقطع رأسه[1].

وحصلت وقائع جرى فيها سلخ وجه الخصم وهو حي.. كما حصل للملك الصالح بن إسماعيل حاكم الموصل في عام ١٢٦١م (٦٥٩هـ) الذي قاوم المغول مقاومة باسلة في مدينة الموصل لأكثر من عام.

كما شاع منذ عصور قديمة الأسلوب الأكثر سوءاً بين أعمال التنكيل، وهي الأعمال المتسمة بالغدر والعقوق، وهو إقدام الحكام على قتل آبائهم أو أبنائهم أو أخوتهم وأقربائهم والغدر بهم بأشنع الحوادث قسوة ومرارة إما بالقتل المباشر أو الاغتيال أو السم، كما جرى مع الملك الآشوري توكولتي نينورتا الذي قتله ابنه، والملك سنحاريب الذي اغتاله ابنه أيضاً، والملك شمش شموكين الذي قتله أخوه، والملك شيرويه الذي قتل والده كسرى في المدائن بالعراق، والخليفة المأمون الذي قتل أخاه الخليفة الأمين، والخليفة المنتصر الذي قتل والده الخليفة المتوكل، والسلسلة الطويلة من الخلفاء العباسيين الذين اقدموا على قتل أخوتهم وأقربائهم وسمل عيونهم وتعذيب خصومهم. كما أقدم جهان شاه عام ١٤٦٥ في بغداد على إعدام ابنه بيربوداق بن جهان من أجل الحكم في بغداد ومقتل ذو الفقار علي بك على يد أخيه خلال حصار بغداد عام ١٥٣٠م ومقتل بكر صوباشي بعد خيانة ابنه محمد الذي حضر فيما بعد حفلة تعذيب وإعدام والده وشارك فيها وذلك في عام ١٦٢٣ وهناك أمثلة أخرى عديدة...

أما العراقيون الذين قتلوا في العراق وليس لهم قبر فيه بسبب قسوة التنكيل الدموي وضراوته فهم كثيرون جداً، وسنكتفي بذكر بضعة أسماء قتلوا ونكّل بهم في العصور الأخيرة، ومن أولئك قاسم باشا العمري حاكم بغداد الذي ألقي في بئر عميقة عام ١٨٣١م والأمير عبد الإله ولي العهد في النظام الملكي عام ١٩٥٨ ونوري السعيد رئيس الوزراء عام ١٩٥٨ وعبد الكريم قاسم عام ١٩٦٣

ومن أعمال التنكيل الشهيرة ضد الخصوم والمشحونة بالقسوة والشراسة والهمجية الانتقام الذي نفذه حاكم بغداد بكر صوباشي عام ١٦٢٣ بخصومه

---

١ ـ لقد وردت بعض تلك الحوادث في فصول الكتاب وهي مسندة ومعززة بالمصادر المؤشرة بالهوامش ولا نجد حاجة لإعادة ذكرها هنا.

السياسيين محمد فنبر وأتباعه بعد أن ربطهم بقارب ملأه بالزفت والكبريت وأشعله في نهر دجلة وهم يصرخون حتى تحولوا إلى رماد فابتلعهم ماء النهر.

كذلك الأسلوب الذي استخدمه الخليفة المتوكل في قتل خصومه ومنهم الشاعر والوزير محمد بن عبد الملك الزيات بواسطة التنور الحديدي الخاص الذي ابتكره للتعذيب وقد سبق وصف هذا التنور في أحد فصول الكتاب.

كذلك فإن إقدام مصعب بن الزبير على قتل خمسمائة (٥٠٠) أسير من أتباع المختار بن عبيد الثقفي أيام الدولة الأموية بعد استسلامهم وتوسلهم بالإبقاء على حياتهم هي واحدة من أعمال التنكيل الكبيرة التي تتسم بالقسوة والوحشية.

أما ما حصل في السجون السياسية في العراق في النصف الثاني من القرن العشرين ومنذ العهد الملكي وحتى اليوم من أعمال ووسائل وأساليب من التعذيب والتنكيل بالخصوم السياسيين فإن المجال لا يتسع حتى لتعدادها نظراً لكثرتها وغرابتها التي لا تصدق والتي ربما تستغرق كتاباً كاملاً.

إن الأمر الأكثر إيلاماً هو أن الشواهد والأمثلة في هذا الموضوع المأساوي المحزن تحاصرنا من كل جانب وصوب لكثرتها وتنوعها وتداخلها بحيث يستعصي علينا إمكانية حصر البحث أو توجيهه أو اختصاره.

إنه أحد المواضيع التي تتطلب وقفه تفكر وتبصر وتأمل وجداني لأخذ العبرة والموعظة...

٤ ـ كثرة عدد الحكام الذين ماتوا قتلاً في التاريخ العراقي

اذا تتبعنا الاطلاع على السِّيَر الذاتية للاباطرة والملوك والقادة والحكام والولاة والرؤساء الذين حكموا في العراق، ونظرنا في النهاية التى انتهى اليها كل واحد من اولئك، فان ظاهرة غريبة يمكن ان تلفت انتباهنا وتسترعي اهتمامنا، تلك هي كثرة عدد الحكام الذين انتهت حياتهم بالقتل او الموت القسري، أي أن موتهم كان بنتيجة القتل وليس لأسباب أخرى كالمرض او كبر السن او الوفاة في الظروف الطبيعية ، وهذا الامر لايعني ان جميع حكام العراق قد ماتوا قتلاً بل ان كثرة عددهم هو الامر الملفت للانتباه. وفي هذه الحالة ليس بامكاننا ان نربط هذه الظاهرة بأي أمر آخر غير شيوع العنف الدموي في مسيرة الحياة العراقية لأن قتل الحاكم الاعلى في البلاد ـ إن لم يكن صدفة او قضاء وقدراً ـ فانه يقتضي أن تكون تلك البلاد قد شهدت احداثاً كبيرة وطاغية من العنف الدموي والاضطرابات والحروب والاغتيالات والصراعات والمكائد حتى يشمل القتل ملك البلاد وحاكمها العام. اما الحوادث الطارئة التي يقتل فيها الامبراطور أو الملك أو الحاكم نتيجة الأقدار والكوارث الطبيعية كالأمراض والجائحات فهي قليلة ونادرة ولا يمكنها أن تشكل ظاهرة عامة يمكن تشخيصها والقياس عليها في حياة البلاد.

لذلك فإن موت عدد كبير من الحكام في العراق بطريقة القتل العمد، سواء بسبب الحروب أو الاحتلال أو الاغتيال أو الغدر أو الانقلاب السياسي أو الخيانات أو الاطماع ، هو مؤشر في كل الأحوال على وجود وانتشار اسلوب العنف الدموي وشيوعه في البلاد.

ولكي نستطيع أن نجعل حكمنا في هذا الموضوع أكثر دقة وواقعية وعلمية فقد نظمنا قائمة بأسماء جميع الأباطرة والملوك والحكام والولاة والقادة العراقيين الذين

حكموا العراق، وكانت نهاية حياتهم الموت قتلاً ليستطيع القاريء أن يقدِّر على نحو موضوعي حجم تلك الظاهرة ومدى علاقتها بشيوع العنف الدموي. وقد حرصنا أن يكون ترتيب هذه القائمة مرتكزاً على التسلسل الزمني قدر الإمكان.

اسماء بعض حكام العراق القتلى

هذه قائمة بأسماء بعض الأباطرة والملوك والحكام والولاة والقادة والرؤساء العراقيين الذين ماتوا قتلاً في التاريخ العراقي.

ملاحظة أولى: يعتمد الترتيب والتسلسل الزمني في تنظيم هذه القائمة أما المعلومات المؤشرة إزاء كل اسم فهي مقتطعة من متن الكتاب وتعتمد ذات المصادر المؤشرة في المتن.

ملاحظة ثانية: الحكام القتلى هم الذين لم يتوفوا بصورة طبيعية، بل قتلوا، والقائمة ليست حصرية، لذلك لا يستبعد وجود أسماء أخرى لم نتعرف عليهم ولم يدرجوا في هذه القائمة.

١ ـ الملك السومري: لوكال زكيزي — أحد ملوك سومر كان ملكاً على مملكة مدينة أومّا بين أعوام ٢٣٦٥-٢٣٤٠ قبل الميلاد - كان ظالماً ومارس القتل والاضطهاد والتخريب ضد المدن الأخرى وشعوبها وخصوصاً مملكة لكش. ولم يسلم من أذاه عدو أو صديق - أسره الملك الأكادي شاروكين الأول (سرجون الأكدي) وقيده بالأغلال ووضعه في قفص وقاده إلى مدينة نيبور وربطه أمام معبد إنليل في المدينة.

٢- الملك: ريموش بن شاروكين: — هو ابن الملك سرجون الأكادي (شاروكين الأول) - حكم بعد والده إلا أنه قتل اغتيالاً في مؤامرة أودت بحياته عام ٢٢٧٥ قبل الميلاد.

٣-الملك: ريم سين: — ملك لارسا - تقع في جنوب العراق - هاجمه حمورابي عام ١٧٦٣ قبل الميلاد واحتل مملكته ودمرها - وأخذه أسيرا ولا يعرف شيء عن نهايته.

٤-الملك: يخدون ليم: — من ملوك مملكة ماري - جنوب الموصل الحالية - قتل سنة ١٨١٠ قبل الميلاد - سقط قتيلاً بيد الخدم في قصره

بمؤامرة اشترك فيها الملك شمشي أدد.

٥-الملك زمري ليم: من ملوك مملكة ماري وهو صديق حمورابى - هاجمه حمورابى سنة ١٧٥٩ قبل الميلاد واحتل مملكة ماري وهدم أسوارها ولا يعرف شيء عن مصير الملك زمري ليم.

٦- الملك: توكولتي نينورتا الأول: أحد ملوك الآشوريين قتله ابنه وولي عهده عام ١٢٠٧ قبل الميلاد في مؤامرة اغتيال سياسية غادرة.

٧- الملك: شاروكين الثاني: ملك آشوري اغتاله أحد جنوده عام ٧٠٥ قبل الميلاد.

٨-الملك: سنحاريب: ملك آشوري قتله أحد أولاده غيلة وهو يصلى في عام ٦٨١ ق.م. وقد حكم بعد اغتيال والده شاروكين الثاني.

٩-الملك: شمش شموكين: كان ملكاً على بابل قتله أخوه آشور بانيبال عام ٦٤٨ قبل الميلاد عندما زحف بجيش ضخم وطوق بابل وطلب من أخيه التسليم فلما رفض حاصر المدينة مدة طويلة مما دفع أخوه أن يحرق قصره ويقتل نساءه وخيوله وخدمه وحاشيته ويحرق بابل وينتحر.

١٠-الملك: لاباشي مردوك: ملك بابلى حكم ثلاثة أشهر ثم اغتيل في نهايتها وكان ذلك في عام ٥٥٦ قبل الميلاد - اغتاله نابونيد (نابونيلس) - وكان نابونيلس طفلاً صغيراً حملته أمه والتجأت به إلى بلاط بابل طالبة الرحمة والحماية بعد سقوط المدن الآشورية فلما كبر نابونيلس انقلب على الملك وقتله.

١١- الملك: الحارث بن حجر الكندي: وهو من ملوك كنده - أقام مملكته في الأنبار - وهى مدينة تقع على الفرات تبعد أربعين ميلاً إلى الشمال الغربى من بغداد - قتله المنذر الثالث أحد ملوك الحيرة عام ٥٢٩ م. وفتك بعائلته حيث قتل منهم ٥٠ خمسين شخصاً فكانت ضربة قاضية على عائلة ملوك كنده[١].

---

١ - د. فيليب حتي ، تاريخ العرب، مصدر سابق، ص١٢٦

١٢- الملك:
المنذر بن ماء السماء: أحد ملوك الحيرة في العراق كان مدعوماً من الحكم الفارسى قتله الملك الغسانى الحارث بن جبلة عام ٥٥٤ م. وأسر ابنه في المعركة المعروفة في التاريخ العربي بيوم حليمة.

١٣- الملك:
عمرو بن هند: من ملوك الحيرة وهو ابن الملك المنذر بن ماء السماء لكنه سمى باسم والدته هند - قتل عام ٥٦٩ م. - أقام وليمة كبيرة لصديقه الشاعر عمرو بن كلثوم سيد بنى تغلب وأمه ليلى بنت المهلهل بن ربيعة من سادات العرب وكان هدفه من تلك الوليمة إنزال الإهانة بصديقه عمرو بن كلثوم وأمه لإذلالهما بين قبائل العرب مما أدى إلى قيام عمرو بن كلثوم بقتل الملك عمر بن هند خلال المأدبة بسيف كان معلقاً على الحائط والإيعاز لأصحابه بنهب السرادق والتوجه في عمق الصحراء.

١٤-الملك:
النعمان بن المنذر: حكم بعد أخيه الملك عمرو بن هند - قتله كسرى ملك الفرس عام ٦٠٢ م. لأعمال كان قد قام بها الملك النعمان سببت غضب كسرى وغيظه فاستدعاه إلى المدائن عاصمة الإمبراطورية (٤٠ كم جنوب شرق بغداد) وهناك ألقاه تحت أرجل الفيلة قطعته إرباً..

١٥- الملك:
كسرى انو شروان: وهو من ملوك الفرس الذين حكموا في العراق - قتل في المذبحة التى جرت داخل البلاط الساسانى في القصر الأبيض بالمدائن العاصمة (٤٠ كم جنوب شرق بغداد) - قتله ابنه شيرويه بن مريم الرومية.

١٦- الملك:
أردشير بن شيرويه: كان طفلاً ابن سبع سنوات ثار عليه شهربراز أحد قواد الفرس وقتله ونصب نفسه ملكاً في المدائن العاصمة.

١٧- الملك شهربراز: بقى ملكاً في المدائن (العراق) مدة أربعين يوماً ثم قتله بعض أتبا ع الملك كسرى عام ٦٣٠ م. وسحلوه داخل العاصمة (المدائن) القريبة من بغداد الحالية.

١٨ - رستم هو حاكم العراق من قبل الفرس قتل في معركة القادسية على مقربة من الحيرة في حزيران عام ٧٣٧م.

١٩- الإمام: علي بن أبي طالب: الخليفة الرابع بعد الرسول محمد (ص) - اتخذ مدينة الكوفة (جنوب بغداد) عاصمة له - قتله أحد الخوارج العراقيين - وهم فرقة من المنشقين عن الإسلام - ضربه بسيف مسموم عند خروجه للصلاة في الكوفة عام ٦٦١م.(٤٠هـ).

٢٠ - الحسن بن علي بن أبي طالب: هو ابن الإمام على - طالب بالخلافة بعد وفاة والده - خذله العراقيون وأهانوه وضربوه وسببوا له جرحاً فغادر الكوفة وقيل قتل مسموماً عام ٦٦٩ م.

٢١- الحسين بن علي بن أبي طالب: هو الابن الثانى للإمام على - طالب بالخلافة بعد وفاة معاوية - قتل في كربلاء - جنوب العراق - وقطعوا رأسه وأرسلوها إلى دمشق في عام ٦٨٠ م. (٦١هـ).

٢٢- عبيد ا لله بن زياد: حاكم العراق في عهد يزيد بن معاوية الأموي - قتله المختار بن عبيد الثقفى سنة ٦٨٥ بعد الميلاد (٦٦هـ) انتقاماً لمقتل الحسين بن علي - أرسلوا رأسه إلى الحجاز.

٢٣- المختار بن عبيد الثقفي: تولى الحكم في الكوفة وتقرب من الشيعة بمطالبته بثأر الحسين بن على الذي قتل في كربلاء - قتله مصعب بن الزبير وأرسل رأسه إلى أخيه عبد ا لله بن الزبير في مكة كما قطع يده وعلقها على باب جامع الكوفة.

٢٤- مصعب بن الزبير: تولى حكم العراق من قبل أخيه عبد ا لله بن الزبير قتله عبد الملك بن مروان وقطع رأسه.

٢٥- خالد القسري: أمير العراقين - عين من قبل الأمويين والياً على الكوفة والبصرة فسمى أمير العراقين - قتل تحت التعذيب البشع سنة ٧٣٨م بأمر من الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك لوشاية وصلت للخليفة عنه كما صادر جميع أمواله قبل قتله.

٢٦- يوسف بن عمر: والي العراق من قبل الأمويين - تولى الحكم بعد مقتل خالد القسري - كانت نهايته تعيسة حيث طورد وهرب ثم تخفّى بثياب النساء - ثم ألقى القبض عليه وقتل ثم ربطت الحبال برجليه وسحل.

٢٧- أبو سلمة الخلال: وسمي وزير آل البيت - عمل وزيراً (أي رئيساً للوزراء) لدى الخليفة العباسي الأول أبي العباس السفاح - وقد اغتاله السفاح بعد أن كلف أبا مسلم الخراساني بتنفيذ القتل فاغتاله رجال الخراساني ليلاً وهو خارج من عند السفاح واتهموا الخوارج بذلك.

٢٨- الخليفة: المهدي: حكم بعد الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور - قيل مات مسموماً، وقيل قتل في حادث صيد عام ٧٨٥ بعد الميلاد.

٢٩- الخليفة: موسى الهادي: وهو ابن الخليفة المهدي - قيل في سبب وفاته أنه دفع صديقاً له من جرف عالٍ ليقتله أو يؤذيه فأمسك الصديق به فسقط معه من ذلك المرتفع على أرض فيها قصب مقطوع فدخلت قصبة في رأسه فمات عام ٧٨٦م. وقيل مات مسموماً.

٣٠ - الخليفة: محمد الأمين: هو ابن الخليفة هارون الرشيد قتله أخوه المأمون عام ٨١٣ بعد الميلاد بسبب الخلاف بينهما على الحكم - وبعد قتله قطع رأسه وسحلت جثته.

٣١- الفضل بن سهل - ذو الرئاستين: وزير المأمون لقب ذو الرئاستين لأنه دبر أمر السيف والقلم قتله غالب المسعودي خال الخليفة المأمون مع جماعة من رجاله وقد اغتالوه وهو داخل الحمام بتحريض من المأمون.

٣٢-الخليفة: المتوكل: خليفة عباسى قتله ابنه المنتصر عام ٨٦١ م. بالاتفاق مع الأتراك - دخلوا عليه آخر الليل وهو في مجلس لهوه فقتلوه هو ووزيره الفتح بن خاقان.

٣٣- الوزير: محمد بن عبد الملك الزيات: كان وزيراً (أي رئيساً للوزارة) للخليفة الواثق ثم استوزره المتوكل أربعين يوماً ثم قتله حيث أدخله في تنور حديد بداخله مسامير مدببة ويحمى بالنار. قتل عام ٨٤٦م.

٣٤- الخليفة: المنتصر: هو ابن المتوكل قتله طبيبه الخاص المدعو ابن طيفور عام ٨٦٢ بعد أن قبض رشوة كبيرة ففصده بريشة مسمومة فمات.

٣٥- الخليفة المستعين با لله:	قتله المعتز با لله - أرسل له سعيد الحاجب فذبحه عام ٨٦٦ م.
٣٦- الخليفة: المعتز با لله:	قتله المهتدي با لله ابن الواثق عام ٨٦٩ م.وكان رجال الواثق قد أدخلوه إلى الحمام ومنعوا عنه الماء فمات عطشاً وهذا الخليفة المعتز با لله سبق له أن قتل المستعين وقتل أخاه المؤيد.
٣٧- الخليفة: المهتدي:	قتل عام ٨٧٠ بعد الميلاد حيث ضرب ضرباً شديد في خصيتيه حتى مات من الألم.
٣٨- الخليفة: المعتمد على ا لله:	قتل بالسم عام ٨٩٢ م.
٣٩- الخليفة المقتدر با لله:	قتله مؤنس الخادم ثم رفعوا رأسه على رمح، أما جثته فبقيت مكشوفة العورة على قارعة الطريق.
٤٠ ـ الخليفة: عبدا لله بن المعتز:	بقي في الحكم ليلة واحدة ثم قتل ودفن خلف داره.
٤١- الخليفة: القاهر با لله:	كحلوه بمسمار محمي بالنار ففقد بصره ثم عذب تعذيباً شديداً لأخذ أمواله توفي عام ٩٣٤ م.
٤٢- الخليفة: الراضي:	قتل عام ٩٤٠ بعد الميلاد بيد الجند.
٤٣- الخليفة المتقي لله أبو إسحاق:	كحلوه بالميل المحمى بالنار ففقد بصره ووضع في السجن حتى مات عام ٩٤٤ م.
٤٤-الخليفة: المستكفي با لله:	كحلوه بالميل المحمى ففقد بصره وسجن حتى مات عام ٩٤٦ بعد الميلاد.
٤٥-الخليفة: المقتدي بأمر ا لله:	قيل أن جاريته المسماة شمس النهار قد قتلته بالسم عام ٩٩١ بعد الميلاد.
٤٦ ـ الخليفة: المسترشد با لله:	أسره السلطان مسعود وحبسه قرب همدان، وفي الحبس هجم عليه عدد من الجنود وقتلوه.

٤٧- الخليفة: الراشد بالله: ذهب إلى بلاد أذربيجان بعد أن تمرد عليه السلطان مسعود وهناك مرض فدخل عليه جماعة من العجم الذين كانوا تحت خدمته فقتلوه بالسكاكين.

٤٨- الخليفة: المستعصم بالله: قتله هولاكو قائد المغول عند احتلال بغداد عام ١٢٥٨ م.

٤٩- الملك: الصالح بن إسماعيل: حاكم الموصل تمرد على المغول في الموصل بعد ثلاث سنوات من سقوط بغداد. اضطر الملك الصالح أن يطلب الصلح بعد أن نفذت مؤونة المدينة المحاصرة - وافق المغول على مفاوضته وحين خرج إليهم قتلوا ابنه وساقوه إلى هولاكو فأمر بسلخ وجهه وهو حي ثم قتله وقتل أخاه وأتباعه عام ١٢٦١م.

٥٠ - محمد شاه: حاكم بغداد في دولة الخروف الأسود التركمانية الذي عينه أبوه قرة يوسف بعد احتلاله بغداد عام ١٤٣٤ م. وقد قتله أخوه المدعو أسبان بعد احتلاله العاصمة وانتزع الحكم منه وعين ابنه فولاذ حاكماً على بغداد.

٥١- فولاذ بن اسبان: حاكم بغداد في دولة الخروف الأسود سجنه المدعو جهان شاه بعد أن احتل بغداد ومات في السجن عام ١٤٤٥م.

٥٢- بيربوداق بن جهان شاه: قتله أبوه جهان شاه عام ١٤٦٥ م. بعد أن تمرد على سلطة والده مما اضطره للعودة إلى بغداد واحتلالها وقتل ابنه بيربوداق بعد أن أصدر حكماً بإعدامه.

٥٣- بير محمد الطواشي: هو آخر حكام دولة الخروف الأسود في بغداد قتله مقصود بن حسن الطويل من حكام دولة الخروف الأبيض التركمانية.

٥٤- إبراهيم خان: عينه الشاه إسماعيل الصفوي حاكماً على العراق بعد احتلاله بغداد. ذبحه ذو الفقار علي بك ليلاً في المنطقة الجبلية الحدودية بين العراق وإيران عام ١٥١٠ م. وكان متجهاً لمقابلة الشاه في تبريز.

٥٥- ذو الفقار علي بك: الحاكم الذي استولى على بغداد بعد قتل الحاكم إبراهيم خان - قتله أخوه بتحريض ووعود من الشاه طهماسب حيث

اغتاله في بيته مما أدى إلى سقوط بغداد بيد الفرس من جديد في حوالي عام ١٥٣٠ م.

٥٦- الوالي: يوسف باشا: والي بغداد قتل في عام ١٦٢١م. برصاصة طائشة في الصراع الدموي الذي حصل في بغداد بين جماعة بكر صوباشي وعدوه محمد قنبر.

٥٧- علي أغا: أرسله السلطان العثماني لاستلام مدينة بغداد من حاكمها بكر صوباشي لحين وصول الوالي الجديد سليمان باشا وحين وصوله إلى بغداد قتله بكر صوباشي.

٥٨- بكر صوباشي: حاكم العراق الدموي - قتله الشاه عباس عام ١٦٢٣ م. بعد احتلال بغداد. وقد تعرض إلى شتى أنواع التعذيب قبل موته - وكان ابنه محمد هو الذي خان والده وساعد الإيرانيين عندما فتح لهم باب القلعة ليلاً فدخلوا المدينة واحتلوها وقد حضر محمد بن بكر صوباشي حفلة تعذيب والده وقتله.

٥٩- بكتاش خان: والي بغداد الذي عينه الشاه عباس بعد دخوله بغداد وقد استسلم للسلطان العثمانى مراد بعد احتلال المدينة عام ١٦٣٨ بعد الميلاد إلا أنه قتل بعد بضعة أيام بالسم.

٦٠ - الأمير: سعدون شيخ المنتفق: أقام حلفاً عشائرياً واسعاً وتمرد ضد السلطة مدة أربع سنوات سيطر فيها على الفرات الأوسط والأسفل (وسط العراق) - قتل في المعركة مع جيش الحكومة بقيادة أحمد باشا - قطعوا رأسه وسلخوه وحشوه تبناً وأرسلوه إلى اسطنبول في عام ١٧٣٨ م.

٦١- الوالي: علي باشا: والي بغداد عام ١٧٦٣ م. حصلت ضده فتنة كبيرة وتمرداً واسعاً وعمت الفوضى والمظاهرات في بغداد - هرب متنكراً في زي امرأة والتجأ إلى أحد الدور في بغداد - قام صاحب الدار بالإبلاغ عنه فأخرجوه وقتلوه.

٦٢- عمر باشا: والي بغداد في عام ١٧٧٥ صدر أمر من السلطان العثمانى بإبعاده وتعيين مصطفى باشا بدلاً عنه غادر بغداد مع

بعض أصحابه وخيم في طريق الكاظمية خارج بغداد فأرسل الوالي الجديد مجموعة من الجنود ليهاجموه ليلاً فعلم بالأمر وهرب لكنه سقط من حصانه وانكسرت رقبته - عثر عليه أحد الجنود فقطع رأسه وجاء به إلى مصطفى باشا فأرسل الرأس إلى اسطنبول.

٦٣- **مصطفى باشا:** بقي والياً على بغداد مدة ثمانية أشهر عزل بعدها وسيق مخفوراً إلى ديار بكر وهناك قطع رأسه وحمل إلى اسطنبول.

٦٤- **أحمد أغا:** كان منافساً للوالي على باشا وقد أيدته بعض أحياء بغداد وبعد معارك شوارع عنيفة انتصر على باشا فاختفى أحمد أغا في أحد البيوت فخصصوا جائزة لمن يعثر عليه - عثروا عليه وقادوه للوالي الجديد فأمر بتقطيعه فقادوه إلى وسط حي الميدان ببغداد وقطعوه بالسيوف.

٦٥- **علي رضا باشا:** والي بغداد قتل وهو يصلي انقض عليه شخص اسمه مراد بك مع خدامه بالخناجر وقتلوه في الحال.

٦٦- **ناصيف أغا:** طالب بولاية بغداد عام ١٨٠٨ م. وقاد مظاهرة كبيرة توجهت للسراي مطالبة بتنصيب ناصيف أغا والياً هاجمهم جنود القلعة فتفرقوا - عبر ناصيف إلى جانب الكرخ من بغداد يطلب من الناس تأييده ومساعدته - انقلب عليه أهل الكرخ وقتلوه وشدوا في أرجله حبلاً وسحلوه في الأزقة وعبروا به نهر دجلة إلى جانب الرصافة والناس يتفرجون عليه.

٦٧- **سليمان باشا الصغير:** خرج على رأس جيش للدفاع عن بغداد لمواجهة جيش المدعو حالت أفندي - انقلب عليه جيشه وأصحابه وقتلوه عام ١٨١٠ م. وقطعوا رأسه وسلموها إلى حالت أفندي الذي سلخ الرأس وأرسله إلى اسطنبول.

٦٨- **عبد الله أغا التنونجي:** والي بغداد عام ١٨١٣ - قاد حملة ضد حلف العشائر في سوق الشيوخ وكان يريد قتل سعيد باشا الذي التجأ للعشائر هناك وبعد أن انتصر على العشائر انقلب عليه الجيش وقتله

هو والقائد العسكري المدعو طاهر أغا ورموا برأسيهما بين أقدام سعيد باشا والشيخ حمود الثامر.

٦٩- سعيد باشا: والي بغداد عام ١٧١٧ وهو ابن سليمان باشا الكبير. ضربوه بفأس عسكرية حادة وهو ملتجئ في حضن والدته داخل قلعة بغداد فتدحرج رأسه على الأرض وبقيت جثته في حضن والدته بدون رأس قتل عام ١٧١٧م.

٧٠- صادق أفندي: مبعوث السلطان العثماني محمد إلى بغداد بعد عزل داوود باشا - قتله مرافق الوالي المخلوع داوود باشا عام ١٨٣٠م. حيث خنقه بعقدة حمالة السيف في منزله ليلاً وأعلنوا أنه أصيب بالكوليرا.

٧١- قاسم باشا العمري: أرسل إلى بغداد مع قوة عسكرية لاستلام العاصمة من داوود باشا - استقبله أهل بغداد باحتفال فخم ثم انقلبوا ضده بعد بضعة أيام واحتلوا السراي وأسروه وقيدوه وألقوه في بئر داخل السراي عام ١٨٣١م.

٧٢- الشيخ: خزعل أمير الأهواز: خطفته القوات الإيرانية خلال دعوته إلى العشاء على ظهر يخت في شط العرب ثم سيق إلى طهران وتمت تصفيته.

٧٣- الملك: فيصل الأول: توفي فجأة في سويسرا، وهناك شكوك كثيرة تدور حول وفاته وتشير إلى أنه تعرض لعملية اغتيال بالسم والاتهامات في ذلك توجه نحو امرأة هندية جميلة في موضوع اغتياله.

٧٤- الملك: غازي الأول: ابن الملك فيصل الأول قتل في حادث سير بالسيارة مما أدى إلى سقوط عمود النور على رأسه فهشّم جمجمته، تشيع بين أكثر العراقيين قناعة بأن الملك غازي مات مقتولاً في مؤامرة دبرها الإنكليز ضده واشترك فيها عبد الإله ولي العهد ونوري السعيد.

٧٥- الملك: فيصل الثاني: قتل رمياً بالرصاص في ١٤ تموز ١٩٥٨ في الثورة التي قادها عبد الكريم قاسم وأتباعه، وكان قد استسلم رافعاً بيده القرآن والراية البيضاء قبل اطلاق الرصاص عليه - دفن في المستشفى العسكري في معسكر الرشيد.

٧٦- الأمير: عبد الإله:	كان ولياً للعهد لكنه الحاكم الفعلي في العراق قتل في ١٤ تموز ١٩٥٨ وقد سحل بعد قتله وقطعت أجزاء من جسمه وألقيت للجماهير التي تلاقفتها راكضة في الشوارع والأزقة - علق جسده في أكثر من مكان في المدينة ثم أحرق المتبقي منه وألقي في نهر دجلة.
٧٧- نوري السعيد:	قتل في تموز ١٩٥٨ وسحل في الشوارع - كان رئيساً للوزراء وحاكماً فعلياً في البلاد.
٧٨- الرئيس: عبد الكريم قاسم:	أعدم رمياً بالرصاص عام ١٩٦٣ في مبنى الإذاعة العراقية مع عدد من رفاقه المسؤولين دفن في خارج بغداد ثم أخرج من القبر في اليوم التالي وألقي جثمانه في نهر ديالى قرب التقائه بنهر دجلة بعد أن أثقلت الجثة بالأحجار لتغوص في قاع النهر.
٧٩ ـ الرئيس: عبدالسلام عارف	قتل في حادث طائرة عام ١٩٦٦م وهناك شكوك حول ظروف مقتله[1] قتل معه جميع افراد الوفد الحكومي واحترقت جثثهم وتفحت.

ولعل بإمكان القارئ الآن أن يستنتج بأن هذا الجدول بأسماء الحكام العراقيين القتلى هو بحد ذاته يشكل مهرجاناً مرعباً للموت والقتل والقسوة والهمجية.

ولعل من الطريف ان نذكر بأننا وجدنا خلال اعدادنا لهذه القائمة بأسماء الحكام القتلى أن أشهر الحكام العراقيين العتاة المعروفين بالجبروت والدموية والقسوة الفائقة والنزوع الدائم نحو العنف في التاريخ العراقي لم يموتوا قتلاً كما هو متوقع، بل امتد بهم العمر وماتوا على الفراش موتاً طبيعياً. ومن أولئك شلمنصر الثالث (٨٥٨ ـ ٨٢٤ ق.م) الذي كان مولعاً بالحروب، وتجلات بلاصر الثالث وآشور بانيبال (٦٥٢ ــ ٦٤٢ق.م) والحجاج بن يوسف الثقفي (٦٩٤م) وأبو العباس السفاح (٧٥٠م) وآخرين.. وهذه مفارقة غريبة.ربما تدعو للتساؤل حول سلوك شعب وادي الرافدين إزاء الحكام الأقوياء وربما اعجابه بهم!..

١ ـ فيصل حسون ، مصرع المشير الركن عبد السلام عارف، دار الحكمة – لندن، ص٣١-٥٩-٦٤-٨١.

٥ ـ التنكيل والاضطهاد للشعراء والمفكرين وأصحاب المذاهب الكبرى:

كان من بين الظواهر التي يمكن رصدها وملاحظتها في التاريخ العراقي القديم والحديث والتي برزت نتيجة شيوع منهج العنف الدموي في الحياة العراقية هي كثرة الحوادث والوقائع الدالة على انزال العقوبات المختلفة ومن بينها الاضطهاد والتنكيل والقتل والسحل والتصفيات المريرة القاسية بحق عدد كبير من المفكرين والشعراء والكتاب وأصحاب المذاهب الكبرى.

كذلك فقد تعرض عدد غير قليل من الصحابة ورواة الحديث ومقرئي القرآن إلى الضرب والإهانة والتعذيب والسجن والتنكيل وقطع الرقاب، ومما يلفت النظر ويثير الاستغراب أن ذلك لم يقتصر على شخص أو مذهب أو اتجاه أو رأي أو اجتهاد دون آخر بل شمل جميع المذاهب والاجتهادات على تباينها واختلافاتها، وإذا أردنا الاستشهاد بأبرز تلك الوقائع، فبإمكاننا أن نذكر مقتل الزبير بن العوام وطلحة في البصرة ومقتل الإمام علي بن أبي طالب في الكوفة وجرح الإمام الحسن بن علي وإهانته ونهب متاعه ومقتل الحسين بن علي في كربلاء ومقتل سعيد بن جبير على يد الحجاج والتهديد بالقتل للصحابي عبد الله بن عمر بن الخطاب في الكوفة أيام الحجاج ثم مقتل زيد بن علي (زين العابدين) بن الحسين عام ١٢٢هـ/٧٤٤م في الكوفة (مؤسس نظرية المذهب الزيدي أقرب المذاهب الشيعية إلى السنة)، حيث أرسل رأسه إلى الشام بينما صلبت جثته بالكوفة زمناً طويلاً ثم أحرق وذريَّ رماده في الفرات، كذلك مقتل مصعب بن الزبير وقطع رأسه في العراق، ثم مقتل إبراهيم بن عبد الله في البصرة وهو من أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب بعد أن ثار باسم العلويين في البصرة مع أخيه محمد (ذو النفس الزكية)

الذي ثار في مكة أيام الخليفة أبي جعفر المنصور، واعدام احمد بن نصر الخزاعي أبرز رواة الحديث في العصر العباسي.

اما الشعراء فقد شملهم التنكيل والقتل في العراق على نطاق واسع، ومن أولئك: الشاعر طرفة بن العبد الذي قتله والي البحرين بأمر من الملك عمرو بن هند، حاكم العراق قبل الاسلام في مدينة الحيرة، والشاعر أعشى همدان الذي قتله الحجاج بن يوسف في الكوفة، والشاعر الكميت بن زيد الأسدي الذي قتل في بلاط والي العراق يوسف بن عمر الثقفي في الكوفة في عهد الأمويين، والشاعر سُديْف بن ميمون الذي قتل بأمر من الخليفة أبي جعفر المنصور ، والشاعر بشار بن برد الذي قتله الخليفة المهدي بتهمة الزندقة ثم بكى عليه بعد أن تأكد من براءته بعد موته، والشاعر أبو نخيلة الذي قتله عيسى بن موسى ولي عهد الخليفة المنصور، والشاعر ابن الرومي الذي قتله الوزير العباسي القاسم بن عبيد ا لله بالسم، والشاعر صالح بن عبدالقدوس الذي قتله الخليفة الرشيد، والشاعر دعبل الخزاعي الذي هجا الخلفاء العباسيين فقتلوه بالسم، والشاعر علي بن جبلة الذي قتله الخليفة المأمون بقطع لسانه من الحنجرة، والشاعر المتصوف الحسين بن منصور الحلاج الذي قتل وأحرقت جثته في أيام الخليفة المقتدر، والشاعر أبو الينبغي الذي مات في السجن أيام الخليفة الواثق، والشاعر المتنبي الذي قتل ونهبت أمواله وخيله وحاجياته، والشاعر الفضل بن سهل الذي اغتاله الخليفة المأمون وكان وزيراً من وزرائه، والشاعر محمد بن عبدالملك الزيات الذي قتله المتوكل داخل تنور من حديد.

أما الكتاب والأدباء ، فقد نكل بعدد غير قليل منهم، ومن أولئك: الكاتب المعروف ابن المقفع، مؤلف كتاب كليلة ودمنة، الذي قتل بأمر الخليفة المنصور، حيث قطّع جسده وألقي في تنور مشتعل، والعالم اللغوي النحوي يعقوب بن السكّيت الذي قتله الخليفة المتوكل بقطع لسانه من الحنجرة، وكذلك مقتل المفكرة والداعية الإسلامية الشاعرة الجميلة (قرة العين) بعد أن سجنت وطردت من العراق الى ايران.

وإضافة إلى ذلك، فقد قتل عدد من قادة الثورات والانتفاضات ذات الإتجاه الفكري مثل قادة ثورة الزنج وثورة القرامطة وغيرهم.

أما أصحاب وقادة المذاهب الإسلامية الكبرى المعروفون، فقد تعرضوا إلى صنوف الأذى والقهر والإذلال والإهانة والتعذيب، ولم يسلم أحد منهم من ساطور العنف في العراق، وسنقوم باستعراض معاناتهم والإضطهاد الذي تعرض له كل واحد منهم خلال حياته في العراق وهم:

الإمام أبو حنيفة النعمان بن بشير: ٧٠٠ ـ ٧٦٧م

هو مؤسس المذهب الحنفي الذي يعتمد اعتماداً كبيراً على الاستدلال القياسي من القرآن توسيعاً لنطاق الشريعة. وكان أبو حنيفة إمام أهل الكوفة. وقد تعرض في حياته إلى الإهانة والجلد والحبس على يد يزيد بن هبيرة الفزاري، حاكم العراق في أواخر أيام الدولة الأموية، لأنه رفض تسلم منصب القضاء، وقد ضربه مئة سوط أمام الناس في كل يوم عشرة اسواط كذلك أهين وجلد وسجن في العهد العباسي بعد أن طلب منه أبو جعفر المنصور تسلم القضاء، فرفض وقد بقي في السجن حتى مات عام ٧٦٧م.

الإمام مالك بن انس الأصبحى: ٧١٣ ـ ٧٩٥م

وهو إمام دار الهجرة بالمدينة ومؤسس المذهب المالكي الذي يعتمد في أحكامه الشرعية اعتماداً كبيراً على الحديث، لقد أهين الإمام مالك بالجلد والحبس أيام الخليفة أبي جعفر المنصور لأنه أفتى بجواز الخروج على بيعة المنصور.

محمد بن إدريس الشافعي: ٧٦٧ ـ ٨٢٠م

وهو مؤسس المذهب الشافعي ويتميّز هذا المذهب بتقييد اللجوء إلى الرأي الشخصي، ولكنه لم يسرف في الاعتماد على الحديث «وهو الذي استنبط علم أصول الدين»[١] وقد أيد الإمام الشافعي ثورة العلويين في مكة بقيادة يحيى بن علي أيام هارون الرشيد وبعد القضاء على الثورة اعتقل الإمام الشافعي مع جماعة من العلويين وجاءوا بهم إلى هارون الرشيد في بغداد، فأمر بإعدامهم جميعا، غير أن الفضل بن الربيع وزير الرشيد الذي صادف وجوده في ذلك المجلس قد تشفع

---

١ ـ تاريخ الأدب العربي / الأعصر العباسية/ د. عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، ص١٧١

للإمام الشافعي وطلبه من الرشيد فاستثناه من الإعدام وعفا عنه بينما اعدم الآخرون ممن كانوا معه فوراً وبعد نجاته من ذلك المغطس الدموي العراقي ذهب الإمام الشافعي إلى مصر، وتوفي فيها ودفن بالفسطاط وهناك قبره.

الإمام أحمد بن حنبل: ٧٨٠ ـ ٨٥٥م

وهو مؤسس المذهب الحنبلي - ولد ببغداد عام ١٦٤هـ وكان إمام المحدثين ومن أصحاب الإمام الشافعي[١] وقد « رفض اصطناع الرأي الشخصي واعتمد كل الاعتماد على القرآن والحديث إنه مذهب مغالٍ في المحافظة على السنة»[٢] وقد أهين الإمام أحمد بالضرب والحبس أيام المعتصم بعد أن رفض القول بخلق القرآن حيث جلده في بغداد ثمانية وثلاثين سوطاً حتى سال منه الدم وتعددت جراحاته لكنه لم يرضخ لرأي الخليفة فأعيد إلى السجن وبعد وفاة المعتصم جاء الخليفة الواثق فأمر بمنعه من الخروج من داره وبقي محبوساً في داره طيلة حكم الواثق فلما توفي الواثق وجاء المتوكل أخرجه من داره[٣].

كان هذا اختصاراً شديداً ومكثفاً لنماذج من الأحداث والوقائع التي تتصل بمعاناة القادة المسلمين الأخيار من المفكرين والأئمة والمجتهدين والعلماء والفلاسفة وأصحاب المذاهب وذوي الرأي والاجتهاد، وما لاقوه في العراق من عنف واضطهاد.

ومن المؤلم أن بعض أولئك القادة والأئمة لم يسلم من الأذى والاعتداء في هذه البلاد حتى بعد مماته فقد روي أن جثمان الإمام علي بن أبي طالب قد نقل من قبره إلى قبر آخر حتى لا يتعرف الخوارج على مكانه[٤] خوفاً أن ينبشوه ويعبثوا به. أما قبر الحسين بن علي فقد هدمه الخليفة المتوكل بعد ما يقرب من مائة وسبعين عاماً من مقتله وأزاله من الوجود وهدم البيوت والمساكن القريبة منه وحرث موضع القبر والأرض المحيطة به ثم زرعها وسقاها حتى يطمس كلياً معالم القبر ومكانه.

---

١ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان، ج١ ، دار صادر، بيروت، ص٦٤

٢ ـ روم لاندو، الإسلام والعرب، دار العلم للملايين، بيروت، ص٢٠٩.

٣ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان، ج١، مصدر سابق، ص٦٤.

٤ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص١٧٦.

أما قبر الإمام أبو حنيفة النعمان بن بشير فقد هُدِّم وخرّب وأُزيل من الوجود في بغداد بعد وفاته بحوالي ثمانمائة وخمسين عاماً (٨٥٠ سنة)، وكان ذلك في عام ١٦٢٣ وقد طمست معالم القبر حتى وجد المكلفون ببنائه وتشييده مرة أخرى بعد فترة من الزمن صعوبة كبيرة في التعرف على مكانه، كما تعرض قبر الشيخ عبد القادر الكيلاني للهدم والتخريب والاعتداء كذلك هدم قبر طلحة وقبر الزبير بن العوام في البصرة في القرن الثامن عشر للميلاد أي بعد أكثر من ألف عام على وفاتهم...

ولعل من حق المرء أن يتساءل: أي عنف كثيف مرعب يستحكم فوق أرض العراق لا يمكن أن تسلم من أذاه وتخريبه وأحقاده حتى قبور الأموات؟ الذين دفنوا تحت التراب منذ مئات السنين.

غير أنه من جانب آخر فإن عدداً من تلك القبور التي تعرضت للعبث والإهانة قد أعيد تكريمها على أرض العراق ذاتها وعلى نحو بالغ وهائل من التقدير والإجلال والتعظيم والاحترام في فترات متفاوتة من الزمن وبطبيعة الحال فإن المقصود بذلك التكريم هو أصحاب تلك القبور فقد أعيد بناء جميع تلك الأضرحة والقبور التي هدمت وأقيم فوقها مراقد ومزارات فخمة تعتبر من آيات الفن الإسلامي في الهندسة المعمارية وصورة من صور الإبداع والزخرفة الهندسية في العالم.

إن عظمة المقامات الضخمة التي تقف اليوم شاخصة بفخامتها المذهلة في العراق مثل مقام الإمام علي بن أبي طالب في النجف، ومقام الحسين بن علي في كربلاء ومقام أبي حنيفة النعمان والشيخ عبد القادر الكيلاني وموسى الكاظم في بغداد ومقام الزبير بن العوام في البصرة وغيرها كثير ما هي إلا شواهد ناطقة تؤكد قوة ومجد هذه البلاد العريقة وهي في ذات الوقت تمثّل، في وجه من الوجوه، صورة من صور التناقض والازدواجية الحادة في معالم الشخصية العراقية ببعدها الاجتماعي والنفسي والسلوكي تلك الشخصية المتسرعة والمسرفة دائماً في سيرها المتناقض نحو البغض والمحبة نحو الانتقام والتسامح نحو القسوة والرقة نحو البخل والكرم نحو البناء والهدم فهي بذلك كما قال الشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري:

تريك العراقي في الحالتين مسرفٌ في شحّه والندى.

٦ ـ ظاهرة زوال المدن العراقية وموتها السريع (انتحار المدن)

إن القسوة الشديدة والمستوى المتناهي من الشراسة الدموية الذي نفذ في العراق خلال مسيرة الحياة والتاريخ في وادي الرافدين قد أدى إلى وجود ظاهرة قد تحمل بعض الخصوصية العراقية، تلك هي ظاهرة الموت المفاجئ للمدن في العراق.

فبالرغم من أن زوال المدن واندثارها هي حقيقة تاريخية موجودة في جميع بلدان العالم تقريباً وعلى مر العصور إلا أن الزوال السريع والمفاجئ الذي اندثرت فيه بعض المدن في العراق يجعل ذلك الزوال والاندثار أقرب إلى الموت أو الانتحار الفجائي ويعطيه بعض الخصوصية العراقية، فالطريقة التي زالت فيها مدينة نينوى عام ٦١٢ ق.م من الوجود إثر خسارتها في الحرب خلال الهجوم الذي شنته عليها جيوش الحلف الميدي البابلي في وقت واحد هي أشبه بالإنتحار. فقد كان الدمار والخراب الذي تركته تلك الجيوش في هذه المدينة شديداً وبالغاً إلى الحد الذي لم يستطع معه القائد الإغريقي زينفون الذي مر بجيشه من هناك بعد فترة من الزمن أن يتعرف حتى على مكانها[١]. لقد ماتت تلك المدينة العراقية موتا قسرياً صاعقاً في الوقت الذي استمرت فيه الحياة بالمدن الأخرى الأقدم منها تاريخياً أو تلك المعاصرة لها زمنياً في بلاد وادي الرافدين ذاتها وهذا يدل أن العنف الدموي هو السبب في زوال هذه المدينة وتوقف الحياة فيها بعد موتها الفجائي، كذلك كان زوال مدينة المختارة العراقية (عاصمة ثورة الزنج) من الوجود عام ٢٧٠هـ/٨٨٣م بعد سقوطها عسكرياً هو أقرب إلى الانتحار أيضاً حيث أبيد جميع سكانها على وجه التقريب وخربت جميع مرافقها وبيوتها إثر احتلالها من قبل الجيش العباسي بعد صمودها ومقاومتها مدة أربعة عشر

---

١ ـ فيليب حتي، خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى، ج١ ، مصدر سابق، ص٧٠.

عاماً. وكان حجم التدمير الساحق الذي تعرضت له بعد سقوطها واحتلالها، كافياً لاخراجها من التاريخ إلى الأبد.

أما زوال واندثار مدينة (المدائن) عام ٦٣٧م الواقعة إلى الجنوب من بغداد والتي كانت العاصمة الشهيرة للدولة الفارسية الساسانية قبل الفتح الإسلامي فإن أسبابه ودواعيه كانت سياسية بالدرجة الأولى نتيجة التحول السريع الذي جرى في حكم العراق إثر الفتح الإسلامي وسقوط (المدائن) عسكرياً وهروب أكثر السكان منها وانتقال إدارة الحكم في العراق إلى عواصم ومقرات ومدن أخرى كالأنبار والكوفة وواسط وبغداد.. لذلك فإن تراجع هذه المدينة وزوالها فيما بعد كان سريعاً أيضاً بشكل يتناسب مع عنف الأحداث المرافقة لذلك التحول والذي نعني به الفتح الإسلامي.. إضافة إلى الضرورات الجديدة التي اقتضاها وجود عاصمة الحكم قرب القبائل العربية المسلمة الموالية للحكم الجديد وضرورة ارتباطها بالصحراء كعمق استراتيجي عسكري يؤمن خطوط الاتصال والتراجع إلى الصحراء الواسعة عند الضرورة وللإبقاء على خطوط الإمداد مع الجزيرة العربية حيث المقر الرئيسي لقيادة الدعوة الإسلامية خلال الفتوحات الأولى.. ولعل من أبرز الأسباب الذي أفقدت المدائن تلك الميزة التي يمكن أن تجعلها من جديد عاصمة لحكم العراق في العهد الإسلامي وقوعها إلى الشرق من نهر دجلة الذي يقطع اتصالها المباشر بصحراء جزيرة العرب.

كذلك زالت من الوجود مدن عراقية أخرى قديمة مثل سومر وأكاد ولكش وكيش وبابل لأسباب وعوامل مختلفة متباينة كالأسباب الاقتصادية أو الدينية أو الجغرافية أو العسكرية، غير أن الأسباب الأخيرة ونعني بها الحروب والاحتلال والدمار والإبادة والسحق وكافة أشكال العنف الدموي الذي كانت تتعرض له المدن العراقية على يد الجيوش الغازية هي الأسباب الأكثر شيوعاً وتأثيراً وبروزاً بين تلك العوامل الأخرى.

أما مدينة واسط، فعلى الرغم من الرحيل الهادئ الذي زالت فيه من الوجود وعلى نحو تدريجي في أوائل العهد العثماني بعد ابتعاد مجرى نهر دجلة عنها وجفاف مجراه القديم[1] ، إلا أن موتها الحقيقي قد بدأ بعد وفاة الحجاج بن

---

١ ـ مجموعة باحثين، العراق القديم، مصدر سابق، ص٦٠٠

يوسف وانطفاء دورها السياسي والعسكري كمركز تعبوي لتنفيذ سياسة الحجاج الدموية الصارمة في العراق لذلك فقد كان وجودها ورحيلها مرتبط بشكل من الأشكال مع منهج العنف الدموي المنفذ في العراق.

ومن جانب آخر، فإن طول الفترة الزمنية التي دامت فيها الحروب الدموية الطاحنة التي جرت فوق أرض العراق في الصراع بين الدولتين العثمانية والفارسية، قد انعكس انعكاساً سيئاً ومدمراً على حياة الكثير من المدن العراقية خصوصاً المدن الحدودية أو التي تقع في مناطق الممرات الإجبارية لزحف الجيوش بين الدولتين المتنازعتين إضافة إلى ذلك فإن عدم الاهتمام الذي أبداه العثمانيون بشؤون العراق عامة وعدم وجود الرغبة لديهم بتطوير الأوضاع في هذه البلاد قد جعلت نظرتهم إلى المدن العراقية لا تتعدى استخدامها قلعة أو مركزاً عسكرياً أو محطات للحراسة وللإشراف على أمور الأراضي وجمع الغلال وإرسالها إلى العاصمة المركزية...

لذلك ونتيجة لشيوع العنف الدموي وتواصل الحروب والفتن والاضطرابات وفقدان الأمن وانهيار النظم الإدارية والزراعية وتخريب شبكات الري والأقنية وتعاظم الفيضانات وتكرر حدوث المجاعات ومجازر الإبادة الطائفية فقد أدى ذلك إلى تدهور أوضاع المدن العراقية في العهود العثمانية مما تسبب في موت بعضها واندثارها وزوالها كلياً من الخارطة بينما أدى إلى ضمور وانكماش وتراجع عدد آخر من المدن وتقلص مساحتها وسكانها ودورها الاقتصادي والسياسي والحضاري.

فبالإضافة إلى موت مدينة واسط التي تحدثنا عنها آنفاً زالت من الوجود مدينة (الرماحية) «التي يرتقي تاريخ إنشائها إلى القرن الرابع عشر»[1] وهي مدينة كانت قريبة من النجف على نهر الفرات حيث أدى تحول مجرى النهر إضافة إلى الحروب الطاحنة في منطقة الفرات الأوسط المحيطة بها إلى ضمورها وزوالها. وفي اعتقادنا أن المعركة الرهيبة التي جرت في جنوب الرماحية عام ١٧٠١م ربما كانت من الأسباب المباشرة في موت هذه المدينة واضطرار سكانها إلى هجرها. تلك المعركة التي جرت بين عدد من العشائر الواقعة في منطقة الفرات الأوسط

---

١ ـ المصدر السابق، ص٦٠٠

وبين الجيش العثماني الذي قام بمجزرة بشرية مرعبة بعد إلحاقه الهزيمة بالعشائر تاركاً في ساحة المعركة هرماً كالحاً من جماجم القتلى وصنع رابية من جثثهم التي جمعها في ميدان المعركة كما أشرنا إلى ذلك في مكان آخر من هذا الكتاب.

كذلك زالت من الوجود بعض المدن التي يرد ذكرها في المصادر والكتب القديمة مثل مدينة حلوان وإربل ومدن منطقة النهروان. أما المدن العراقية الكبيرة المعروفة فقد صغرت وتقلص حجمها وقل عدد سكانها والمساحة المسكونة فيها فمدينة الموصل تقلص حجمها إلى النصف[١] أما بغداد «فقد وصفت في هذه الحقبة بأنها مجموعة من الأزقة الضيقة والبيوت المتهدمة وخربت معظم جوامعها»[٢] وهبط عدد سكانها عام ١٨٣١م من ٨٠ ثمانين ألف نسمة إلى ٢٧ سبع وعشرين ألف نسمة[٣].

«ولم تكن البصرة أحسن حالاً فقد أدت أعمال العنف والتدمير التي تعرضت لها المدينة إبان القرنين الرابع عشر والخامس عشر وإهمال العناية بأنهارها العديدة إلى إحاطة مياه المستنقعات وانتشار الأمراض فيها وخاصة الطاعون فتركها أهلها تدريجياً»[٤]

وهكذا لم يكن الإنسان وحده في العراق من يتعرض للقتل والإبادة والحروب والموت القسري خلال مسيرة العنف الدموي فيه، بل المدن والحواضر هي الأخرى تعاني الموت والإبادة والاندثار والقتل المتعمد. وإذا اردنا ان نكون منصفين وواقعين في ذات الوقت، فبإمكاننا ان ننظر الى موضوع حياة وموت المدن العراقية في التاريخ من جانب آخر، ومن وجهة نظر أخرى حيث ان شيوع منهج العنف الدموي في الحياة العراقية وتلازمه مع أكثر الأحداث العامة في بلاد وادي الرافدين قد جعل المدن العراقية تنقسم الى نوعين من المدن، ويمكن تسمية النوع الأول: المدن القاتلة، والنوع الثاني: المدن القتيلة.

---

١ ـ المصدر السابق، ص٦٠١

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ حنا بطاطو، العراق ـ الكتاب الأول، ترجمة عفيف الرزاز في الجدول الخاص بالكوارث التي حلت ببغداد خلال القرون ١٧ ـ ١٨ ـ ١٩ /موسسة الأبحاث العربية ـ بيروت، ص ٣٤.

٤ ـ ،مجموعة باحثين ، العراق في التاريخ، ص٦٠١

فإذا تتبعنا احداث العنف العامة والواسعة في فترات مختلفة من التاريخ، ورصدنا مراكز انبعاثه وانطلاقه وسريانه، فإننا سنجد أن عدداً من المراكز الإقليمية وهي مدن عراقية معروفة قد تخصصت بدور نشيط وواسع واستثنائي في نشر وتعميم احداث ونشاطات العنف الدموي في أرجاء وادي الرافدين، وفي بعض الأحيان استطاع بعضها ان ينشر العنف في عموم منطقة الشرق الاوسط وشمال افريقيا بأكمله، واستمر نشاطها على هذا المستوى التخريبي المدمر كمركز اشعاع للعنف الدموي متأججاً وفعالاً فترة غير قصيرة من الزمن فيؤدي الى احداث تدمير وخراب واسع النطاق في المجال المدني والحضاري والثقافي والانساني ، وعندما نجد او نلاحظ ان مثل هذا النشاط قد خف او توقف وانقطع نهائياً فبامكاننا أن نتأكد ان تلك المدينة لابد وان تكون قد ضعفت وتراجعت او تعرضت للاندحار العسكري والاقتصادي والبشري (حيث كان يتم ابادة السكان او بيعهم او ترحيلهم بعد اندحار جيشهم)، وفي أغلب الأحيان تكون قد خرجت من التاريخ الى الأبد بعد أن تحولت الى مدينة (قتيلة) بسبب نشاطها العدواني المدمر ضد المدن الأخرى منذ البداية.

وهناك مدن كثيرة في وادي الرافدين سارت وفق هذا المنهج ووصلت الى ذات المصير.

وقبل أن نبدأ باستعراض المدن التي لاقت هذا المصير، نود أن نشير بأن القاسم المشترك في هذا الموضوع هو شيوع منهج العنف الدموي الذي يشترك ليس في تهيئة المقدمات الاولى فحسب ، بل في ترتيب النتائج النهائية. فهو موجود في المقدمات وفي النتائج. فالمدينة (القاتلة) تبدأ باستخدام العنف الدموي وممارسته ضد غيرها على نطاق واسع ، وعندما تتعرض، بسبب استخدامها للعنف، الى عنف دموي أقوى واوسع وأشد شراسة وجبروتاً فانها سرعان ما تتحول الى مدينة قتيلة تندثر تحت ركام الخراب الشامل فهي بذلك تكون أشبه بالمدينة المنتحرة.

ولتوضيح هذا الميزان الخطر في علاقة المدن العراقية بموضوع العنف الدموي نبدأ بسرد الامثلة على ذلك مع بعض التوضيحات المختصرة لدور تلك المدن منعاً للاطالة:

١ ـ آشور ونينوى:

فمدينتي أشور ونينوى مثلاً وهما عاصمتان للآشوريين قد أخذتا دوراً رهيباً في نشر الإرهاب والقتل وسفك الدماء والمجازر الجماعية وتدمير المدن وحرقها على مدى أكثر من ستة قرون من الزمان على الرغم من وجود مدن أخرى معاصرة لها في وادي الرافدين مثل بابل وسومر ولكش وكيش وأور إلا أن أشور ونينوى هما اللتان كانتا تنفردان تقريباً برفع راية العنف الدموي عالياً ليس في وادي الرافدين فحسب بل في أكثر بلدان المنطقة آنذاك و لم يتوقف إشعاع العنف المنبعث من هاتين المدينتين إلا بعد تدميرهما بالكامل وانتهاء دور الآشوريين وغروب شمسهم. حيث دمرت مدينة آشور وأبيدت في عام ٦١٤ ق.م أما نينوى فقد تم تدميرها وحرقها ونهبها وابادة سكانها عام ٦١٢ ق.م في الهجوم الميدي البابلي في معركة واحدة كانت اشبه بالانتحار فزالت من التاريخ الى الأبد.

٢ ـ مدينة أكاد:

وكذلك كان لمدينة أكاد ـ وهي عاصمة الإمبراطورية الأكادية عام ٢٣٥٠ قبل الميلاد ـ دورها النشيط في نشر العنف الواسع في وادي الرافدين والمنطقة عموماً رغم وجود المدن الأخرى المعاصرة لها

٣ ـ مدينة بابل:

ولا تختلف مدينة بابل كثيراً عن ذلك الدور خصوصاً في عهد الإحياء البابلي ومساهمتها النشيطة في سحق الإمبراطورية الآشورية وتدمير أشور وإبادتها وانتقالها في زمن نبوبلاصر وابنه نبوخذ نصر الثاني إلى نشر الجيوش وخوض الحروب المتواصلة في كل الاتجاهات ناقلة العنف الدموي إلى أكثر بلدان ومدن المنطقة و لم يتوقف هذا الدور إلا بعد سقوط بابل ووقوع العراق تحت السيطرة الفارسية، عام ٥٣٩ ق.م.

٤ ـ مدينة الحيرة:

وكذلك مدينة الحيرة التي أصبحت عاصمة للمناذرة، فبالرغم من دورها الثانوي والرديف على تخوم الإمبراطورية الفارسية إلا أنها بقيت فترة غير قصيرة واحدة من المراكز المشعة لمنهج العنف المترافق بالفتن والدسائس الدموية على

الصعيدين الفردي والجماعي رغم وجود المدن العراقيّة الأخرى التي تفوقها حجماً وحضارة ودوراً سياسياً كالمدائن وغيرها

إن صوت العنف الدموي كان مسموعاً منها أكثر من غيرها على مدى مئتي عام تقريباً.

٥ ـ مدينة الكوفة:

أما الكوفة فإنها قد أخذت دوراً كبيراً ومتجدداً في تحريك موجات العنف الدموي في العراق وتأجيج النشاطات ذات الطابع التصفوي لفترة زمنية طويلة نسبياً حيث برز دورها الدموي في البداية عند نشوب الصراع العسكري بين الإمام علي والخوارج ثم دورها في مذبحة كربلاء الدموية ثم تحولها إلى مركز رئيسي هام لإشعاع العنف في الفترة التي اتخذها المختار بن عبيد الثقفي مركزاً لنشاطاته الإدارية والعسكرية لتطبيق شعاره الحماسي في المطالبة بثارات الحسين والمباشرة بتنفيذ حملته التصفوية الدموية الواسعة ضد قادة وعناصر الجيش الأموي الذين شاركوا في معركة كربلاء وقتله المئات منهم وكان بينهم (والي) العراق الأموي عبيد ا لله بن زياد وقائد الحملة العسكرية عمرو بن سعد الذي حاصر موكب الحسين في كربلاء وكثير من أتباعهم، وبذلك ارتفعت رايات العنف الدموي في أكثر من بقعة في العراق نتيجة تلك الحملة التي كانت الكوفة مركزها القيادي. وبتصميم ثابت على الأخذ بالثأر والانتقام حتى النهاية كان رجال المختار قد رصدوا وراقبوا وتتبعوا باستقصاء دقيق الآلاف من الأشخاص الذي ساهموا في مذبحة كربلاء وقاموا بقتل المسيئين منهم في المدن المختلفة وقطع رؤوسهم وإرسالها إلى المختار. وقد توقف دور الكوفة في إشعاع العنف الدموي فترة قصيرة بعد انهيار العلاقة بين المختار وبين ابن الزبير ومقتل المختار في الحرب الطاحنة التي دارت بالكوفة ذاتها بينه وبين مصعب بن الزبير والتي أقدم فيها مصعب على قتل جميع الأسرى من جماعة المختار وعددهم خمسة آلاف أسير بعملية دموية بالغة البشاعة بعد أن قطع رأس المختار وأرسله إلى أخيه عبد ا لله بن الزبير في مكة ثم قطع يده (المختار) وعلقها على باب مسجد الكوفة...

ولكن سرعان ما عادت الكوفة مرة أخرى مركزاً لإشعاع العنف الدموي عندما اتخذها الحجاج مقراً رسمياً له في بداية حكمه للعراق قبل بنائه مدينة واسط وانتقاله إليها.

٦ ـ مدينة واسط:

أما واسط وهي المدينة التي بناها الحجاج سنة ٨٣ هجرية[1] حوالي ٧٠٣م لتكون مقراً لقيادته وحكمه ومعسكراً لجيوشه وجنوده واتباعه، فإن دورها الدموي قد برز بوضوح كامل وعلى نطاق واسع عندما أصبحت عاصمة لولاية العراق بعد أن أناط بها الحجاج رسمياً مسؤولية تنفيذ سياسته التي انتهجها في الإرهاب والعنف الدموي لتثبيت حكم الدولة الأموية في العراق لذلك فإن منهج العنف والدموية والإرهاب هو الأسلوب الرسمي الذي أدارت به واسط شؤون العراق والولايات لتابعة له في فترة حكم الحجاج الذي مارس القسوة المتناهية في تنفيذ أساليب التنكيل التصفوي وذلك بالاعدامات المتواصلة والقتل وسفك الدماء كما أذل وأهان وضرب وشتم وحبس عدداً كبيراً من الصحابة والتابعين وأكابر القوم والآلاف من عامة الناس.. وربما لسنا بحاجة للدخول في تفاصيل حكم الحجاج وأسلوبه في الإدارة السياسية والعسكرية لولاية العراق فهناك المئات من الشواهد والروايات والأحداث المتسمة بالقسوة والدموية والشراسة التي كانت مدينة واسط مسرحاً لها ومقراً رسمياً لتنفيذها وهي أحداث وروايات معروفة ومكررة في صفحات الكتب التاريخية.. و لم يتوقف دور مدينة واسط كمركز للإشعاع الدموي إلا بعد وفاة الحجاج وانطفاء موجة العنف التي أججها منهجه في تثبيت حكم الأمويين في العراق.

٧ ـ مدينة الأنبار:

أما الأنبار فقد تولت مهمة نشر العنف الدموي وتعميمه في العراق وعموم المنطقة في الفترة التي اختارها أبو العباس السفاح لتكون عاصمة له في الأيام الأولى لانتصار العباسيين بعد انهيار الدولة الأموية عام ٧٥/٥١٣٢م وبالرغم من قصر المدة التي تولت فيها الأنبار رفع رايات العنف الدموي إلا أن ذلك العنف كان مركّزاً وشرساً وعنيفاً إلى الحد الذي استطاعت فيه الأنبار العاصمة المؤقتة للعباسيين أن تنظم موجة هائلة الاتساع من التصفيات الدموية ذات الطابع الفئوي في توقيت واحد شمل جميع العواصم والبلدان في منطقة شمال إفريقيا

---

١ ـ تاريخ الطبري ج٦ ص٣٨٣ – دار التراث – بيروت – ويروي الطبري حادثةً قتل فيها أحد الجنود الأمويين الذين تعرضوا لإحدى النساء في مدينة الكوفة، واعتبرها السبب في قيام الحجاج ببناء مدينة واسط.

وشرق البحر المتوسط والخليج.. فالمجازر والتصفيات الدموية التي استهدفت القضاء على الأمويين وإبادتهم في آن واحد في كل من الشام ومصر والأهواز وخراسان واليمن ومكة والبصرة والكوفة هي واحدة من موجات العنف الدموي الفريدة في التاريخ بتوقيتها وتصميمها وحجمها وقسوتها، فقد تمَّ إبادة الأمويين وأتباعهم ومناصريهم بعنف وإصرار في جميع المدن والبلدان التي ذكرناها أعلاه بأوامر كانت تصدر من غرفة العمليات المركزية التي أقامها السفاح في مدينة الأنبار في الأيام الأولى لانتصار العباسيين إثر اندحار الجيش الأموي أمامهم على ارض العراق في منطقة الزاب الأعلى.

٨ ـ مدينة المختارة:

كذلك كان لمدينة المختارة (جنوب البصرة) دور دموي واسع النطاق في وادي الرافدين وهي العاصمة المركزية لثورة الزنج الشهيرة التي انطلقت في العصر العباسي الوسيط أيام الخليفة المعتمد، الثورة التي دامت أربعة عشر سنة متواصلة من عام ٨٧٠م إلى عام ٨٨٣م. وتقع المختارة على نهر أبي الخصيب جنوب البصرة في موقع حصين للغاية تحيط بها مساحات واسعة من غابات النخيل الكثيفة التي تتخللها شبكة معقدة من عشرات بل مئات من الأنهر الكبيرة والمتوسطة والصغيرة والأقنية الفرعية المتشابكة التي تتفرع من النهر الأساسي الكبير المسمى حالياً شط العرب. وقد أتى ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ على وصف المختارة، التي كانت مقراً لقائد ثورة الزنج علي بن محمد، وذلك من خلال وصفه لحصارها وسقوطها عام ٢٧٠هجري/ ٨٨٣م بيد القائد العباسي الموفق ويدعى أبو أحمد وهو أخو الخليفة المعتمد حيث يقول ما نصه: ((فلما كان يوم الخميس سار أبو أحمد في أصحابه ومعه ابنه أبو العباس إلى مدينة الخبيث التي سماها المختارة من نهر أبي الخصيب فأشرف عليها وتأملها فرأى من منعتها وحصانتها بالسور والخنادق المحيطة بها وما عوّر من الطرق المؤدية إليها وأعدّ من المجانيق والعرادات والقسي الناوكيّة وسائر الآلات على سورها ما لم يُرَ مثله ممن تقدم من منازعي السلطان ورأى من كثرةِ عدد مقاتلتهم واجتماعهم ما استغلظ أمره))[1].

---

١ ـ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج٤، مصدر سابق، ص٥٣١.

إن هذه المدينة المبنية في قلب غابات النخيل وعلى ضفاف شبكة الأنهر المتشعبة هي مقر عسكري حصين كانت تقيم فيه القيادة العامة لثورة الزنج التي انطلقت عام ٢٥٥ هـ/٨٧٠م ضد الدولة العباسية لذلك فإن أهميتها متأتية من كونها المقر الرسمي للقيادة الميدانية التي كانت تقود الهجمات والحروب والمعارك الطاحنة ضد جيش الخلافة العباسي على مدى أربعة عشرة سنة متواصلة تلك الحروب التي كانت تتحول في كثير من الأحيان إلى مجازر دموية بشعة تنفذ بأساليب بالغة القسوة والهمجية، وبذلك تحولت المختارة إلى بؤرة نشطة لتصدير العنف الدموي إلى كثير من المدن والبلدان في كافة الاتجاهات طيلة تلك السنين وقد سقط في فترات من تاريخ تلك الثورة عدد من مدن العراق الهامة بيد الثائرين من بينها مدينة البصرة والأهواز وواسط، حتى كادت أن تقوض أركان الخلافة العباسية نفسها[١].

وإذا تذكرنا أن عدد القتلى الذين سقطوا خلال تلك الثورة وحروبها المتواصلة ضد الدولة العباسية قد بلغ نصف مليون قتيل حسب بعض التقديرات فإننا نستطيع أن نقدِّر حجم الدور الخطير الذي قامت به تلك المدينة الصغيرة - المختارة - كمركز لإشعاع العنف الدموي في بلاد الرافدين و لم يتوقف دور هذه المدينة في إشعاع العنف إلا بعد سقوطها بيد الجيش العباسي ومقتل قائد الثورة وجميع أركان قيادته، وكان سقوط المختارة بحد ذاته ثم احتلالها وإبادة المقاتلين الصامدين بداخلها واحداً من أحداث العنف الكبرى في تاريخ العراق. إذ كانت المعركة من أجل دخولها من أشرس المعارك الدموية في التاريخ العباسي.ولعل من الطريف أن نذكر هنا أن إحدى المعارك في احتلال المختارة كانت تدور للسيطرة على نهر كان يسمى في ذلك الوقت باسم جريكور[٢] المتاخم لها وهذا النهر يسمى الآن باسم جيكور وعلى ضفافه تقع قرية جيكور التي ولد فيها الشاعر العراقي بدر شاكر السياب، وقد سمى السياب أحد دواوينه الشعرية باسم (منزل الأقنان) إشارة إلى العبيد في ثورة الزنج، وربما بقيت حتى الآن بعض الآثار من أساسات سور المختارة قرب جيكور بعد إن اندثرت آثارها وبنى الفلاحون بيوتهم

١ـ د. فيليب حتي، تاريخ العرب، مصدر سابق، ص٥١٨.

٢ـ يمكن الوقوف على تفاصيل سير المعركة والقتال لاحتلال المختارة في الجزء ٩ من تاريخ الطبري وفي الجزء ٤ من تاريخ ابن الأثير ص٥٣١ وما بعدها. وفي الجزء ١١ ص٤٨ وما بعدها في البداية والنهاية.

فوق أساساتها حيث يقول السياب في إحدى قصائد الديوان/ منازل فانزع الأبواب عنها تغد أطلالا.

ومن جانب آخر فهناك مدن في العراق لم تقم بأي نشاط دموي واسع النطاق و لم تكن مسؤولة عن أية فعاليات تتسم بالعنف والعدوانية لكنها تعرضت رغم ذلك للتدمير والإبادة والحرق والنهب والاجتياح على نحوٍ دموي بالغ القسوة فكانت من ضحايا العنف الذي مارسته المدن الأخرى ذات النشاط الدموي ذلك العنف الذي كان ينطلق ويستحدث تباعاً في الحقب المختلفة من تاريخ وادي الرافدين.. ومن أمثلة تلك المدن الضحية ، مدينة البصرة التي تعرضت للخراب والدمار وصارت ساحة للحرب في أكثر من مرة، فبعد حرب الجمل جاءت ثورة الزنج ثم هجوم القرامطة ، أما في العصر الحديث فقد كانت البصرة ساحة لعدد من المعارك الطاحنة في الحرب بين العراق وإيران، كذلك مدينة بغداد - مدينة السلام - فقد دمرت واحرقت واستبيحت على يد المغول، وكانت قبل ذلك قد تعرضت للحصار والحرائق والضرب بالمنجنيق في الصراع بين الأمين والمأمون، ثم سقطت واحتلت مرات عديدة بعد ذلك في الفترة المظلمة وقد أبيد عدد كبير من سكانها واستوطنتها الأمراض والأوبئة وخربتها الفيضانات والكوارث نتيجة تكرر أعمال العنف الدموي والعسكري وزحف الجيوش عليها.

ثم مدينة أربيل التي تعرضت للعنف خلال زحف الاسكندر المقدوني واصطدامه بجيش الإمبراطورية الفارسية ثم عودة العنف إليها عند احتلالها على يد المغول خلال زحفهم لاحتلال بغداد.

كذلك مدينة تكريت التي تعرض سكانها للإبادة خلال المعارك العنيفة أثناء الفتح الإسلامي، ثم مدينة جلولاء التي جللت الجثث الآدمية وجه الأرض فيها خلال الحرب بين الفرس والجيش الإسلامي خلال فتح العراق حتى غلبت تلك الحادثة الدموية على اسمها، فسميت جلولاء.

ثم مدينة الموصل التي نكبها المغول بعد سقوط بغداد بثلاث سنوات أي ٦٦هـ/١٢٦١ م ونشروا القتل والدمار فيها حتى قتلوا أكثر أهلها وأخذوا الناجين

أسرى ومهما يكن من أمر فسواء أكانت المدن العراقية قاتلة أم مقتولة، أي هي التي تباشر العنف وتمارس العدوانية ضد غيرها أو كانت هي الضحية للعنف والعدوان والتدمير الصادر من مدن أخرى فإن ذلك كله قد جعل البلاد في جميع الأحوال مسرحاً لسيادة منهج العنف الدموي وما يستتبعه ويرتبط به من خسائر بشرية ومادية ودمار وخراب وويلات حتى اصبح العنف جزءاً من تاريخ تلك المدن العراقية ولا يخفى على أحد ما لذلك من آثار ونتائج وانعكاسات سلبية سيئة على البنية الاجتماعية والنفسية لسكان هذه المدن وشعوبها وأجيالها المتعاقبة والذي يتوجب علينا أن نرصد آثاره وانعكاساته في الملامح الشخصية للأجيال المعاصرة من الشعب العراقي.

أما الأسباب والدوافع التي تقف وراء وجود ظاهرة المدن الدموية في العراق فإننا لم نستطع أن نشخص سبباً واحداً أو قاسماً مشتركاً أو موحداً لها رغم استقصائنا لتفاصيل الفعاليات الدموية التي قامت بها تلك المدن العراقية آنفة الذكر، ففي الوقت الذي كان العنف الدموي الصادر من بعضها قد انطلق من أسباب ودوافع عسكرية مثل آشور ونينوى وأكاد، فإن العنف الذي نشرته ومارسته مدن مثل واسط والأنبار والكوفة قد انطلق لأسباب دينية أو فئوية بعد ظهور الإسلام بينما كان العنف الصادر عن مدينة المختارة وهجر يحمل بوضوح دوافع طبقية اقتصادية واجتماعية..

غير أن الأمر الأكثر أهمية في هذا البحث هو أن العراق قد توقف عن اختراع أو ابتكار أو إنشاء مثل تلك المدن الدموية بعد سقوط بغداد عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، حيث لم نستطع أن نلتقط أو نصادف أي نموذج نوعي من تلك المدن العدوانية المتخصصة بتصدير العنف الدموي في الفترة التي أعقبت سقوط بغداد بينما نجد في هذه الفترة العديد من المدن العراقية المعتدى عليها والتي وقعت ضحية للعنف القادم من الخارج في أكثر الأحيان خلال الصراع الطويل بين جيوش الإمبراطورية الإيرانية والعثمانية، والسبب في ذلك ربما يعود إلى انهيار بلاد الرافدين بأكملها وانحسار وتراجع دورها القيادي في المنطقة وعجزها عن القيام بأعمال عسكرية واسعة وبذلك توقف النشاط العدواني لمدنها رغم استمرار أحداث العنف وتواصله عموماً في العراق

٧ـ التدمير المفجع للآثار والثروات والتراث الحضاري والفني والثقافي

قد يكون التخريب والتدمير والضياع الذي يشمل الآثار التاريخية وشواهد التراث الحضاري من الحقائق والمسلمات المنتشرة والموجودة في جميع بلدان العالم تقريباً غير أن هذه البلدان ربما تختلف الواحدة عن الأخرى في درجة وحجم التخريب والتدمير الذي تعرضت له شواهد التراث الحضاري فيها.

أما بالنسبة للعراق فإن الخراب والدمار الشامل والهدر المريع والمؤسف الذي أضاع أكثر تراثه الحضاري وآثاره التاريخية كان بسبب انتشار الحروب والاضطرابات والفوضى والتسيب وكثرة الغزوات الخارجية والصراعات الدينية والاجتماعية والقبلية والانقطاع الشديد الذي حصل في المسيرة الحضارية للبلاد خصوصاً الغزو المغولي وسقوط بغداد وخضوع العراق بأكمله للاحتلال الأجنبي مدة طويلة من الزمن تقارب السبعة قرون ، كل تلك العوامل والمؤثرات يمكن جمعها تحت عنوان واحد هي انتشار منهج العنف في العراق.

وكان ابتلاء بلاد وادي الرافدين قبل ذلك بغزوات الأقوام الهمجية الأقل حضارة، والتي اجتاحت هذه البلاد في فترات مختلفة من التاريخ القديم خصوصا الفترات المعاصرة لدول فجر السلالات وما بعدها، قد أضر كثيراً بالموروث الحضاري الغني الذي كانت تزخر به بلاد الرافدين خصوصاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن الغزوات التي تقوم بها الأقوام والشعوب المتخلفة حضارياً تكون مصحوبة بعنف همجي هدفه النهب والسلب والسطو ثم التخريب المدمر لكل مظاهر الحضارة المدنية غير المفهومة أو المألوفة لديهم، لذلك فقد سببت تلك الهجمات الكثير من الخراب والدمار في هذا المجال. وحتى في القرون التي أعقبت تلك الحقبة القديمة فإن العراق ـ أو وادي الرافدين ـ كان هدفاً حيوياً مهماً للغزوات القادمة من الشرق والشمال لما اشتهر به من غنى وموارد وثروات ومواد

أولية استراتيجية بالنسبة لحضارة تلك القرون، ولعل من الأحداث التي تؤكد صحة هذا التحليل أن مسلّة حمورابي قد اكتشفت بالصدفة بين بقايا آثار مدينة سوسة (الشوش) عاصمة العيلاميين في إيران، حيث حمل العيلاميون هذه المسلّة معهم كما يبدو بعد إحدى الغزوات التي دمروا فيها مدينة بابل ونهبوها فلم يسلم منها حتى هذه المسلة، التي هي قطعة حجرية من البازلت الأسود حيث استخدمت في بناء قاعدة لإحدى النصب في مدينة سوسة.

وعلى العموم فإن العنف الدموي هو الركيزة والأساس الذي قام عليه مثل هذا الخراب في الموروث الحضاري، كذلك فإن الغزوات التي كانت تأخذ طابعاً دينياً وعقائدياً فإنها تستهدف تخريب جميع الموجودات من الإبداعات الفنية ذات العلاقة بالدين السائد بتلك البلاد المغلوبة على أمرها أو المحتلة، وهذا يؤدي أن يشمل الخراب والدمار عدداً كبيراً من الآثار الدالة على تعاليم ذلك الدين ومعتقداته. وقد حصل في مدن العراق القديمة الكثير من الأحداث والصراعات الدموية التخريبية ذات النزعة والدوافع العقائدية الدينية أن الصراعات الدموية التدميرية التي قامت بين جيوش الإمبراطوريات المختلفة في وادي الرافدين والتي كانت تجري تحت حجة الصراع بين إرادات الآلهة المختلفة فيما بينها ما هي إلا شكل من أشكال الصراع الديني العقائدي الذي كان قائماً بين شعوب تلك المدن والحضارات كالسومريين والبابليين والآشوريين والأكاديين وغيرهم.

وإذا أردنا العودة إلى ذكر السقوط المفجع لمدينة بغداد بيد المغول فإن التخريب والتدمير المتعمد الذي لحق بهذه المدينة التي كانت تضم أثمن الثروات وشواهد التراث الحضاري والإسلامي النادر قد شكل إحدى الضربات القاصمة لآثار وتراث العراق وكنوزه الحضارية. فإذا تجاوزنا الروايات التي توردها الحكاية الشائعة عن تحول ماء دجلة إلى لون الحبر الأزرق من كثرة ما ألقي فيه من الكتب والمخطوطات وهي الرواية التي نعتقد ـ رغم شكلها الخيالي الرومانسي ـ إنها قصة لا تخلو من أرضية أو أصل واقعي بشكل من الأشكال حتى إذا أخذنا بنظر الاعتبار المبالغات والدوافع النفسية التحريضية التي كانت وراء سردها وصياغتها وروايتها نقول حتى إذا تجاوزنا هذه الرواية فإن ما هو ثابت تاريخياً إن المغول قد حافظوا على حياة الخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين و لم يقتلوه لبضعة أيام حيث أعادوه إلى بغداد مخفوراً بعد أن قابل هولاكو الذي طلب منه جميع الكنوز

والجواهر والموجودات الثمينة التي كانت لديه باعتباره الوريث الطبيعي للخلفاء العباسيين الذين حكموا الإمبراطورية الإسلامية الذائعة الصيت في الغنى والثروات. وقد تم ذلك بالفعل فقد عاد هذا الخليفة إلى هولاكو بعد أن جلب معه من الموجودات ما يعتبر من أغلى كنوز الدنيا على الإطلاق في ذلك الوقت. لقد نهب المغول من هذا الخليفة العباسي قبل قتله كل ما كان الخلفاء العباسيون قد جمعوه على مدى خمسة قرون من الزمان.

أما سور بغداد الذي لم يبق منه الآن شئ يمكن أن يدل على عظمته وبهائه فإن بداية التخريب الذي لحقه كان قد بدأ خلال الهجوم المغولي الأول على بغداد ثم تتابعت عمليات التدمير المتواصلة لهذا السور على يد الجيوش المتعددة والكثيرة التي حاصرت بغداد ثم دخلتها واحتلتها وعاثت خراباً في منشآتها ومرافقها وأبنيتها. أما آخر فجيعة يمكن ذكرها عن الخراب الذي لحق سور بغداد هو قيام الأتراك بتفجير باب الطلسم في عام ١٩١٧ وهو من أبواب بغداد الشهيرة، وهذا الباب ربما هو آخر الشواهد الجميلة والثمينة لبقايا ذلك السور الشهير حيث أن بناء الباب كان على هيئة قلعة كبيرة، وقد نسفه الأتراك بالديناميت في الليلة التي دخل فيها الجنرال (مود) إلى بغداد عام ١٩١٧ لأنهم كانوا يستخدمون تلك القلعة مخزناً للذخيرة فأرادوا إتلافها حتى لا يستفيد الإنكليز منها شيئاً، فكان الانفجار كافياً لتدمير الباب والقلعة التي كانت إحدى شواهد بغداد الأثرية الرائعة. وهناك صورة نادرة لهذه البوابة تدل على بهائها وعظمتها وجمالها الفني.

ومن دلائل الخراب والضياع في التراث الثقافي في العراق ذلك العدد الهائل من أسماء الكتب والمخطوطات الوارد ذكرها في تراجم الكتاب والمؤلفين العرب القدامى والمفقودة في الواقع وهي كتب ومؤلفات كانت تبحث في مختلف العلوم والفنون في الأدب والشعر والطب والتاريخ والفلك وغيرها ، إن فقدان هذه المؤلفات وضياعها هو أحد مظاهر التدمير المفجع الذي تعرضت له الثقافة في التاريخ العراقي بسبب شيوع منهج العنف الدموي والاضطرابات.

كذلك فإن عادة توزيع غنائم الحرب التي كانت سائدة في الحروب والغزوات وتطبيق هذا المبدأ في حروب الفتح الإسلامي قد أدت إلى ضياع وتبديد وبعثرة كثير من الموجودات الأثرية الثمينة التي اعتبرت مناقضة لعقيدة الدين الإسلامي كما حصل للآثار والموجودات والأواني الثمينة التي تركها الفرس في إيوان كسرى وهو

القاعة الملكية للحكم في عاصمة الإمبراطورية الفارسية المدائن عند احتلال الجيش الإسلامي لهذه المدينة.

ومن المفيد الإشارة إلى موجات الصراع الديني والطائفي والمترافقة في الغالب مع أساليب التنكيل والعنف الدموي ومن أمثلة ذلك ما لحق بالأضرحة والمقامات الدينية والقباب الأثرية وما تحويه من فنون الريازة الهندسية والموجودات الثمينة.

كما أن تولي الحكام الغرباء الأجانب لمقاليد الحكم في العراق خلال فترات الاحتلال الأجنبي قد هيأ الفرصة المناسبة لعمليات النهب المنظم والسرقات الواسعة للكنوز والثروات والتحف الثمينة والكتب والمقتنيات النادرة الغالية الثمن، وهي عمليات خطيرة امتدت لقرون عديدة وانعكست آثارها المدمرة على مجمل التراث الحضاري والفني والثقافي في العراق وربما تأتي الفترة العثمانية في مقدمة تلك الفترات المسيئة للتراث العراقي فقد جمعت وصودرت ثم شحنت إلى مقر الإمبراطورية العثمانية في اسطنبول الآلاف من القطع الفنية النادرة والتحف والشواهد الأثرية والموجودات التراثية والنسخ الفريدة من المخطوطات والكتب التراثية العربية.

كذلك فإن ما تم نقله وترحيله وسرقته رسمياً من الآثار العراقية خلال فترة الاحتلال البريطاني للعراق بعلم سلطات الاحتلال قد ملأ قاعات وصالات المتحف البريطاني والمتاحف العالمية الأخرى في فرنسا وألمانيا حيث ما تزال قاعات تلك المتاحف تغص بإعداد هائلة من القطع الأثرية العراقية النادرة.

إن شيوع منهج العنف الدموي المتمثل بالحروب والفتن والاضطرابات والتخريب والفوضى قد أدى إلى انتشار الجهل والأمية والتخلف وهبوط المستوى الثقافي والذوق الفني بين الناس في البلاد وكان هذا من بين الأسباب الأساسية في الاستهتار بقيم التراث وعدم الاهتمام بالآثار والشواهد الحضارية وعدم الاكتراث بها والاعتناء بحفظها وسلامتها.

إن تكرر الحرائق وأعمال النهب والسلب والفوضى والفلتان الأمني في المدن الكبرى في العراق وفي مقدمتها مدينة بغداد في العصور المختلفة، وبالأخص العثماني، وهو ما ذكرناه وأشرنا إليه خلال فصول هذا الكتاب، قد جعل أثمن الكنوز والموجودات الأثرية والتراثية عرضة للتلف والنهب والحرق والضياع، وهو من الانعكاسات السلبية المباشرة لمنهج العنف الدموي في هذا الموضوع الحيوي.

كذلك لابد من الإشارة إلى أن طبيعة الأرض والتربة الطينية الرسوبية في الجزء الأوسط والجنوبي من العراق قد جعل أكثر الآثار والموجودات الأثرية القديمة غير المعدنية مصنوعة من الفخار أو القرميد أو الطين المشوي وهي مواد هشة غير مقاومة، وهذا سبب إضافي قد جعلها قابلة للكسر والتلف والتفتت خصوصاً في الظروف التي تنتشر فيها أو تشيع أعمال الفوضى والاضطرابات والحروب والتخريب والعنف بأشكاله المختلفة وهذا قد تسبب في تلف وضياع الكثير من الآثار العراقية وفقدان قيمتها الأثرية والحضارية.

وإذا أردنا تتبع الأخبار والأحاديث والقصص التي تصل إلى مسامعنا حول حوادث الهدر المفجع للآثار والسرقات المتواصلة للموجودات التراثية ذات العلاقة بتاريخ وحضارة العراق فبإمكاننا أن نروي الكثير من القصص في هذا الموضوع الذي كثيراً ما يعود للظهور على صفحات الجرائد العالمية ووكالات الأنباء.

وإذا أردنا العودة للحديث عن الانعكاسات السيئة لأحداث العنف الدموي والاضطرابات على واقع الآثار والتراث الحضاري وموجوداته فبإمكاننا أن نروي بعض القصص المفجعة ـ التي لا يستطيع أحد أن يقيم الدليل القطعي على صحتها ـ عن النهب الذي تعرضت له بعض المبرزات الأثرية الثمينة في العراق خلال أحداث العنف الدموي والاضطرابات التي حصلت في العام ١٩٩١ حيث تتحدث إحدى الروايات عن تهريب إحدى النسخ النادرة للتوراة والتي سرقت خلال تلك الأحداث، وهي تعتبر من أقدم النسخ المكتوبة للتوراة في العالم.

ولعل هذا الوضع المفجع لوضع الآثار والضياع المتواصل للتراث الثقافي والحضاري والفني في العراق يدعونا للتفكير بضرورة تأسيس هيئة وطنية عليا دائمة تضم كبار المتخصصين في البحوث والدراسات التاريخية تكون مهمتها الحفاظ على موجودات التراث وإحيائه والعمل على استعادة ما يمكن استعادته من هذا التراث الحضاري العام والمتابعة الدائمة في هذا الشأن الوطني البالغ الأهمية ولعل بإمكان مثل هذه الهيئة أن تحقق بعض النجاحات الجدية خصوصاً فيما يتعلق بالتراث الفكري والمخطوطات القديمة المفقودة والتمكن من تحقيقها علميا ومنهجيا ونشر مضمونها وموضوعاتها الفكرية والعلمية والأدبية.

٨ ـ تطبّع المجتمع العراقي بالجدية والتذمر والحزن الدائم

كان من نتائج وانعكاسات تطبيق منهج العنف الدموي لفترات زمنية طويلة في تاريخ العراق، شيوع وانتشار بعض الطباع والعادات والسجايا الاخلاقية والسلوكية التي أصبحت، بمرور الزمن، جزءاً من معالم وسمات المجتمع العراقي بعد أن طبعت بطابعها سلوك الفرد العراقي وحددت بدرجة كبيرة تصرفاته وميوله الشخصية بصورة عامة.

ومن تلك الطباع والعادات والسجايا الاجتماعية ظاهرة الجديّة والصرامة في السلوك اليومي والميل العفوي نحو الحزن والكآبة والنزوع الإرادي نحو إظهار التبرم والاختلاف والجزع والنقد اللاذع والاستهزاء الساخر تجاه الظروف المحيطة على نحو شبه متواصل.

وإذا أردنا التفتيش في سلوك الفرد العراقي عموماً ـــ دون الإهتمام أو الإنشغال بسلوك بعض العراقيين المخالفين لهذه القاعدة والذين يشذون في سلوكهم عن مثل هذه الأحكام ـ فإننا نستطيع أن نلاحظ أن الفرد العراقي، بصورة عامة، ليس ميالاً للفرح أو للنكتة والمزاح البسيط، وهو عندما يقول النكتة او الطرفة، فهو في الغالب يتناولها كموقف نقدي سياسي واجتماعي يعبر فيه عمّا يختزنه من معاناة ومرارة وتبرّم وحزن دفين ممزوج بالعتاب واللوم على الدهر والزمان والأصحاب ، وبسبب ذلك ربما كانت أكثر النكات في العراق هي مواقف ذات دلالات سياسية او اجتماعية تترافق بالنقد اللاذع.

وكنتيجة لجديته الشديدة، فإننا نجد الفرد العراقي لا يتمادى كثيراً بالهزل والضحك والنكات والمزاح لفترات طويلة خوفاً من تأثير ذلك على مكانته وهيبته، وخشيته من اهتزاز شخصيته الجدية التي يعتدّ بها كثيراً ويحرص على تكريسها في كل فرصة سانحة.

وقد نستطيع القول في هذا الشأن أن الفرد العراقي هو في أعماق وعيه، أي في اللاشعور، ربما يخشى الفرح ويخاف الضحك لشدة ما يختزن في كيانه من مدلولات الحزن والآسى والخوف والذكريات الأليمة التي كرستها في ذاته أحداث ومآس العنف الدموي عبر قرون من الزمان، ولعل هذا هو مايفسر لنا بعض العبارات التي يرددها الفرد العراقي بعفوية تامة عندما يستغرق في جلسة يسود فيها جو من الحبور والضحك الكثير المتواصل. إنه يردد بعد أن يضحك بعمق وسعادة عبارات غريبة مثل ((ا لله يجيب هالضحك على خير))، أو ((ا لله يكفينا شر هالضحك))، أو ((ا لله يجعل عاقبة هالضحك خير))، أو ما يشبه ذلك من عبارات تؤكد أنه يتوجس الخيفة والحذر من الفرح ويستكثر على نفسه ذلك السرور العابر والضحك العميق الذي صادفه عرضاً في حياته الجدية المليئة بالهموم والأحزان والشجون، وهو يرجو ربه ألا يأتيه بعد هذا الضحك شر أو أذى يداهم حياته وينغص عليه أيامه القادمة، وكأنه قد ارتكب إثماً أو معصية... أنها عبارات عفوية بسيطة يرددها الجميع لكنها ذات جذور تاريخية ونفسية عميقة الأثر.

كذلك نجد أن هذا المنحى الحزين في الحياة الاجتماعية يظهر واضحاً في الغناء العراقي عموماً، سواء في كلمات الأغاني وألفاظها ومعانيها أو في الطابع الحزين للألحان الموسيقية العراقية. إن الأغنية العراقية، رغم كل محاولات التطوير والتجديد، ما زالت تتسم بصبغة كثيفة من الحزن والآسى العميم، وهي في بعض أطوارها أقرب الى النحيب والأنين والبكاء.

ويمكن ملاحظة ذات الظاهرة في أسلوب تجويد القرآن الكريم في العراق، حيث تغلب عليه النغمة البكائية الحزينة التي يتمكن المستمع أن يميزها عن غيرها من أساليب التجويد القرآنية في البلدان الأخرى.

أما بالنسبة للميول الشخصية، فبإمكاننا أن نلاحظ أن الفرد العراقي يميل في حياته اليومية لإستخدام واستعمال الألوان القاتمة الرصينة التي توحي بالجدية والرزانة وتناسب الوقار الشديد الأقرب الى الحزن، بينما يبتعد بعفوية شبه غريزية عن استخدام الألوان الزاهية الفرحة البهيجة المليئة بالنشاط والحيوية والمسرة والحركة، وهذا ينطبق على معظم مقتنياته واستخداماته اليومية الإعتيادية كالثياب

والأثاث والأدوات الشخصية وكل ما له علاقة بمحيطه الشخصي، لذلك فإن الألوان الطاغية في الاستعمال اليومي لدى الفرد العراقي هي الأسود والكحلي والرصاصي والرمادي والبُني ومشتقاتها القاتمة، وهو لا يتهاون ولا يخطيء في هذا الإختيار وهذا الإنحياز في الألوان، بل يسير نحوه على الدوام وفق بوصلة تؤشر دائماً نحو الوقار الفائق الممزوج بالكآبة والحزن الخفي المخزون لديه في أعماق اللاشعور، ليس فقط لأسباب دينية أو مذهبية غرستها في أعماقه بعض الأحداث التاريخية المأساوية، كمذبحة كربلاء، أو اختيار العباسيين للون الأسود شعاراً رسمياً للدولة والأمة قروناً عديدة، بل، إضافة الى ذلك ، بسبب آلاف الأحداث والوقائع المأساوية الحزينة من العنف الدموي المتواصل في التاريخ العراقي منذ العهود السومرية.

والفرد العراقي في هذا الموضوع لايتحاشى الألوان الزاهية ويبتعد عنها فحسب، بل يميل الى اعتبارها عيباً ومنقصة تذهب بالوقار والحشمة وتعرض مقتنيها للإستهزاء والسخرية والاستخفاف ، ولعل استخدام الألوان القاتمة غير الفرحة لايقتصر على الرجال في العراق، بل ربما يتعداه الى النساء أيضاً، بنسبة واضحة قياساً الى نساء البلدان الأخرى. فاللون الغالب لدى معظم نساء العراق هو اللون الأسود، وهو يمثل عندهن الإستحضار الدائم لطقوس الحزن القهري والأسى والذكريات الأليمة التي تجددها وتوحي بها مئات الأحداث المأساوية المشحونة بالعنف والدماء والخسائر البشرية في كل العهود والأزمان، لذلك فالمرأة العراقية حتى حين سكوتها، هي أقرب الى هيئة الحزن والبكاء والكآبة نتيجة لما ألقي على كاهلها من عبء ثقيل من المآسي والقهر والأحزان خلال المسيرة الدائمة للعنف الدموي في البلاد

أما بالنسبة لطقوس الحزن على الميت في العائلة العراقية، فهو حزن ثقيل وطويل، وهو مناسبة للتعبير والإفاضة عن حزن قديم آخر متراكم في أعماق النفوس المليئة أساساً بالأسى والقهر والذكريات الحزينة.

إن تلك الطباع والمظاهر السلوكية في الحياة اليومية للفرد العراقي قد لا نجد لأعراضها الغريبة والاستثنائية تفسيراً مباشراً ويومياً، إلا أنها بمجموعها واحدة

من المنعكسات غير المباشرة لظاهرة العنف الدموي التي لازمت الحياة العامة في مجتمعات وادي الرافدين لقرون طويلة.

اما الامثال الشعبية العراقية المتداولة بين الناس، فإن روحها ومنطوقها وصياغتها ودلالاتها والمعاني التي تدور حولها، تعكس بجلاء ووضوح وعلى نحو دقيق وصادق حجم التأثيرات النفسية التي خلفّها منهج العنف الدموي في ثقافة المجتمع العراقي.

ولتوضيح هذا الأمر يمكننا الاستشهاد بعدد من الأمثال التي يتداولها العراقيون ويستخدمونها ببساطة وعفوية تامة، دون أن يلتفتوا أو يتنبهوا الى أهمية وخطورة المعاني الفلسفية التي تتضمنها ودلالات العنف الدموية الكامنة فيها. من ذلك على سبيل الاستشهاد المثل العر اقي الذي يقول:

/ الحگ (الحق) بالسيف، والعاجز يدوّر شهودْ /

ومعناه أن الحق يؤخذ بالسيف، أي بالقوة والعاجز الضعيف هو الذي يفتش عن الأدلة والشهود.

إن هذا المثل يحمل فلسفة كاملة، فالحق يؤخذ بالسيف، أي بالقوة والسلاح، والكفؤ هو الذي يأخذ حقه بقوة السلاح، أما العاجز الضعيف، وهي هنا تأتي بمعنى الجبان، فهو وحده الذي يلجأ للتحكيم والشهود والأدلة. إن المثل يستهزئ بالشخص الذي يلجأ الى المحاكم والأدلة والشهود، لأخذ حقه ويسخر منه ويستضعفه ويتهمه بالعجز والجبن، إنه يتضمن دعوة واضحة الى استخدام القوة والعنف والسلاح لحل المشاكل في الحياة واسترداد الحقوق مهما كانت. وهذه فلسفة ربما تتكرر في عدد من الامثال الشعبية العراقية الدارجة التي يتداولها الناس في المجتمع العراقي، من ذلك:

المثل القائل ـ العِنْدَهْ فَرْمانْ يگدر يِـتْفِـلْ بلحية السلطانْ / ومعناه أن من يملك الفرمان، أي قرار السلطات العليا وهو يعني هنا السلطة التنفيذية يستطيع أن يبصق على لحية أكبر الموظفين ، وهوالسلطان، أي بامكانه أن يتطاول ويتغلب حتى على السلطان وجميع معاني المثل تدور حول ضرورة امتلاك القوة من أجل السيطرة وإجبار الآخرين على الطاعة.

والمثل القائل - الناس وِيّـه الواگف / أي أن الناس يطيعون ويؤيدون ويقفون مع القوي دائماً

والمثل القائل - أَبويَهْ مايگدر إلا علـى أُمـي / ومعنـاه أن أبـي ضعيـف وجبـان ، لذلك لايظهر قوته وشجاعته إلا على أمي الضعيفة المسكينة، ومعـاني المثل تدور كلها حول القوة والسطوة والسيطرة.

والمثل القائل - لـَمّنْ يثّـبتْ نفسـه حصيـني، يـروح جلـده للدبـا غ / ومعنـاه أن قرارات الحكم تصدر اعتباطاً وبصورة كيفية وسريعة ودون تثبت، فلا يملـك احـد الفرصـة لتقديـم الاثباتـات لإظهـار براءتـه ولحين تقديـم إثباتات البراءة تكون الأحكام قد صدرت ونفذت وسلخ جلـد المتهـم وانتهى الأمر...

والمثل القائل - اكتل كتال الچلب / أي اقتل الشخص الذي يقتل كلبـك، لأنـك إذا سكت عن ذلك هذه المرة فسـوف يتطـاولون ويعتـدون عليـك في المرات القادمــة، وتضيـع هيبتـك ومكـانتك، لذلـك عليـك أن تواجـه الاعتداء باعتداء أشد وأعنف وأقسـى وأكـثر شراسـة لتحفـظ هيبتـك وسطوتك وقوتك، والمثل مشحون بالمعاني الدمويـةوالعنـف العدوانـي وفيه تحريض على التصعيد الدموي...

والمثل القائل - احسن ما تْـگِلـْها كش اكسر رجلها / ومعناه عليـك أن تكسـر رجل الدجاجة التي تضايقك بدلاً من تضييع وقتك في طردها كل مرة، وفيه دعوة الى اللجوء الفوري الى العنف والقوة والحل الحاسـم، بـدلاً من الحلول اللينة الهادئة..

والمثل القائل - إحنا جنودك ياوطن والموت فردة يمني/ واليمني تعبـير عراقـي يعـني الحذاء من النوع الرخيص وهو اشبه بالنعال والمثل يشبّه المـوت عنـد العراقي بفردة واحدة من هذا الحذاء، أي أن الحياة لا تساوي أكثر من فردة حذاء عندما تأتي ساعة التضحيـة مـن أجـل الوطـن، إن التشـبيه الذي يسوقه المثل، رغم الروح الوطنية التي يتضمنها، فإنه يشتمل على معاني كريهة وسيئة وتستهين بالحياة بطريقة فجّة وقاسية..

والمثل القائل ـ جَرْحْ الكَلبْ (القلب) مثل الجام ماينلحم /[1] ـ والجام هو الزجاج، ومعناه أن جرح القلب، أي النفس، لا يمكن أن ينسى مثل الكسر في الزجاج لايمكن لحمه واصلاحه، والمثل فيه دعوة ضمنية للثأر والاقتصاص وعدم الصفح والتسامح او نسيان الماضي.

وإذا أردنا الاستطراد في هذا الموضوع فإن الحديث يطول حول الامثال العراقية التي تتضمن معاني العنف والقسوة والدموية، فهناك المئات من هذه الامثلة التي تنحو هذا المنحى ، ولعلنا ندرك جميعاً أهمية الأمثال في حياة الشعوب فهي تلخيص مكثف للتجارب الشعورية والحياتية المشحونة بالعبرة والموعظة والمفارَقات ، وهي في كثير من الأحيان مرآة تعكس نفسية الشعوب وثقافتها العقلية

---

١ ـ جميع الأمثال المذكورة مأخوذة من كتاب (قصص الأمثال العامية) للدكتور مُحمد صادق زلزلة، دار الجيل ، بيروت، ٣ مجلدات.

الفصل العاشر

الحلول المقترحة لإنهاء نهج العنف الدموي في العراق

هانحن وقد تجنبنا، متعمدين عبر فصول وصفحات هذا الكتاب، ذكر الجوانب المشرقة والإيجابية، وابتعدنا مجبرين عن ذكر الإنجازات والإنتصارات الحضارية الخالدة في وادي الرافدين، والتي هي، بلا شك، مثار الفخر والاعتزاز الدائم ، ليس للعرب والمسلمين فحسب، بل للعالم أجمع، ليس إهمالاً لهذا الجانب الحيوي من تاريخ بلاد الرافدين، بل من أجل أن نفسح المجال كي يتواصل وينتظم منهج البحث في العنف الدموي الذي هو عنوان هذا الكتاب ومضمونه، وليأخذ ابعاده الواقعية الكاملة... نقول، ها نحن وقد انتهينا من عرض هذا المهرجان الدموي المأساوي المرعب الذي تواصل فوق ارض العراق دون انقطاع خمسة الآف سنة، نجد أنفسنا الآن وقد شخصنا وتعرفنا واطلعنا على الجانب الدموي في العراق السومري والبابلي والآشوري والأكدي، والعراق الخاضع للاحتلال الفارسي وللاسكندر المقدوني، وعراق الساسانيين والمناذرة، والعراق الاسلامي الراشدي والعلوي والاموي والعباسي، والعراق البويهي والسلجوقي، والعراق المهدم تحت معاول المغول، والعراق الجلائري والصفوي، وعراق القبائل التركمانية ذات الخروف الاسود والابيض، والعراق العثماني، عراق التخلف والفترة المظلمة الظالمة، وعراق الانكليز والاقطاعيين، والعراق

الملكي، والعراق الجمهوري ذي الإنقلابات العسكرية، والعراق الشيوعي ثم القومي الاشتراكي... الخ.

لقد مررنا بكل تلك النماذج والمراحل وتعرفنا على كل انواع العنف الدموي المنفذ فيها... لكننا وللأسف الشديد لم نعثر على العراق الخالي من العنف والدم والمذابح والنكبات... عراق الاستقرار والرخاء والسلام والوئام والمحبة والرحمة... بل رأينا وتأكدنا ان دوامة الدم كانت ومازالت تدور بهذا العراق الرائع بلا توقف او هوادة، لايتغير فيها سوى ارقام القرون والسنين واسماء الضحايا وعناوين الشعارات

حتى ليتساءل المرء حيرة ودهشة كيف استطاع العراق ان يبني ما بناه من حضارات هائلة وكيف استطاع أؤلئك العراقيون العباقرة المبدعون من إتمام ما انجزوه من انتصارات حضارية وما خلفوه من تراث ابداعي اصيل في شتى العلوم والفنون والحرف والمهارات، وهم يعيشون في ظل دولاب الدم الدائر ازاءهم وفوق رؤوسهم بانتظام؟ ويتعايشون مع المآسي والاضطرابات والمجازر والهموم؟ ولعل تلك الميزة هي احدى المفارقات الغريبة في قدرة الصبر والتحمل التي يتميز بها شعب هذه البلاد.

وحتى اذا اردنا - على الأقل - أن نقصر حديثنا ونظرنا على اعوام القرن العشرين وحقبه واجياله والمتعاقبة؛ ونحن نعيش في نهاياته الزمنية الاخيرة، فاننا نستطيع ان نكتشف كيف كان الجميع وما زالوا يتخبطون دون جدوى ودون طائل، وهم يفتشون عن الحل الذي يمكن ان يخرج العراق من دوامة العنف الدموي ودورانها المدمر - رغم ما أضفت عليه الحركات الوطنية العراقية من أوصاف رنانة وكلام منمق عن التضحيات التي قدمتها الجماهير والانتصارات التي حققها الشعب في كفاحه الوطني والذي لايعدو، هو ذاته، أن يكون دوراناً في ذات الدوامة من العنف الدموي والخسارات البشرية المتواصلة.

ان جيل العراقيين الذين قاوموا العثمانيين، وحلموا بعراق متحرر من السيطرة العثمانية، والجيل الذي حلم باخراج الانكليز والاجانب واسقاط المعاهدات الجائرة، والجيل الذي داعبته الاحلام الوردية عن حكم وطني يتسلم مقاليده اهل البلاد، والجيل الذي اغضبته اللعبة البرلمانية بفضائحها وصفقاتها الرخيصة فعاداها

وعادى النظام الملكي الذي عاصرها، والجيل الذي صفق للجمهورية وتوسم فيها الخير والامل والنجاح، فابتلى بالعسكريين وانقلاباتهم الدموية، والجيل الذي حلم ونادى بالوطن الحر والشعب السعيد، والجيل الذي هتف بالوحدة العربية والحرية، والجيل الذي تأمل وتمنى النظام الاسلامي العادل، وحتى الجيل الذي تحول معظمه الى إمعات ومخبرين كل أولئك ـ سواء من انقرض منهم او يكاد ينقرض ـ قد احترقوا واكتووا بنار العنف الدموي ونالوا حصصهم الضخمة الكريهة من القتل والعذاب والخوف والسجون والتشرد والحرمان وسفك الدماء والهدر بالارواح والخيبة المريرة والفشل والصدمات الفاجعة، فسحقوا جميعاً تحت عجلات العنف الدموي واشتعلت فيهم وإزاءهم نار متأججة لاترحم، و لم يسلم منهم جيل واحد من تلك النار الظالمة، حتى أن الشاعر الجواهري قد لخص هذا المعنى بعفوية صادقة عندما وقف ـ في منتصف هذا القرن ـ فوق جثمان أخيه الشاب جعفر الجواهري الذي قتلته الشرطة في العهد الملكي مع شبان آخرين لأنهم تظاهروا في الشارع، حيث يقول:

وجيل يروح وجيل يجيء ونارٌ إزاءهما تضرم

فكيف يمكن ان نوقف تلك النار المشتعلة ازاء كل الاجيال العراقية الذاهبة والقادمة؟

لعل هذا هو أحد الاسئلة التي يجب الا نتحاشاها أو نخشى الإجابة عليها. إما إذا اردنا ان نقصر الحديث عن الفترة المعاصرة، فاننا نجد ان المصلحين والمفكرين والسياسيين وقادة الاحزاب العراقية وزعماء الكتل والجبهات السياسية لم يعلنوا ـ رغم كثرة البرامج الوطنية الموسعة والتفصيلية التي طرحوها على الشعب ـ كيف يمكن للبلاد أن توقف مسيرة العنف الدموي المستحكمة بحياة الناس وتقود مصيرهم نحو الهلاك منذ آلاف السنين.

إن النظر لمشكلة العنف الدموي وكأنها مشكلة خلافات سياسية حادة اقتصرت احداثها على جيل دون آخر او على فترة زمنية دون غيرها او تحميل هذه الجهة او تلك مسئوليتها ونتائجها هو خطأ فادح في تشخيص المشكلة وتقزيم لامسؤول لهذه القضية الخطيرة والمزمنة ذات الجذور العميقة والمتشعبة في

التاريخ العراقي والتي تحولت الى منهج شبه دائم في حياة البلاد ومسيرتها منذ قرون عديدة.

اننا نعتقد ان هذه المشكلة هي أم المشاكل الفرعية وقاسمها المشترك وهي لم تحظ بالاهتمام الكافي والدراسات المتخصصة والمعالجات الحيادية الصحيحة القائمة على المعاينة العلمية الموثقة والحلول المنهجية، خصوصاً وان هذه المعضلة لايمكن التصدي لها وحلها بالشعارات أوبالحماس الحزبي او الاندفاع الوطني او الروح الفئوية المنحازة

أما البرامج التي اعتدنا على قراءتها وسماعها والتي تكاد تكون نسخاً متطابقة منقولة عن بعضها البعض، فانها لم تحلل و لم تعالج قضية العنف الدموي كظاهرة مزمنة وثابتة الوجود في التاريخ العراقي القديم والحديث، و لم تتصدى لأسبابها ودوافعها وانعكاساتها الخطيرة على طبيعة الشعب العراقي ونفسيته وسلوكه في الحاضر والمستقبل... ان المخاطر التي يمكن ان تتأتى من استمرار وجود هذه الظاهرة تشبه خطورة اللغم البحري الذي يمكنه ان يطيح بالقبطان والركاب والسفينة في وقت واحد.

ونحن هنا، رغم احساسنا بحجم الخراب الموروث عن العنف الدموي وثقل هذه التركة والتعقيد الهائل الذي يشتمل عليه هذا الموضوع فاننا بكل تواضع نحاول ان نعرض بعض الافكار التي قد تشكل حلا واقعياً معقولاً لمواجهة هذا الركام والخراب الذي خلفه العنف الدموي في العراق بابعاده المادية والنفسية والسلوكية.

إن العرض المختصر الذي قدمناه في الفصل التاسع من هذا الكتاب والذي اشتمل على الظواهر والانعكاسات السلبية التي خلفها شيوع منهج العنف الدموي في مسيرة الحياة العراقية وواقع المجتمع العراقي بعد هذه الحقب التاريخية الطويلة والحجم الهائل من الخراب الموروث على الصعيد النفسي والسلوكي والاقتصادي والسياسي في البلاد قد يدفعنا للقول بأن إيجاد الحلول السليمة والدائمة والصحيحة للمعضلة العراقية ـ السياسية والاجتماعية ـ القائمة في العصر الحاضر والمتوقعة في السنين القادمة ـ على صعيد الحكم والسياسة وإدارة السلطة والمجتمع ـ هو أصعب وأعقد بكثير مما يتخيله البعض من السياسيين والقادة العراقيين أو غيرهم وخصوصاً ما يتعلق بمنع المنهج الدموي الدكتاتوري من الظهور والعودة من جديد في دورات متعاقبة في مسيرة الحياة السياسية في العراق.

إن خمسة آلاف سنة من النشاط الجهنمي المدمر لدكتاتوريات العقيدة الواحدة التي أشرنا إلى بعض أشكالها التطبيقية في التاريخ العراقي والتي سحقت بلا رحمة الملايين من البشر على نحو مأساوي في وادي الرافدين ودمرت أقوى المؤسسات المدنية والحضارية وأرسخها في التاريخ وتركت بصماتها الكالحة المشوهة على العلاقات الإنسانية بين الناس في العراق من خلال آلاف الحوادث والوقائع المشبعة بالغدر والقسوة والوحشية الدموية، إضافة إلى التخريب الطويل الأمد للنفسية العراقية وطبائعها السلوكية وهو الموضوع الذي تحدثنا عنه في ظاهرة العنف والتقلب في المزاج، كل ذلك لا يمكن معالجته وإصلاحه وإزالة آثاره بعدد ضئيل من الجمل المبتورة المبهمة المقطوعة الجذور الغريبة عن الواقع المحلي والعاجزة عن الصمود أمام التحديات التي يفرضها الخراب الراسخ في السلوكية العراقية.

ولعل ذلك ينطبق إلى حد كبير على ما لجأ إليه بعض السياسيين العراقيين والحركات السياسية والحزبية في المطالبة بتطبيق شعار الديمقراطية كعلاج سحري جاهز لحل معضلات البلاد السياسية، دون التسلح ببرنامج عملي واقعي يناسب الظروف المحلية ودون التبصر بحجم التخريب النفسي والسلوكي الماثل في الشخصية العراقية والمجتمع العراقي الذي تركه ذلك الدور السيء للدكتاتوريات المتعاقبة.

ومما لاشك فيه، فإن الديمقراطية هي الحل الأمثل على المستوى النظري لهذا الموضوع الإشكالي القائم في العراق، غير أن طرح هذا الشعار والمناداة به في مثل هذه الظروف وفي ظل البنية النفسية المخربة للفرد العراقي بفعل مجموعة العوامل التاريخية القديمة هو ضرب من الخيال وقفز فوق الواقع.

إن عدداً من المستلزمات الهامة والضرورية يتوجب تحضيرها وتجهيزها وتهيئتها وإنجازها قبل البدء بتطبيق الديمقراطية وممارستها كصيغة عملية في الواقع السياسي في العراق وبالذات إزالة العوامل والأسباب التي تساعد على تهيئة المناخ المناسب لنشوء الأنظمة الدكتاتورية وتكرار عودتها للسيطرة علي النظام السياسي.

وإذا أردنا الآن أن نحصر العوامل المشجعة لظهور واستمرار الأنظمة الدكتاتورية وتعاقبها المتواصل في العراق وتحولها إلى معضلة سياسية مستعصية على مستوى إدارة الحكم والدولة ـ خلال القرن الحالي على الأقل ـ فإننا سوف نجد أن أسباب ذلك تكاد تنحصر في ثلاث نقاط رئيسية هي:

١ـ وجود النزعة السلوكية الدائمة لدى المواطن والحاكم في العراق (أي الحاكم والمحكوم) أفرادا وهيئات في التمسك باستخدام العنف والقوة القاهرة والتسلط بكل ما يرافق ذلك من مقدمات ونتائج على كافة المستويات الفردية والجماعية وتفضيل أسلوب القوة القاهرة كطريقة حازمة في إدارة الحكم والسلطة في البلاد وهناك من الشواهد والأمثلة العملية ما يؤكد هذه الحقيقة المدوية الصارخة.

٢ـ غياب الرأي العام الحر في البلاد وتلاشي قوته الفعلية المؤثرة في الحياة السياسية نتيجة الضغوط والإرهاب والتنكيل والممارسات الدكتاتورية مما أدى إلى انقسام الناس في المجتمع إلى مجموعتين:

أ ـ مجموعة من الأمعات والتوابع والمصفقين للدكتاتورية.

ب ـ مجموعة من الناقمين فاقدي الأمل بإصلاح الوضع السياسي بأي شكل من الأشكال والعاملين في السر على تقويض وتدمير كل ما أقامته وتقيمه الأنظمة الحاكمة على كافة الأصعدة، وهم ينتظرون ساعة الخلاص التي هي في الغالب ساعة الانتقام الدموي المدمر من النظام الدكتاتوري وأتباعه لكنها في ذات الوقت الساعة التي ينهض فيها نظام دكتاتوري جديد في البلاد.

٣ـ استمرار القناعة لدى أكثر العراقيين حتى الآن (أفراداً وأحزاباً وهيئات) بصلاحية وجدوى نظام دكتاتورية العقيدة الواحدة كحل تطبيقي محتمل وانحيازهم لهذا الشكل من النظام السياسي في إدارة السلطة والحكم في العراق رغم إنكار الجميع لهذه الحقيقة وإدانتهم الظاهرة والعلنية لها. إن سبب هذا الموقف هو عدم الاقتناع أو الإيمان بمبدأ تداول السلطة وانتقالها السلمي بين الأطراف السياسية، لذا فإن طرح هذا الموضوع بجدية وحرص وصراحة يقتضي الاعتراف بالحقيقة المرة المؤلمة وهي أن أكثر العراقيين والسياسيين منهم بصورة خاصة ـ عدا قلة ضئيلة من بعض العراقيين المهاجرين لدول ديمقراطية حرة ـ مازالوا يؤمنون ويحلمون ويخططون في أذهانهم وقلوبهم لتطبيق دكتاتورية العقيدة الواحدة بلون جديد ـ مع بعض التعديلات واللمسات التجميلية البسيطة ـ لأن كلاً منهم يعتقد أن الديكتاتورية التي تقيمها الفئة التي ينتمي إليها هي الديمقراطية.

إنهم يسيرون بكل تأكيد في ذات الطريق التي أدت وتؤدي إلى الخراب والعزلة والخصومات التي تقود في النهاية إلى العنف الدموي والدخول مرة أخرى في الحلقة المفرغة.

وانسياقاً في السير بذات الصراحة المزعجة نقول إن الإنسان العراقي ونتيجة لتأثير مجموعة العوامل التاريخية والنفسية والموضوعية التي أشرنا لبعضها وتحدثنا عنها في فصول هذا الكتاب، وبفعل التراكمات السلبية العديدة المفروضة عليه، هو في الظروف الراهنة إنسان بعيد عن المسلك الديمقراطي وغير مؤهل لممارسة منهج الحرية والديمقراطية في الحياة العامة تلقائياً أو بصورة طوعية مباشرة، لذلك يمكن تحديد موقف الفرد العراقي حالياً من الديمقراطية بثلاثة أبعاد هي:

١- إن الفرد العراقي في الظروف الراهنة (عدا قلة ضئيلة غير مؤثرة) لا يؤمن بالديمقراطية كنظرية ولا يتحمس لها كأسلوب في الحياة الاجتماعية، ولا يميل للاقتناع بها كمنهج في الحياة السياسية، وهذا الموقف ناتج من أسباب تتعلق بموروثات الفكر التسلطي والسلوك الفردي العشائري المتراكم في بنيته النفسية والفكرية عبر عشرات القرون، لذلك فإن موقفه المناهض للمنهج الديمقراطي هذا ربما كان أقرب إلى السلوك الفطري القهري الاستحواذي المتسلط، وليس عداءاً عقائدياً واعياً أو إرادياً متعمداً ضد مبدأ الديمقراطية.

٢- إن الفرد العراقي في الظروف الراهنة لا يلتزم المنهج الديمقراطي في الحياة الاجتماعية ولا يعمل أو يتحمس لتطبيق الديمقراطية في السلوك السياسي لأنه غير مقتنع بجدواها من ناحية، ولأنها من ناحية أخرى تتعارض مع نزعة الهيمنة والسيطرة والتفرد المترسبة في أعماق وعيه السياسي وثقافته الاجتماعية وتكوينه التاريخي وتصطدم واقعياً مع ميله للالتزام بالسلوك الفردي الفئوي المغرق بالذاتية.

٣- إن الأوضاع النفسية والثقافية التي يعيشها الفرد العراقي تجعله غير مستعد للخضوع الطوعي أو الانصياع للنتائج التي تتمخض عنها العملية الديمقراطية حتى في حال تطبيقها خصوصا عندما تكون تلك النتائج غير مؤاتية له أو متعارضة مع نزوعه للسيطرة والتفرد والاستحواذ الذي أصبح جزءاً من طباعه في الممارسة اليومية، بل يبقى ميالاً لاختلاق التهم والإدعاءات والمبررات والأعذار التي تسمح له بالانسحاب من العملية الديمقراطية فيما بعد والانقلاب عليها والتحرر من التزاماته تجاهها وتجاه ما تفرزه من حقائق جديدة، ليعود إلى استبدالها بالصيغ

الانقلابية التسلطية الفئوية، وهي الطريق الأقصر لفرض إرادته وغاياته الفردية الفئوية التي تقود في النهاية إلى الديكتاتورية مرة أخرى.

وعلى العموم فإن الفرد العراقي في الظروف الراهنة وعلى ضوء وضعه القبلي الراهن ونزوعه التاريخي نحو العنف وبعد خمسة آلاف سنة من الدكتاتوريات الهمجية المتواصلة/ لا يقبل بالديمقراطية/ ولا يقتنع بجدواها / ولا يخضع لنتائجها / ما لم يخضع هو ذاته لعملية تثقيف وتأهيل كبرى لإعادة تكوين وعيه الاجتماعي والسلوكي والأخلاقي والسياسي بما يتناسب مع الأفكار العصرية السائدة في الحرية والديمقراطية والروح الجماعية.

إن الشعب المؤمن بالديمقراطية والمتمسك بتقاليدها وقوانينها ويحترم نتائجها وينصاع لها هو القوة الحقيقية الأكيدة التي تحمي الديمقراطية وتدافع عنها وهو الضمانة القوية التي تمنع الانقضاض على النهج الديمقراطي والعودة من جديد للدكتاتورية تحت مسميات مختلفة.

إن الديمقراطية كنظرية ومنهج سياسي معاصر بالرغم من قصر المدة الزمنية التي طبقت فيها قياساً إلى عمر التجربة الإنسانية في الحضارة المدنية قد أصبحت إحدى القيم الإنسانية التي تستند إلى عدد من التقاليد والأعراف والقوانين والمناهج المعروفة التي تجعل منها علماً عصرياً محدد الأبعاد والمعالم بحيث يمكن فهمه وتشخيصه بسهولة والعمل وفق قوانينه بوضوح، كما أصبح من الصعب في الوقت ذاته تخطيه والتلاعب في مكوناته وعناصره، وتأكيداً لهذا الرأي فإن عمليات التحايل لإيجاد خلطات مشوهة تحمل اسم الديمقراطية شكلاً دون أن تتقيد بمضمونها الحقيقي وقوانينها المعروفة، أو إيجاد دكتاتورية عسكرية بواجهة مدنية، هي محاولات أصبحت مكشوفة ومدانة وساقطة في العالم المعاصر.

وفيما يتعلق الأمر بالعراق، فإن الديمقراطية باعتبارها منهجاً مدنياً للحياة السياسية والاجتماعية لا يمكن انتهاجها والالتزام بها إلا بالتربية الطويلة الأمد والتعلم المتدرج والتدريب المتواصل في تجربة الصواب والخطأ والتقبل الطوعي والتمرين الصبور الهادىء، كما لا يمكن التمسك بها و إنجاحها إلا بالممارسة العملية التطبيقية على المدى الطويل والتي يمكن أن تشهد خلال ذلك عدداً من الاخفاقات والانتكاسات وربما التراجعات. لذلك يتوجب عند المباشرة بتطبيق الديمقراطية توفير كافة مستلزمات نجاحها، الالتزام بقرار استراتيجي شامل يلزم

الجميع بمواصلة الكفاح دون هوادة ودون توقف أو تـردد أو تراجـع مهمـا كـانت النتائج لتثبيت أسس التجربة الديمقراطية والإصرار على نجاحها، إذ لا مجال في تلـك الحالة للتراجع أو التهاون أو نفاذ الصبر لأن البديل عن التطبيق الديمقراطي في الحياة السياسية سيكون حتماً العودة الأكيدة للدكتاتورية والعنف الدموي.

وإذا تفحصنا الواقع العراقي ـ منذ بداية القرن العشرين وحتـى اليـوم ـ بنظـرة حيادية موضوعية فإننا نجد أن الحركة السياسـية العراقيـة علـى الرغـم مـن نضجهـا النظـري الظـاهر وتجربتهـا الكفاحيـة الغنيـة وتاريخهـا النضـالي الحـافل بـالأحداث والتطورات والتضحيـات إلا أن البـلاد تفتقـر واقعيـاً إلى التجربـة التطبيقيـة العمليـة الصحيحة في الممارسة الديمقراطية افتقاراً مريعاً.

فإذا استثنينا الفترة القصيرة جداً واليتيمة من الحياة البرلمانية الـتي سـبقت ثـورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨ وهـي فـترة مليئـة بالمخالفـات ومهـازل التـزوير والاسـتغلال البشع للجهل والأمية المنتشرة في البلاد ـ إذا استثنينا هذه الفترة فإن التاريخ العراقـي بأكمله يبدو أمامنا شريطاً مزدحماً بنشاط الدكتاتوريات المختلفة وأنظمة الاسـتبداد الدموية المتعاقبة بانتظام وتواصل.

كذلك فإن البلاد تفتقر أيضاً ـ وهو الأهم ـ إلى البحوث والدراسات العراقيـة الموضوعيـة العلميـة المحايدة والمقارنـة الـتي يمكـن اعتمادهـا في التعريـف والتثقيـف بالمفاهيم الأساسية للديمقراطية ومستلزماتها الضرورية وأسلوب تطبيقهـا في إطـار الواقع العراقي، لذلك فإن عملية تثقيـف واسـعة يتوجـب شـنها واعتمادهـا تشـمل المجتمع بأسره تنفـذ، في بادئ الأمر، على نحو مكثف وملزم على كافـة مسـتويات المجتمع العراقي من أجل التعريف بالمعاني الحقيقية للديمقراطية

إن فكر المواطن العراقي ـ رغـم توجهـه الفطـري للنبـوغ والإبـداع في كافـة الميادين ـ مشحون بحجم هائل من الأفكار والقناعـات المتخلفـة والخاطئـة والبالغـة الخطورة فيما يتعلق بعـدد كبـير مـن المفـاهيم العامـة السـائدة بـين النـاس في العـالم وبالذات ما يخص الإنسان والحريات العامة والحقوق المدنية المعاصرة للفرد والمواطن ومناهج الأنظمة الإدارية والسياسية الواجب قيامها وتطبيقهـا في إدارة حيـاة النـاس والمجتمع دون محسوبية والأهمية القصوى للالتزام بالنظام وخضوع جميع النـاس في البلاد للقوانين الموحدة النافذة، دون الضرورة لتملق الدولة أو الاندفاع الكاذب في

موالاتها. وقد لا يكون من المبالغة أن نقول أن تشويهاً مريعاً قد شمل جميع هذه المفاهيم في ذهن المواطن العراقي وأفكاره وخواطره.

ولعل الهدف الأساسي لعملية التثقيف المطلوبة والأهمية البالغة التي نعلقها على ضرورة نشر مفهوم الديمقراطية ومبادئها في الحرية هو محاولة إخراج المواطن العراقي من تقمص دور المخبر الذليل الخائف من السلطة والممسوخ في رأيه وفكره ووعيه وكيانه الشخصي والاعتباري والعمل بكل الوسائل على إعادته إلى ذاته الحرة المستقلة وشخصيته المتوازنة ودفعه للتمسك بمبادئ المواطنة وحقوقه الإنسانية الطبيعية كحرية الرأي والتعبير والحريات العامة الأخرى المعروفة في جميع أنحاء العالم المتمدن وفي مقدمتها حريته الشخصية وكرامته وحقوقه المنصوص عليها حرفياً بالدستور والقوانين وتلقينه ضرورة المطالبة الجريئة بها والنضال من أجل الحفاظ عليها.

إن عوامل وإمكانية توفير الثراء والرخاء والسعادة والحرية والتقدم السريع للشعب العراقي موجودة ومتوفرة بشكل أكيد وعلى نطاق واسع وذلك من خلال وجود الثروات الهائلة المتعددة المصادر في البلاد ووجود الشعب المتصف بالجدية والابتكار والإبداع الاستثنائي منذ فجر التاريخ. غير إن ذلك كله لا يمكن أن يتحقق بأي حال من الأحوال قبل توفير ثلاثة شروط أساسية:

- الاستقرار السياسي
- الحرية الحقيقية غير الموجهة.
- سيادة القانون والعدل.

لذلك ومن هذا المنطلق يتحتم على جميع البرامج الوطنية السياسية في العراق إيلاء هذه الحقائق الكبرى غير القابلة للتأجيل الأهمية القصوى في التنفيذ والتطبيق الفعلي الحقيقي غير المزيف.

إن مجموع التجارب الفاشلة والخسارات الفظيعة التي منيت بها البلاد بشرياً واقتصادياً وزمنياً ــ منذ منتصف القرن العشرين وحتى الآن. بسبب المناهج السياسية الفئوية والتطبيق القسري للبرامج المنحازة التي حاولت تجاوز هذه الحقائق / الاستقرار السياسي - الحرية غير الموجهة - سيادة القانون والعدل/ إن فشل تلك التجارب أصبح كافياً لإقناع الجميع بضرورة الاهتمام بهذه

الحقائق وتطبيقها على نحو صحيح وصادق كمقدمة حتمية لابد منها لتحقيق الرخاء والسعادة والتقدم وهي الأهداف الحيوية التي نادت بها جميع الأحزاب والكتل السياسية والقادة الوطنيون ووعدوا الشعب بها منذ أكثر من نصف قرن ملوحين بها للجماهير كوعود نظرية بقيت بعيدة عن التحقيق العملي بينما كان ما تحقق في أرض الواقع المزيد من الدكتاتوريات العسكرية المتعاقبة على الحكم في البلاد والمزيد من تعطيل القوانين وسيادة الأحكام العرفية والأبعاد الفعلي المتزايد للشعب عن أية مشاركة حقيقية في الحياة السياسية في البلاد والاتساع المتعاظم لدور المؤسسات الأمنية في الحياة العامة للوطن والمواطن.

كذلك لابد وأن نلاحظ أن أكثر المناهج إساءة للديمقراطية وتقاليدها الرائعة هو التطبيق المشوه المبتور والسيّء لها في بيئة غير مهيأة وغير مؤهلة نفسياً وثقافياً وسلوكياً وتاريخياً.

إن الإنسان العراقي بوضعه الراهن وقد توارث خمسة آلاف سنة من العنف الدموي والروح الدكتاتورية والسلوك الفردي التسلطي، وقبل أن يتعلم روح الديمقراطية وأسلوبها ويتدرب على تطبيق تقاليدها وقوانينها وكيفية ممارستها وكذلك شكل الكفاح من أجل صيانة حقوقه وحقوق الآخرين داخل نظامها وقبل أن يتلمس فوائد الحرية وانعكاساتها على حياته اليومية، هو عاجز عن ممارسة الديمقراطية بمعناها الصحيح أو الخضوع لقوانينها أو تقبل الانصياع لنتائجها.

أن أشد العراقيين مناداةً بالديمقراطية وأكثرهم التزاماً نظرياً بتطبيقها اليوم يمكن أن يتحول خلال بضعة دقائق من التحدي والمواجهة الحادة والنقاش المثير إلى وحش مفترس لا يتردد أن يمزق لحم محدثه من الرأي الآخر ويعاديه وينكل به بأقسى الأساليب الدكتاتورية وأكثرها تخلفاً وهمجية...

لقد عمقت الدكتاتوريات التي توالت على السلطة في العراق قديماً وحديثاً لدى المواطنين روح التبعية الفردية والتسلط والأنانية وعبادة الأشخاص والحكام والنزوع نحو العنف والخشونة والسلوك الذاتي البعيد عن الروح الجماعية كما شجعت لديه روح النميمة والوشاية والنفاق، وهي بذلك قد أضافت بعداً آخر من التخريب في الذات العراقية كانت قد تولته منذ قرون مجموعة العوامل التاريخية والجغرافية القديمة كما أسلفنا.

لذلك، حتى إذا توفرت الفرصة الطبيعية لإقامة الديمقراطية وأُفسح المجال أمام الشعب العراقي لممارسة الحياة الديمقراطية الحرة، فمن المرجح أن يمضي وقت طويل قبل أن يتدرب المواطن العراقي على منهج التفكير الحر وكيفية التعامل مع المفاهيم الديمقراطية وكيف يبتعد عن روح التفرد والبطش والعنف والتبعية والسلوك الكيدي الانتقامي والقبلية الظالمة والمنهج التسلطي ويمتنع عن السلوك المتّسم بالانفعال والانتقام وردات الفعل الفورية.

إن مثل هذا الأمر يجب أن يكون مدروساً ومحسوباً لدى السياسيين العراقيين والمعنيين بهذا الشأن لكي تعطىٰ التجربة الديمقراطية فرصة أكبر للنجاح والتغلب على الأخطاء والمشاكل الاعتراضية التي يمكن أن تبرز على نحو اسع وتخريبي ومفاجئ خلال التطبيق والممارسة العملية في المراحل الأولى..

ولعل هناك من يرى أن ممارسة الديمقراطية لا تحتاج إلى كل هذه الاحترازات والتعقيد والتدريب الذي نتحدث عنه، وأن الشعب يعرف مصلحته ويعرف أين يضع ثقته إلى آخره من العبارات والأحكام التي يمكن أن نصفها بالمتفائلة إذا أحسنّا الظن أو الملغومة إذا أردنا أن نستخدم بوصلة الحذر مما يمكن أن تضمره من نوايا مستقبلية خفية غير مقروءة.

ورداً على ذلك يمكن أن نقول أن خصوصية الإرث الدكتاتوري المتراكم فوق أرض الرافدين خلال أكثر من خمسين قرناً يمكن أن يقضي على أية تجربة ديمقراطية وليدة قد تنشأ في هذه البلاد ويجعل منها ريشة في مهب الريح إذا تركت تلك التجربة تحت رحمة الأخطاء والنواقص وغياب الخبرة والنزعة الدكتاتورية المحفورة عميقاً في الذات العراقية.

كذلك فإنه من غير اللائق على الحركة السياسية العراقية والمجتمع العراقي بأكمله ـ في الوقت الذي تودع البشرية فيه القرن العشرين بعد الميلاد ـ أن تبرز من جديد تلك الصور المخزية من التحريف والتزوير في الممارسة الديمقراطية مثلما كان يحصل في بدايات ما سمي بعهد الاستقلال الوطني في النصف الأول من هذا القرن على الرغم أن تلك الممارسات التحريفية المخجلة بدت لنا فيما بعد أفضل بكثير من كل ما حصل من انتهاكات دموية صارخة لحقوق الإنسان وحياته في العراق بعد سقوط النظام الملكي.

وعلى ضوء ذلك كله يمكننا القول أن من أولى واجبات إنجاح الديمقراطية وتوفير المناخ المناسب لتطبيقها هو تحويلها بقوة القانون إلى مادة تعليمية منهجية ملزمة تدرَّس للأجيال العراقية كعلم من علوم الحياة التطبيقية وعلى نحو جدي في مستويات التعليم المختلفة في كافة مدارس ومعاهد وجامعات العراق على أن يراعي اختيار ووضع المنهج التعليمي لهذه المادة الأخذ بعين الاعتبار الجانب التطبيقي والتمرين العملي على كيفية فهم وتقبل وجود الرأي الآخر وحرية الآخرين إضافة إلى ذلك فإن المستلزمات الضرورية التي تقود إلى نجاح الديمقراطية أيضاً كمنهج سياسي في حياة البلاد هو العمل الجاد من خلال مجموعة من القوانين والقرارات العملية لتحقيق استقلال القضاء وتمتعه بالحرية الحقيقية وعدم المساس به ورفع مستواه العلمي والإداري والفني ولجم كل المحاولات للتطاول على قراراته أو الالتفاف عليه ، كذلك تزويده بالصلاحيات الواسعة النافذة وتحويله إلى درع حقيقي لحماية القوانين والحريات العامة.

إن السير الجدي في هذا الطريق سيدفع المجتمع بأكمله للسير في طريق الحياة المدنية المستقرة والآمنة في ظل القوانين النافذة وهو وحده الكفيل بإعادة الحياة إلى الرأي العام في البلاد وإعادة النشاط والفعالية الحقيقية إليه، لأنه يمثل أحد الضمانات الأكيدة والبالغة الخطورة في مسيرة الحياة المدنية التي هي المناخ الضروري لنمو الديمقراطية وتطبيقها.

إن مجتمعاً يفتقد للرأي العام الحر الشجاع المستقل يمكن أن يتحول بالتدريج إلى مجموعة من المخبرين الذين يتسابقون في إيذاء بعضهم البعض، وإيذاء القيم الأخلاقية والاجتماعية من أجل إرضاء ساطور الدكتاتورية المسلط فوق رؤوسهم جميعاً...، أما في أحسن الأحوال، فإن مثل هذا المجتمع سيتحول إلى مجموعة من الإمعّات فاقدي الرأي والشخصية والموقف تقودهم السلطة الدكتاتورية إلى حيثما تشاء من المهالك والمآزق المصيرية المدمرة...

وإذا كان لابد من تلخيص مكثف للنقاط والمواضيع آنفة الذكر الخاصة بالحلول الواقعية الكفيلة بإخراج العراق من دوامة العنف الدموي والنظم الدكتاتورية ـ على ضوء التحليل السابق والاستعراض العام للوقائع التي تشكل

التركة الهائلة من أحداث العنف الدموي ومسيرة الدكتاتوريات المتعاقبة والاضطهاد والظلم وسفك الدماء فبإمكاننا أن ندرج النقاط التالية:

١ـ اعتماد الديمقراطية كنظام للحكم السياسي وكأسلوب ومنهج لحياة الشعب العراقي سياسياً واجتماعياً ولا يمكن تطبيق الديمقراطية في العراق في الظروف الراهنة إلا بعد توفير عدد من الشروط أهمها:

أ ـ تثقيف الشعب العراقي وتربيته على الروح الديمقراطية ليستطيع تقبل المنهج الديمقراطي في الحياة بعد أن اعتاد على الفردية والدكتاتورية ومنهج التسلط لقرون عديدة من تاريخه.

ب ـ القيام بحملة توعية ثقافية واسعة وطويلة الأمد للتأثير على قناعات الفرد العراقي والشارع العراقي وتبديلها كي يكون مؤهلاً لتقبل الحلول الديمقراطية على كافة الأصعدة الحياتية ويبتعد عن أسلوب الانقلاب عليها والعودة للمنهج الفردي التسلطي.

ج ـ إقرار خطة عامة تعليمية تربوية تشارك فيها مؤسسات الدولة ووزاراتها المعنية لنشر الوعي الديمقراطي في المجتمع وإدخال ذلك ضمن مناهج التربية والتعليم الإلزامية المقرة رسمياً

٢ـ إعادة إحياء الرأي العام العراقي الحر الذي سحق ومات وتلاشى تأثيره تحت سياط الخوف والرعب وضربات الدكتاتوريات المتعاقبة، ليكون سنداً وداعماً للعملية الديمقراطية المنتظرة ومن الممكن وضع خطة تفصيلية تنفيذية لإنجاز وتحقيق هدف إنهاض الرأي العام العراقي وإعادة وجوده وكيانه وشخصيته وفعاليته السياسية والاجتماعية خلال فترة قصيرة في إطار الحريات العامة.

٣ـ إقرار خطة جريئة تُطبّق بواسطة إجراءات تنفيذية حازمة لتعزيز وتقوية السلطة القضائية بكل أبعادها ومفاهيمها والارتقاء بها إلى مستوى رفيع (إدارياً ومالياً وإجرائياً) وإعطائها الحرية الكاملة والصلاحيات الواسعة الحقيقية لتكون قادرة ليس على الدفاع عن القوانين وحماية حقوق المواطن وحياته فحسب بل لتشكل ضمانة فعلية لحماية الحريات العامة والحقوق المدنية والسياسية وصيانة

النهج الديمقراطي عموماً في البلاد. ولتشكل عائقاً حقيقياً وواقعياً أمام عودة الدكتاتورية الدموية للحكم. وفي ذات الوقت تبقى ملجأً آمناً وحيادياً يحمي المواطن ويصون حريته الشخصية والسياسية والاقتصادية من الاعتداء والاغتصاب والتجاوزات خصوصاً في المراحل الأولى ريثما يتفتح وعي المواطن وتنطلق شجاعته المكبوتة والمسحوقة ليتوجه نحو التشبث بحقوقه المدنية التي يصونها القانون والدستور ولا يتنازل عنها أو يتخلى عن المطالبة بها والقتال من أجلها وعند ذاك يتحول بمجموع أفراد الشعب إلى قوة ردع حقيقية مرعبة ضد من يريد التطاول على حقوقه.

إن إيصال المواطن إلى هذا المستوى من الوعي والالتزام الاجتماعي الفعلي بحقوقه المدنية يعني أن الدولة قد استطاعت توفير السلاح والحماية الأقوى والأمضى في مواجهة كافة النزعات الدكتاتورية على كل المستويات وأوجدت الضمانة الأكيدة لحماية الشعب من العودة لمنهج العنف الدموي وردات الفعل الهمجية التي هي المقدمات الأولى لإشاعة المناهج الدكتاتورية من جديد.

إن إنجاز مثل هذه النقاط الأساسية، آنفة الذكر والكفيلة بنقل البلاد من حالة إلى أخرى وفق منهج فكري سياسي استراتيجي يهدف لتطبيق الديمقراطية (النظرية العالمية ذات الأبعاد والمواصفات المعروفة) قد يتطلب في العراق فترة زمنية انتقالية قصيرة يحدد زمانها مسبقاً على أن يتم خلالها إنجاز كل متطلبات نقل حالة البلاد والمجتمع والسلطات بالكامل إلى عصر الديمقراطية الحقيقية المرتكزة على:

أ ـ دستور دائم يصون الحريات بكل أشكالها ومستوياتها على أن يحمى هذا الدستور في المرحلة الأولى على الأقل من حياة البلاد الديمقراطية، بمواثيق مقرّة ومكتوبة وموقعة من جميع الهيئات والشخصيات ذات الشأن في البلاد تحت إشراف دولي محايد منعاً للانقضاض والانقلاب عليه.

ب ـ سلطات قضائية حرة وذات نفوذ فعّال وقوة إجرائية حقيقية نافذة مستندة إلى القوانين التي يؤكدها ويحميها الدستور الدائم.

ج ـ برلمان ديمقراطي حر منتخب.

د ـ مواطن حر وشجاع واع لحقوقه تحميه القوانين النافذة والسلطات القضائية الحرة.

هـ ـ رأي عام عراقي شجاع ذو سلطة مؤثرة وفعّالة يستمد قوته من الوسائل الديمقراطية المشروعة والمعروفة والمنفذة في جميع بلدان العالم / الصحافة ـ الإعلام الحر ـ التنظيمات النقابية الحرة ـ الحريات العامة في التظاهر والاحتجاج والإضراب... الخ/

لعل هذا هو ما يشكل الأساس العملي والواقعي لحل المعضلة العراقية المعقدة القائمة في البلاد على صعيد إدارة الحكم والسلطة. أما المشاكل والمواضيع الأخرى الفرعية فيصبح من السهل جداً تنظيمها بخطط وتشريعات خاصة تعرض على المؤسسات الدستورية الشرعية ذات الاختصاص لإقرارها وإعطائها الصفة القانونية.

يبقى أن نذكر أخيراً بأن ما يمكن أن يظهر للوجود من أخطاء ونواقص ومخالفات أو تجاوزات قليلة أو كثيرة خلال التطبيق العملي للديمقراطية في البلاد سيبقى أخف وأرحم بما لا يقاس عن ذلك الهدر اليومي للدماء وللكرامة الإنسانية التي يعيشها الإنسان العراقي في ظل المأساة المحزنة التي كانت وما زالت تدور بالعراق دون توقف منذ خمسة آلاف سنة وحتى اليوم.

مصادر البحث

١ ـ د. حامد عبدالسلام زهران، علم النفس الاجتماعي، عالم الكتب ، الكويت.
٢ ارنولد توينبي، تاريخ البشرية، ج/١، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت.
٣ ـ د. أحمد داوود، تاريخ سوريا القديم.
٤ فيليب حتي ، خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى، جزءان،، الدار المتحدة، بيروت
٥ عبدالحكيم ذنون، تاريخ القانون في العراق، دار علاء الدين، دمشق.
٦ د.ثروت عكاشة، الفن العراقي القديم، المؤسسة العامة للدراسات والنشر، بيروت.
٧ د. عبيد مرعي، تاريخ بلاد الرافدين، دار الأبجدية للنشر، دمشق.
٨ ـ بدر شاكر السياب، الاعمال الكاملة، دار العودة، بيروت.
٩ ـ هارفي بورتر، موسوعة مختصر التاريخ القديم، مكتبة مدبولي، القاهرة.
١٠ ـ العقيد محمد أسد الله، الاسكندر المقدوني الكبير، أعلام العرب، دار النفائس، بيروت.
١١ ـ د. عمر فرّوخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت.
١٢ ـ روم لاندو، الإسلام والعرب، دار العلم للملايين، بيروت،٢-١٩٥,
١٣ ـ د. سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضةالعربية، بيروت.
١٤ ـ د. فيليب حتي ومجموعة باحثين، تاريخ العرب، دار غندور للطباعة والنشر، بيروت.
١٥ ـ د. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي/ العصر الجاهلي، د [illegible]، مصر.
١٦ ـ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، دار الثقافة، بيروت.
١٧ ـ ميخائيل إسماعيل أسعد، علم الاضطرابات السلوكية، مؤسسة [illegible]، دمشق.
١٨ ـ احمد عادل كمال، سقوط المدائن ونهاية الدولة الساسانية، دار النفائس، بيروت.
١٩ ـ ابن كثير، البداية والنهاية ، ١١ جزء، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٠ ـ الطبري، تاريخ الطبري، ٦ أجزاء، دار التراث، بيروت.
٢١ السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد
٢٢ ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار إحياء التراث العربي، بيروت
٢٣ د. شوقي ضيف، تاريخ الادب العربي/ العصر الإسلامي، مكتبة المعارف، مصر
٢٤ عبدالمنعم حفني، موسوعة الطب النفسي، مجلدان، مكتبة مدبولي، القاهرة.

٢٥ ـ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٨ أجزاء، دار صادر، بيروت.
٢٦ ـ ابو الفرج الاصفهاني ، الأغاني ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٧ ـ د. إبراهيم أيوب، التاريخ العباسي السياسي والحضاري، الشركة العالمية للكتاب، بيروت.
٢٨ ـ العميد الركن نزار البوسعيد، رجل وإمبراطوريتان، دمشق.
٢٩ ـ ابن رشيق القيرواني، العمدة، مطبعة دار المعرفة، بيروت.
٣٠ ـ د. محمد أحمد عبد المولى، العيارون والشطار البغاددة في التاريخ العباسي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية.
٣١ ابن المعتز، طبقات الشعراء، دار المعارف بمصر.
٣٢ ـ المرزباني، معجم الشعراء ، دار إحياء الكتاب العربي، بيروت
٣٣ ـ الفيروز أبادي، القاموس المحيط، عالم الكتب، بيروت.
٣٤ ـ ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت.
٣٥ ـ الاستاذ احمد حسن بسج، ديوان ابن الرومي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٦ ـ د. صالح أحمد العلي ومجموعة من الباحثين، العراق في التاريخ، مطبعة دار الحرية، بغداد.
٣٧ ـ ستيفن لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط، مطبعة أركان، بغداد.
٣٨ ـ د. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ٦ أجزاء، دار كوفان ، لندن.
٣٩ ـ د. جورج حبيب، اليزيدية بقايا دين قديم، دار بترا، دمشق.
٤٠ ـ عبد الرحمن البزاز، العراق من الاحتلال إلى الاستقلال، ط٤، دار البراق، دمشق، ١٩٩٧
٤١ ـ د. محمد مظفر الأدهمي، الملك فيصل الأول ـ دراسة وثائقية في حياته السياسية وظروف مماته الغامضة، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩١ ، بغداد
٤٢ ـ سليم الحسني، رؤساء العراق ١٩٢٠ـ ١٩٥٨، دار الحكمة، لندن، ١٩٩٢
٤٣ د. محمد حسين الزبيدي، الملك غازي ومرافقوه، بغداد، ١٩٨٩
٤٤ ـ وليد الأعظمي، انتفاضة رشيد عالي الكيلاني، المكتبة الوطنية، بغداد، ١٩٨٧
٤٥ ـ حنا بطاطو، العراق ـ ج٢، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٩٢.
٤٦ ـ الدكتور فالح حنظل، أسرار مقتل العائلة المالكة في العراق ١٤ تموز ١٩٥٨
٤٧ ـ فيصل حسون، مصرع المشير الركن عبد السلام عارف هل كان نتيجة مؤامرة؟ أم من صنع القضاء والقدر، دار الحكمة، لندن، ١٩٩٥
٤٨ ـ احمد فوزي، أين الحقيقة في مصرع عبدالكريم قاسم، مطبعة الديواني، بغداد.

٤٩ ـ د. اسعد رؤوف ومراجعـة عبـد ا لله عبـد الدايـم، موسـوعة علـم النفـس، المؤسسة للدراسات والنشر، بيروت.
٥٠ ـ العميد المتقاعد خليل إبراهيم حسن، الصراع بين عبد الكريم قاسم والشـيوعيين، د للطباعة، بغداد، ١٩٨٩
٥١ ـ د. علي الوردي، طبيعة المجتمع العراقي.
٥٢ ـ د. محمد صادق زلزلة، قصص الأمثال العامية، ٣ مجلدات، دار الجيل، بيروت.